موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول: القرآن

المجلد الأول

ج١

تحت إشراف نخبة من كبار العلماء

موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول: القرآن

المجلد الأول

ج ١

الشبهات التي تولَّى القرآن الردَّ عليها

إعـداد
نخبـة من كبـار العلمـاء

دار نهضة مصر للنشر

العنوان:

موسوعة بيان الإسلام
الرد على الافتراءات والشبهات
القسم الأول: القرآن
المجلد الأول (ج١)

إعداد:

نخبة من كبار العلماء

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 977-14-4434-4
رقم الإيداع: 2011/17886
الطبعة الأولى: يناير 2012

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

دار نهضة مصر للنشر
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

هيئة أمناء الموسوعة

أ. د/ محمد الأحمدي أبو النور (وزير الأوقاف المصري الأسبق)

أ. د/ أحمد عمر هاشم (رئيس جامعة الأزهر الأسبق)

أ. د/ عبد الله عبد العزيز المصلح (الأمين العام للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمكة المكرمة)

أ. د/ نبيل السمالوطي (أستاذ علم الاجتماع - جامعة الأزهر)

أ. د/ محمد محمد داود (أستاذ علم اللغة - جامعة قناة السويس)

رؤساء الأقسام العلمية

قسم العقيدة الإسلامية

أ. د/ محمد ربيع الجوهري

أ. د/ عبد الحميد عبد المنعم مدكور

أ. د/ محمد السيد الجليند

أ. د/ عبد الله عبد الحميد سمك

قسم القرآن وعلومه

أ. د/ أحمد يوسف سليمان

أ. د/ محمد إبراهيم شريف

قسم اللغة

أ. د/ محمد كمال بشر

أ. د/ عبد الصبور شاهين

أ. د/ محمد محمد داود

قسم الترجمة

أ/ أسماء زغلول

قسم الشريعة الإسلامية

أ. د/ عبد المجيد محمود

أ. د/ محمد نبيل غنايم

قسم الحديث وعلومه

أ. د/ محمد الأحمدي أبو النور

أ. د/ أحمد عمر هاشم

قسم التاريخ الإسلامي

أ. د/ يسري أحمد زيدان

أ. د/ عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح

فريق العمل

المشرف العام ورئيس التحرير: أ. د/ محمد محمد داود

أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بكلية الآداب - جامعة قناة السويس

المنسق العام : د. جمال فوزي محمد عمار

قسم التاريخ الإسلامي - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

أ. صفوت علي صالح

باحث دكتوراه في علم اللغة التطبيقي - جامعة لانكستر

أ. المراجعون

الاسم	المؤهل
أ. د/ أحمد قوشتي عبد الرحيم	أستاذ مساعد بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
د/ أمير فتوح عبد العليم	مدرس بقسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
د/ تامر عبد الحميد أنيس	مدرس بقسم النحو بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
أ. د/ جمال فاروق جبريل	أستاذ العقيدة بجامعة الأزهر
د/ حبيب الله حسن أحمد	مدرس العقيدة بكلية الدعوة - جامعة الأزهر
أ. د/ حسين عبد الغني سمرة	أستاذ ورئيس قسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
د/ خالد فؤاد السيد أبو العلا	مدرس بقسم الشريعة الإسلامية بكلية دارالعلوم - جامعة القاهرة
أ. د/ عبد الفتاح أبو الفتوح	أستاذ علم اللغة بجامعة الأزهر
د/ علي عبد القادر عثمان	مدرس بقسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
د/ فوزي عبد الرازق عبد القادر	مدرس بقسم النحو بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
د/ محمد سلامة أبو خليفة	مدرس بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
أ. د/ محمد صالح توفيق	عميد كلية دار العلوم - جامعة القاهرة
د/ محمد علي دبور	مدرس بقسم التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
أ. د/ محمد متولي منصور	أستاذ علم اللغة المساعد بجامعة الأزهر

د/ محمد محمد حسن	مدرس بقسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
أ. د/ محمود محمد عمارة	عميد كلية أصول الدين الأسبق
أ. د/ مريم إبراهيم هندي	أستاذ مساعد بقسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
د/ هاشم عبد الراضي محمد	مدرس بقسم التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

ب- المحررون

أحمد حسن شحاتة شحاتة	معيد بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
أحمد حمودة موسى محمد	مدرس مساعد بقسم النحو بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
أحمد عطية صابر	معيد بقسم علم اللغة بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
أحمد محمود محمد	مدرس مساعد بقسم التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
أيمن عيد السيد السعدني	باحث ماجستير بقسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
جمال عبد النعيم عبد الحافظ حمودة	مدرس مساعد بقسم النحو بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
جمعة محمد جمعة الوديني	باحث ماجستير بقسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
خالد فراج ميزار	باحث ماجستير بقسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
سيد جمال حسن علي	معيد بقسم النحو بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
عاصم غريب حسين عبد العظيم	ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة
عبد الرحمن ربيع سيد محمد	معيد بقسم النحو بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
عبد الرحمن عبد الحميد هنداوي	معيد بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
عبد الرزاق محمد عبد الرحمن	معيد بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
عرفة حلمي كامل عبد الرازق	مدرس مساعد بقسم علم اللغة بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
عصام عبد العزيز عبد الله رضوان	ليسانس اللغة العربية - جامعة الأزهر
علاء محمد مصطفى الباز	باحث دكتوراه بقسم البلاغة والنقد الأدبي بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
علي عبد الفتاح محمد عبده	مدرس مساعد بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
كامل محمد أنور سعيد	باحث دكتوراه بقسم علم اللغة بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
محمد أحمد عبد السلام السنوطي	ليسانس الدعوة الإسلامية - جامعة الأزهر
محمد محمد فايد	مدرس بقسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
محمد مجاهد مهدي حسن	ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة
محمد محمد عمر دنش	معيد بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

محمود أحمد جبر الطبلاوي	باحث ماجستير بقسم النحو بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
مراد علي تدغوت	باحث دكتوراه في علم الحديث بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
مصطفى محمد حسين	مدرس مساعد بقسم التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
ممدوح رمضان أحمد	مدرس مساعد بقسم التاريخ الإسلامي بكلية دارالعلوم - جامعة القاهرة
منصور سعد السحيمي	دكتوراه في علم اللغة من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة
هاني صبري أحمد إمبابي	باحث ماجستير بقسم النحو بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
هاني مسعود طه مناوي	ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة
هشام زغلول عبد الفتاح علي	باحث ماجستير بقسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
وليد محمود خير الله	مدرس مساعد بقسم النحو بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
يوسف محمد يوسف السيد الشافعي	مدرس مساعد بقسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

ج. الباحثون

أحمد عبد الحميد أمين هيكل	ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة
أكرم إبراهيم عبد العال حمودة	ليسانس الآداب من قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة القاهرة
رامي السيد عفيفي إبراهيم	ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة
ربيع فراج ميزار	ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة
رضا جمعة سعد حسن	باحث ماجستير بقسم الشريعة بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
عيد محمد ذكي محمد	ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة
محروس عبد الكريم محمود مبروك	ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة
محمود عبد الوهاب أحمد على	ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة

د. مساعدو الباحثين

أحمد عبد العظيم عبد السلام	ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة
سامح محمد الشامي	ليسانس الآداب من قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة القاهرة
سليمان محمد محمد سليمان عيسى	ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة
عبد الحميد عبد المجيد محمد قشطة	ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة
عرفان عبد الدايم أحمد	باحث ماجستير بقسم النحو بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
عيد صبحي خالد	باحث ماجستير بقسم النحو بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

ماهر محمد الحوفي	ليسانس دار العلوم ـ جامعة القاهرة
مبروك يونس عبد الرؤوف	باحث ماجستير بقسم النحو بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة
محمد إبراهيم إمام محمد	ليسانس دار العلوم ـ جامعة القاهرة
محمود رجب إسماعيل عبد الباسط	ليسانس الآداب والتربية، قسم اللغة العربية ـ جامعة جنوب الوادي
محمود محمد عبد الحميد	ليسانس دار العلوم ـ جامعة القاهرة
مصطفى فؤاد مسعود	ليسانس دار العلوم ـ جامعة القاهرة
نرمين محمود محمد علي	باحثة ماجستير بقسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

هـ. الصف على الحاسب

أحمد عبد العزيز رضوان	ليسانس دار العلوم ـ جامعة القاهرة
أحمد محمد محمد إمام	بكالوريوس نظم ومعلومات إدارية
تسنيم مجدي محمود	ليسانس دار العلوم ـ جامعة القاهرة
دعاء محمد محمود عبد الباسط	معهد فني تجاري
رضوى عيد عبد الجواد محمد	المعهد العالي للدراسات التعاونية
عادل علي علي محمد غضنفر	أخصائي برمجة آلية
محمود محمد محمد إمام	بكالوريوس إدارة صناعية

و. حسابات وسكرتارية

طارق سعيد محمد حيدر	بكالوريوس تجارة ـ جامعة القاهرة.
منى محمد المهدي	ليسانس الآداب، قسم الجغرافيا ـ جامعة القاهرة.

ز. مكتبة

إسماعيل مصطفى حسين	ليسانس آداب، قسم وثائق ومكتبات ـ جامعة القاهرة.

المحتويات

هيئة أمناء الموسوعة ١

فريق العمل ٢

المحتويات ٧

مقدمة المشرف العام على الموسوعة ١٥

قالوا عن الموسوعة ٣٧

المقدمة العامة لموسوعة القرآن ٤٥

منهجُ القرآن الكريم في الرَّدِّ على المخالفين ٥٣

المحور الأول

شبهات وافتراءات على الله ﷻ

أولا: شبهات تتعلق بقضية الألوهية والوحدانية

- الشبهة الأولى ٧٣

دعوى اتِّخاذ الله ﷻ الولدَ

- الشبهة الثانية ٧٦

دعوى أن الملائكةَ بناتُ الله ﷻ

- الشبهة الثالثة ٨٢

دعوى أن في ضرب الله الأمثال بالشيء المُحتقَر كالبعوضة والذباب منقصة من قدره

- الشبهة الرابعة ٨٧

ادِّعاء أنَّ بين الله والجِنَّة نسبًا

- الشبهة الخامسة ٨٨

إنكار تفرد الله ﷻ بالألوهية والوحدانية

- الشبهة السادسة ٩٧

الزعم أن الله ﷻ هو المسيح ابن مريم

- الشبهة السابعة ١٠٢

إنكارُ البعث والمَعاد وإحياء الخلق يوم القيامة مرةً أخرى واعتبارُ ذلك أسطورةً وسحرًا

- الشبهة الثامنة ١١١

ادِّعاء أن الأصنام والأوثان آلهة تشفع عند الله ﷻ وتقرِّب إليه

- الشبهة التاسعة ١١٤

دعوى ألوهيَّة العِجْل

- الشبهة العاشرة ١٢٠

ادعاء النَّمروذ بن كنعان أنه يستطيع الإحياء والإماتة

- الشبهة الحادية عشرة ١٢٣

الاحتجاج بالقَدَر على الإشراك بالله وعدم الهداية

ثانيًا: افتراءات وشبهات على الله ﷻ في غير قضية الألوهية

- الشبهة الثانية عشرة ١٢٦

ادِّعاء اليهود أن الله ﷻ فقير وبخيل وهم أغنياء

- الشبهة الثالثة عشرة ١٣٠

فِرْيَة أن الله يأمر بالفحشاء

- الشبهة الرابعة عشرة ١٣٤

زعم اليهود والنصارى أنهم أبناء الله ﷻ وأحباؤه

- الشبهة الخامسة عشرة ١٣٦

دعوى اليهود أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس

- الشبهة السادسة عشرة ١٣٨

دعوى أن النار لن تمسَّ اليهود والنصارى إلا أيامًا معدودة

- الشبهة السابعة عشرة ١٤٠

دعوى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على مِلَّة اليهود أو النصارى

المحور الثاني

التشكيك في القرآن الكريم

- الشبهة الثامنة عشرة ١٤٣

استنكار إنزال القرآن مُنَجَّمًا وعدم إنزاله جُملةً واحدة

- الشبهة التاسعة عشرة ١٤٥

دعوى اختلاف القرآن في أحكامه وتناقض معانيه

- الشبهة العشرون ١٤٧

دعوى أن القرآن سحرٌ مبين أتى به محمد ﷺ

- الشبهة الحادية والعشرون ١٥١

دعوى أن القرآن أساطير الأولين وقصص السابقين

- الشبهة الثانية والعشرون ١٥٤

دعوى أن ما جاء به محمد ﷺ ما هو إلا شعر وأضغاث أحلام وما هو إلا شاعر أو كاهن

- الشبهة الثالثة والعشرون ١٥٦

دعوى أن القرآن افتراه محمدٌ ﷺ من عند نفسه

- الشبهة الرابعة والعشرون ١٦٨

دعوى أن محمداً ﷺ تعلّم القرآن من رجل أعجمي

- الشبهة الخامسة والعشرون ١٧٠

دعوى اليهود أنه يكفيهم الإيمان بما أنزل عليهم، ولا يضرهم الكفر بغيره

- الشبهة السادسة والعشرون ١٧٥

الزعم أن كتابَ أهل الكتاب خيرُ الكتب، ونبيَّهم خيرُ الأنبياء

- الشبهة السابعة والعشرون ١٧٦

دعوى استطاعة الإتيان بمثل القرآن

- الشبهة الثامنة والعشرون ١٧٩

دعوى أن القرآن لو كان خيرًا ما سبق إلى الإيمان به العبيد والإماء والمستضعفون

المحور الثَّالث

شبهات تتعلق بالتشريعات و الأوامر

أولا : شبهات تتعلق بالاعتراض على تشريعات الله ﷻ

- الشبهة التاسعة والعشرون ١٨٢

دعوى أن البيع مثل الربا

- الشبهة الثلاثون ١٩٩

دعوى اليهود استحالة وقوع النسخ عقلا ونقلا وإنكارهم لجوازه

- الشبهة الحادية والثلاثون ٢٠٦

استنكار تحويل القبلة

- الشبهة الثانية والثلاثون ٢٠٩

الاحتجاج بفتنة النساء للقعود عن الجهاد

- الشبهة الثالثة والثلاثون ٢١١

استنكار النهي عن التطفيف أو البخس لأن الأموال ملك الأفراد يفعلون فيها ما يشاءون

ثانيًا. شبهات تتعلّق بالاعتراض على أوامر الله ﷻ

- الشبهة الرابعة والثلاثون ٢١٥

دعوى أن خيريَّة إبليس على آدم في الخلق تمنعه من السجود له

- الشبهة الخامسة والثلاثون ٢١٧

استنكار الإنفاق على الفقراء لأن الله لو شاء لأطعمهم

ثالثًا. مزاعم جاهليَّة باطلة

- الشبهة السادسة والثلاثون ٢١٩

دعوى أن الأولاد يجلبون الفقر والإملاق على آبائهم

- الشبهة السابعة والثلاثون ٢٢٢

ادّعاء أن ما في بطون الأنعام خالص للذكور ومحرم على الإناث

المحور الرَّابع

شبهات تتعلّق بقضية الإيمان والكفر

- الشبهة الثامنة والثلاثون ٢٢٥

دعوى المنافقين أن المؤمنين بالرَّسول ﷺ سُفهاء

- الشبهة التاسعة والثلاثون ٢٢٦

دعوى كفار مكة أن الإيمان بمحمد ﷺ يَتْبَعُه عدمُ الأمان

- الشبهة الأربعون ٢٣٠

دعوى أن الهُدَى في اتِّباع ما عليه اليهود والنصارى

- الشبهة الحادية والأربعون ٢٣٢

ادعاء اليهود أن الكافرين أهدى سبيلا من المؤمنين

- الشبهة الثانية والأر بعون ٢٣٤

دعوى أن اتباع الأرذلين للرسل يعوق إيمانَ الناس بهم

- الشبهة الثالثة والأربعون ٢٣٧

دعوى أن رَغَد العيش وسَعَة المنازل دليلٌ على صحَّة الدين والمعتقد ورضا الرب ﷻ

- الشبهة الرابعة والأربعون ٢٤٢

دعوى أن النِّفاق والمداراة بين المؤمنين والكافرين هو عيْن الإصلاح

- الشبهة الخامسة والأربعون ٢٤٥

دعوى الاكتفاء بما كان عليه الآباء والأسلاف من معتقدات وعبادة ولا حاجة لمعتقدات أو شعائر جديدة

- الشبهة السادسة والأربعون ٢٤٧

ادِّعاء اليهود أن عدم إيمانهم برسالة محمد ﷺ، سببه نزول جبريل عليه السلام بها

- الشبهة السابعة والأربعون ٢٥٠

ادّعاء أن سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام أفضلُ من الإيمان بالله والجهاد في سبيله

- الشبهة الثامنة والأربعون ٢٥٣

دعوى تعليق الإيمان على رؤية الله علانيةً

المحور الخامس

شبهات تتعلق بالأنبياء والرسل

أولا. شبهات عامَّة في حقِّ الأنبياء والرُّسل جميعًا

- الشبهة التاسعة والأربعون ٢٥٦

دعوى تعليق الإيمان بما جاء به النبي ﷺ حتى يُنزِّل آيات من السماء

- الشـبهة الخمسون ٢٦٢

دعوى تعليق الإيمان بالرسل حتى يتحقق ما وعدوا به من العذاب وقيام الساعة

- الشبهة الحادية والخمسون ٢٦٥

تعليق الإيمان بالرَّسول ﷺ حتى يأتي بقربانٍ تأكله النَّار

- الشبهة الثانية والخمسون ٢٦٧

دعوى أن عدم الإتيان بالآباء الموتى دليلٌ على كذب الرُّسل

- الشبهة الثالثة والخمسون ٢٦٩

ادعاء المشركين أن سبب امتناعهم عن الإيمان هو عدم مجيء رسول لهم

- الشبهة الرابعة والخمسون ٢٧١

دعوى التشاؤم والتطيُّر من الرُّسل وأتباعهم ودعوتهم

- الشبهة الخامسة و الخمسون ٢٧٥

اتِّهام الأنبياء والرُّسل بالجنون والسِّحْر والكذب والافتراء

- الشبهة السادسة والخمسون ٢٧٧

دعوى الإيمان ببعض الأنبياء والكفر ببعضهم

- الشبهة السابعة والخمسون ٢٨٠

إنكار بشريَّة الرَّسول ﷺ والتَّعجُّب من إرسال رسول من البشر

ثانيًا. شبهات خاصَّة بأنبياء بعينهم

١. إبراهيم عليه السلام

- الشبهة الثامنة والخمسون ٢٨٣

دعوَى أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًّا أو نصرانيًّا وكذلك أبناؤه

٢. موسى عليه السلام

- الشبهة التاسعة والخمسون ٢٨٧

اتهام موسى وهارون عليهما السلام بالسحر

٣. عيسى عليه السلام

- الشبهة الستون ٢٨٩

دعوى قتل المسيح عليه السلام

- الشبهة الحادية والستون ٢٩٥

دعوى أن المسيح وأمّه إلهان مع الله عز وجل

- الشبهة الثانية والستون ٢٩٨

اتِّهام مريم عليها السلام بالزِّنا

٤. محمد ﷺ

- الشبهة الثالثة والستون ٣٠٠

إنكار رسالة محمد ﷺ وبعثته

- الشبهة الرابعة والستون ٣٠٢

اتِّهام النبي ﷺ بأنه ساحر

- الشبهة الخامسة والستون ٣٠٥

اتهام النبي ﷺ بالجنون

- الشبهة السادسة والستون ٣٠٦

دعوى أن محمداً ﷺ وأصحابه يستحلُّون القتال في الأشهر الحُرُم

- الشبهة السابعة والستون ٣١٣

ادعاء أن النبي ﷺ أُذُنٌ يصدِّق كل ما يقال له

- الشبهة الثامنة والستون ٣١٥

دعوى أن الله عز وجل هجر نَبِيَّه ﷺ وقلاه

- الشبهة التاسعة والستون ٣٢١

دعوى أن النسخ يبين افتراء الرسول ﷺ

• الشبهة السبعون ٣٢٦

إنكار إنزال الكتب من السماء، وإنكار الوحي والرسالة

• الشبهة الحادية والسبعون ٣٢٨

زعم اليهود أن سبب عدم إيمانهم بالنبي ﷺ هو كون قلوبهم غُلْفًا

• الشبهة الثانية والسبعون ٣٣٠

استنكار اختصاص الرسول ﷺ بإنزال الذِّكر عليه من بين النَّاس

المصادر والمراجع ٣٣٣

مقدمة المشرف العام على الموسوعة

أ. د/ محمد محمد داود

الدين والإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبي الله ورسوله سيدنا محمد، رحمة الله للعالمين، وبعد:

فبيان الحقائق ـ بالأدلة الصحيحة والحجج المنطقية ـ مهمة سامية، ينهض لها العلماء وأهل الفكر؛ دعمًا للحوار الإيجابي بين الأفكار والآراء والعقائد، وتقويةً لمساحة الودِّ والتآلف والأخوَّة بين أهل الإيمان من كل دين، وتجليةً للمشترك الإنساني العام الذي تلتقي عنده الأديان السماوية.

ولقد أكد الباحثون والعلماء حقيقة مهمة، وهي أن الأديان السماوية اجتمعت عند جملة من الحقائق، أهمها:

الدين هاديًا للإنسان:

جاء الدين هاديًا للإنسان: لعقله وقلبه، وعونًا من الخالق للمخلوق؛ ليُعَرِّفَه بحقيقته وحقيقة ما حوله من مخلوقات، ومنزلته بين هذه المخلوقات، وتحديد دوره في هذه الحياة، وتبصرة الإنسان بأن من وراء هذه الحياة الدنيا الفانية حياة باقية هي حياة الآخرة، فيها الجزاء والثواب والعقاب، فيها تحقيق العدل بين الخلائق.

ومقاصد الشريعة الخمسة في الإسلام خير مثال لذلك، فقد حرص الإسلام كُلَّ الحرص على حفظ ما يُعْرَفُ بالكليات الخمس: حِفْظ النَّفْس، وشُرِعَ لهذا الغرض القِصاصُ، وحِفظ الدِّين، ولهذا شُرِعَ حَدُّ الرِّدَّة، وحِفظ العقل الذي شُرِعَ له حَدُّ الخمر، وحِفظ النَّسْل وله شُرِعَ حَدُّ الزِّنا، وحِفظ المال، ومن أجله شُرِعَ حَدُّ السَّرقة، ولحماية هذه كُلِّها شُرِعَ حَدُّ الحِرَابة.

وجاء الدين هاديًا للإنسان بإرشاده إلى الأخلاق الكريمة والعلاقات الودودة، قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (الحجرات).

وفي الكتاب المقدس: «وَتَعَلَّمُوا مِنِّي، لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ، فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ» (متى: ١١ ـ ٢٩).

الدين قوة إيجابية في الحياة:

الدين قوة إيجابية تحفز على تحقيق مغزى استخلاف الإنسان في الأرض، وإعماره لها، وسَيْرِهِ في مناكبها حتى يُحَصّل رزقه المادي وهو القوت، ورزقه المعنوي وهو اكتشاف المجاهل وتجلية الغوامض وتوسيع آفاق الفكر الإنساني، وإشباع نهمه إلى العلم والمعرفة في كافة الميادين.

والدين قوة إيجابية تُحْدِثُ في حياة الإنسان تحولًا في قلبه وعقله وسلوكه، فيتجلّى هذا التدين نظامًا ونظافة وحبًّا وتسامحًا، واحترامًا لحقوقِ الآخرين، وإحساسًا بوحدة بني الإنسان؛ فلقد أحدث الدِّين اعتدالًا في حياة البشر، حين أخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الموت إلى الحياة، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام: ١٢٢).

فالتدين الحق خروج بالإنسان عن كل الصفات السلبية إلى الصفات الإيجابية، خروج من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ (إبراهيم).

ومن هنا كان ربط الإسلام بين الدين والأخلاق، فليس الإيمان مجرد كلمات تُقَالُ أو عبادات تُؤَدَّى وحَسْبُ، إنما هو السُّمُوُّ الرُّوحيُّ إلى مكارم الأخلاق، قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ (الماعون).

والعبادات في الإسلام لها أثرها الكبيرُ في سلوك الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، وقال ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لله حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ» [1].

وهذا ما أقرَّته كل الأديان السماوية وأكدته مرارًا وتكرارًا، جاء في الكتاب المقدس: «**طُوبَى لِلمساكينِ بالرُّوح، لأنَّ لهم ملكوتَ السماوات. طوبى لِلحَزانَى، لأنَّهم يَتعزَّون. طوبى لِلوُدَعاء، لأنَّهم يَرِثون الأرض. طوبى لِلجِياع والعِطاش إلى البِرّ، لأنَّهم يُشْبَعون. طوبى للرُّحماء، لأنَّهم يُرحَمون. طوبى للأنقياء القلب، لأنَّهم يعاينون الله. طوبى لِصانعِي السَّلام، لأنَّهم أبناء الله يُدْعَونَ. طُوبى للمَطرودينَ**» (متى ٥: ٣ ـ ١٠).

والتدين حب وألفة وأخوة ولين وتسامح يدفع أصحابه إلى مزيد من الرحمة؛ وفي القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

والله تعالى هو الرءوف الرحيم الودود القريب الحنّان المنّان، اللطيف بعباده، العليم بما يُصلحهم، فأرسل إليهم رُسُلَه صلوات الله وسلامه عليهم، وكان خاتمهم محمد ﷺ: ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ (الأنبياء).

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الصوم، باب: من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، (٤/ ١٣٩)، رقم (١٩٠٣).

الدين دعوة إلى اليسر:

جاء في القرآن وصفًا للحبيب المصطفى سيدنا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ (التوبة)، وهذه دعوة كريمة لليسر والتيسير والبعد عن العنت والمشقة. وفي السنة النبوية قال رسول الله ﷺ: «إن الدين يُسْرٌ، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلَّا غلَبه»[1].

ولَمَّا بلغه عن عثمان بن مظعون وبعض الصحابة أنهم يصومون الدهر فلا يفطرون، ويقومون الليل فلا ينامون، وأنهم أرادوا الترهُّب واعتزال النساء، غضب ﷺ وقال: «أنتم الذين قُلْتُم كذا وكذا، أما والله إنِّي لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنِّي أصومُ وأُفطِرُ، وأُصلِّي وأَرقُد، وأتزوَّج النساء، فَمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليس منِّي»[2].

وجاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فشكا إليه أنه لا يحضر صلاة الفجر خلف معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه؛ لأنه كان يطيل الصلاة، فغضب رسول الله ﷺ ونبه معاذًا قائلًا: «أفتَّانٌ أنت يا معاذ؟ اقرأ بسورة كذا وسورة كذا»[3].

ولقد كان النبي ﷺ الأسوة والقدوة في الرحمة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٠٧﴾ (الأنبياء).

والنبي ﷺ يقول: «ما كان الرفق في شيء إلَّا زانه، وما نُزِعَ الرِّفق من شيء إلَّا شانه»[4]، وكان دأبه ﷺ اليسر في كل أموره، تقول السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «ما خُيِّرَ النبي ﷺ بين أمرين إلَّا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا»[5].

وقال ﷺ مخاطبًا الأمة كلها: «يَسِّروا ولا تُعسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا»[6].

وكما دعانا الله تعالى إلى اليسر والتيسير والتبشير والرِّفق واللِّين، دعانا إلى التسامح وحسن التعايش والحوار، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ (الحجرات).

وخاطب رسوله ﷺ بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، وقال جل شأنه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾ (فصلت).

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الإيمان، باب: الدين يسر، (١/ ١١٦)، رقم (٣٩).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، (٩/ ٥)، رقم (٥٠٦٣).

٣. إسناده قوي: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: إعادة الصلاة، رقم (٢٤٠٠).

٤. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: البر والإحسان، باب: الرفق، رقم (٥٥١).

٥. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الحدود، باب: إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله، (١٢/ ٨٨)، رقم (٦٧٨٦).

٦. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: العلم، باب: ما كان النبي يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، (١/ ١٩٦)، رقم (٦٩).

وفي الكتاب المقدس، جاء في الإصحاح السادس: «**لكنِّي أقولُ لكم أيُّها السَّامعُون: أَحِبُّوا أعداءكم، أَحسِنُوا إلى مُبغِضيكم، ٢٨ بارِكُوا لاعنيكم، وصلُّوا لأجل الذين يُسيئُون إليكم. ٢٩ مَن ضربكَ على خَـدِّكَ فـاعرِضْ لـه الآخـر أيضًا، ومَن أَخَذَ رداءكَ فلا تمنعه ثوبكَ أيضًا. ٣٠ وكلُّ مَن سألكَ فأَعطِه، ومَن أخذ الذي لك فلا تُطالبه**».

الدين دعوة إلى فعل الخيرات:

لا نكاد نجد في القرآن الكريم آية تدعو إلى الإيمان دون أن تقرن بين الإيمان والعمل الصالح، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ (البقرة)، وجاء الأمر الإلهي بالتسابق والتنافس في الخير، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (البقرة)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (الحج).

وفي الكتاب المقدس: «**حِدْ عن الشَّرِّ، واصْنَعِ الخيرَ. اطْلُبِ السَّلامة، وَاسْعَ وراءها**» (مزامير ٣٤: ١٤).

الدين دعوة إلى العلم والتفكر والتأمُّل والتدبر:

كان أول ما نزل من القرآن الكريم دعوة إلى العلم والتعلُّم، وهو قول الله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾ (العلق)، وما أكثر الآيات الداعية إلى إعمال العقل والتفكُّر والتأمُّل، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ (البقرة)، وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (البقرة)، وقد امتدح القرآن الكريم المؤمنين بأنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران)، وذَمَّ القرآن الكافرين بعدم تدبُّر آياته، قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد).

الدين دعوة إلى الجمال:

القرآن الكريم حافل بالآيات التي تلفت الأبصار والبصائر إلى ما في الكون من جمال وإبداع، وتأمَّل آية النور: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ (النور).

وتدبَّر قول النبي ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»[١].

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، (٢/ ٤٨٣)، رقم (٢٥٩).

الدين دعوة إلى حسن الخُلق:

التحلِّي بمكارم الأخلاق والترفُّع عن الصغائر والدَّنايا مما أمرت به الشرائع السماوية؛ ليكون الإنسان أهلًا لرسالته العظيمة، ألَا وهي خلافة الله في الأرض، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تحضُّ على حسن الخلق، ومن ذلك أن الله تعالى وصف نبيَّه الكريم ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (القلم)، وقال تعالى في صفة عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣﴾ (الفرقان).

وأمر عباده المؤمنين بالصفح الجميل والعفو وكظم الغيظ، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ (آل عمران)، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ۝٨٥﴾ (الحجر).

وفي الحديث الشَّريف عن عُقبة بن عامرٍ ﷺ قال: «لَقِيتُ رسول الله ﷺ يومًا فَبَدَرتُه فأخذتُ بيده، أو بَدَرَني فأخذ بيدي، فقال: يا عقبة، ألَا أُخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا وأهل الآخرة؟ تَصِلُ مَن قَطَعَكَ، وتُعطِي مَن حَرَمَكَ، وتعفُو عمَّن ظَلَمَكَ، ومَن أراد أن يُبسَطَ له في رزقه، ويُمدَّ له في عمره، فليتَّقِ الله وليَصِل ذا رَحِمِه»[1]. وسُئِلَ ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل؟ فقال: «حُسْنُ الخُلُق»[2].

ولن تتحقق هذه الرسالة من دون جهادٍ للنفْس وآفاتها، ومجاهدة لشياطين الغواية والأهواء والضلالات، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ (العنكبوت)، وقبل هذا وبعده: لا بد من اليقين بأنَّ وراء هذه الحياة حياةً أخرى أبدية، وأن الله مُطَّلِعٌ على أفعال البشر، وسيجزيهم بها إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ (الزلزلة).

وفي الكتاب المقدس: «**لا تمنع الخير عن أهله، حين يكون في طاقة يدك أنْ تفعله. لا تَقُل لصاحبك: « اذهب وعُدْ فأُعطيكَ غدًا »** وموجودٌ عندك. **لا تخترعْ شرًّا على صاحبك وهو ساكنٌ لَدَيكَ آمنًا. لا تُخاصِم إنسانًا بدون سببٍ، إن لم يكن قد صنع معك شرًّا** » (أمثال ٣ : ٢٧ ـ ٣٠).

إن التدين السلبي لا يزكي نفسًا، ولا يرتفع بعقل، ولا يحيي ضميرًا، ولا يهذب فطرة.. إنّه عبء علينا.

والإنسان المؤمن الصادق يكون مرآة صادقة لعظمة الأديان، وكلُّ شعائر الأديان إيجابيةٌ، ولها آثارها العميقة في قلوب الناس وفي واقع حياتهم.

---

١. ذكره البغوي في شرح السنة، كتاب: الرؤيا، باب: تأويل الثياب والفرش، (٦/ ٢٧٦).

٢. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم (٤٦٨).

تأمُّل لرموز الأديان السماوية:

المتأمل لرموز الأديان الثلاثة يرى أن الحكمة رمز لليهودية، والمحبة رمز للمسيحية، والرحمة رمز للإسلام، ويتساءل الإنسان: ماذا لو اجتمعت معاني الحكمة مع المحبة مع الرحمة؟ هل سيصير العالم الذي نعيش فيه ملائكيًّا؟

نعم، لكن فئة من البشر أصروا على الانحراف بهذه المعاني البليغة وهذا السمو إلى العداء والصراع، ويتساءل العقلاء:

- أوليس البشر جميعًا - على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وثقافاتهم وأديانهم - ينتمون إلى أصل واحد، إلى أبيهم آدم وأمِّهم حوَّاء؟!
- إذن فلِمَ التقاطع والتدابُر والضغائن والأحقاد؟
- كيف وقد منحنا الله هذه الهبة الإلهيَّة العظيمة، ألا وهي نعمة العقل؟ تلك المنحة التي مكَّنت الإنسان أن يسود هذا الكون، فاكتشف واخترع، واستطاع أن يجد سُبُلا لتسخير الطبيعة، لتكون طيِّعة له، فارتاد الفضاء، وقطع المسافات، وأزال حواجز الزمان والمكان، وصنع الحياة من جديد.
- لقد ميَّز الله الإنسان أيضًا باللغة، التي بها يكون التواصل والتفكير واختزان الخبرات، ونقل التجارب والمشاعر ... إلخ. وبهاتين المنحتين أنجز الإنسان إبداعات رائعة.
- وأراد الله ﷻ أن يسمو بالإنسان إلى مدارج أعلى وأسمى؛ فبعث الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - وأنزل الكتب السماوية؛ لتملأ قلب الإنسان نورًا ورحمة ومحبة، والأنبياء والرسل عليهم السلام جميعًا جاءوا لخير البشرية وهدايتها والسمو بها.
- غير أن انحراف الفكر عند المتطرِّفين من أتباع كل دين قد أفسد فطرتهم، وانتكس بالمعاني السامية والغايات العظمى من الدين، فمارسوا الحروب باسم الدين، وأشعلوا نيران العداوة والبغضاء باسم الدين، فأفسدوا علينا نعمة الحياة ونعمة السلام التي مَنَّ الله بها علينا، وأحالوا الحياة إلى صراعٍ ودمار.
- والمتأمِّل للأديان الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام، يجد أن رموزها ذات دلالة على مقصودها وغايتها، فالحكمة اليهودية، والمحبة المسيحية، والرحمة الإسلامية لو اجتمعت معًا، لأحالت العالم إلى جنَّة أرضيَّة تنعم بالسلام والتعاون والتواصل.
- إنَّه سلام متميِّز عن سلام المصالح أو سلام الضعف، أو سلام القوة .. إنَّه سلام نابع من داخل النفوس والقلوب .. إنَّه أمان نابع من أعماق القلوب .. ولو اتَّخذ أتباع كل دين أنبياءهم أسوةً وقدوة في الحكمة والمحبة والرحمة لملئوا الحياة أمنًا وأمانًا وبرًّا وعطاءً.
- فالأديان كلها سبل لهداية البشر، والخطأ يكمن في الأفهام المغلوطة، والدين منها بريء .. فمثلًا: الصليب رمز للتضحية والفداء والإيثار والسماحة والمحبة في النصرانية - من وجهة نظر أهلها -، لكن تسييس هذا الرمز خرج

به من دائرة النور إلى دائرة الشرِّ ليكون شعارًا للحروب كما نجد ذلك بارزًا في اسم: الحروب الصليبية .. وهذه إساءة للصليب لا يقبلها المتديِّن الحقيقي ولا العقل السليم.

- وفي الإسلام شُرِع القتال لدفع الظلم والعدوان، وليس للهجوم والعدوان على الآخر، ولكن تسييس القتال حوَّله إلى عدوان وإرهاب، وهذه إساءة لدين الرحمة والسماحة (الإسلام).
- إن المتعصِّبين من أتباع كلِّ دين يرتكبون جريمة نكراء حين يجعلون من أفكارهم البشرية دينًا مقدَّسًا، والأخطر والأدهى أنَّهم يرصدون العقوبات على من يخالف هذا الرأي وذلك الفكر.
- وفي غفلة منَّا عن المقاصد العظمى من الأديان ورسالات السماء، نسينا رسالة الإنسان، وسمحنا لطائفة منَّا أن تحرمنا نعمة المحبة والرحمة والسلام، فأضاعوا علينا مساحة الودِّ بيننا كأسرة إنسانية، ومساحة السمو والنور الربَّانية، وغاب عنَّا ذلك القبس الإلهي الذي أطلقه الله في قلوبنا، فمزقتنا الصراعات، وفرَّقت بيننا العداوات.
- ولكن البشرية لن تعدم عقلاء يدعون إلى الحكمة والمحبَّة والرَّحمة التي من أجلها جاءت الأديان.
- كفانا عداءً وكفانا فرقة، ولنتقدَّم ـ ولو خطوةً ـ على طريق المحبَّة والسلام، رحمة بالأجيال القادمة!

الإسلام يدعو إلى الحوار .. بديلا عن الصراع:

- شاعت في مجتمعنا ـ في الآونة الأخيرة ـ سلوكيات سلبيَّة، أثَّرت في المناخ العامِّ للمجتمع وثقافته وقيمه، وأحدثت صدعًا في وحدة الأمَّة وتماسكها، ولعلَّ من أخطر هذه السلبيَّات توظيف الدين لخدمة أغراض ومصالح شخصية ودنيوية، واستخدام مبادئه السامية لبثِّ الكراهية والأحقاد، الأمر الذي يتناقض تناقضًا صارخًا مع رسالة الأديان والهدف السامي للأديان كلِّها، ألَا وهو حسن التعايش والتآلف والتعارف بين الناس: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ (الحجرات).
- تُعِيدنا هذه الرِّدَّة الثقافية والفكرية إلى عصور الجاهلية والظلمة التي لم يكن لها إطار أخلاقي وروحي ينظم الأفكار والسلوكيات، ويضع لها الضوابط الحاكمة، ولن نجني من ذلك إلَّا المزيد من التدهور والضعف، بل والانهيار، فظنَّ البعض أن أخطاء المسلمين يتحملها الإسلام، أو أنَّ أخطاء المسيحيين تتحمَّلها المسيحية... كلَّا إن الإسلام والمسيحية دينان سماويَّان، أما التطبيق البشري فهو الذي يمكن أن يتصف بالقصور وأن تقع فيه التجاوزات والأخطاء.

إذا سلَّمنا بهذا المبدأ، كان بإمكاننا أن ننظر إلى الأمر بموضوعية وإنصاف، وأن نُوجِد أرضية صلبة للحوار بين الأديان والحضارات، على أساس متين من الاعتراف بحرية العقيدة، والفصل بين الدين بوصفهِ منظومةً إلهيَّة سامية وبين الأخطاء البشرية في تطبيقها لمبادئ هذا الدين أو ذاك، وأيضًا على أساس من الأخوَّة في الإنسانية، تلك الرابطة التي تربط الناس جميعًا، سواء أهل الأديان السماوية أو غيرهم برباط القُربَى والمودَّة والاشتراك في التكريم الإلهي للإنسان.

• سيكون الحوار القائم على تلك الأسس بديلًا عن صيحات العدوان والافتراءات والشبهات، التي لم تكسب الإنسانية من ورائها شيئًا، بل خسرت الكثير من طاقاتها وقدراتها وقيمها، بل ومن دمائها، وآخر هذه الصيحات ما يروِّج له الغرب تحت اسم: صراع الحضارات، معيدين الصراعات التاريخية كَرَّة أخرى إلى الساحة الدولية، تلك الصراعات الدامية التي صنعها الغرب وأجَّجها باسم الدين، وأبرز مثال لذلك الحروب الصليبية التي رفعت شعار: المسيحية في مواجهة الإسلام.

• وعلى العقلاء والمخلصين في العالم أن يكشفوا كلّ تلك المؤامرات التي اتخذت من الدين ستارًا لمآرب خبيثة، ولن تنطلي على العالم دعايات الغرب المغرضة، ولن يقع في خطيئة توظيف الدين من أجل مصالح شخصية أو لإرضاء مطامع دنيوية، فمثلًا من التوظيف السلبي للدين شعار « الحروب الصليبية »، وفي هذا الشعار إساءة إلى الصليب الذي هو في حقيقته، عند إخواننا المسيحيين، رمز للتضحية والفداء، فكيف حوَّله هؤلاء إلى رمز للحرب والعدوان؟!

• والإسلام يطرح فكرة "حوار الحضارات" بدلًا من "صراع الحضارات" والتعايش السلمي بدلًا من الكراهية، والأخوَّة في الإنسانية بدلًا من العداء والصدام. والتوراة والإنجيل أيضًا يؤكدان نفس الدعوة، جاء في الكتاب المقدس: «**طُوبَى لِلمساكينِ بالرُّوح، لأنَّ لهم ملكوتَ السماوات. طوبى لِلحَزانَى، لأنَّهم يَتعزَّون. طوبى لِلوُدَعاء، لأنَّهم يَرِثون الأرض. طوبى لِلجِياع والعِطاش إلى البِرِّ، لأنَّهم يُشْبَعون. طوبى للرُّحماء، لأنَّهم يُرحمون. طوبى للأنقياء القلب، لأنَّهم يعاينون الله. طوبى لِصانعِي السَّلام، لأنَّهم أبناء الله يُدْعَونَ. طُوبى للمَطرودينَ من أجل البِرِّ، لأنَّ لهم ملكوت السماوات. طوبى لكم إذا عيَّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كلَّ كلمةٍ شرِّيرةٍ، من أجلي، كاذبينَ. افرحُوا وتهلَّلوا، لأنَّ أجركم عظيمٌ في السماوات، فإنهم هكذا طَرَدُوا الأنبياء الذين قبلكم**» (متى ٥: ٣ ـ ١٢).

وذلك هو جوهر الأديان السماوية كلِّها: التعايش والتعارف والتآلف بين الناس مهما اختلفت الأجناس والأعراق والمذاهب والمعتقدات: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ (هود).

ولو لم يكن ثمة اختلاف لما كان هناك ضرورة للدعوة إلى التعايش السلمي وحسن الجوار، والحوار بين الحضارات، وإنصاف الآخر.

الإسلام والآخر:

• من الحقائق الواضحة أن الإسلام قد استوعب كل الحضارات والديانات السابقة، وجاء بأحسن ما فيها، وجاء الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ مصدقًا لمن قبْله من الرسل، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ (فاطر)، ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ (الأحقاف)، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ (الصف)، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ

إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ (البقرة).

• ومن حقائق القرآن الكريم الواضحة أيضًا أن الواحدية والأحدية تكون للذات الإلهية دون سواها، وأن التنوع والتعدد والاختلاف سُنَّةٌ إلهية كونية في كل ما سوى الذات الإلهية، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الروم).

• ووضح القرآن أن التنوع والتمايز يكون حافزًا للتسابق والمنافسة في طريق الخير، قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ (المائدة: ٤٨).

• كما أكد القرآن الكريم أن التعدد والتنوع للتعارف، والتعارف تعاون وتآلف وتكامل، وليس صراعًا ولا نزاعًا، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات).

• ومن الحقائق القرآنية الواضحة أن الأفضلية ليست بالتعصب والأماني، وإنما الذي يضع الإنسان في المقدمة عمله النافع الصالح، قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ (النساء)، حيث ترتب الآية النتائج على الأسباب المؤدية إليها، وتوضح أن إنجاز الطموحات ليس بالأحلام، فلا يستوي عامل وخامل، ولا يستوي كسول ومجتهد.

فالإنسان ـ إذن ـ هو الذي يختار مكانه من خلال عمله وعطائه وتضحيته، والمقدمة لن تكون أبدًا إلَّا لمن سلك أسبابها، أما الأدعياء وأصحاب الأماني فقد ردَّهم القرآن إلى الصواب في هذه الآية، حيث جاءت الآية في سياق تباهي أهل كل دين وعقيدة بأفضليتهم على من سواهم، فنزل القرآن حاسمًا في تحديد معيار الأفضلية: إنه العمل.

• ويؤكد القرآن علاقة الود والبر والتعاطف مع أهل الأديان الأخرى المسالمين لنا: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الممتحنة).

• ومنهج القرآن في التعايش السلمي والود في معاملة الآخر يتأكد في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (فصلت).

• والقتال في الإسلام استثناء وليس قاعدة، استثناء تُلجئنا إليه الضرورة حين يُعْتَدى علينا على عرضنا وأرضنا وثروتنا، فأُذِنَ بالقتال لمن ظلم، قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الحج). فالقتال لرفع الظلم ومنع العدوان، وإن جنح المعتدي للسلم أمرنا القرآن بأن نوافق فورًا، قال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ (الأنفال).

• وأمرنا القرآن أن نتبع الأحسن والأفضل، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ (الزمر).

• وفي الإسلام سنَّ رسول الله ﷺ ثلاث سنن جسَّدت رؤية الإسلام للآخر الديني، وكيف أن الإسلام لا يكتفي بالاعتراف بالآخر الديني، وإنما يجعله جزءًا من الأمة والدولة، له كل الحقوق، وعليه كل الواجبات:

أُولى هذه السنن ـ نموذجًا للعلاقة بالآخر اليهودي ـ هي الصحيفة التي وضعها رسول الله ﷺ عقب الهجرة، والمحاور الأساسية لهذه الصحيفة تدور حول المساواة والعدالة بين النَّاسِ في إطار الأمة الوليدة وبواكير الدولة الجديدة، كما تنص على أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.

وثانية هذه السنن ـ نموذجًا للعلاقة بالآخر النصراني ـ هي الوثيقة التي وضعها النبي ﷺ لنصارى نجران عهدًا بين الدولة الإسلامية الوليدة وبين النصارى، وفيها كتب رسول الله ﷺ: «لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض: جوار الله، وذمة محمد رسول الله، على أموالهم، وأنفسهم، ومِلَّتِهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وبِيَعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، أن أحمي جانبهم، وأذبَّ عنهم، وعن كنائسهم وبِيَعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح .. وأن أحرس دِينَهم ومِلَّتَهم أين كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من مِلَّتي.. لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»!

ويظهر لنا واضحًا من نَصِّ الصحيفة اعتراف الإسلام بالآخر، وقبوله، وتكريمه، والاندماج معه، واحترام خصوصياته. [راجع: وثيقة المدينة مع اليهود ووثيقة نصارى نجران في (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) لمحمد حميد الله].

وثالثة هذه السنن ـ نموذجًا للعلاقة بأهل الديانات الوضعية ـ كانت على عهد عمر بن الخطاب ﷺ حين عرض أمر معاملة أصحاب الديانات الوضعية على مستشاريه بالمسجد النبوي فأشار عليه عبد الرحمن بن عوف ﷺ قائلًا: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «سُنُّوا فيهم سنة أهل الكتاب» (راجع البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٢٧). وعُومل أهل الديانات الوضعية معاملة أهل الكتاب عبر تاريخ الحضارة الإسلامية.

• وهناك مواقف لا تحصى لتأكيد أن علاقة الإسلام بالآخر تقوم على السماحة والعدالة واحترام حقوقه، من ذلك أن القرآن الكريم أكد أن اختلاف الدين لا يجوز أن يكون مدعاة للظلم أو التغابن، وأنه إذا كانت هنالك أطراف معادية وبيننا وبينها خصام، فذلك كله يجب إبعاده عن مقتضيات العدالة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ (المائدة).

• ولطالما احتكم مسلمون وغير مسلمين إلى القضاء الإسلامي، فكانت العدالة تفرض نفسها دون تفرقة بين أطراف النزاع، يشهد لذلك العديد من المواقف العملية في تاريخ الحضارة الإسلامية، من ذلك موقف عمرو بن

العاص ﷺ عندما كان واليًا على مصر في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ، اشتبك ابن له مع أحد المصريين، وأغراه سلطان أبيه فضرب الرجل، ومصر يومئذ حديثة عهد بالفتح، والمنتظر أن يستكين المضروب لابن القائد الفاتح الذي هزم أكبر دولة في الأرض ورمى بجيشها في البحر الأبيض المتوسط، لكن المجني عليه كان يأنس في الإسلام وحكمه غير هذا الذي نزل به، فأقسم ليبلغن شكواه إلى أمير المؤمنين عمر ﷺ، لكن الولد الذي ضربه وجد في هذا حماقة فقال له: افعل، فلن تضيرني شكواك، أنا ابن الأكرمين!

وبينما كان عمر بن الخطاب بين خاصته وعمرو بن العاص وابنه في مجلسه، والمدينة غاصة بالوفود في موسم الحج، قدم المصري المظلوم وقال لعمر: يا أمير المؤمنين، إن هذا ـ وأشار إلى ابن عمرو ـ ضربني ظلمًا، ولما توعدته بالشكوى إليك قال: افعل، فلن تضيرني شكواك، أنا ابن الأكرمين!

فنظر عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص نظرة استنكار وقال له هذه الكلمة العظيمة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!». ثم توجه إلى الشاكي وناوله سوطه وقال له: اضرب ابن الأكرمين كما ضربك!

لقد أنصف عمر الإسلام بهذا الحكم.

- ومن المواقف العملية التي تؤكد أن الإسلام دين يقوم على السماحة في معاملة الآخر، وعلى احترام أواصر الإنسانية التي تجمع بين بني آدم قاطبة:

– ما رواه البخاري قال: إن النبي ﷺ مرّت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي! فقال ﷺ: «أليست نفسًا»[1]؟!

– وروى سفيان عن حماد بن أبي سليمان عن الشعبي أن أم الحارث بن أبي ربيعة ماتت وهي نصرانية فشيعها أصحاب النبي ﷺ[2].

- والحق أن الإسلام يوصد كل الأبواب أمام الذين يستهينون بأقدار الآخرين وحقوقهم، ولنتأمّل ذلك الخطاب القرآني العامّ لـ «الإنسان»، ولـ «الناس»، ذلك الخطاب الذي يفيض رحمةً وحنانًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ (الانفطار)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ (الانشقاق)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١﴾ (النساء)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧﴾ (يونس).

وحسب الإنسان من الفخر أن الله تعالى أنزل في كتابه العظيم سورة اسمها "سورة الإنسان"، تبدأ بقوله تعالى:

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجنائز، باب: من قام لجنازة يهودي، (٣/ ٢١٤)، رقم (١٣١٢).

٢. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب: أهل الكتاب، باب: اتباع المسلم جنازة الكافر، رقم (٩٩٢٦).

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ (الإنسان).

وما علينا إلَّا أن نصغي إلى تلك النداءات الإلهية الكريمة؛ لتكون لنا نورًا وهدًى وشفاءً وصلاحًا.

لماذا موسوعة بيان الإسلام؟

- يتعرض الإسلام: (القرآن الكريم، الرسول ﷺ، السنة النبوية المطهرة) إلى حشد هائل من المطاعن والشبهات والافتراءات، انطلقت سهامها من جهات شتى، وقد تخصصت بعض الفضائيات في نشر وإشاعة هذه الشبهات، وقام بالأمر نفسه مواقع إلكترونية على شبكة المعلومات الدولية «***Net***»، وكذلك النشر الورقي في كتب ومطويات... إلخ؛ وقد ترتب على ذلك أن دارت أسئلة عند كثير من الشباب حول هذه الشبهات: لماذا؟ وهل هذا صحيح؟ وأين الحقيقة وسط هذا الضباب الذي يريدون به أن يطفئوا نور الله؟
- وعند مناقشة بعض هذه الشبهات على شاشة بعض القنوات الفضائية، دُعي عالمان إلى الحلقة وكانت عن "الرِّق"، ولم يكن العالمان قد استوفيا الشبهة دراسة وتحضيرًا للرد، وانتهى الأمر بالانفعال وقال أحدهما للمذيعة: "هذا هو الإسلام واللي مش عاجبه يضرب راسه في الحيط ديننا وعاجبنا كده"!
- وفي بعض الكتب التي تناولت الردود من غير المتخصصين جاءت بعض الإجابات المسطورة في الكتاب خاطئة، بل تؤدي إلى تثبيت الشبهة؛ مثل شبهة: أن النبي ﷺ نسي، وقد أمره الله ألا ينسى في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ (الأعلى)، حيث قال الأستاذ في كتابه ردًّا على الشبهة: إن (لا) هنا ناهية، فتوجيه المعنى يعني: لا تنس العمل به. وهذا خطأ، والصواب أن (لا) في الآية نافية، تنفي عن النبي ﷺ النسيان، وليست ناهية، والدليل القاطع على ذلك أن الفعل بعدها لم يجزم وظل حرف العلة به « تَنْسَى »، فـ(لا) في هذا الموضع نافية بمعنى: لن، أي: سنقرئك فلن تنسى.
- إن الردود الخاطئة والعجلى تسهم في البلبلة ومط توابع الشبهة، ولا تأخذ مثل هذه الردود بيد المخالف إلى الحق الواضح ليصل الجميع إلى بر الأمان.

الدكتور نبيل لوقا بباوي نادى بفكرة الموسوعة:

ومن شواهد الحق لهذه الموسوعة، أنها عمل علمي طالب به أخ حبيب وباحث علمي مدقق من الإخوة المسيحيين، إنه الدكتور نبيل لوقا بباوي الذي نادى بفكرة الموسوعة في كتابه «عبقرية محمد ﷺ بلا تعصب أو مجاملة» حيث قال: «صناعة العداء للإسلام ورموز الإسلام ليست وليدة اليوم، ولكنها موجودة منذ ظهور الإسلام، سواء أيام الدعوة المغلقة للإسلام لمدة ثلاث سنوات بعد نزول الوحي على الرسول ﷺ في مكة من عام ٦١٠م إلى ٦١٣م، أو بعد الدعوة العلنية للإسلام بعد ذلك التاريخ، منذ ذلك والإسلام يتعرض لأبشع أنواع الافتراء والإساءة، وسوف

يتعرض الإسلام للإساءة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقد تعرض الرسول ﷺ للإساءة في مكة والمدينة في أول ظهور الإسلام، ورد في سورة (ص): ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾؛ ولذلك فالهجوم على الرسول ﷺ ليس وليد اليوم ولكنه منذ فجر الإسلام، وسوف تظهر حملات التشكيك في الرسول ﷺ والإساءة إليه مستقبلًا؛ ولذلك يجب على المسلمين ألَّا يستسلموا لمشاعر الغضب والثورة لمجرد الثورة، بالمظاهرات وإحراق السفارات؛ لأن ذلك لا تؤيده مبادئ الإسلام؛ لأن الإسلام يأمرهم أن يعفوا عند المقدرة ويصفحوا، ولا يتصرفوا تصرفات الجاهلية التي تسيء إلى الإسلام ذاته، بل عليهم ألا يبادلوا الكراهية بالكراهية؛ لأن استهداف الإسلام ورموزه أصبح استراتيجية ثابتة في الغرب على أساس تفكيك العالم الإسلامي بالتشكيك في عقيدتهم ورسولهم، فلا يجب أن يعطي المسلمون الحجة والأسانيد لأعداء الإسلام بهذه المظاهرات التي تحرق السفارات؛ لأن هناك عدة جهات ـ وخاصة اللوبي الصهيوني ـ لها مصالح استراتيجية في العداء بين الدول الإسلامية والدول الغربية وأمريكا؛ لذلك من الخطأ مواجهة العداء وأفعال الإساءة إلى الإسلام بمظاهرات الغضب القاتل وبإشعال الحرائق وقتل الدبلوماسيين؛ لأن ذلك فخ منصوب للمسلمين يجب ألا ينزلقوا فيه، ويجب عليهم التمسك بالمبدأ الإسلامي ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، ولا يجب على المسلمين الحيدة عن ذلك المبدأ الحضاري، وكذلك لا يجب مصادرة الكتب العدائية؛ لأن المسلمين يملكون الحجة في الرد على كل الكتب من خلال التاريخ الإسلامي ومن خلال أقوال الفقهاء المعتدلين، وقبل هذا وذاك من خلال الكتاب والسنة.

وكل ذلك يدفعني لإعادة الاقتراح للمرة العاشرة بضرورة عمل عدة مراكز ومعاهد إسلامية في أوربا وأمريكا ثم بعد ذلك في بقية دول العالم مثل المراكز الاستشراقية في أوربا وأمريكا، ويكون هدف المراكز الإسلامية الرد على كل دعاوى الإفك والكذب والإساءة إلى الإسلام أو رموزه من خلال الإنترنت والكتب والأقلام الصحفية وإنشاء الصحف والدوريات والأبحاث العلمية والندوات والاجتماعات وورش العمل، ولنبدأ بمركزين أحدهما في أمريكا والآخر في أوربا، ويكون تمويله من أموال الزكاة للأغنياء من المسلمين والدول العربية والإسلامية. فقد شاهدت في أوربا بعض الأغنياء العرب والمسلمين وهم قلة قليلة يعيشون عيشة البذخ في صالات القمار وحانات الخمر، فأيهما أفضل للمسلمين: الدفاع عن الإسلام ورسوله، أم صرف أموالهم في أشياء غير نافعة؟ وهل لدى المسلمين أغلى من الإسلام ورسوله ﷺ حتى يدافعوا عنه؟ وأنا رغم كوني مسيحيًا أرثوذكسيًا أؤمن بدياناتي إلى آخر يوم في عمري مستعد للمساهمة بمبلغ عشرة آلاف دولار لإنشاء أحد هذه المراكز الإسلامية في أوربا، من منطلق أنني أُومِنُ بديانة سماوية وهي المسيحية، تدعو للمحبة مع الآخر، وأن ما يربطنا مع المسلمين في مصر هو أكثر من المحبة والأخوة والصداقة، بل هو المصير المشترك، فما يؤذي أخي المسلم يؤذي المسيحي، وما يؤذي المسيحي يؤذي المسلم؛ لذلك قام قداسة البابا شنودة الثالث بعقد مؤتمر صحفي في شهر أغسطس ٢٠٠٦م وندد بما فعله بابا الفاتيكان بندكت السادس عشر من الإساءة للرسول؛ لأن ما يسيء للمسلمين يسيء للمسيحيين، وما يسيء للمسيحيين يسيء للمسلمين».

جهود سابقة مشكورة:

- تمت الإفادة من جهود علمائنا في الرد على الشبهات قديمًا وحديثًا.
- ومن جهود القدماء ما جاء في ثنايا كتب التفسير، وما جاء مستقلًّا في كتب متخصصة نذكر منها:

- الرد على ابن الراوندي الملحد ـ للجاحظ.
- مشكل القرآن ـ لابن قتيبة الدينوري.
- التمهيد، إعجاز القرآن ـ لأبي بكر الباقلاني.
- تنزيه القرآن عن المطاعن ـ للقاضي عبد الجبار.
- الرد الجميل ـ للإمام أبي حامد الغزالي.

- وفي العصر الحديث تتابعت الجهود نافعة مشكورة، بين فردية وجماعية، نذكر منها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ كتاب "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه" لعباس العقاد، وكتاب "شبهات حول الإسلام" لمحمد قطب، والجهود المشكورة لعلمائنا كالشيخ محمد الغزالي والدكتور عبد العظيم المطعني، والجهود المشكورة لـ د. محمد عمارة، د. يوسف القرضاوي، وغيرهم كثير. ومن نتائج الجهود الجماعية المجلد الذي نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لمجموعة علماء بإشراف د. محمد حمدي زقزوق، تحت عنوان "حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين".
- على أن الميدان أمام هذا الهجوم الموسع على الإنترنت والفضائيات والكتب جعل الحاجة ماسة إلى عمل علمي متكامل يغطي مختلف ميادين الاشتباه، يقوم به أَفْرِقَةٌ من العلماء في شتى التخصصات.

من هنا جاءت فكرة موسوعة: "**بيان الإسلام.. الرد على الافتراءات والشبهات**".

- وبعد لقاءات مع كبار العلماء من تخصصات مختلفة، ومناقشة منهج الموسوعة، تم تحديد هذا المنهج، والذي يتركز في البيان التالي:

معيار الشبهة:

- هي كل زعمٍ أو ادِّعاءٍ أو افتراءٍ يتضمَّن طعنًا أو تشكيكًا في كل ما يوصف ـ عن حقٍّ ـ بأنه إسلامي، من حقائقَ ومبادئَ وثوابتَ وأصول.
- وبتطبيق هذا المعيار المحدِّد لنطاق الشبهة؛ يخرج من الاعتبار كلُّ ما من شأنه أن يكون مجرد سبٍّ أو قذفٍ أو تطاول، وكذلك الاختلاف (أو ما يبدو اختلافًا) بين المذاهب الإسلامية، بالإضافة إلى ما يُعتبر نقدًا لسلوك المسلمين (لأنها استثناءات ينبغي ألا نعممها)، فضلًا عما يُعدُّ من قبيل التساؤلات الدينية والاستفتاءات الفقهية، وحتى التفسير الخاطئ أو الفهم القاصر لبعض النصوص أو قضايا الدين... كل هذا كانت تُخرجه مراحل الفرز والتصنيف وغيرها عند تحكيم المعيار.

منهج الموسوعة في الرد:

تقوم هذه الموسوعة على المنهج العلمي الذي يعتمد على مناقشة الأفكار، والحرص على الدليل الصحيح المقنع، ويمكن تحديد ملامح منهج الرد في المحاور التالية:

١. بيان فكرة الشبهة.

٢. بيان فكرة أو أفكار الرد عليها.

٣. البدء بالمنهج العقلي في الرد؛ لأن المخالف - في الأعم الأغلب - لا يؤمن بقرآن أو سُنَّة.

٤. إلحاق الرد النقلي بعد التأسيس العقلي له، والرَّبط بينهما بعبارة: وهذا الذي استقر لدى العقلاء يلتقي مع هدي القرآن والسنة، كما في...

٥. ثم نختم بخلاصة مركزة بعد التفصيل.

منهج التكشيف والإحالات بالموسوعة:

من مميزات هذا العمل الكبير تكشيفه وفهرسته وتزويده بشبكة الإحالات الموضعية، وذلك من خلال **ثلاثة كشافات، هي:**

الأول: الكشاف الشجري لعناوين الشبهات:

وفيه رُتِّبت عناوين الشبهات ترتيبًا علميًّا منطقيًّا حسب ورودها في متون الأجزاء، وتم إعداد هذا النوع من الكشافات ليتعامل به القارئ للبحث عن عناوين بذاتها، وللتعرف على محتوى كل جزء من خلال تصفُّح هذا الكشاف الوجهي (الذي يحتل وجه كل جزء)، بالإضافة إلى الكشاف الشجري (الشامل لكل عناوين الشبهات الواردة في الموسوعة) مرتبةً وفق ترتيب الأجزاء التي تتضمنها، بحيث يُنصُّ على المحور العام الذي تندرج تحته الشبهة، ثم رقم الشبهة في الجزء متبوعًا بعنوان الشبهة، ورقم الصفحة التي وردت فيها.

الثاني: الكشاف الموضوعي للقضايا:

يغطي هذا الكشاف جميع القضايا التي عولجت في الموسوعة؛ حيث يستطيع الباحث الحصول على جميع القضايا ذات الصلة في الموسوعة بأكملها، مجموعةً تحت رأس موضوع واحد يُسمَّى الكلمة المدخلية أو المحورية أو البحثية أو المفتاحية (وهي أبرز كلمة تشترك فيها القضايا ذات الصلة من حيث المفهوم أو المضمون أو المحتوى)، وقد رُتِّبت هذه الكلمات المدخليَّة حسب الجذر اللغوي لها، فقضايا التوحيد مثلا يجدها الباحث في حرف الواو، وقضايا الاجتهاد يجدها الباحث في حرف الجيم، وهكذا، وأُدرِجتْ تحت كل كلمة مدخلية أو محورية من هذه الكلمات مجموعةُ القضايا المتعلقة بها، مصحوبةً بمسارها المحدَّد في الموسوعة (رقم الجزء الذي وردت فيه/ يليه رقم الشبهة التي وردت فيها/ يليه رقم وجه الإبطال الذي عولجت فيه القضية).

الثالث: الكشاف الموضوعي للآيات القرآنية:

ويختلف هذا الكشاف من حيث الغرض والتنفيذ عما يماثله من كشافات الآيات والأحاديث؛ فليس الغرض منه تجميع الآيات التي وردت في العمل وبيان رقمها واسم السورة والصفحة التي وردت فيها، فذلك أمر بعيد؛ وإنما الغرض منه هو رصد الآيات التي تتعلق بشبهةٍ ما، كأن تكون محلًّا للشبهة أو استدلالًا عليها (من وجهة نظر مثيريها). ثم إنه يختلف في التنفيذ أيضًا؛ لأنه حتمًا سيتضمن الإشارة إلى الشبهة أو القضية التي تدور حولها الشبهة، ومسارها في الموسوعة، إلى جانب رقم الآية واسم السورة. وبمطالعة هذا الكشاف يستطيع الباحث الحصول على جميع الشبهات أو القضايا التي تتعلق بآيةٍ ما أو بآيات سورةٍ ما.

أسلوب الإحالات:

نأتي في ختام هذا العنصر إلى ميزة من مميزات الموسوعة، وهي أسلوب الإحالات الدقيق المحكم، الذي يربط بين القضايا ذات الصلة ربطًا قويًّا يجعل الباحث ملمًّا بجميع أطراف القضية بفضل ما يتيحه نظام الإحالة من مطالعة زيادات وتفاصيل أكثر؛ بغية التسهيل على القارئ في ربط القضايا المتشابهة بعضها ببعض.

وقد كانت الإحالات موزعة على أربعة أنواع، هي:

- إحالة من شبهة إلى شبهة.
- إحالة من شبهة إلى وجه.
- إحالة من وجه إلى وجه.
- إحالة من وجه إلى شبهة.

كما اتبعت الإحالة صيغة ثابتة موحَّدة هي:

® **في قضية كذا** (ويُنصُّ على عنوان القضية) **طالع: الوجه كذا** (ويُنص على رقم الوجه) **من الشبهة كذا** (ويُنص على رقم الشبهة) **من الجزء كذا** (ويُنص على رقم الجزء وعنوانه).

منهج التوثيق والتخريج بالموسوعة:

ينقسم التوثيق والتخريج بالموسوعة إلى ثلاثة أنواع:

١. **التوثيق الخلالي**، ويتم تطبيقه خلال المتن (ومن هنا أُطلق عليه التوثيق الخلالي)، والغرض منه:

- تخريج الآيات القرآنية بذكر: (السورة: ورقم الآية)، والاكتفاء باسم (السورة) فقط إذا تضمنت الآياتُ المدرجةُ أرقامَها، معتمدين على مصحف المدينة للنشر الإلكتروني.
- تخريج النقول من الكتاب المقدس بذكر (السِّفْر أو الإنجيل ورقم الإصحاح، ورقم الفقرة) معتمدين على: ترجمة فانديك بستاني المأخوذة من أصول الأغاني العبرية واليونانية.

- توثيق النصوص والنقول المستأنس بها في المتن بإحدى الصيغ التقريرية، مثل: ويؤيد هذا ما ذهب إليه فلان في كتابه كذا، ويُذكر اسم المؤلف، واسم الكتاب (مع الإشارة أو عدم الإشارة له في الحاشية السفلية وفق نوع النقل).

٢. **توثيق الحواشي**، ويُنفَّذ في الحاشية السفلية، ويحتوي على:

- البيانات الببليوجرافية للمصدر، وتذكر وفق الترتيب التالي: عنوان الكتاب، اسم المؤلف، دار الطبع، مكان الطبع، الطبعة، تاريخ الطبع هجري/ ميلادي، رقم الصفحة. (مع بداية الترتيب العددي لكل صفحة، ومراعاة الفاصلة بين البيانات عدا التاريخ الهجري والميلادي فيُفصل بينهما بالشرطة المائلة.

ويُراعى هذا عند أول ورود للمصدر، ويُكتفى بالإشارة إلى (عنوان الكتاب، اسم المؤلف، مرجع سابق، رقم الصفحة) كلما ورد المصدر في الجزء نفسه مسبوقًا بغيره. مع شيء من الاختلاف في البيانات الببليوجرافية وفق نوع المصدر (كتاب، مجلة، رسالة، بحث، صحيفة...).

تخريج الأحاديث النبوية والآثار:

لقد تم وضع منهج دقيق متكامل لتخريج الأحاديث النبوية والآثار، ويمكن تلخيص هذا المنهج في النقاط الآتية:

- يتم ذكر (الكتاب، الباب، رقم الحديث في الكتب المطبوعة).
- الاعتماد على البخاري ومسلم أولًا.
- يوضع الحكم على الحديث قبل التخريج التفصيلي؛ ليتأكد القارئ والباحث بطريقة سريعة من حكم الحديث.
- يؤخذ الحكم على الحديث ـ ما عدا أحاديث البخاري ومسلم ـ من الشيخ الألباني في الكتب التي حققها مثل "السلسلة الصحيحة... إلخ" أو الأرنؤوط في "صحيح ابن حبان و مسند أحمد بن حنبل"، أو بتعليقات الهيثمي في كتابه "مجمع الزوائد"، أو الذهبي في "التلخيص على مستدرك الحاكم"، أوحسين سليم أسد في "سنن الدارمي ومسند أبي يعلى"، أو الشوكاني في "نيل الأوطار"، أو ابن حجر في "تلخيص الحبير".
- عدم التعويل مطلقًا على الحديث الضعيف، فإذا وجد الضعيف فعلينا إيجاد البديل الصحيح، أو ما في معناه من الصحيح.
- باقي الكتب ـ بعد ذلك ـ يُتّبع فيها الترتيب التاريخي في إيراد كتب التخريج.
- يدخل البخاري في الترتيب التاريخي إذا ذُكر الحديث في كتابه "الأدب المفرد".
- الالتزام بالراوي الأعلى قوة.
- إذا جاءت الرواية بأكثر من راوٍ نذكر الراوي الذي سنأخذ منه الحديث في سياق ما قبل الحديث ـ وليس غيره إذا تعددت الروايات ـ ونذكر التخريج التابع لراوي الرواية.

- الاطمئنان إلى أن الحديث لم يذكر في الكتاب إلا مرة واحدة.
- الاكتفاء بكتابين + الحكم.
- الاعتماد على اللفظ الموجود إن كان صحيحًا، والمعنى عند الأقوى.
- إذا جاءت الرواية عند البخاري مطابقة للمكتوب على الورق وعند مسلم بنسبة ٩٠٪ بمعناها نقول: عند مسلم "بنحوه"، إلا إذا اتفق راوي الحديث عند مسلم والبخاري في ذلك نخرج الحديث مع عدم ذكر "بنحوه"، أما إذا جاء لفظ مسلم مغايرًا للمكتوب على الورق بلفظٍ مختلف نكتب في نهاية التخريج: "بلفظ: كذا".

٣. **التوثيق البيليوجرافي**، ويُنفَّذ في قائمة المصادر والمراجع التي اعتُمد عليها في الموسوعة بأكملها. وفيه يتم توثيق المصادر والمراجع وفق الطريقة الآتية: (عنوان الكتاب، اسم المؤلف، دار الطبع، مكان الطبع هجري/ ميلادي مع مراعاة الترتيب الألفبائي للمصادر والمراجع).

الإجراءات التنفيذية للموسوعة:

مر العمل بالمراحل التالية:

١. مرحلة التخطيط وتحرير المنهج والمعايير والضوابط التي تحفظ لموسوعة "بيان الإسلام" سمة العلمية، والوسطية، ومنطق الحوار والرد الجميل الذي يحترم الآخر ويحب له الخير.

٢. مرحلة جمع مادة الشبهات من مصادرها المختلفة (إلكترونية/ ورقية/ فضائية... إلخ).

٣. مرحلة التصنيف (عام - داخلي - فرعي).

٤. مرحلة جمع الردود من مظانها وحصر الجهود السابقة في الرد (قديمًا وحديثًا).

٥. مرحلة تحرير الرد النهائي حسب المنهج المحدد للموسوعة المبين تحت عنوان « منهج الموسوعة في الرد ».

٦. الصف على الحاسوب والتنسيق الآلي.

٧. المراجعة الأولى والتدقيق المنهجي والتثبت من توثيق النقول وتوحيد أسلوب التحرير.

٨. المراجعة الثانية والإقرار العلمي للردود من قِبَلِ هيئة العلماء المراجعين، كل في تخصصه.

٩. إعداد كشاف القضايا الفكرية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية والكلمات المفتاحية للموسوعة، وإنجاز الفهارس والإحالات.

١٠. المراجعة الثالثة، وقام بها كبار العلماء في كل تخصص.

١١. الإخراج النهائي، وتجهيز النسخة الورقية للطبع.

هذه هي المراحل الأساسية التي مر بها العمل بالموسوعة (النسخة الورقية)، وكل مرحلة لها تفصيلات كيفية أخرى.

الالتزام العلمي للموسوعة:

- **الأسلوب الحجاجي والترابط الفكري المتَّبع في الكتابة:** مع تجنب الصبغة المقالية في إيراد المعلومات، والبعد عن نغمة الهجوم والشدة في رد الفعل؛ كي يتميز هذا العمل بأسلوبٍ علمي منطقي في الحجاج والحوار وعرض وجهات النظر وتحليلها وتفنيدها، والانطلاق من المسلمات والنقاط المشتركة أو المتَّفق عليها، ثم إثارة الأسئلة التي تقلب الحجة، والاستئناس بشهادات المنصفين والإحصاءات الواقعية والأحداث التاريخية والحقائق العلمية والنصوص الدينية... إلخ، مما يقوي الحجة ويقيم الدليل ويبطل الزعم أو الادعاء.
- **الوسطية الفكرية:** لا يكاد الباحث أثناء قراءة هذا العمل يلمس تحيُّزًا لفكرٍ بعينه، أو صدًى لمذهب بذاته، أو صبغةً لتوجُّهٍ ما، وإنما النصيب الأكبر والحظ الأوفى للوسطية والاعتدال. ولا يخفى أن هذا العمل للأمة بأجمعها، لا لطائفةٍ أو تيارٍ أو مذهبٍ أو جماعة. وعلى هذا فالمعيار الذي احتكمنا إليه هو الوسطية والاعتدال والإجماع وما اتفق عليه العلماء الثقات، دون التطرق لما يوصف بأنه محل اختلاف أو اجتهاد فردي بين العلماء، خاصة المسائل العقدية أو المذهبية أو الفقهية التي يحلو للبعض إثارتها بين الحين والآخر لأسباب لا تخفى على ذي بصيرة. ومن هنا فكل مسلم - أيًّا كان توجهه - سوف يجد في هذه الموسوعة ما يتفق فيه مع غيره، وكما قال أكثر علمائنا ممن تفضلوا بإقرار هذا العمل واعتماده: هذا تميز محمود وتوحيد للقراء على اختلاف ميولهم وتوجهاتهم الفكرية على عملٍ واحد.

إلى مَن تُوجَّه هذه الموسوعة؟

- كل مسلم ومسلمة من الشباب، والمثقفين؛ لذلك روعي سهولة الأسلوب.
- الخطباء، والوعاظ، وعموم الدعاة إلى الله تعالى؛ لتكون مرجعية لهم إذا ما طُلب منهم بيان موقف الإسلام من شبهة ما.
- أصحاب الديانات السماوية؛ لعرض حقائق الأمور بين أيديهم.
- كل باحث يرغب في معرفة حقيقة الإسلام خالصةً مماَّ أُلْصِقَ به من شبهات وافتراءات.

أقسام الموسوعة وعناوين الأجزاء:

تشمل موسوعة "بيان الإسلام" ثلاثة أقسام: (القرآن، الرسول، السنة).

أولا: القرآن

تم إخراج هذا العمل في أحد عشر مجلدًا، تشتمل على تسعة عشر جزءًا، بالإضافة إلى مجلد للفهارس، تمَّ ترتيبها على النحو الآتي:

المجلد الأول: الجزء الأول: الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها.

المجلد الثاني: الجزء الثاني: شبهات حول ما تُوهِّم من أخطاء لغوية في القرآن.

المجلد الثالث: الجزء الثالث: شبهات حول التاريخ الإسلامي (١) (ما قبل الإسلام ـ إسلام الصحابة ـ هجراتهم ـ عالمية الإسلام وانتشاره ـ خلافة أبي بكر).

الجزء الرابع: شبهات حول التاريخ الإسلامي (٢) (خلافة عمر ـ الفتنة الكُبرى ـ الخلافة الأُموية ـ الخلافة العباسية).

الجزء الخامس: شبهات حول النظم الحضاريَّة في الإسلام.

المجلد الرابع: الجزء السادس: شبهات حول العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد (الألوهية ـ الربوبية ـ الأسماء والصفات).

الجزء السابع: شبهات حول الإيمان والتدين (الإيمان بالغيب ـ القضاء والقدر ـ الفرق والمذاهب الفكرية).

المجلد الخامس: الجزء الثامن: شبهات حول مقارنة الأديان.

المجلد السادس: الجزء التاسع: شبهات حول الأنبياء والرسل (١) (من آدم عليه السلام إلى موسى عليه السلام).

الجزء العاشر: شبهات حول الأنبياء والرسل (من داود عليه السلام إلى محمد ﷺ).

المجلد السابع: الجزء الحادي عشر: شبهات حول سلامة القرآن وتمامه.

الجزء الثاني عشر: شبهات حول عصمة القرآن وكماله.

المجلد الثامن: الجزء الثالث عشر: شبهات حول العبادات والمعاملات الاقتصادية في الإسلام.

المجلد التاسع: الجزء الرابع عشر: شبهات حول العلاقات الدولية في الإسلام (الجهاد ـ الرق والتسري ـ العلاقات السلمية).

الجزء الخامس عشر: شبهات حول السياسة الجزائية في الإسلام (الحدود والعقوبات ـ القصاص والدية ـ التعزيرات).

المجلد العاشر: الجزء السادس عشر: شبهات حول أصالة التشريع الإسلامي وعدم تبعيته.

الجزء السابع عشر: شبهات حول مرونة التشريع الإسلامي وصلاحيته لكل زمان ومكان وحال.

المجلد الحادي عشر: الجزء الثامن عشر: شبهات حول المرأة وحقوقها في الإسلام.

الجزء التاسع عشر: شبهات حول أحكام الأسرة في الإسلام.

المجلد الثاني عشر: الجزء العشرون: فهارس.

الجزء الحادي والعشرون: فهارس.

ثانيًا. الرسول

تم إخراج هذا العمل في ثلاثة مجلدات، تشتمل على ستة أجزاء، بالإضافة إلى مجلد للفهارس، تـمَّ ترتيبهـا عـلى النحو الآتي:

المجلد الأول: الجزء الأول: شبهات حول حياة النبي ﷺ الخاصة (نسبه ومولده ـ حياته الخاصة).

الجزء الثاني: شبهات حول أخلاق النبي ﷺ.

المجلد الثاني: الجزء الثالث: شبهات حول عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته.

الجزء الرابع: شبهات حول دعوة النبي ﷺ وتبليغـه الوحي.

المجلد الثالث: الجزء الخامس: شبهات حول نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب.

الجزء السادس: شبهات حول تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده.

المجلد الرابع: الجزء السابع: فهـارس.

ثالثًا. السنة

تم إخراج هذا العمل في سبعة مجلدات، تشتمل على اثني عشر جزءًا، بالإضافة إلى مجلد للفهارس، تـمَّ ترتيبهـا على النحو الآتي:

المجلد الأول: الجزء الأول: شبهات حول مصدر السنة وحجيتها.

الجزء الثاني: شبهات حول تدوين السنة والوضع فيها.

المجلد الثاني: الجزء الثالث: شبهات حول عدالة الصحابة (١) (الطعن في أبي هريرة).

الجزء الرابع: شبهات حول عدالة الصحابة (٢).

المجلد الثالث: الجزء الخامس: شبهات حول الأئمة والرواة.

الجزء السادس: شبهات حول دواوين السنة.

الجزء السابع: شبهات حول قضايا الإسناد والمتن.

المجلد الرابع: الجزء الثامن: شبهات حول أحاديث العقيدة (١) (الإلهيات).

الجزء التاسع: شبهات حول أحاديث العقيدة (٢) (النبوات).

المجلد الخامس: الجزء العاشر: شبهات حول أحاديث العقيدة (٣) (السمعيات).

المجلد السادس: الجزء الحادي عشر: شبهات حول أحاديث الفقه (١) (العبادات)

المجلد السابع: الجزء الثاني عشر: شبهات حول أحاديث الفقه (٢) (المعاملات وأبواب أخرى).

المجلد الثامن: الجزء الثالث عشر: فهارس.

الجزء الرابع عشر: فهارس.

ونسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل، وأن يجزي القائمين عليه خير الجزاء، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ (البقرة)، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

قالوا عن الموسوعة

العلماء الذين راجعوا الموسوعة، كتب كل منهم تقريرًا يُعبِّر عن رؤيته لها

- الأستاذ الدكتور/ **الأحمدي أبو النور .. وزير الأوقاف الأسبق**، كتب يقول:

هذه الموسوعة عمل علمي منهجي جاء في أوانه؛ لأن الواقع يتطلبه بشدة، وفَّق الله القائمين عليه، وجعله في ميزان حسناتهم.

- الأستاذ الدكتور/ **أحمد عمر هاشم .. أستاذ الحديث وعلومه، ورئيس جامعة الأزهر الأسبق**، كتب يقول:

إن موسوعة "**بيان الإسلام .. الرد على الافتراءات والشبهات**" من أقوى الموسوعات وأهمها وأبلغها، اضطلع بها وقام على إنجازها عالم جليل، وداعية مخلص نبيل، وزميل فاضل وَدُود، ألا وهو فضيلة الأستاذ الدكتور محمد داود، جزاه الله كل خير على هذه الجهود العلمية في خدمة الإسلام والقرآن والسنة النبوية.

إنها حقًّا جهود تُذكَر فتُشكَر، وهي ـ بلا شك ـ تعتبر أكبر الموسوعات وأقواها، وتتسم بطابع علمي دقيق، ومَنْحًى ديني عميق لم تُسبق إليه.

وتكاد هذه الموسوعة أن تستوعب أكثر الشبهات ـ إن لم يكن كلها ـ بالرُّدود البليغة الرائعة، وتجلية الحقائق الناصعة التي تنتصر لدين الله، وترد عن حمى الحديث النبوي الشريف كل الشبهات، وتدرأ عنه كل الافتراءات التي افتراها أصحاب الأهواء الجامحة، وأعداء السنة النبوية، ومَن لفَّ لفَّهم وسار على منوالهم.

وانطبق على من اضطلع بهذه الموسوعة هذا البيان: (يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عُدُولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين).

ولقد جاءت هذه الموسوعة جديدة في منهجها، مستوعبة كل المجالات العلمية، ومُطَوَّفة بكل الفروع الدينية ببحوث مستفيضة، واستيعاب يَجِلّ عن النظير، فهي لم تُسْبَق في ابتكارها واستيعابها.

وتأتي هذه الموسوعة في توقيت حساس، وفي منعطف خطير تمر به أمتنا الإسلامية وعالمنا الإنساني بأسره، الذي يشهد هجمات شرسة على دين الله، وعلى كتاب الله، وعلى سنة رسول الله ﷺ.

وأخذت هذه الهجمات طرقًا شتى، ووسائل متنوعة، منها ما هو مسموع، ومنها ما هو مَرئي، ومنها ما هو مكتوب، وتناولت الهجمات في عدوانها الآثم سائر فروع العلم، فكانت كالجيش العَرَمْرَم الذي ينتشر في كل زمان ومكان، يريد أن يأتي على الأخضر واليابس، لا يبقي ولا يذر.

فشاء الله تعالى أن يُقيّض للدفاع عن دينه وكتابه وسنة نبيه ﷺ من ينافح ويجاهد ويرد عدوان المعتدين، وشاء الله تعالى أن تخرج هذه الموسوعة لتكون أبلغ دفاع، وليتحقق بها الانتصار الحقيقي للهدي الرباني وللحديث النبوي،

وللكتاب والسنة وعلوم الإسلام.

لقد جاءت هذه الموسوعة مُعلنةً أن نأخذ ما أتانا به رسول الله ﷺ، وأن ننتهي عما نهانا عنه كما قال رب العزة تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧).

وقد وضَّح الرسول ﷺ وجوب الأخذ بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وقال ﷺ: «تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي، كتاب الله وسنتي»[1]، فبيَّن ﷺ أن في التمسك بالكتاب والسنة النجاة من الضلال والفتن، ما ظهر منها وما بطن.

ومن أعظم صور الجهاد في الدفاع عن الإسلام والقرآن والسنة هذه الموسوعة العظيمة التي تعتبر بحق موسوعة عالمية متبحِّرة، تدفع الباطل وتدمغه فإذا هو زاهق، وتُعلِي الحق وترفعه؛ لأن الحق أحق أن يُتَّبَع. فجزى الله كل الخير والمثوبة من قام على هذا العمل الإسلامي التاريخي، فضيلة الدكتور محمد داود، وبالله التوفيق.

- **الأستاذ الدكتور/ كمال بشر .. الأمين العام لاتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية، ونائب رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وأستاذ علم اللغة بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة، كتب يقول:**

يتعرض القرآن الكريم في الآونة الأخيرة لهجمة شرسة، اتخذت في سبيل تحقيق غرضها وسائل متعددة؛ ما بين كتب مُؤلَّفة، ومواقع على الشبكة العنكبوتية، وندوات ومؤتمرات، وأقراص مدمجة (*CD*) وغيرها.

ومن بين الشبهات التي أثاروها شبهات لغوية حول بعض المسائل اللغوية في القرآن الكريم، التي قد تَخْفَى على بعضهم، فوقعوا في تَوَهُّمٍ وصل بهم إلى أحكام غير صحيحة، ومن هنا كان الواجب على أهل الذكر النظر في هذه الادعاءات وبيان وجه الحق فيها.

ولقد وُضع في الحسبان مراعاة حال متلقِّي هذه الموسوعة من عامة المثقفين، فتم ترتيب الشبهات بحسب ترتيب الآيات والسور في القرآن الكريم؛ تيسيرًا على طالب معرفة الحق في هذه الشبهة أو تلك دون عناء في البحث، وتحقيقًا لهذا التيسير رأينا أن نخصص لكل شبهة ردًّا مستقلًّا بها، ولعل هذا النهج الذي اتبعناه في تفنيد هذه الشبهات يُوحِي بشيء من التكرار في بعض المسائل، وبخاصة في المسائل قريبة الصلة فيما بينها.

وربما يرى بعضهم منهجًا آخر في المعالجة، بحيث تُجمع الظواهر اللغوية وتُصنَّف إلى مجموعات بحسب الباب الذي تنتمي إليه، وتُعالج كل مجموعة تحت بابها؛ اختصارًا للعمل وتفاديًا للتكرار، على نحو ما صنع ابننا الدكتور محمد داود في كتابه "كمال اللغة القرآنية بين حقائق الإعجاز وأوهام الخصوم"[2].

ومهما يكن من أمر فقد اقتضى التيسير على القارئ ترتيب الشبهات بحسب ترتيب الآيات والسور في القرآن، ولا بأس بذلك.

---

١. أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: العلم، رقم (٣١٩)، وصححه.

٢. وقد نصحتُ أن يُوضَع هذا المؤلَّف مختصرًا في نهاية هذا الجزء.

لقد قمت بمراجعة هذا العمل الذي بين أيديكم مراجعة دقيقة حتى استوى على هذه الصورة التي نرجو أن تحقق الفائدة المرجوة، وأن تكون وافية لإزالة الشبهات من عقول من توهموها، مع الإشارة - أحيانًا - إلى شيء من بلاغة الكلام وفصاحته.

وفي الختام أقرر أن هذا العمل عمل علمي جاد يفيد العامة والخاصة على حد سواء، والله الموفق.

- الأستاذ الدكتور/ **محمود محمد عمارة .. أستاذ بجامعة الأزهر**، كتب يقول:

تعليق على موسوعة "**بيان الإسلام .. الرد على الافتراءات والشبهات**":

بعد الانتهاء من قراءة جزء من الموسوعة أُسجِّل انطباعاتي على النحو التالي:

أولًا: الجهد المبذول مشكور ومأجور إن شاء الله تعالى، ومن ورائِه غيرة محمودة على الإسلام ورسوله.

ثانيًا: الذين نسجوا هذه الشبهات غير مسترشدين، ولا يستسلمون للحق بعد ما تبين، ولكن هناك قطاع عريض يقدم رِجلًا ويؤخِّر أخرى، ولسوف يدخل الإسلام، وهنا قطاع من المؤمنين قد تنطلي عليهم شبهات الخصوم، فكانت هذه الموسوعة تنبيهًا لهم.

ثالثًا: ولأن سَدَنَة هذه الحملة المغرضِة لا يؤمنون بالقرآن ولا بالسنة، فلا بد من بيانٍ ما يؤكد الثقة بهذا القرآن الكريم، وبهذه السنة المطهرة، والتي جاهد علماؤنا في سبيلها حق الجهاد، فصارت عصيَّة على الرد، موثوقًا بها في تقرير ما نحن بصدد تقريره، والله الموفق.

- الأستاذ الدكتور/ **محمد نبيل غنايم .. أستاذ ورئيس قسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة سابقًا**، كتب يقول:

لقد اطَّلعت وراجعت الجزء السادس عشر من موسوعة "**بيان الإسلام .. الرد على الافتراءات والشبهات**"، وقد وجدته عملًا علميًّا كبيرًا، يعتمد على التحليل والدليل، ويعرض الأفكار في سهولة ويُسْر، ويوثِّق الأقوال من مصادرها.

ولم أجد فيه من الأخطاء إلا نادرًا؛ لأنه رُوجِع من قبل، وهذا دليل على العناية والاهتمام بهذا العمل الكبير؛ لذا فإني أشكر جميع القائمين عليه، وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور/ محمد داود، وجميع مساعديه، وأدعو لهم بدوام التوفيق.

- الأستاذ الدكتور/ **عبد الحميد مدكور .. أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة سابقًا، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة**، كتب يقول:

اطلعت على موسوعة "**بيان الإسلام .. الرد على الافتراءات والشبهات**"، وسعدت بذلك؛ لأنني وجدت فيها عددًا من المزايا التي ترفع من قدرها، وتُعْلِي من مكانتها، ومن هذه المزايا:

التتبُّع الدقيق للشبهات التي تجد من يرددها ويكررها، ثم الجهد العلمي في الرد عليها، بما يدحضها، ويجلِّي

حقائق القرآن حولها، ثم إنها تتميز باستخدام المنهج العقلي المنطقي في الرد، بما يظهر الطابع العقلي للأدلة القرآنية، التي قد يظن بعض الناس أن براهين القرآن مجرد براهين شرعية، على حين أنها براهين شرعية عقلية، تقوم بها حجة الإسلام في كل عصر على الخلق أجمعين.

ثم هي تقدم حقائق القرآن في لغة رصينة دقيقة، تتميز إلى جانب ذلك بالوضوح والسلاسة، وهذا مما يزيدها مقدرة على الإقناع.

يضاف إلى هذا كله أنها تخاطب جمهورًا عريضًا من القراء، وهي - بما فيها من براهين صالحة لإقناع العلماء والباحثين، وبما فيها من وضوح وتبسيط للمعارف - قادرة على مخاطبة المثقفين من غير المتخصصين دون صعوبة أو تعقيد.

أسأل الله للقائمين عليها، والكاتبين لموضوعاتها، وللمشرفين على إنجازها - أن يرزقهم الله جميعًا الأجر الجزيل على ما قاموا به من جهد طيب مبارك، وأن يتقبل عملهم خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان حسناتهم يوم يلقونه، وقد حملوا حقائق الإسلام إلى الخَلْق، وردوا عنه كيد الكائدين، وتأويل الغالين، وشبهات المبطلين، والشكر لله ثم لهم، وزادهم الله توفيقًا وقبولًا إنه سميع قريب.

- الأستاذ الدكتور/ **عبد الفتاح أبو الفتوح إبراهيم .. أستاذ ورئيس قسم أصول اللغة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات - جامعة الأزهر**، كتب يقول:

بعد الاطلاع على موسوعة "**بيان الإسلام الرد.. على الافتراءات والشبهات**". القيِّمة أُسجل الآتي:

لقد اتضح أنها عمل علميٌّ جادٌّ وموفَّق، ولقد بذل فيه القائمون والباحثون جهدًا طيبًا متميزًا بجِدٍّ وإخلاص. ندعو الله أن يكون في ميزان حسناتهم؛ وذلك حيث تتبعوا الشبهات الباطلة التي تُوجَّه إلى عصمة القرآن الكريم وكماله، وفنَّدوها بالأدلة الساطعة، والبراهين الواضحة، والحجة القاطعة؛ مما يعد ردًّا عمليًّا وعلميًّا مقنعًا على هؤلاء المرجفين والحاقدين، الذين لا يعرفون مواطن العظمة والجمال والكمال للغة القرآن الكريم، ولا يعرفون ولا يدركون الإعجاز اللغوي بهذا الكتاب المعجز الذي تحدَّى الله به الإنس والجن، فلم يستطيعوا أن يأتوا بسورة واحدة من مثله.

ولقد صِيغَت هذه الموسوعة بلغة عربية صحيحة وبليغة ودقيقة وراقية تتناسب مع عظمة المقصد، ونُبْل الهدف، وشرف الغاية.

فجزى الله خير الجزاء كل من ساهم وشارك في إنجاز هذا العمل الموفَّق، والله وحده الموفِّق والمعين، والهادي إلى سواء السبيل.

- الأستاذ الدكتور/ **محمد متولي منصور .. أستاذ اللغة العربية كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر**، كتب يقول:

في وقت كشَّر فيه الأعداء عن أنيابهم، وكالوا الاتهامات والطعنات التي توجه إلى القرآن الكريم، مصدر عِزَّة الأمة، وعنوان فخارها، تأتي موسوعة "**بيان الإسلام .. الرد على الافتراءات والشبهات**"، التي قام على إعدادها إخوة

أكارم دفعتهم الغيرة على دينهم إلى الرد على تلك الشبهات ردًّا علميًّا مدعومًا بالأدلة النقلية والعقلية، التي تدحض تلك الشُّبه، وتُبيِّن أسبابها وعِلَلها، في غير حَيْف أو جَوْر، أو اعتداء على فكر الآخر، وهذا لَعَمْري هو منهج الإسلام الذي علَّمنا إياه قوله سبحانه: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل).

ويعد هذا العمل العلمي الموسوعي ـ من وجهة نظري ـ من الأعمال الرائدة في هذا المجال، وأبرز ما يميزه أنه جمع شتات الشُّبه التي أثارها المشتبهون في هذا العمل العظيم، وتكلَّف بالرد عليها في أسلوب سهل، وقول ليِّن.

والله أسأل أن يجزي القائمين على أمر هذه الموسوعة خير الجزاء، وأن ينفع بها، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا وحسناتهم: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (المطففين).

- الأستاذ الدكتور/ **عبد المجيد محمود عبد المجيد .. أستاذ بقسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة**، كتب يقول:

تقرير عن جزء: شبهات حول مصدر السنة وحجِّيَّتها من موسوعة "**بيان الإسلام.. الرد على الافتراءات والشبهات**".

قد اطلعت على هذا الجزء من الموسوعة الحديثية، وسرَّني ما لمسته من جهد ضخم في جمعها وتصنيفها، ومن عناية ملحوظة في نسخها وإخراجها، مما يَشِي بالدوافع الخلقية والنفسية والدينية والعلمية التي صدر عنها هذا الإتقان؛ مما يؤهلها لأن تأخذ مكانتها بين الموسوعات المهمَّة.

وأتوجه بالشكر إلى الإخوة القائمين على العناية بهذه الموسوعة، كما أتوجه بالدعاء إلى الله تعالى أن يُسدِّد خطاهم، ويبارك في جهودهم، وأن يجعلها في ميزان حسناتهم. ولم أعثر عند قراءتي هذا الجزء إلا على أخطاء قليلة في النسخ، وأخرى أقل منها متعلقة بمسائل علمية، وقمت بتصويبها.

- الأستاذ الدكتور/ **أحمد يوسف سليمان .. أستاذ ورئيس قسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة سابقًا**، كتب يقول:

قرأت الجزء الثاني عشر من هذه الموسوعة المباركة "**بيان الإسلام .. الرد على الافتراءات والشبهات**"، وكان بعنوان "شبهات حول عصمة القرآن وكماله".

وقد اشتمل هذا الجزء على اثنتين وثمانين شبهة، ذكرها مؤلفوه بحَيْدة وموضوعية وتجرُّد، ثم رَدُّوا عليها ردودًا مقنعة لمن يبحث عن الحق، ويَبْغي الوصول إلى الصواب، وقد اتسمت هذه الردود بالرقي في التناول، والنصوع في الاحتجاج، والشمول، كما زادت على ذلك أنها جمعت بين الإيجاز والإطناب والتسلسل، مع التوثيق بالرجوع إلى المراجع الأصلية، والمصادر المتنوعة التي تجمع بين القديم والحديث.

وأعتقد أنها ـ الموسوعة ـ عندما تكتمل فسوف تسدُّ فراغًا كبيرًا لدى المكتبة الإسلامية المعاصرة، وتروي ظمأ

شبابنا المتعطش، وتزوده بما يحمي عقيدته، ويزيده تمسكًا بدينه.

- الأستاذ الدكتور/ **محمد صالح توفيق .. أستاذ علم اللغة المقارن، وعميد كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة**، كتب يقول:

موسوعة "**بيان الإسلام .. الرد على الافتراءات والشبهات**" تتضمن منهجًا علميًّا سليمًا، وتخلو من الأخطاء الطباعية واللغوية إلا ما ندر، وقد صوَّبناها، بالإضافة إلى المراجعات الخاصة بالمقارنات، وما يتصل بالعهد القديم، وقد صوبنا ما جاء فيها، والله الموفق.

- الأستاذ الدكتور/ **محمد إبراهيم شريف .. أستاذ ورئيس قسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة سابقًا**، كتب يقول:

موسوعة "**بيان الإسلام .. الرد على الافتراءات والشبهات**" هذا العمل ـ من أصحابه ـ عظيم في بابه؛ من حيث ترصُّدِه لسائر ما شغب به الحانقون على الإسلام وأهله، وكَشْفه لشغب هؤلاء وحقدهم، بروح عالية، وعاطفة مشبوبة، مع تتبُّع علمي موثَّق، وتحليل مناسب لعامة المثقفين من جهة، ولهذه الأعمال الموسوعية التي تلبي رغبات السواد الأعظم من المسلمين من جهة أخرى.

وهو عمل مشكور يستأهل القائمون عليه التقدير والاعتبار، مع حسن الثواب في الدنيا والآخرة.

- الأستاذ الدكتور/ **يسري أحمد زيدان .. وكيل كلية دار العلوم للدراسات العليا ـ جامعة القاهرة**، كتب يقول:

موسوعة "**بيان الإسلام .. الرد على الافتراءات والشبهات**" موسوعة جديرة بالتقدير والقراءة والاقتناء؛ حيث إنها تتناول أفكارًا مشبوهة وشبهات مغلوطة، روَّج لها أعداء الإسلام، وتبنَّاها بعض المسلمين جهلًا منهم بالحق، وتأثُّرًا بالإعلام المناهض للإسلام الصحيح، ومثال ذلك: الشبهات المثارة حول "خلافة أبي بكرٍ ﵁"، وحول "بيعة علي بن أبي طالب ﵁ للصديق"، وغير ذلك من شبهات.

وجاءت هذه الموسوعة العلمية في وقتها تمامًا؛ لتجيب عن كل التساؤلات حول الإسلام وتاريخه بكل موضوعية وحيادية، ولِتُزِيل كل لَبْس وسوء فهم عن الإسلام وتاريخه وقضاياه، ولِتَرُدَّ عن كل شبهة مثارة بالحجة والدليل والبرهان، وما أحوج المسلمين إلى اقتناء هذه الموسوعة وقراءتها.

شكر الله كل القائمين على هذه الموسوعة، وكل المشاركين فيها، وجزاهم الله خيرًا عن الذَّبِّ عن الإسلام، وكشف شبهات المغرضين وتُرَّهاتهم، وبيان أوهامهم، وانحراف أفكارهم.

- الأستاذ الدكتور/ **حسين سمرة .. أستاذ ورئيس قسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة**، كتب يقول:

موسوعة "**بيان الإسلام .. الرد على الافتراءات والشبهات**" قمتُ بمراجعة الشبهات التي تُثار حول مكانة المرأة

في الإسلام، والشبهات التي تُثار حول العبادات في الإسلام، وقد عُولجت معالجة موضوعية علمية رصينة، تُنير الطريق أمام طلاب العلم من المسلمين، وتدحض دعاوى المغرضين من المسلمين أو غيرهم الذين لبَّس الشيطان عليهم.

والموسوعة عمل علمي مهم في مجاله، قد قام عليها باحثون متميزون، وقد فنَّدوا كل ما يُثار من شبهات حول المرأة وحول العبادات في الإسلام، فجزى الله القائمين على هذه الأعمال خير الجزاء؛ لأن الأمَّة في أمسِّ الحاجة إلى مثل هذه الأعمال القيِّمة في موضوعها، السهلة في أسلوبها، المدعمة بالأدلة.

فالله أسأل أن يجزي القائمين على هذه الموسوعات خير الجزاء، وأن يجعل ذلك في ميزان حسناتهم، وصدقة جارية بعدهم، والله ولي التوفيق.

- **الأستاذ الدكتور/ أحمد قوشتي عبد الرحيم .. أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة**، كتب يقول:

قد طالعت هذا العمل الموسوعي الضخم، موسوعة "**بيان الإسلام .. الرد على الافتراءات والشبهات**"، الذي جاء في أوانه؛ حيث اشتدَّت الهجمة الشرسة على الإسلام؛ عقيدةً وشريعةً ومنهاجًا، وكَثُر الناعقون ممن لا علم لهم ولا خُلُق، فجاء هذا العمل ليسُدَّ ثغرة كبيرة، وليعطي كل قارئ ومثقف منصف زادًا يعتمد عليه في الرد على تلك الشبهات وتفنيدها.

وأسأل الله تعالى أن يسدد القائمين على هذا العمل، وأن يجزيهم خير الجزاء.

المقدمة العامة لموسوعة القرآن

بقلم أ. د/ محمد محمد داود

أستاذ بكليتي الآداب والتربية ـ جامعة قناة السويس

وعميد معهد مُعلِّمي القرآن الكريم

الحرب على القرآن:

ـ الحرب على القرآن الكريم قديمة حديثة، بدأت منذ البواكير الأولى لنزول القرآن الكريم، واندلعت نارها مع أول مجابهة مع الوثنية، وسجَّل القرآن الكريم الجولة الأولى من هذه الحرب على القرآن الكريم وقت نزوله، وسيأتي بيانها في مواضع من هذه الدراسة.

ـ واستمرت المعركة تشتد حينًا وتهدأ حينًا آخر، ومن الهجمات الشرسة التي تعرَّض لها القرآن الكريم زمن الحروب الصليبية تأليف بعض المستشرقين كتابًا بعنوان: دَحْض القرآن الكريم، كما قاموا بترجمة ألفاظ القرآن الكريم ـ وليس معانيه ـ إلى اللغة اللاتينية كمدخل إلى التحريف والتشويه، وماتت كل هذه الجهود وبقي القرآن الكريم مصونًا محفوظًا عن كل سوء.

ـ والهجمة المعاصرة على القرآن الكريم أشدُّ ضراوةً من كلِّ ما سبق؛ وذلك من خلال الفضائيات ومواقع الإنترنت، بل قام بعض الباحثين الأمريكان بتأليف قرآن مزعوم تحت عنوان "الفرقان الحق"، والمدهش في كل هذا أن القرآن الكريم هو الذي انتصر فكريًّا؛ لأن البَوْن شاسع بين كلام الله الذي جعله الله هداية ورحمة وطمأنينة لمن لاذ وآمن به، وبين تحريف البشر وزيفهم، وسيظل الصراع دائرًا بين الخير والشر.. بين الحق والباطل.. وتلك سُنَّة الله في خلقه.

ـ وكان للعلماء في كل عصر جهد مشكور في دفع هذه الشبهات ودحض هذه الافتراءات، من أبرزها:

- كتاب (الرد على ابن الراوندي الملحِد) للجاحظ (ت ٢٥٥هـ).
- كتاب (مُشْكِل القرآن) لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ).
- كتابا (التمهيد، وإعجاز القرآن) لأبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ).
- كتاب (تنزيه القرآن عن المطاعن) للقاضي عبد الجبار (ت ٤١٥هـ).
- كتاب (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) لعباس محمود العقاد.
- كتاب (شبهات حول الإسلام) لمحمد قطب.

وغير هذه الكتب كثير، بالإضافة إلى ما تعرَّض له المفسِّرون في كتب التفسير، وبخاصة:

- (معاني القرآن) للفرَّاء (ت ٢٠٧هـ).
- (الكشاف) للزمخشري (ت ٥٣٨هـ).
- (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب) للفخر الرازي (ت ٦٠٤هـ).
- (روح المعاني) للألوسي (ت ١٢٧٠هـ).
- (تفسير التحرير والتنوير) لمحمد الطاهر ابن عاشور .
- (تفسير القرآن الحكيم: تفسير المنار) لمحمد رشيد رضا.
- (مناهل العرفان في علوم القرآن) للزرقاني.

وكذا كتب إعراب القرآن الكريم قديمًا وحديثًا، ومن أبرز هذه الكتب:

- (معاني القرآن وإعرابه) للزجاج (ت ٣١١هـ).
- (إعراب القرآن) للنحاس (ت ٣٣٨هـ).
- (التبيان في إعراب القرآن) للعكبري (ت ٦١٨هـ).
- (إعراب القرآن الكريم) لمحيي الدين الدرويش... إلخ.

وأكثر المطاعن التي تُوجَّه للقرآن اليوم مأخوذة من هذه الكتب ونحوها، غاية ما في الأمر أنهم نقلوا الشبهة وأغفلوا الردَّ عليها، مع المبالغة والتنويع في عرض الشبهة حتى تتعدد الشبهة الواحدة في عشرات الصياغات؛ فيُهَيَّأ لك أنك أمام عشرات الشبهات وليس أمام شبهة واحدة، بل زادوا فوق إثارة الشبهات والافتراءات كَيْلَ التُّهم للقرآن ولنبي القرآن سيدنا محمد ﷺ وللمسلمين، وبطبيعة الحال فإن التهم والشتائم ليست شبهات، والإعراض عنها خير دواء لها.

لماذا الهجوم على القرآن ؟

هناك دوافع كثيرة للهجوم على القرآن، يمكن إجمالها في دافعين:

- **دافع نفسي:** وهو تزييف الحقائق وتحريفها تعبيرًا عن الإخفاق والعجز عن مواجهتها؛ فالعجز عن مواجهة الخصم يتحول ـ في الأعم الأغلب ـ إلى الافتراء عليه.

كما أن التلبُّس بالصفات السلبية دافع لوصف الآخرين بها درءًا للاتهام، وهو ما يُعرَف عند علماء النفس بـ "الإسقاط"؛ حيث إن الإسقاط حيلة من الحيل الدفاعية التي يلجأ إليها الفرد للتخلص من تأثير التوتر الناشئ في داخله؛ ذلك أن الغلبة إنَّما تكون للفكر الأقوى، والإسلام ـ كما يشهد الواقع ـ عقيدة وأخلاقًا هو الأقوى؛ فقوته ليست من قوة أتباعه كما في العقائد الأخرى، ولكن قوته ذاتية تتأتَّى من داخله؛ لأنه الحق، لأنه الخير، لأنه السلام والأمن، لأنه الصلة الحقيقية التي لم تتعرض لزيف أو تحريف أو تشويه.

ومن هنا كان إخفاق الغرب على المستوى الفكري والمعرفي ـ على الرغم من تفوقه سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا ـ دافعًا إلى الخروج عن العقلانية والحوار المنصف، واللجوء إلى القوة وإلى التشويه والإفساد ظلمًا وعدوانًا.

- **دافع معرفي**: وهو إخفاق الغرب في مواجهة الإسلام فكريًّا على الرغم من هزيمة المسلمين سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا في الوقت المعاصر.

ولا يزال الغرب حتى الآن يمارس فكرة إقصاء ونبذ الآخر، بمواصلة الطعن في القرآن وفي نبوة النبي محمد ﷺ، في الوقت نفسه ينعت الإسلام بأنه هو الذي يمارس إقصاء الآخر.

الفكر الاستشراقي والهجمة على القرآن:

لعلَّ من الإنصاف الذي أرساه القرآن أن نعلن أن المستشرقين ليسوا سواءً، فمنهم من وقف على الحق وأنصفه، ومنهم من أساء واعتدى.

ومن الفكر الاستشراقي الذي أسهم في الهجمة على القرآن الكريم من خلال الدراسات القرآنية هذه النماذج التي يظهر من عرضها حجم العداء للقرآن:

١) كتاب تيودور نولدكه: (تاريخ القرآن) ***Geschichte des Qorans***، وهو من أهمِّ الكتب التي ألَّفها المستشرقون في تاريخ القرآن الكريم، وقد تأثر به وبنتائجه من جاء بعده، وأصبح هذا الكتاب إنجيل المستشرقين في مرجعية الدراسات القرآنية[١].

٢) كتاب جولد تسيهر بعنوان[٢]:

Die Richtungen der Islamtschen Koranauslegnug

٣) كتاب جون وانسبرو بعنوان:

Quranic studies: Sources and methods of scriptural Interpretation

دراسات قرآنية: مصادر الكتب المقدَّسة وطرق تفسيرها.

ويُعَدُّ هذا الكتاب من أخطر كتبه؛ حيث تأثر به جانب كبير ممن جاءوا بعده في البحث القرآني أو التاريخ الإسلامي عامة.

ومزاعم وانسبرو التي أثارها في كتابه تهاوت أمام الدراسة العلمية التي قام بها الباحث: سعد بن عبد الله بن عبد العزيز الرشيد التي تحمل عنوان "كتابات إسلامية من مكة المكرمة"؛ حيث برهن الباحث على أن النقوش القرآنية التي وُجِدت مكتوبة على الصخور بمكة المكرمة تثبت ـ بشكل قطعي ـ فساد نظرية وانسبرو التي تزعم أن القرآن الكريم لم ينتج بمكة.

---

١. تُرجِم الكتاب إلى العربية.

٢. تُرجِم الكتاب إلى العربية بواسطة د. عبد الحليم النجار، تحت عنوان (مذاهب التفسير الإسلامي).

٤) كتاب دون ريتشاردسون بعنوان: ***Secrets of the Koran*** : "أسرار القرآن".

والكتاب يخلط بين الدراسات القرآنية والسياسية.

٥) كتاب نيل روبنسون بعنوان:

Discovering the qura'n: A contemporarg Approach to a veiled text

اكتشاف القرآن: مقاربة معاصرة لنص محجب.

٦) كتاب كريستوف لوكسنبورج بعنوان:

Die syro-aramaische Lesart Des Koran, Ein Beitrag zur Entschlusselung der Qur'an sprache

قراءة سريانية ـ آرامية للقرآن: مساهمة في تحليل لغة القرآن.

وكريستوف هنا ـ في الأعمِّ الأغلب ـ اسم مُستعار أو وهمي، وهي ظاهرة شاعت في السنوات الأخيرة في الهجوم على القرآن والإسلام؛ وربما كان مردُّها إلى الخوف على المؤلف الحقيقي من رد الفعل الإسلامي ضد المتطاولين على القرآن.

٧) كتاب ابن وراق بعنوان:

لماذا أنا لست مسلمًا ؟ ***Why I am not a muslim ?***

ويقدم الكتاب نقدًا لاذعًا وقويًّا ضد الإسلام في منهجيَّة علمية في العرض دون الصدق في المضمون.

وهذا غَيْض من فَيْض، أحببت أن أقف بك أخي القارئ ـ من خلال هذا العرض السريع ـ على حجم الهجمة الشرسة على القرآن الكريم، ولا أجد وصفًا أصدق ولا أبلغ في التعبير عن هذه الافتراءات من كلمة العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر: "لم يكن غرض العدو أن يقارع ثقافة بثقافة، أو أن ينازل ضلالًا بهدى، أو أن يصارع باطلًا بحق، أو أن يمحو أسباب ضعف بأسباب قوة، بل كان غرضه الأول والأخير أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الإسلامي جَرْحَى وصَرْعَى لا تقوم لهم قائمة، وينصب في أرجائه عقولًا لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تعرف، فكانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عُرِفت إلى هذا اليوم، كجرائمه في تحطيم الدول وإعجازها مثلًا بمثل، وقد كان ما أراد الله أن يكون، وظفر العدو منَّا بما كان يبغي ويريد"[1].

القرآن يزداد تألقًا وقوة في وجه الافتراءات:

من يستعرض تاريخ القرآن الكريم عبر الزمان والمكان يجد أن من بين خصائص هذا الكتاب التي تصل إلى حد الإعجاز: أنه كلما اشتد الهجوم عليه من معارضيه ومنكريه ازداد القرآن تألُّقًا وقوة؛ فحقائق القرآن الخالدة تدحض الزيف والافتراء وكل ما يثيره أعداء القرآن من شبهات... إنه بحق كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ (فصلت).

---

١. في كلمة عن إعجاز القرآن ضمن مقدمة لكتاب مالك بن نبي "الظاهرة القرآنية"، ترجمة أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين، ص٢١.

وتقوم آيات القرآن على إقناع العقل وطمأنينة القلب، وفَضْح الزيف والافتراء حتى لا يبقى أمام المتمرد إلا أحد أمرين: إما أن يؤمن عن بيِّنة، وإما أن يكفر عن بيِّنة.

والقرآن وحده هو القادر على محاورة المتمرد؛ لأنه خطاب الخالق لخلقه، وهو ﷻ أعلم بهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤﴾ (الملك).

وفي القرآن نماذج هادية في محاورة المتمرد، من ذلك الحوار القرآني مع النمروذ، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٢٥٨﴾ (البقرة).

ولأن القرآن الكريم كتاب هداية: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥).. فكل آية، بل كل كلمة، بل كل حرف فيه يحمل سرًّا من أسرار الهداية الربانية التي أودعها الله في آياته، فإذا مسَّت القلب، وتأملها العقل وجد فيها الملاذ الآمن، والحقيقة الخالدة فأسرع مستجيبًا لهدى الآيات بعد أن ملأه الإيمان والتصديق بها.

وإني لَعَلَى يقين - إيمانًا وعقلًا وتجربةً - بأن الهجمة المعاصرة على القرآن ستعود لصالح القرآن، كما كانت الغلبة للقرآن في كل الهجمات السابقة، والنصر دائمًا بالنتائج؛ فهي:

أولًا: تلفت الانتباه إلى القرآن الكريم، فتدفع العقول الرشيدة إلى البحث وإلى التأمل، وكلما بَحَثَتْ وتَأَمَّلَتْ ازدادتْ قربًا من القرآن؛ لأنه الحق والصدق.. لأنه من الله، تنزيل رب العالمين، ليس ككلام البشر الذي كلما تأمله الإنسان أدرك ما فيه من نقص وأصابه الملل، إنه كلام الله.. آياته الهادية المعجزة.. إنه الكمال المطلق، لقد أتوا إلى القرآن متشككين، وما لبثوا أن مست الهداية قلوبهم فعادوا مؤمنين، وتبارك مَن هذا كلامه!

وثانيًا: تُوقِظ المسلمين من غفلتهم أن ينصفوا القرآن من أنفسهم، بعد أن هجروا القرآن عملًا وسلوكًا وأخلاقًا، ويصحِّحوا أحوالهم حتى يكونوا مرآة صادقة لعظمة هذا الكتاب، وتتحقق فيهم الخيرية التي أرادها الله لهم بالقرآن: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

إن إحساس المسلمين بالخطر جعلهم يلوذون بالله، ويزدادون تمسكًا بالقرآن ورجوعًا إليه.

وفي كل الجولات السابقة بين القرآن وشبهات المنكرين وافتراءات الحاقدين كانت الغلبة والهيمنة للقرآن، وذلك بداية من لحظة نزوله ومحاولات الكافرين التشكيك فيه، ومحاولة صرف الناس عن سماعه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾ (فصلت).

وكانت المواجهة الحاسمة من الآيات الإلهية التي أقامت هذا التحدي لهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣﴾ (البقرة).

ولَمَّا لم يفلح فرسان البلاغة في التشكيك لجئوا إلى أسلوب آخر هو أسلوب المساومة، فحاولوا مساومة النبي ﷺ

على أن يبدِّل هذه الآيات ويأتي بآيات تشبع أهواءهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ (يونس).

ولقد عصم الله نبيه ورسوله سيدنا محمدًا ﷺ من نسيان حرف أو كلمة أو طريقة أداء لآية من آيات القرآن الكريم، وتوضح الآيات أن النبي ﷺ كان حريصًا كلَّ الحرص أثناء تلقي القرآن من أخيه جبريل ﷺ على الترديد، حتى جاءه الأمر الإلهي بعدم الاستعجال في ترديد القرآن، فقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ (١٧)﴾ (القيامة)، وقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ (٦)﴾ (الأعلى).

و"لا" هنا نافية وليست ناهية، بدليل إثبات الياء في آخر الفعل المضارع (تنسى)، والمعنى: أننا سنقرئك قراءة من حسنها وعظمتها وبركتها أنك لا يمكن أن تنسى بعدها أبدًا.

لتؤكِّد الآيات لكل متدبِّر أن الدين ليس شأنًا بشريًّا، ليس صناعة عقلية، وإنما هو تنزيل من رب العالمين.

وكان المشركون يعلنون عن عجزهم عن مواجهة القرآن بقولهم: إنه سحر، كما حدث عندما أرسلوا لسان الفصاحة والحكمة عُتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ، فلمَّا استمع إلى الآيات ومسَّت الهداية قلبه رجع إلى قريش وأخبرهم: إنه ليس بكلام بشر... فقالوا: سحرك يا أبا الوليد!

وتمر السنون، بل القرون ويتعرض القرآن لحملة أخرى من الإساءة والتشكيك والافتراءات وإثارة الشبهات، وذلك أثناء الحملة الصليبية على الشرق الإسلامي، وقام فريق كبير من المستشرقين بالتأليف ضد القرآن.. فألفوا كتابًا بعنوان "دَحْض القرآن"، وقام فريق آخر بترجمة النص القرآني نفسه - وليس المعاني - إلى اللاتينية؛ ليكون ذلك خطوة إلى التحريف والتغيير فيه والتبديل، وماتت كل هذه الجهود، وظل القرآن يزداد تألُّقًا وقوة وعظمة.

ناهيك عن الأحاديث المختلَقة والملفَّقة التي دسَّها أعداء الإسلام في السنة النبوية ضد القرآن بصورة مباشرة أو غير مباشرة للإساءة إلى كُتَّاب الوحي، وقد نبَّهَ عليها علماء السنَّة وكشفوا زيفها.

وفي واقعنا المعاصر يتعرض القرآن لهجمات شرسة على مستوى الأفراد والمؤسسات العلمية والاجتماعية، بل وعلى مستوى الأمة والدولة، بإثارة الشبهات وتأليف قرآن مزعوم.

ولعلَّ من المناسب في هذا السياق أن نلفت الانتباه إلى خصوصية من الخصائص التي انفرد بها القرآن الكريم، وهي أنه الكتاب الوحيد من بين الكتب السماوية الذي يحفظه أهله في صدورهم عن ظَهْر قلب، وهذه النسخة الفريدة المحفوظة في الصدور، والتي يتم تناقُلها بين المسلمين تلاوةً عن طريق التلقِّي شفاهةً، هذه النسخة لا يمكن أن تَمَسَّها يد التحريف والتزييف من الأعداء، وهذه النسخة المتفرِّدة في صدور الحَفَظَة تبطل كل الجهود التي تُبذَل لتحريف نسخة المصحف المكتوبة، وسبحان الله القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٩)﴾ (الحجر).

ومعلوم أن السرَّ في حفظ القرآن الكريم على هذا النحو المعجز لا يعود إلى جهد البشر، ولا إلى مكانة العرب والمسلمين، فقد مرَّت الأمة بأزمات عديدة ومراحل انكسار كالمحنة المعاصرة، ولو كان حفظ القرآن منوطًا ومرتبطًا بهم لذهب القرآن من مئات السنين، وإنما حفظ القرآن على هذا النحو المعجز الخالد يعود إلى رب القرآن.. إلى الله رب العالمين.. إلى خالق الكون.. عالم السر والعلن.. القادر على كل شيء.. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾.

ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى هذه الموسوعة (القرآن الكريم في مواجهة الشبهات) ضمن مشروع (بيان الإسلام: الرد على الافتراءات والشبهات)؛ للرد على مثل هذه الافتراءات التي تمسُّ كلام الله تعالى وخير كتبه المنزَّل على خير رسله وعلى خير أمة.

وتم إخراج هذا العمل في أحد عشر مجلدًا، تشتمل على تسعة عشر جزءًا، بالإضافة إلى مجلد للفهارس، رُتِّبت الشبهات فيها ترتيبًا موضوعيًّا، هي:

المجلد الأول: الجزء الأول: الشبهات التي تولَّى القرآن الرد عليها.

المجلد الثاني: الجزء الثاني: شبهات حول ما تُوُهِّم من أخطاء لغوية في القرآن.

المجلد الثالث: الجزء الثالث: شبهات حول التاريخ الإسلامي (١) (ما قبل الإسلام - إسلام الصحابة - هجراتهم - عالمية الإسلام وانتشاره - خلافة أبي بكر).

الجزء الرابع: شبهات حول التاريخ الإسلامي (٢) (خلافة عمر - الفتنة الكُبرى - الخلافة الأُموية - الخلافة العباسية).

الجزء الخامس: شبهات حول النظم الحضاريَّة في الإسلام.

المجلد الرابع: الجزء السادس: شبهات حول العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد (الألوهية - الربوبية - الأسماء والصفات).

الجزء السابع: شبهات حول الإيمان والتدين (الإيمان بالغيب - القضاء والقدر - الفرق والمذاهب الفكرية).

المجلد الخامس: الجزء الثامن: شبهات حول مقارنة الأديان.

المجلد السادس: الجزء التاسع: شبهات حول الأنبياء والرسل (١) (من آدم عليه السلام إلى موسى عليه السلام).

الجزء العاشر: شبهات حول الأنبياء والرسل (من داود عليه السلام إلى محمد ﷺ).

المجلد السابع: الجزء الحادي عشر: شبهات حول سلامة القرآن وتمامه.

الجزء الثاني عشر: شبهات حول عصمة القرآن وكماله.

المجلد الثامن: الجزء الثالث عشر: شبهات حول العبادات والمعاملات الاقتصادية في الإسلام.

المجلد التاسع: الجزء الرابع عشر: شبهات حول العلاقات الدولية في الإسلام (الجهاد - الرِّق والتَّسرِّي - العلاقات السلمية).

الجزء الخامس عشر: شبهات حول السياسة الجزائية في الإسلام (الحدود والعقوبات - القصاص والدية - التعزيرات).

المجلد العاشر: الجزء السادس عشر: شبهات حول أصالة التشريع الإسلامي وعدم تبعيته.

الجزء السابع عشر: شبهات حول مرونة التشريع الإسلامي وصلاحيته لكل زمان ومكان وحال.

المجلد الحادي عشر: الجزء الثامن عشر: شبهات حول المرأة وحقوقها في الإسلام.

الجزء التاسع عشر: شبهات حول أحكام الأسرة في الإسلام.

المجلد الثاني عشر: الجزء العشرون: فهارس.

الجزء الحادي والعشرون: فهارس.

ونسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل، وأن يجزي القائمين عليه خير الجزاء، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ (البقرة)، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

محمد داود

منهجُ القرآن الكريم في الرَّدِّ على المخالفين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ، وبعد:

فإن الإسلام يواجه في العصر الحديث ـ وبخاصة في العقود الأخيرة منه ـ عاصفة عاتية من الأباطيل والافتراءات والمزاعم والدعاوى وحملات التشكيك في كتابه ونبيّه وتاريخه ورجاله وشريعته وعقيدته وأخلاقه وحقائقه وثوابته وشعائره.

ويقصد خصوم الإسلام من وراء ذلك تشويهَ صورته في أذهان المسلمين أنفسهم وفي أذهان غيرهم، وإثارةَ الزعزعة والبلبلة لدى معتنقيه وحديثي العهد به من غير العرب، وما ذاك إلا لأنهم يعتبرون الإسلام عدوهم اللدود الذي ينبغي محاربته والقضاء عليه.

ولذا وجدنا أعداء الله ﷻ يطعنون في الإسلام من جميع ميادينه؛ فهم يحاولون النيل من شخصية النبي الكريم محمد ﷺ، كما يحاولون النيل من تاريخه وحضارته، وهم في سبيل ذلك ينتقون فترات الضعف في التاريخ الإسلامي فيركزون عليها مبرزين الخلافات والنزاعاتْ والخصومات، كما يعمدون إلى تدمير الشخصيات الإسلامية النابغة والأعلام المصلحة البارزة أمثال: أبي هريرة، والشافعي، والغزالي، وابن تيمية، وغيرهم، هذا بالإضافة إلى محاولة إعلاء شأن شخصيات تتفق مع مخططاتهم ورغباتهم، مستغلين ضعف المسلمين الحالي وتخلفهم في ميادين البحث العلمي كافة، وقعودهم عن ركب الحضارة والأخذ بأسبابها، ثم يحاول هؤلاء المغرضون النيل من القرآن الكريم، وذلك عن طريق وصفه بالتناقض والاضطراب، ومخالفته للعقل، والعلم الحديث، وغير ذلك من ترهاتهم.

وما كان اهتمامهم بهذا إلا لإدراكهم أنَّ مصدرَ عزة هذا الدين، وسرّ تجدده في نفوس المسلمين هو هذا القرآن العظيم، الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَق على كثرة الرَّدِّ، ولا يزداد به المؤمن إلا إيمانًا ويقينًا؛ إذ هو المعجزة الخالدة ما بقي الليل والنهار، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ (الحجر).

ولَمّا كانت هذه هي منزلة القرآن الكريم اجتهد أعداء الإسلام في إثارة الأباطيل والمزاعم وحملات التشكيك فيه، وهم يدركون أنّه بالتشكيك في كتاب المسلمين المقدس عندهم ينسلخ المسلم من إسلامه؛ لأنَّ القرآن هو أساس هذا الدين وأصله الأول ومصدره الرئيس، ولذا كانت الحرب على القرآن هي أخطر الحروب وأشدها وأشرسها، رغم تنوع هذه الحروب على كل ما هو إسلامي، وما ذاك إلا لأنهم يؤمنون بأن ذهاب الأصل يؤدي بالضرورة إلى ذهاب الفروع، كما هو مقرَّر لكل ذي عقل.

ولذا، فمن الضرورات التي أصبحت مُلِحّة الآن أكثر من أي وقت مضى تأسيس علم جديد يقوم على كشف الشبهات ورد الأباطيل، والافتراءات، وتصحيح المفاهيم والأخطاء، إلى غير ذلك.

وهذا العلم لا بد أن يقوم بتحرير الفكر ودراسة المصطلحات المتداولة، وبيان وجهة نظر الإسلام فيها، وإبراز

مفاهيم الإسلام بصورة جليَّة.

وإننا نعتقد اعتقادًا جازمًا أنَّ الإسلام بقوته الذاتية النابعة من القرآن الكريم قادرٌ على كشف الزيف، ودحض الشُّبَه، وإبطال الباطل، وإحقاق الحق.

وها نحن نبين منهج القرآن في حواره مع الآخرين؛ موضحين خصائص المنهج القرآني في دعوته للآخرين، ثم أهم القواعد والضوابط والمبادئ التي أرساها القرآن من خلال محاوراته مع خصومه، التي يمكن أن نستضيء بنورها في الردّ على المخالفين الآن من خلال حوارنا الفكري معهم على المستويات كافة.

ولا شك أنّ لغة الحوار هي تلك اللغة التي تسود في الأوساط الفكرية اليوم، وهي من قبل ذلك تمثل جانبًا من منهج القرآن الكريم في دعوة الآخرين إلى مبادئه وأصوله، وللقرآن منهج واضح في حواره مع الآخرين، هذا المنهج ذو خطوات منظمة وقواعدَ متَّبعة في مناقشة أيِّ قضية لاكتشاف حقيقتها، وإقامة البراهين على صحتها إذا كانت مجهولة للآخرين، أو مغلوطة في أفهامهم، أو منكورة لديهم.

وهذه الخطوات المنظمة وتلك القواعد المتبعة تتضح في جميع القضايا التي عالجها القرآن مع الآخرين، كقضية التوحيد والعقيدة، والنبوة والرسالة، والإيمان والكفر، ونزول القرآن الكريم، والأحكام التشريعية، ودحض التقاليد الجاهلية.

فالقرآن الكريم يدعو في حواره مع الآخرين إلى النظر والمشاهدة، وإعمال العقل، والتجريب، وجمع الأدلة، وسؤال المتخصصين، والتحرر من الأهواء والميول والجهالات والدعاوى القائمة على الظن، وردّ المزاعم التي لا دليل ولا برهان عليها، والتدبر في حِكم الأمور، وتفهم الحجج والبراهين والأدلة، وضرب الأمثال، والتخلّص من التعصب، وقراءة التاريخ والواقع، وترك الغرور والعناد والافتراء، والتركيز في محل النزاع، ونبذ التقليد والمغالطة، واستنباط المعاني والعلل، وبناء النتائج على المقدمات، وغير ذلك من الاستدلالات العقلية.

ويمكننا في هذه السطور القليلة أن نبيّن أهم خصائص منهج القرآن في دعوته للآخرين وحواره معهم، ومن ذلك:

١. **الشمول**: فقد غذّى القرآن النفس البشرية بكل الأدلة المقنعة الدالة على صدق تعاليمه وأحكامه ومبادئه التي يدعو إليها، حيث غذّى عقلها ووجدانها وأحاسيسها، وضرب لها الأمثال، ونوّع في هذه الأدلة، وكررها للتأكيد، واستعمل البراهين القاطعة، والمنهج التاريخي والنقلي والعقلي والعملي الواقعي، ودحض دعاوى الخصم، وبيّن الحِكم من الأوامر الإلهية، ودعا إلى تدبر آياته بعيدًا عن التعصب والتقاليد البالية والأفكار السابقة، وأوجز في الرد وأبلغ، فكانت أدلته شاملة غنية وافية قيّمة لا تترك الإنسان إلا مقتنعًا بما يُدْعَى إليه، فما ترك القرآن شاردة ولا واردة إلا وأقام عليها الدليل.

٢. **الوضوح**: فبالإضافة إلى شمول هذه الأدلة، نجدها واضحة قريبة إلى عقل الإنسان وقلبه؛ حيث لم يسلك

القرآن مسالك الفلاسفة الغامضة الملتوية، ولم يسلك مسالك المتكلمين الجدلية المُشْكِلَة، وإنما جاء بأدلة قريبة للناس جميعًا على اختلاف مستوياتهم وأفهامهم، فأدلته وحججه يسمعها العالِم فيخشع، والجاهل فيخضع، والمتعصب فيرجع، وصاحب الفكر السَّوِي فيؤمن، إنها أدلة تعالج النفس الإنسانية فتأخذها إلى الهداية من أقصر الطرق، فلا يستطيع منكر أن يقف أمام القرآن مجادلًا مخاصمًا.

٣. **الاستقصاء**: فالقرآن قد استقصى كل الأدلة على كل قضية يدعو إليها، فلم يترك دليلًا يقنع إلا ذكره، وما ذلك إلا ليربِّي النفس ويتم لها رشدها وكمالها، فهو يسوق الدليل إثر الدليل والحجة إثر الحجة؛ حتى يقتنع الإنسان كل الاقتناع، ويسلم لما يدعو إليه القرآن، فيسلم وجهه لله ﷻ، وكأن القرآن بذلك يسدّ على النفس كل منافذ الضلال حتى تستقيم لله ﷻ.

٤. **التكرار**: وهذا من خصائصه الواضحة، فقد ذكر القرآن كثيرًا من الأدلة بحيث إذا أفلتت النفس من دليل أسرها دليل آخر، وإن هربت من حجة جاءتها حجة أخرى.

وهذه الأدلة حين تتكرر إنما تتكرر بأسلوب مغاير، فإن استمع الإنسان إلى دليل عقلي ما ملكَ عليه عقله، واستمع إلى دليل آخر يختلف في عرضه وطريقته عن الدليل الأول ازداد اقتناعًا، فلا غناء بدليل عن دليل آخر.

وبعد أن بيَّنا أهم خصائص منهج القرآن في حواره مع الآخرين ودعوته لهم يمكننا أن نوضح فيما يلي أهم القواعد والضوابط والمبادئ التي أرساها القرآن الكريم في حواره مع الآخرين، ومناقشته لهم، وهي تزيد على عشرين قاعدة تمَّ استنباطها من خلال الحوار القرآني مع الآخر.

* * * * *

قواعد المنهج القرآني وضوابطه في الحوار مع الآخرين

١. رفض الدعاوى الخالية من الدليل وطرح الاتهامات المفتقدة إلى برهان:

هذا مبدأ رئيس قرره القرآن الكريم، ونبّه عليه غير مرة، فالحق في القرآن الكريم هو ما قام عليه الدليل القاطع، والبرهان الساطع، ولا خلاف على هذه القاعدة القرآنية عند أصحاب المنهج العلمي في التفكير، ولذا فإن كل دعوى عارية عن الدليل مردودة، وكل اتهام خالٍ من البرهان هو مجرد زعم وافتراء وباطل لا أساس له، وكل قول لا حجة تؤيده فهو جهالة لا قيمة لها عند أصحاب العقول السليمة، وهكذا يعلمنا القرآن التزام الطرق الصحيحة في الجدل والبحث والمناظرة لإثبات الحقيقة، وهو مبدأ صاغه العلماء بقولهم: "إن كنت ناقلًا فالصحة، أو مُدَّعيًا فالدليل"، لكن القرآن سبقهم بقوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الزمر)، وتبعًا لهذا المبدأ القرآني العلمي نجد القرآن الكريم يرد كل قول لا دليل عليه، وصدق القائل حين قال:

والـدَّعاوَى مـا لم تُقِيمـوا عليهـا بيِّنـاتٍ أبناؤهـا أدْعِيـاءُ

ومن النماذج الدالة على ذلك ردُّ القرآن على اليهود والنصارى في افتراءاتهم وادِّعاءاتهم حين زعموا أنه لن يدخل الجنة إلا مَن كان على ملتهم، فيقول الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾ (البقرة).

وحين زعموا أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة ثم ينجون منها بعد ذلك، أكد لهم القرآن أن هذا القول لا يمكن التسليم به إلا بعهد من الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)﴾ (البقرة).

وحين ادَّعى المشركون أنهم يستطيعون الإتيان بمثل القرآن، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ (الأنفال:٣١) تحدَّاهم الله ﷻ أن يأتوا بدليل يبين صدق زعمهم بأن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور مثله مفتريات، أو بسورة منه؛ فلم يستطيعوا، فصارت دعواهم باطلة، قال ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ (الإسراء)، وقال ﷻ أيضًا: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾ (يونس).

كما ردَّ الله ﷻ على اليهود والنصارى في افترائهم على الله كذبًا أنه اتخذ ولدًا، وأيضًا ردَّ على المشركين في زعمهم أن الملائكة بنات الله، فقال ﷻ: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨)﴾ (يونس)، وقال ﷻ أيضًا: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤)﴾ (الصافات)، فأثبت القرآن أن قولهم عارٍ عن البرهان والدليل؛ فهو زعم وافتراء وجهالة، وما هو في الحقيقة إلا كذب صراح.

٢. طرح الدعاوى القائمة على الظن والوهم:

وهذا مبدأ قرآني مقرر لا خلاف عليه أيضًا في المناهج العلمية، فكما أن المنهج العلمي لا يرفع الحدس والتخمين والفرض إلى مستوى النظرية، فالقرآن قبل ذلك يؤكد أن الظن لا يغني من الحق شيئًا، ومن هنا يهدم كل دعوى قامت على الظن والخَرْص[1]، ويرفض كل قول لا يرتقي إلى أدنى درجة من العلم.

ومن النماذج القرآنية الدالة على ذلك ما ردَّ به القرآن على أولئك المشركين الذين اعتذروا عن شركهم بالله ﷻ محتجين بالقَدَر، فقال ﷻ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨)﴾ (الأنعام)، فبيّن القرآن لهم أن قواعد الدين لا تُبنى على أساس من الخرص الذي هو أضعف الظن، وإنما تُبنى على العلم

---

١. الخَرْص: الحَدْس والتَّخمين.

اليقيني والحجة الظاهرة، ولذا قال ﷻ عقيب ذلك: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ (الأنعام: ١٤٩)، وقال ﷻ كذلك: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (يونس)، وقال ﷻ أيضا: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ (النجم: ٢٣)، وقال ﷻ ردًا على الدهريين: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الجاثية).

وهكذا يثبت القرآن هذه القاعدة الأصيلة في البحث العلمي، وهو أن الظن لا يرتقي بحال إلى مستوى اليقين.

٣. المناقشة العقلية التي تعتمد على قواعد العقل وبدهياته ومسلماته:

وهذا أيضًا من منهج القرآن وطريقته، فهو يخاطب العقل؛ لأنه هو القاعدة التي ينطلق منها كل إنسان في الوعي عن الله؛ فهو بمثابة الدليل، وبه يكمل العلم والعمل.

ويحثنا القرآن على استعمال العقل وعدم تعطيله، وذلك في مواضع عديدة منه، قال ﷻ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (البقرة)، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ (آل عمران)، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ (الرعد)، وينعي الله على الذين يهملون عقولهم فلا يتدبرون ولا يتفكرون، قال ﷻ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ (البقرة)، وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنفال)، وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (يس).

وطريقة القرآن في النظر العقلي تعتمد على الوضوح والبيان، ومن ذلك استخدام طريقة السبر والتقسيم في مُحاجّة الزاعمين تحريم ما لم يحرمه الله، كما في قوله ﷻ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ (الأنعام)، فقد استعرض القرآن الفروض والاحتمالات المناسبة لما يقولون ثم أبطلها، منتهيًا بهذا الاستقراء إلى النتيجة والحكم عليهم بأنهم أظلم الناس، ومن ذلك التسليم بفرض المحال جدلًا لينتقل بالمعاند إلى النتيجة المترتبة على دعواه، كقوله ﷻ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ (المؤمنون).

ومن ذلك المناقضة، وهي التعليق على المحال، ليكون ما عُلّق عليه محالًا أيضًا، كقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ (الأعراف: ٤٠).

ومن القواعد العقلية في القرآن أيضًا بناء النتائج على المقدمات، والتسوية بين المتشابهين، والتفرقة بين المختلفين، وأن الشهادة لا تكون إلا عن علم، وأن الفعل لا بد له من موجد، واستعمال القياس العقلي، واستخدام برهان الخلف، وإلزام الخصم بما يعترف به هو مما هو مشاهد محسوس، والتزام الطرق الصحيحة وقبول النتائج التي تؤدي إليها الأدلة الصحيحة، وغير ذلك مما لا ينكره العقلاء، ومن هنا فلا يستطيع العقل أن يفلت من أسر هذه

القواعد والمسلمات فلا يملك معها إلا التسليم.

ومن النماذج القرآنية في المناقشات العقلية مع الخصوم ما ردّ الله به على أولئك المفترين عليه كذبًا أنه اتخذ ولـدًا، فبيّن لهم أن الولادة تنشأ عن ازدواج بين ذكر وأنثى من جنس واحد، وهو سبحانه ليس له جنس فيكون له منـه زوج، قال ﷻ: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ (الأنعام: ١٠١).

فكيف يكون له ولد ولم يكن له صاحبة ينشأ الولد من ازدواجه بها؟! ولا معنى للولـد إلا مـا كـان كـذلك في عرف كل عاقل من العقلاء، وهكذا تُبنى النتائج على المقدمات.

وأيضًا ردّ الله على مَن زعموا أن الملائكة بناته فقـال: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾ (الزخرف: ١٩)، فهـل شـاهدوا خلـق الملائكة فحكموا عليهم بأنهم إناث؟! كما يقرر القرآن قاعدة أصيلة في المناقشة العلمية وهـي أن الـشهادة تكـون عـن علم، قال ﷻ على لسان إخوة يوسف ؈: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ (يوسف: ٨١).

ومن الأدلة العقلية التي صاغها القرآن لإثبات قضية التوحيد وانفراد الله ﻷ بالألوهية قوله ﷻ: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢)، وهو دليل عقلي واضح نقي لا ينكره أحد، معنـاه: أن الفـساد امتنـع لامتنـاع تعـدد الآلهة، وامتناع الفساد واضح وظاهر، فليس ثمة فساد في حركة الكون بـل كـل القـوانين الطبيعيـة تجـري عـلى سـنن مرسومة، ولو كان هناك آلهة معبودون غير الله لبطل نظام الكون، نظرًا لوجود تضارب في رغبات كل إله مـع الآخـر، وهذا برهان قاطع وحجة بالغة، والعلم الحديث يؤكد ذلك، فقد أثبت العلماء والباحثون أن الكون لا يمكن أن يسيِّره أكثر من إله، وتلك الحركة العجيبة فيه لا تكون إلا بفعل مدبر حكيم، وهذا العالم لا يمكن أن يكون إلا من صنع إلـه مبدع أتقن كل شيء خلقه، ولذا لم نجد في المشركين القدامى من يزعم أن هذا الكون قائم بنفسه مخلوق بذاته، قال ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (لقمان: ٢٥)، إلا أننا نجد اليوم من يزعم ذلك الزعم المتهافت.

ومن الأدلة كذلك قوله ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (المؤمنون: ٩١)، والمعنى واضح معروف، وهو يسمَّى عند المتكلمين بدليل التمانع.

ومن ذلك أيضًا استعمال القرآن للقياس العقلي[١] في الرد على من أنكروا البعث والمعاد والحياة بعد الممات، محتجين بآبائهم الذين مَضوا ولم يرجعوا، فيقيم القرآن الحجة عليهم عن طريق القياس العقلي، حيث إن الذي قدر على إخراجهم من العدم أول مرة قادر بطريق الأولى على الإعادة مرة أخرى بعد الممات، قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (الروم: ٢٧)، وقال أيضًا: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (الجاثية: ٢٦)، ومن ذلك رد الله ﻷ على اليهود والنصارى في دعواهم أن إبراهيم ؈ كان يهوديًّا أو نصرانيًّا، فقال ﷻ:

١. القياس العقلي: بيان حُكم أمرٍ غير منصوصٍ على حكمه وذلك عن طريق إلحاقه بأمر معلوم حكمه بالنص عليـه في الكتـاب والـسنة؛ للاشتراك بينهما في عِلّة هذا الحكم.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (آل عمران).

فكيف يدَّعي اليهود والنصارى أنه كان يهوديًا أو نصرانيًا، وإنما كان زمنه ﷺ قبل مجيء اليهودية والنصرانية، وقبل إنزال التوراة على موسى بزمن بعيد، وتلك حجة عقلية بدهية، ولذا قال ﷻ: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾؛ أي: أفلا تفهمون دحوض حجتكم وضعف قولكم وبطلان دعواكم؟!

ومن ذلك أيضًا ما ردّ القرآن الكريم به على عُبّاد الأصنام والأوثان التي هي جمادات لا تملك شيئًا؛ قال ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴿٣﴾ ﴾ (الفرقان)، وهذا تبكيت لهم لسخافة عقولهم؛ حيث يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، وتلك دلالة عقلية؛ لأن من فقد صفات العاقل من السمع والكلام وغير ذلك لا يكون إلهًا، وتلك عين الحجة التي أقامها نبي الله إبراهيم ﷺ على قومه في عبادتهم للأصنام؛ حيث قال لهم: ﴿ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الأنبياء).

وكذلك رد القرآن على اليهود والنصارى في افترائهم وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، فقال ﷻ: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ (المائدة: ١٨)، والمعنى: إذا كان الأمر كما تزعمون فَلِمَ يعذبكم الله ﷻ في الدنيا؛ حيث مسخكم قردة وخنازير، وكما اضطهدت الأمم النصارى ونكلت بهم، ولِمَ أعدّ لكم في الآخرة عذابًا أليمًا على كفركم، ومعلومٌ أن المحب لا يعذب حبيبه، والأب لا يؤلم ابنه، فلستم إذًا أبناء الله ولا أحباءه، فبطل ما تدعون؟! وهذا الردّ يسميه الجدليون برهان الخلف، أو قياس الخلف، وهو إثبات المطلوب بإبطال نقيضه؛ لأن النقيضين لا يجتمعان ولا يخلو الواقع من أحدهما، وذلك كقوله ﷻ في إثبات وحدانيته: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الأنبياء)، ففساد الأمر الذي يقوم عليه اثنان كل منهما يدَّعي أنه الأعلى أمر لا يشك فيه أحد، وهو ردٌّ عقلي مفحم، وأدلة القرآن العقلية أكثر من أن تحصى.

٤. الجمع بين العقل والنقل في الرد:

ومن منهج القرآن وطريقته في الرد أيضًا أنه قد يجمع في الرد بين الدليل العقلي والدليل النقلي، ومعلوم لدارسي المناهج العلمية أن المنهج النقلي لا يستغني عن التأمل العقلي، والعكس صحيح، فالتعاون بين المناهج حقيقة علمية لا شك فيها، وقد استعمل القرآن ذلك، فأحيانًا يأتي الرد مكتسبًا قوته من الطريقين معًا، طريق العقل وطريق النقل.

ومن النماذج القرآنية الواضحة في ذلك ردّ القرآن على المشركين الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة -رجالًا ونساء- زاعمين أن آباءهم كانوا كذلك، وأن الله أمرهم بهذا، فبيّن الله ﷻ لهم أن ذلك الفعل فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك فكيف تسندون إلى الله ما لا تعلمون؟! وهذا تكذيب لهم من طريقي العقل والنقل.

فمن طريق العقل يتضح أن هذا الفعل من القبائح والفواحش، والله منزه عن الأمر بمثل ذلك؛ لأنه تعالى لا

يأمر بالفحشاء، ولا يأمر بها إلا الشيطان، قال ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ (الأعراف: ٢٨)، وقال أيضًا: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ (البقرة: ٢٦٨)، وأما طريق النقل فهو أن ما يسند إلى الله ﷻ لا يثبت بمجرد الدعوى، بل يجب أن يُعلم بوحي منه ﷻ إلى رسولٍ من عنده، ولم يثبت ذلك، فبطل ما تدَّعون، ولذا قال ﷻ: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأعراف)، ومن ذلك ردّ نبي الله شعيب عليه السلام على قومه الذين كانوا يطففون في الميزان، زاعمين أن أموالهم ملك لهم يفعلون فيها ما يشاءون، وهم راضون فيما بينهم بالبخس، فبيَّن لهم نبي الله أن ما تواطأت عليه العقول الرشيدة وتوافقت عليه الفِطَر السليمة هو إيفاء الناس حقوقهم مما يكال أو يوزن بغير بخس ولا نقص، بحيث يأخذ كل إنسان حقه بالعدل، ومن هنا يمتنع التعدي والظلم، والعداوة، والبغضاء بين الناس، وهذا دليل عقلي لا يختلف عليه العقلاء، قال ﷻ على لسان نبيه شعيب عليه السلام: ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (هود).

ثم بين لهم شعيب عليه السلام كذبهم فيما ادَّعوا من أن الأموال ملكهم على وجه الإطلاق، فعرفهم ما جهلوه من أن المال مال الله، وأن الله هو الرازق، وما أموالهم إلا رزق الله لهم، فالمال ماله على الحقيقة، وهم مستخلفون فيه فحسب، وهذا يتضح في قوله عليه السلام لهم: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ (هود: ٨٨)، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ (هود)، فالله هو الحفيظ عليكم في أقوالكم والمراقب لكم في تصرفاتكم في أموالكم، فما ينبغي أن تتصرفوا فيها إلا بما يوافق الحق والعدل، والقسط الذي هو مراد الله، أما نقص الناس حقوقهم فهو عين الظلم والفساد في الأرض.

٥. الاستدلال بالمذهب الكلامي الصحيح:

من منهج القرآن وطريقته في الرد على خصومه الاستدلال بالمذهب الكلامي على طريقة المتكلمين الصحيحة.

ومن النماذج القرآنية الدالة على ذلك على ما ردّ الله به على الكافرين الذين زعموا أن محمدًا ﷺ قد افترى القرآن من عند نفسه، فقال ﷻ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (الحاقة)، ومعناه: أن محمدًا ﷺ لو تقوَّل على الله ما لم ينزله لعاجله بالعقوبة، وهذا استدلال بما هو مقرر في الأذهان من أن الله ﷻ واسع القدرة والعلم، فلا يقدر أحد على أن يقول عنه كلامًا لم يقله، فلو ادَّعى محمد أن القرآن من عند نفسه ما أقرَّه الله على ذلك ولعاجله بالعقوبة، فعدم هلاكه ﷺ دليل على عدم تقوُّله ذلك على الله، وبهذا يُتوصَّل إلى النتيجة الحتمية وهي نفي بشرية القرآن، وإثبات كونه منزلًا من عند الله، وهذا الاستدلال معروف عند المتكلمين.

٦. ضرب الأمثال في أثناء الرد لتوضيح الفكرة وتقريبها وإقناع المخاطب:

لضرب المَثَل[1] فوائد عديدة، ومن منهج القرآن وطريقته ضرب الأمثال في حواره مع الخصوم، ومثيري

---

١. المَثَل: العِبْرة والعِظَة والحُجَّة والدليل.

الشبهات، فمن فوائد ضرب المثل في القرآن الكريم:

- تقريب الفكرة إلى ذهن السامع؛ حيث يتصور الأمر الذي يسمعه كأنه مثال حيٌّ مجسد أمامه في صورة حية ملموسة متحركة؛ فيهتدي إلى الحق ويقتنع بما يقال.
- معرفة العاقل والعالم من غيرهما، فالذين يعقلون الأمثال هم العالمون، قال ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (العنكبوت).
- إن الأمثال تُخرج ما لا يقع عليه الحس إلى ما يقع عليه، وما لا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بهذه البديهة، وما لم تجرِ به العادة إلى ما جرت به العادة، وما لا قوة له من الصفة إلى ما له قوة.
- يستفاد من ضرب الأمثال في القرآن أمور كثيرة، مثل التذكير والترغيب والتنفير والمدح والذم والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المواد للعقل وتصويرها بصورة المحسوس؛ فإن المتمثل كالصانع الذي يقدر صناعته، وكأن المثل سُمِّي مثلًا؛ لأنه يمثّل في الخاطر ويثبت معناه في النفس فيظل ماثلًا حاضرًا مؤثرًا.

وإنما يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يهتدون إلى الإيمان وينعمون باليقين الذي جعله الله نورًا للقلوب، وهداية للنفوس، واطمئنانًا للأرواح، فالأمثال أقوم في الوعظ وأقوى في الحجة وأبلغ في الإقناع، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الزمر).

والأمثال التي يذكرها الله ﷻ في القرآن إنما تقرب للنفوس حقائق الهداية، وهي صور ملموسة حية لا يقف منها موقف الشك إلا كل معاند متكبر، والأمثال في القرآن كثيرة متنوعة، فمنها الأمثال الصريحة وهي كثيرة في القرآن، ومنها الأمثال الكامنة، ومنها الأمثال المرسلة التي يصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيها، وهذه الأمثال بأنواعها توشك أن تكون واقعًا حيًّا يخاطب النفس البشرية فيقودها إلى الحق، ولم تأتِ هذه الأمثال عبثًا أو سُدًى، وإنما لِحِكَمٍ بالغات، وغايات نبيلات، وعبر وعظات، تقود الإنسان إلى الاستسلام لله، والاقتناع بما في كتابه من أوامر ونواهٍ، وأخلاقٍ وأحكام، وعلاج للأمراض، وعبادات وتشريعات، ومعالجةٍ لأدواء النفس، وتهذيب لسلوكها، وتعديل لطرائقها، وبيان للعواقب الوخيمة، وتثبيت لقلوب المؤمنين، وإضلال للكافرين والظالمين، وإظهار لرحمة الله وفضله حتى تستقر المعاني في القلوب، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ومن النماذج القرآنية التي جاء فيها استخدام المثل للإقناع وتوضيح الفكرة ما ردّ الله به على المنكرين للبعث والمعاد وإعادة الخلق مرة أخرى بعد الموت، فيرد القرآن على أحد هؤلاء الذين استبعدوا إحياء العظام بعد تفتتها، فقال ﷻ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ (يس)، فقد ضرب الله المثل بالشجر الأخضر الذي يُوقد منه النار،

فإن الله بدأ خلقه من ماء حتى صار أخضر نضرًا ذا ثمر، ثم أعاده حتى صار يابسًا توقد به النار، وهذا استدلال في غاية الوضوح لكل من عقل ذلك المثل.

ويردُّ الله ﷻ أيضًا على الذين عبدوا من دونه أصنامًا وأوثانًا عن طريق ضرب مثل واضح، وهو أن هذه الآلهة التي يدْعونها من دون الله لا تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة، بل إن هذه الآلهة عاجزة عن مقاومة الذباب والانتصار منه لو سلبها شيئًا، والذباب من أضعف المخلوقات، فدلَّ ذلك على ضعف هذه الآلهة، فكيف يدْعونها من دون الله وهي لا تدفع عن نفسها ضررًا ولا تستطيع أن تخلق شيئًا، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ۝٧٣﴾ (الحج).

وهذا مثل في غاية الوضوح، وفيه إشارة إلى سخافة عقولهم، وسفاهة أحلامهم، حيث يدْعون مَنْ هذا حاله.

كما يرد القرآن على هؤلاء المشركين أيضًا - في القضية السابقة نفسها - بمَثَل آخر واضح لا خلاف فيه، وهو يوضح عدم استواء المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي يعبد الله وحده لا شريك له، قال ﷻ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ (الزمر: ٢٩)، فالعبد المشترَك يتنازع فيه شركاء متشاكسون، والعبد الخالص لا يملكه غير صاحبه، فهل يستوي هذا وذاك؟! وكذلك لا يستوي عند الله من آمن به وحده، ومن أشرك معه آلهة أخرى.

ويردُّ الله أيضًا على المشركين المتعجبين من تخصيص النبي ﷺ بإنزال الذكر عليه دون غيره، فيضرب الله مثلًا واضحًا ظاهرًا من حياتهم الدنيا، وشاهدًا يقيسون الأمور عليه، وهو أن الله قسم بينهم معيشتهم؛ فمنهم الغني والفقير، والقوي والضعيف، كما سخَّر بعضهم لبعض، ورفع بعضهم فوق بعض، فإذا كانوا بهذه الحال في الحياة الدنيا ومعيشتها، فكذلك الحال في تخصيص بعضهم بالتبليغ والرسالة دون بعض، قال ﷻ: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾ (الزخرف: ٣٢)، فهذا وجه الاستدلال لو كانوا يفهمون الأمثال ويعقلون الأمور.

٧. نقض الدعوى جملة وتفصيلا:

من منهج القرآن وطريقته في محاورة الآخر، وبيان خطأ فكرته ومدى كذبه في دعواه أنه يبدأ أولًا بإبطال دعوى الخصم على وجه الإجمال، وهذا ما يسمَّى في علم المناظرة نقضًا إجماليًّا، ثم يرتقي في الرد فيبين خطأ الدعوى على وجه التفصيل، وهذا ما يسمَّى في علم المناظرة نقضًا تفصيليًّا.

ومن هذا تلك النماذج القرآنية التي توضح ما ردّ الله به على المشركين الذين ادَّعوا أن كثرة الأموال والأولاد دليل رضا الرب ﷻ عنهم؛ حيث حباهم بذلك دون غيرهم، وهو دليل غير واقعي، لذا بيّن الله لهم أولًا أنه ﷻ ربما

يوسع الرزق على العاصي ويضيقه على المطيع، وربما كان العكس، ولا ارتباط لهذا التوسيع والتضييق بمسألة الرضا وعدمه، فلا يغرنكم هذا ولا ذاك، فلا تخلطوا الأمور، بل ضعوها في مواضعها، فإن وسائل القرب عند الله وتحقيق رضاه لا تنحصر في وفرة الأموال وكثرة الأولاد، فإن أحوال الدنيا مسببة على أسباب دنيوية، وهذا إبطال لدعواهم إبطالًا إجماليًا، قال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (سبأ).

ثم بين الله لهم أن الذي يُقرِّب إليه سبحانه هو الإيمان، والعمل الصالح، قال ﷻ: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ (سبأ: ٣٧)، وهذا ارتقاء في الرد من إبطال الملازمة التي توهموها بين كثرة الأموال والأولاد وبين رضا الرب، إلى الاستدلال على أنهم ليسوا بمحل الرضا عند الله ﷻ، وهذا نقض تفصيلي لإبطال دعوى الخصم.

٨. الاكتفاء بنفي الادِّعاء دون الاستدلال:

من منهج القرآن وطريقته أنه أحيانًا يكتفي في إبطال دعوى الخصوم بنفي الاتهام، وإنكار الدعوى، وليس هذا الصنيع منه عن عجز عن الاستدلال، أو نكوصٍ عن إقامة الحجة، ولكنه يكتفي بمجرد النفي دون استدلال عليه نظرًا لضعف الدعوى ووهيها، وظهور الحق ووضوحه الذي لا يحتاج معه إلى تقديم دليل، فهو كالشمس في رابعة النهار:

وليس يَصِحُّ في الأذهانِ شَيء ... إذا احتاجَ النَّهارُ إلى دَلِيلِ

ومن هذا تلك النماذج القرآنية التي توضح ذلك ردّ الله ﷻ على المشركين الذين رموا رسول الله ﷺ بالجنون والسحر، وادَّعو أنه شاعر وكاهن[1]، فقد اكتفى القرآن بالنفي فقط، وذلك في قوله ﷻ: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ (القلم)، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ (التكوير)، وقوله أيضًا: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ (الطور)، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (الحاقة).

وهكذا اكتفى القرآن بمجرد نفي الدعوى دون استدلال، تاركًا لهؤلاء المشركين - إن كانوا حقًّا منصفين - فرصة التأمل في حال النبي ﷺ معهم، وقد كان يعيش بين ظهرانيهم، فهل وجدوه يتعاطى الشعر أو يمارس الكهانة أو السحر، وهل وجدوا في سلوكه وأخلاقه وأقواله وأفعاله ما ينطبق عليه الجنون، إن أدنى تأمل في حاله معهم كافٍ في تحقق انتفاء تلك الأوصاف الظالمة عنه، ولا يُحتاج في إبطال اتصافه ﷺ بشيء منها إلى أكثر من الإخبار بنفيه؛ لأن دليله المشاهدة، وهو دليل ظاهر لكل ذي سمع وبصر وعقل.

٩. استعمال البلاغة في الرد والإيجاز في الجواب عن شُبَه الخصوم:

فالقرآن كما هو معلوم أعلى نص بلاغي، فهو تنزيل من حكيم حميد، ولذا كان من منهج القرآن في محاوراته مع

---
[1] الكاهن: هنا بمعنى: المُنجِّم.

الخصوم، استعمال أبلغ الردود بأوجز الألفاظ التي تحمل معاني كثيرة ودلالات عميقة.

ومن تلك النماذج القرآنية الدالة على ذلك ما ردّ الله به على المنافقين الذين اتهموا رسول الله ﷺ بأنه أُذُنٌ يصدِّق ما يسمعه ويؤمن بما يقال له، فلا يكاد يميز بين ما يُعقل وما لا يُعقل، فرد الله عليهم قائلًا: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ (التوبة: ٦١)، وهي عبارة وجيزة تحمل معاني غزيرة، فهو يقول: نَعَم هو أذن، ولكنه نِعْمَ الأذن؛ لأنه أذن خير لا كما تزعمون، فهو لا يقبل إلا الحق وما وافق الشرع، وما فيه المصلحة للخلق، وليس بأذن في سماع الباطل والكذب والنميمة والمراء، فهو لا يلقي سمعه لذلك، وإذا سمعه لا يقبله وإن وكّدوه بأغلظ الأيمان، فهو لا يصدّق ما لا يجوز تصديقه شرعًا أو عقلًا، على العكس من الملوك الذين يتملقهم المنافقون وأصحاب الأهواء والساعون بالوشايات لإبعاد الناصحين المخلصين، فلا تغتروا بلطفه ﷺ معكم إذ هو لا يواجه أحدًا بما يكرهه، وهذا من كريم أخلاقه وسمح خصاله.

فردُّ القرآن هنا من باب أسلوب الحكيم، فهو في أوله يوافقهم على قولهم: هو أذن، ثم يتبعه بما ينقض عليهم دعواهم، ولا شيء أبلغ من هذا الرد بذلك الوجه؛ لأنه في أوله إطماع لهم بالموافقة ثم كرٌّ على طمعهم بالحسم وإعقابٌ له باليأس منه، ولا شيء أقطع من الإطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه.

ومن ذلك أيضًا ما ردّ الله به على اليهود الذين امتنعوا عن الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ لأن جبريل هو الذي ينزل عليه بالوحي، وهم يعتبرونه عدوًّا لهم، وادعوا أنه لو كان ميكائيل الذي ينزل على محمد ﷺ لآمنوا به، فقال ﷻ يرد مقالتهم الحاقدة: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (البقرة)، فأبان الله أن هذه من تعلّلاتهم الغريبة واعتذاراتهم المنكرة، فإن العاقل لا يرفض الهداية التي تأتيه وتنقذه من الضلال، فإن دعوى عداوة جبريل ينبغي ألا تكون مانعة من الإيمان، فمن كان عدوًّا لجبريل فإنه عدو لميكائيل، وعدو للحق، ولكل من يمثله ويدعو إليه، ومن عادى رسولًا فقد عادى جميع الرسل، ومن عادى كتابًا من الكتب المنزلة فقد عاداها جميعًا؛ لأن وظيفة الأنبياء والرسل جميعًا واحدة، وغايات الكتب واحدة، ولذا قال ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ (الشعراء)، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ (الشعراء)، وإنما هم كذبوا رسولهم الذي أرسل إليهم فقط، لكن الكفر برسول كفر بالرسل جميعًا، وهذا من ضروب إيجاز القرآن وبلاغته التي انفرد بها، وبذلك أبان الله لهم فساد العلة التي اعتذروا بها.

١٠. دعوة الخصم إلى التركيز في القضية محل النزاع والتأمل في حقيقة الأمر وترك التقليد والهوى:

من منهج القرآن وطريقته في المحاورة مع الخصوم التركيز في القضية التي يدور حولها النزاع، والبعد عن الشغب والجدل في موضوعات بعيدة لا تمسّ لب القضية، والتدبر في جوهر ما يدعو إليه، ونبذ التقليد الأعمى والتعصب المقيت للآباء والأجداد والأفكار التي لا دليل عليها، والقرآن يدعو خصومه أن يلتزموا بهذا المبدأ الذي

يتفق عليه العقلاء، وأصحاب الفطر السليمة، فإن شأن العاقل أن يطلب الحقيقة من دلائلها العقلية.

ومن النماذج القرآنية الدالة على ذلك ردّ الله على المشركين الذين ادّعوا أن قلوبهم أوعية للعلم فلا تحتاج إلى ما يقوله الرسول، فأبان الله لهم أن قلوبهم قد طبع عليها فجمدت على الكفر التقليدي، ولم تنظر نظر استدلال واعتبار، وهذا ما أدى بها إلى عدم الإيمان، فمن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر لم يؤمن، والنظر والتأمل هو من مقدوراتهم التي يستطيعونها، لكنهم لعنادهم اكتفوا بالتقليد للماضين والتعصب لهم، قال ﷻ: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١٥٥﴾ (النساء)، فمما احتجّ به المشركون على إنكار ما جاء به الرسل من البعث والنشور، طلبهم الإتيان بآبائهم الذين مضوا فلم يرجعوا، وهذا منهم سفسطة وشنشنة وتلجلج عن البيان ولجوء إلى سلاح العاجز المكابر، وخروج عن دائرة البحث ومحل النزاع ولب القضية، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٥﴾ (الجاثية).

ومن ذلك أيضًا ردُّ الله على المشركين الذين ادَّعوا أن اتباع الفقراء للأنبياء يعوق إيمان الناس بهم، وأن سعة العيش ورغده دليل على صحة ما عليه هؤلاء من معتقد، وأن الله ما أعطاهم المال إلا لحبه لهم، فبيّن لهم القرآن أن هذه الشبهة الملقاة هي خروج عن محل القضية التي يدعو إليها الرسل، وقد كان حريًّا بهم أن ينظروا في حقيقة ما جاء به الرسول، هل هو حق أو لا، بصرف النظر عن أتباعه من الناس أشرافًا كانوا أو فقراء، ولذا قال نوح ﵇ مبينًا جهل قومه في ذلك: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۝٢٩﴾ (هود)، وما كُفر بعض الأغنياء وإيمان بعض الفقراء إلا فتنة، وليس إعطاء المال دليل الكرامة، ولا منعه دليل الإهانة، وإنما الله يختبر الناس بعضهم ببعض، والأولى أن يبحث العاقل في جوهر الدعوة وحقيقتها، وأن يعرف مراد الله من وحيه إلى رسله، ولذا قال ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ (الزمر: ٥٢)، وقال أيضًا: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ (سبأ: ٣٧).

ويحذر القرآن من التقليد واتباع الآخرين دون دليل أو اقتناع، كما يحذر من الميل إلى الهوى بغير علم، وهذا المبدأ القرآني مبدأ علمي لا خلاف عليه، يقول ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ۝١٧٠﴾ (البقرة)، ويقول أيضًا: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ (الروم: ٢٩)، وهكذا فإن التقليد الأعمى للآخرين والميل إلى الهوى بغير علم لا وزن له في ميزان القرآن والعلم أيضًا.

١١. الدعوة إلى تدبر القرآن والنظر في معانيه:

كثيرًا ما نجد القرآن يدعو في حواره مع الآخر إلى النظر في آيات القرآن وتدبر معانيها، وبخاصة ما يتعلق بتلك الافتراءات والأباطيل التي يرمي المشركون بها ذلك الكتاب الكريم، ولو أنهم قرءوا القرآن حق قراءته وتدبروا آياته حق التدبر؛ فإنهم سوف يدركون أنه ليس كلامًا كسائر الكلام، وما هو بقول البشر، وأنه لا اختلاف فيه بل كله ملتئم

لا عوج فيه، وسوف يعلمون حقًّا أنه لا يستطيع محمد ﷺ ولا غيره أن يأتي بهذا القرآن من عند نفسه، ذلك لأن القرآن معجز في أصول العقائد وقواعد التشريع وفلسفة الآداب والأخلاق، وسياسة الشعوب والأقوام، وفنون القول وألوان العِبر في أنواع المخلوقات، وسنن الاجتماع، ونواميس العمران، وضرب الأمثال، وتكرار القصة الواحدة بالعبارات البليغة، وما فيه من العلم الإلهي والخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة، والحكاية عن الماضي الذي لم يشهده محمد ﷺ، والإخبار عن خفايا الحاضر، وكون كل ذلك موافقًا للفطرة والعقل، لا اختلاف فيه ولا تناقض، بل هو غاية الغايات وفصل الخطاب.

وهكذا فإن مَن يتدبر القرآن يهتدي إلى كونه من عند الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (النساء)، وقال أيضا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ (الكهف)، وقال أيضًا: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ (الزمر: ٢٣).

وقال ﷻ كذلك في مفتتح كتابه: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ (البقرة: ٢)، فاستفتح بهذه الجملة معلنًا فيها التحدي لكل من يقرأ ذلك الكتاب أن يجد فيه ريبًا أو خطأً أو اختلافًا، على عكس عادة كل المؤلفين من البشر الذين يستفتحون كتبهم بالاعتذار عن الأخطاء التي ربما وقعت منهم، والتماس الأعذار في مثل ذلك، أما القرآن فلا يتطرق إليه شك أو عوج أو بطلان أو تناقض: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ ﴾ (الطارق).

وعليه فإن مَن يتدبر القرآن حقًّا يتبيّن له الأدلة القاطعة على صدق ما فيه، فهو معجز بإخباره بالغيب، ومعجز بإعجازه العلمي والبياني والتشريعي، ومعجز بسموِّ معانيه وعلوِّ مراميه، وإيجازه البالغ وفصاحة ألفاظه، وأسراره العلمية، وسلامته عن المعارضة والمناقضة والاختلاف، وظهوره على لسان أمّي لم يدرس العلوم، واشتماله على السهل الممتنع، وقوة عبارته، وكشوفه التاريخية، وفواصله الحسنى، وطراوته في كل زمان، ومناهجه الإصلاحية، واتساق أغراضه ومعانيه، وسهولة حفظه، وأخذه الخلاب بالعقول والألباب، وقوة حجته وسلامة منطقه، وإعجازه في ترتيب سوره وآياته، وكونه آية باقية ما بقيت الدنيا، وإخباره عن الضمائر، وحسن تخلصه من قصة إلى أخرى، وسلامته من الخرافات والأباطيل، ونزاهته في التعبير، وغير ذلك من وجوه إعجازه.

١٢. قراءة التاريخ والواقع العملي:

من منهج القرآن وطريقته في حواره مع الآخر الاستدلال بالتاريخ وأحداثه ووقائعه، والنظر كذلك إلى الواقع العملي، فإذا لم تُجدِ الأدلة العقلية مع بعض الناس، ولم تنفع معهم المخاطبات، فإن القرآن يدعوهم إلى قراءة التاريخ وتقليب صفحاته لعلهم يجدون أممًا وشعوبًا كانت أقوى منهم عزة وأشد منعة كفروا بالله ﷻ وآذوا رسله وعارضوهم ولم يستمعوا إلى الحق الذي جاءوهم به، فإذا بهم ينزل عليهم سخط الله وتتلاحق عليهم لعناته فما استطاعوا الإفلات ولا الهرب، وإذا هم عبرة للمعتبرين، فالجانب التاريخي في القرآن جانب واضح ومهم جدًّا في حواره مع الآخرين؛

لأن فيه دعوة إلى التأسي بالناجين واتعاظًا بالهالكين، وهو في كل ذلك يحكي أمورًا واقعة، معانيها صادقة، ومفاهيمها معقولة معبّرة، فمن ركّز على العبر والعظات والأهداف عقب الحوادث، وأفاد من صفحات التاريخ ومراحله وأحداثه، فسوف يصل إلى الحقيقة؛ لأنه ستفيده أحداث التاريخ في واقعه، والتاريخ أكبر معلّم.

ومن النماذج القرآنية الدالة على ذلك ما ردَّ به الله ﷻ على المشركين الذين أنكروا رسالة سيد الرسل وخاتمهم محمد ﷺ، فقالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾﴾ (ص)، فأرشدهم الله ﷻ إلى قراءة التاريخ والواقع، وأمر نبيه ﷺ بالاستدلال عليهم بذلك، فقال ﷻ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٩) فالرسول ﷺ لم يكن أول رسول طرق العالم، فلا يزال التاريخ يخبرنا عن كثير من الرسل والأنبياء وحالهم مع أقوامهم، وكيف كانت لتلك الرسل الغلبة والنصر دائمًا، ولذا أمر الرسول ﷺ أن يقول لهم: ما بعثتي ولا رسالتي بالشيء المنكر ولا الأمر المستغرب الذي لا نظير له حتى تستبعدوا بعثتي إليكم؛ فقد أرسل الله رسلًا قبلي إلى جميع الأمم ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ (فاطر)، كما أن الواقع أيضًا يشهد بأهمية إرسال الرسل، فلم يجز إذًا إنكار بعثة محمد ﷺ وقد دلت الدلائل والآيات على صدق نبوته.

كما أنهم لما نقموا على رسول الله ﷺ أنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق معيرين إياه بذلك، أمرهم الله بقراءة التاريخ فلم يجدوا فيه رسولًا لم يفعل ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٢٠)، وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ (الأنبياء: ٨). ولما علّق اليهود إيمانهم بالرسول ﷺ حتى يأتي بقربان تأكله النار، ردّ الله عليهم شبهتهم هذه بأن الرسل قد جاءوهم بالذي طلبوا من قبل، والتاريخ خير شاهد على هذا، ورغم ذلك قتلوهم، وبهذا أبان الله كذبهم وبطلان حجتهم، قال ﷻ: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ (آل عمران).

ولما احتج المشركون على عدم إيمانهم برسول الله ﷺ بأنهم إن تبعوه تخطفهم الناس من حولهم، ولم يأمنوا العيش والرزق، بيَّنَ الله ضعف تعللاتهم هذه، وأمرهم بقراءة تاريخهم جيدًا فصفحاته شاهدة بأن الله قد أمّنهم بحرمة البيت، ومنع عنهم عدوهم فلم تستحل العرب قتالهم، وكأنّه يقول لهم: كنتم آمنين في حرمي تأكلون رزقي وتعبدون غيري، أفتخافون إذا عبدتموني وآمنتم برسولي، أن يتخطفكم الناس؟! فقال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (القصص).

١٣. بيان الحِكم والمصالح والمقاصد من الأوامر والأحكام والتشريعات الإلهية:

فمما هو واضح من أسلوب القرآن ومنهجه في حواره مع غير المسلمين - حين يعترضون على أحكام الله وتشريعاته - أنه يبين لهم الحكمة من ذلك الحُكم والمقصد الإلهي من هذا التشريع، وأن الله لم يُشرِّعه عبثًا ولم يأمر به سُدًى، وإنما هو لعلة أو حكمة يعلمها من يعلمها ويجهلها من يجهلها، وما من أمرٍ يشرعه الله إلا فيه مصلحة للناس،

فالشريعة الإسلامية مبناها على مصلحة الناس، وكلها خير.

ولما اعترض اليهود على وقوع النسخ وادَّعوا استحالته عقلًا ونقلًا، بين الله أنه قد يُبدِّل حُكْمًا بحكم، وهو عالم بالأول والآخر؛ لأنه يعلم ما يُصلح الناس في وقت وما يصلحهم في وقت آخر، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها ﷻ، ثم ينهى عنه لحكمة يعلمها، قال ﷻ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ (البقرة).

وكذلك اعترض اليهود والمنافقون على أمر تحويل القبلة، فبين الله لهم أن الله شرع ذلك ليظهر حال المؤمن الثابت على إيمانه من المنافق المتردد، فقال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ (البقرة: ١٤٣)، وقد بيَّن الله أيضًا للمشركين المصلحة من إرسال رسول من البشر وليس من الملائكة كما طلبوا، وذلك لأنه ﷻ قد بعث الرسل إلى الناس من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبتهم وليحدث التآلف والأنس والسكن بينهم، ولو كان الرسول من الملائكة لحدث التنافر ولما استطاعوا الأخذ عنه ولا مخاطبته، قال ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ (الإسراء)، فمن مصلحة العباد ومن لطف الله بهم أن بعث إليهم رسولًا من أنفسهم، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

ومن منهج القرآن أيضًا - فيما يتصل بهذه القضية - ما يوضحه في كثير من الأحكام والأوامر والتشريعات، أنها مما يبتلي الله بها عباده ليضل قومًا ويهدي آخرين، وهذا مبدأ قرآني قرره القرآن في غير ما موضع من حواراته مع المعاندين لدعوته والصادِّين عنها.

ومن ذلك أمر تحويل القِبْلة وقضية النسخ كما سبق، وكذلك اعتراض المشركين والمنافقين على الأمثال التي ضربها الله في القرآن، فبيَّن الله لهم أن ضرب الأمثال في القرآن - صغيرها وكبيرها - هو ابتلاء من الله للناس واختبار لهم؛ ليميز أهل الإيمان والتصديق من أهل الضلالة والعناد، فهو هداية لقوم وإضلال لآخرين، قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (البقرة)، فالمثل يُصدِّقه المؤمن ويُوفَّق إلى فهمه، ويعلم أنه من عند الله فيزداد إيمانًا، وأما الكافر فيرتاب فيه ويتحيَّر وينصرف عن هدي القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ (التوبة).

ومن ذلك أيضًا ما اشتبه على كثير من الأمم المكذبة والذي حكاه القرآن غير مرة عنهم حين استنكروا إيمان الضعفاء والفقراء والعبيد بالرسل، وكفر الأغنياء والمترفين والسادة بهم، وبنوا على ذلك أن الحق مع الأغنياء، وأن إعطاء الله المال لهم دليل رضاه عنهم، فبين الله لهم مغالطتهم وخطأهم في معتقدهم، فالغنى والفقر ابتلاء من الله

للناس، وإيمان بعض الفقراء وكفر بعض الأشراف إنْ هو إلا فتنة، والله ﷻ أعلم بالشاكرين وبضمائر الناس وأفعالهم، قال ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الأنعام).

١٤. اللجوء إلى التحدي المعجز:

ومن منهج القرآن وطريقته في حواره مع خصومه اللجوء إلى التحدي الذي يظهر عجز الخصم وضعفه عن المواجهة، ويتضح هذا أكثر ما يتضح فيما أثاره المشركون حول القرآن ذاته من استطاعة الإتيان بمثله ورميه بالسحر والزعم أنه أساطير، وأن محمدًا ﷺ ألّفه وافتراه من عند نفسه، وهنا يطالبهم الله ﷻ بأن يأتوا بمثل القرآن، ثم يترقى في التعجيز إلى الإتيان بعشر سور مثله مفتريات، ثم إلى سورة من مثله، وقد ظهر عجزهم عن التحدي والمعارضة، قال ﷻ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء)، وقال أيضًا: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ (البقرة: ٢٤)، وتلك آيات صادعة كالسياط الملهبة تثير النخوة، وتهيج الغيرة مع أنهم فرسان البلاغة وأساطين القول والفصاحة، حتى كانوا يتبارون فيها ويتنافسون ويعقدون لذلك المجامع والأسواق، ولم يكن محمد ﷺ فيما سبق يباريهم في هذا المضمار، وما كان يتلو قبل ذلك من كتاب ولا يخطه بيمينه، ورغم ذلك لم يتصدّ أحد منهم للمعارضة، ولم ينهض بليغ إلى المناهضة، وهذا هو عين التحدي المعجز، فدل بذلك على أن ما جاء به محمد ﷺ هو وحي من الله، وأن القرآن هو معجزته، والمعجزة كما هو معروف: أمر خارق للعادة قُصد به تصديق النبي، مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة.

كيفية التعامل مع الشبهات المعاصرة:

من خلال تتبُّعنا لمنهج القرآن الكريم في حواره مع الآخرين - وردّه على أباطيل خصومه وافتراءات أعدائه ودعاوى المشككين فيه - يمكننا بعد هذا أن نرصد أهم أوجه هذا المنهج والتي يمكن الاستفادة بها في حوارنا مع الآخر في هذا العصر، فإن هذا المنهج القرآني الرائع يكشف لنا عديدًا من الطرق التي يمكن أن نتعامل من خلالها مع الشبهات المثارة حول القرآن ونبي القرآن، وكذا ما أثير حول الإسلام عمومًا في عصرنا الحاضر.

وأول ما يجب أن نثبته في نفوسنا جميعًا - قبل كل شيء وقبل بيان أوجه الإفادة من هذا المنهج - هو إرساء عقيدة ثابتة من عقائد المسلمين ألا وهي: تنزيه كلام الله ﷻ عن هذه المزاعم والافتراءات والأباطيل والحجج الواهية، وهذا مبدأ أساس لا بد أن يكون في أذهاننا وقلوبنا حال ردّنا على خصوم القرآن والإسلام، فما من شبهة يثيرها أعداء الإسلام، وما من حُجَّة يحتجُّون بها عليه إلا وهي داحضة واهية؛ ذلك أن القرآن بريء من كل تناقض، خالٍ من كل اختلاف، منزَّه عن كل نقص وخطأ، سالم من كل عيب، بعيدٌ عن كل شك وارتياب: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت)، فيستحيل أن يوجد الباطل في القرآن، أو أن يوجد الاختلاف فيه؛ لأنه

كتاب الله الذي أنزله هداية للناس: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (النساء)، فقد أبى الله لغير كتابه العصمة، وقد تواترت عشرات الأدلة على أن هذا الكتاب من عند الله ﷻ، وأنه لا يستطيع إنس ولا جن أن يأتي بسورة من مثله ولو اجتمعوا لذلك، فهذه العقيدة لا بد أن تكون ثابتة بادئ ذي بدء، فهذه القاعدة هي أولى القواعد التي ينبغي أن تكون معلومة عند الرد على تلك الشبهات المثارة حول القرآن، وعليه لا بد أن يكون عندنا يقين تام أن جميع الطعون في القرآن مفتراة مكذوبة، لا أساس لها من الصحة، وإنما هي مَحْض افتراء وأضغاث أحلام[1]، وأنها أوهنُ من بيت العنكبوت.

أما القاعدة الثانية من تلك القواعد التي ينبغي أن نعلمها، فتتمثل في أن عدم قدرة بعض المسلمين على الرد على الشبهات المثارة حول القرآن ليس معناه الهزيمة والعجز وثبوت الطعن الموجه للقرآن، فلن تخلو الأرض من قائم لله بحجة، قال ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر).

وأما القاعدة الثالثة من القواعد التي ينبغي مراعاتها عند التعامل مع الأباطيل والمزاعم التي تثار حول القرآن، فهي النظر فيما قدمه الأقدمون من سلفنا الصالح من قواعد وضوابط عند الرد على الشبهات والمطاعن المثارة حول القرآن، وذلك من مثل الجمع بين مدلولات النصوص والتوفيق بينها ما أمكن، وتقديم الخاص على العام، فإن تعذر الجمع فالنسخ إن عُلم المتقدم والمتأخر، إلى غير ذلك من قواعد وضوابط، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

هذا عن كيفية التعامل مع الشبهات المثارة حول القرآن، أما ما يمكن الإفادة منه من خلال منهج القرآن في حواره مع غير المسلمين وردّه على الخصوم في العصر الحاضر، فيتمثل ذلك في بعض النقاط التالية:

- **تكاتف جهود العلماء كافة من نحاة ولغويين وبلاغيين ومفسّرين ومحدِّثين وفقهاء وأصوليين ودعاة ومنطقيين ومؤرخين وأدباء وعِلميين؛** وذلك لأن هذه الشبهات المثارة الآن متنوعة ومتعددة، ولا يمكن أن ينهض فريق واحد بهذه المهمة الكبرى، بل لا بد من وجود فِرَقٍ متعاونة في جميع ميادين البحث العلمي والعلوم الإسلامية والعربية، ولا بد من التعاون بينهم والإفادة من تنوع خبراتهم وتضافر جهودهم، وعلينا أن نحذر من الاختلاف في الدين، وأن نتماسك ونتعاون فيما بيننا لنقف صفًّا واحدًا لكشف حقيقة هذه الشبهات لجميع الناس.

- **على القائمين بهذه المهمة العظيمة - وهي الذود عن كتاب الله والذبّ عنه - أن يراعوا في ردودهم على الخصوم أن تكون ردودًا موجزة مفحمة مقنعة دامغة قاطعة عملية بعيدة عن التطويل والإطناب، والاستطراد إلا لضرورة،** فإن أحداث العصر سريعة متلاحقة، ولا تحتاج إلى مثل ذلك التطويل والإطناب، فليكن الردّ بأيسر سبيل وأوجز عبارة وأدنى إشارة وأقطع حجة، بحيث لا يبقى للخصم جواب، أو مقال أو مجال للأخذ والرد.

- **الإفادة من دراسة التاريخ وأحداثه، وبخاصةٍ قصص الأنبياء مع أقوامهم وحواراتهم معهم، ومناهجهم وأساليبهم في الدعوة إلى الله، قال ﷻ:** ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ (يوسف: ١١١)،

---

١. أَضغاث أحلام: ما كان مُلتبسًا مضطربًا يصعب تأويله.

وقال أيضًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ (الأنعام: ٩٠)، فعلينا أن نتبين ركائز دعوة الأنبياء لأقوامهم، ومنهجهم في ذلك، وعلينا أخذ الدروس والعظات والعبر من دعوتهم، ومن ذلك جدال المخالفين بالأسلوب العقلي والحجج المنطقية، والتوكل على الله والثقة بنصره، والردّ عن علم وبصيرة وتمرّس ودراسة، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ (يوسف: ١٠٨)، فعلينا أن نفيد من مواقف الأنبياء مع أقوامهم وما سلكوه من أقوم الطرق لإقامة الحجة عليهم، فهذا مما يدعم أسلوبنا في الدعوة إلى الله ﷻ، وإقامة الحجة على المعاندين والمخالفين.

- **الإفادة من علوم العصر الحديث**، كالطب، والهندسة، والوراثة، والميكانيكا، والفيزياء، والكيمياء، والجغرافيا، والبيولوجيا، وعلوم البيئة، والطب الشرعي، وعلوم الحاسب الآلي ومجالاته، وغير ذلك من العلوم، فمن المعلوم أن العلوم قد تطورت في عصرنا تطورًا هائلًا، وأصبح العلم يشق كل طريق من مجالات الحياة، وتعدّدت جوانب التخصص وتطورت الوسائل العلمية المختلفة، ولذا وجب الإفادة من هذه العلوم ومن تطبيقاتها في كثير من الدراسات، حتى ولو كان أصحابها من غير المسلمين، فإن الحكمة ضالة المؤمن فأنّى وجدها فهو أحق بها، وإنما يعرف الرجال بالحق، وقد يُجري الله الحق على لسان غير المسلم في أمر ما فينطق به.

- **وبالنسبة إلى الشبهات التي أثارها أصحابها اعتراضًا على أحكام الله ﷻ وأوامره ونواهيه**، فعلينا أن نبين الحِكَم من هذه الأوامر والنواهي، وأن نوضح المصالح التي تعود على الناس من هذه الأحكام، والوجوهَ العقلية من تشريعها للناس، فالشريعة ـ شئنا أم أبينا ـ نزلت على عقلاء ـ فالقضايا كالنسخ، والربا، والحدود، والزواج، والطلاق، والميراث، والإمامة، والحِسبة، والزكاة، والصوم، والقصاص، والحجاب، والجهاد، وكذا كثير من القضايا التي تتعلق بالمرأة ينبغي أن نبين وجه الحكمة فيها والمقاصد الشرعية من ورائها؛ فالشريعة الإسلامية مبناها على مصالح الناس والتيسير عليهم وتحقيق العدالة فيما بينهم، وهي خيرٌ كلها ومصلحةٌ كلها وعدلٌ كلها، ليس فيها ما يخالف العقل ولا الفطرة، بل كل ما فيها مما تواطأت عليه العقول الصحيحة، والفِطَر السليمة.

وبيان هذه الحِكَم والمصالح أمر ضروري، خاصة ونحن نتحاور مع غير المسلمين، فلا يكفي أن نسرد أحكام الإسلام لهم دون بيان أهدافها وسمو غاياتها، وتعداد أوجه مصالحها ونبل مقاصدها.

- **التركيز على خطاب العقل**، فالعقل الذي يخاطبه الإسلام يقوم بأدوار أربعة: فهو الذي يميز الأضداد، ويوازن بين الأمور، ويدرك الحقائق، ويعصم الضمير، وهو ضد ذلك الجمود والعنت والضلال، ولذا وجدنا القرآن يصور لنا العوائق الكبرى للعقل، وهي: تقليد الآباء ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ (البقرة: ١٧٠)، ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ (الزخرف)، ثم تقليد أصحاب السلطة الدينية المخطئين في فهم الدين، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١)، ثم الإرهاب الفكري كما قال فرعون: ﴿مَآ

﴿أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ (غافر).

ولأجل هذا كله علينا أن نعتمد في حوارنا مع غير المسلمين على الاستدلال العقلي، فإنه أمر يتفق عليه العقلاء ولا ينكرونه.

- **الوضوح والشمولية والاستقصاء في الرد**، فقرب الدليل إلى عقل الإنسان وقلبه بعيدًا عن الجدل العقيم والسفسطة المملة والتفلسف الغامض، كل ذلك يؤدي إلى الإقناع والتسليم، وكذلك شمولية الرد واستقصاؤه لكل جوانب القضية المتنازع حولها، فكلما تعددت الأدلة وتآزرت فيما بينها حدث التكامل وتم الاقتناع الكامل، ولذا ينبغي تنويع الرد، وا لجمع بين الردود العقلية، والنقلية، والوجدانية، والعلمية... إلخ. وهذا من صميم منهج القرآن، حيث إن القرآن يراعي الفوارق البشرية بين أفراد الجنس البشري، من حيث الفهم والإدراك والذوق والإحساس، وتلك سُنّة الله ﷻ في خلقه، ولذا نجد القرآن ينوع بيانه للناس حتى يكون له تأثيره في الناس على حسب ما يشعر به كل واحد منهم من قوة الأداء وسطوة القول وبواعث الإثارة، فمَن كان قوي العقل نافذ البصيرة سديد الرؤية دعاه بما يقنعه من الآيات وما يلزمه من مبادئ العقل، ومن كان لوجدانه الغلبة على عقله كان استعمال المنهج الوجداني معه أجدى وأولى في هدايته والوصول إلى قلبه، وهكذا ينوِّع القرآن في خطابه للآخر من أجل الوصول إلى هدايته بأقرب سبيل، واضعًا في الحسبان اختلاف طاقات الإنسان وقدراته وما بينها من فروق.
- **استخدام الأمثال القرآنية الصريحة والكامنة والمرسلة والواقعية والحياتية، والعلمية في الرد**، فإن في الأمثال تقريرًا للأفكار وتوضيحًا لها.
- **دعوة غير المسلمين إلى تدبر القرآن والتفكر في معانيه.**
- **التركيز في القضية محل النزاع وعدم الخروج عنها إلى موضوعات فرعية**؛ توفيرًا للوقت وشحذًا للذهن وبُعدًا عن التشتت.
- **عدم الالتفات إلى المزاعم الناشئة عن الظن والخرص والعناد والغرور، تلك التي لا تستند إلى أدنى دليل**، فخير ردّ عليها ألا يُردّ عليها؛ لأن في إذاعتها بين الناس تعظيمًا لها وتسييرًا واشتهارًا.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المحور الأول

شبهات وافتراءات على الله ﷻ

أولا. شبهات تتعلّق بقضيّة الألوهيّة والوحدانيّة

الشبهة الأولى

دعوى اتّخاذ الله ﷻ الولدَ(*)

مضمون الشُّبهة:

يدعي بعض اليهود والنصارى أن لله تعالى ولدًا؛ فاليهود يقولون: عُزيرٌ ابن الله، والنصارى يزعمون أن عيسى ابن الله، تعالى الله وتنزَّه عن ذلك، قال ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (التوبة)، ويرمون من وراء هذه الفرية إلى إضفاء روح القداسة والألوهية على أنبيائهم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الله مُنَزَّه عن اتخاذ الولد، ولا يليق بجلاله ذلك؛ لانتفاء إمكان المشاركة في الألوهية.

٢) كيف يكون لله ولدٌ ولم يكن له زوج ينشأ الولد عن ازدواجه بها؟! وكيف يكون له ولد وهو لا كفء له، والولد كفء لوالده؟!

٣) الله غنيّ عن الولد بذاته فلا حاجة له إلى الولد كحاجة المخلوقين.

٤) ليس هناك دليل ولا برهان لأولئك المفترين على دعواهم.

٥) لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لاصطفى من يشاء، وما جعل ذلك إليهم.

التفصيل:

أولا. الله ﷻ منزّه عن الولد:

إنّ الله ﷻ تنزّه عن اتخاذ الولد وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، فهو ﷻ له ما في السماوات وما في الأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وهو الواحد الفرد الصمد، كلُّ شيء عبدٌ له وفقير إليه، وهو الغني عمّا سواه، فلا يصلح له ولا يليق به أن يتخذ ولدًا لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفء له مِن خلقه، قال ﷻ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ (مريم)، وقال ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ (البقرة)، وقال ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (الأنعام)، وقال ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ (الصافات)، وقال ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص)، وقال ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا

(*) الآيات التي وردت فيها الشُّبهة: (البقرة/ ١١٦، الأنعام/ ١٠٠، يونس/ ٦٨، الكهف/ ٤، مريم/ ٨٨، ٩١، الصافات/ ١٥١، ١٥٢، التوبة/ ٣٠، النحل/ ٥٧، الأنبياء/ ٢٦).
الآيات التي ورد فيها الردّ على الشبهة: (البقرة/ ١١٦، ١١٧، النساء/ ١٧١، ١٧٢، الأنعام/ ١٠٠، ١٠١، يونس/ ٦٨، الكهف/ ٤، ٥، مريم/ ٣٠، ٣٥، ٨٩، ٩٥، الصافات/ ١٤٩: ١٥٣، الزمر/ ٤، التوبة/ ٣٠، الإخلاص/ ١: ٤، المؤمنون/ ٩١، ٩٢، النحل/ ٥٧، الطور/ ٣٩، الزخرف/ ١٦، ٨١، الإسراء/ ١١١، الأنبياء/ ٢٦، الفرقان/ ٢، الجن/ ٣).

﴿يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (المؤمنون)، وقال ﷻ: ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ (الزمر)، وقال ﷻ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (الزخرف).

وكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ التي تكررت في الآيات السابقة تفيد التنزيه مع التعجب مما ينافيه، فالذي يعرف الله ﷻ حق المعرفة ينبغي ألّا يصدر عنه مثل هذا القول الذي يفيد بأن لله ﷻ جنسًا يماثله - حاشا لله - فإن قائل ذلك لا يكون على أدنى علم بالله ﷻ، وإنما يكون زاعمًا فيه المزاعم، وظانًّا فيه الظنون بغير الحق، فإنه سبحانه لا جنس له فيكون له ولد منه، وهذا الولد الذي نسبوه إليه ﷻ لا بد أن يكون من العالم العلوي وهو السماء، أو من العالم السفلي وهو الأرض، ولا يصلح شيء منهما أن يكون مجانسًا له ﷻ؛ لأن جميع ما في السماوات والأرض ملك له، قانتٌ لعزته وجلاله، خاضع لقهره مسخَّر لمشيئته، فإذا كانوا سواء في كونهم مسخَّرين له بفطرتهم، منقادين لإرادته بطبيعتهم واستعدادهم، فلا معنى حينئذ لتخصيص واحد منهم بالانتساب إليه وجعله ولدًا مجانسًا له ﷻ، قال ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ (مريم). نعم، إن له ﷻ أن يختص مَن شاء مِن خلقه بما شاء، كما اختصَّ الأنبياء - عليهم السلام - بالوحي، ولكن هذا التخصيص لا يرتقي بالمخلوق إلى مرتبة الخالق، وفي هذا ردٌّ على اليهود والنصارى في دعواهم أن عزيرًا أو المسيح ابن الله؛ إذ كيف يكون ولدًا لله، وهو لا يخلو إما أن يكون في السماوات أو في الأرض، ولله ملك ما فيهما، ولو كان كما يزعمون لم يكن كسائر ما في السماوات والأرض من خلقه وعبيده من حيث ظهور آيات الصنعة الربانية فيه.

ثانيًا. كيف يكون لله ولد ولم يكن له زوج ينشأ الولد عن ازدواجه بها؟! وكيف يكون له ولد وهو لا كفء له، والولد كفء لأبيه؟!

إن الله ﷻ بديع السماوات والأرض، ولا شِبْه له ولا نظير، وإذا كان هو المبدع للسماوات والأرض، ولم يوصفا بكونهما من ولده وإنما هما من خلقه وكذلك الملائكة، وأولى بهذا وأجدر ألّا يكون خلقه للمسيح من أم بغير أب مسوغًا لجعله ولدًا؛ إذ قصارى ذلك أن يكون إبداعًا ما، وأثر هذا الإبداع وهو المُبْدَع لا يُسَمَّى ولدًا؛ إذ الولد ما كان ناشئًا عن ازدواج بين ذكر وأنثى من جنس واحد، وليس له ﷻ جنس فيكون له منه زوج، ولذلك قال ﷻ: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ (الأنعام: ١٠١).

فكيف يكون له ولد وهو المبدِع لكل شيء؟! والحال أنه لم يكن له زوج ينشأ الولد من ازدواجه ﷻ بها، ولا معنى للولد إلا ما كان كذلك، وإنما صدور جميع الكائنات السماوية والأرضية عنه صدور إيجاد إبداعي، فهو خلق كل شيء خلقًا ولم يلده ولادة، فما خرقتم له من الولد مخلوق له لا مولود منه، فإن خرجتم عن وضع اللغة وسميتم صدور المخلوقات عنه ولادةً، فكل ما في السماوات والأرض يكون من ولده، وحينئذٍ يفوتكم ما أردتم من تخصيص بعض المخلوقات بهذه المرتبة تفضيلًا لها على غيرها، ولا يقول أحد منهم بهذا، وعلى هذا فآية سورة الأنعام السالفة فيها استدلال على نفي الولد من وجوه:

١. أن من مبدعاته ﷻ السماوات والأرضين، وهي

مبرَّأة عن الوصف بالولادة لاستمرارها وطول مدتها، فهو أَوْلَى بأن يتعالى عنها.

٢. أن الولد هو ما يتولد من ذكر وأنثى متجانسين، والله ﷻ منزَّه عن المجانسة.

٣. أن الولد كفء للوالد، ولا كفء له سبحانه؛ وذلك لوجهين:

- أن كل ما عداه ﷻ مخلوق فلا يكافئه.
- أنه ﷻ عليم بكل شيء، وغيره ليس كذلك بالإجماع.

ثالثًا. الله ﷻ غني بذاته عن الولد:

وذلك لأن كل ما في الوجود من العالم العلوي والسفلي مِلْكٌ وعبيدٌ له، لا يحتاج منها إلى شيء، ويحتاج إليه كل شيء، ولا يشبهه أو يجانسه منها شيء، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (يونس: ٦٨)، فالإنسان قد يحتاج إلى الولد لأمور؛ منها بقاء ذِكْره به وبذريته، ومنها أنه قوة وعصبة له يعتز به هو وعشيرته، ومنها أن وجوده زينة له في داره يلهو به في صغره، ويفاخر به أقرانه في كبره، ومنها أنه يحتاج إليه ربما لقضاء مصالحه وقضاء حوائجه، وقد يحتاج إلى بره ورفده عند عجزه أو فقره، والله ﷻ لا يحتاج إلى شيء من هذه المنافع؛ لأنه هو الغني عن كل شيء بذاته لذاته؛ أزلًا وأبدًا.

رابعًا. بطلان دعوى هؤلاء المفترين لعدم قيام دليل عليها:

إن الدعوى الخالية من الدليل والعارية عن البرهان زعم وافتراء باطل لا أساس له من الصحة، وفي هذا من الجهل ما فيه، فهؤلاء المفترون ليس عندهم أي أثارة من دليل أو برهان أو سلطان أو حجة على ما يدَّعون، فلا دليل من علم أو وحي إلهي أو عقل يعارض تنزيه الله ﷻ وغناه المطلق عن الولد وغيره، قال ﷻ: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ (يونس)، وهذا استفهام تبكيت وتوبيخ على ما يزعمون بسبب الجهل والكفر، وفي هذا دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة وافتراء، وبهذا ردَّ الله عليهم دعواهم هذه في مواطن عدة من كتابه، ثم أمرهم الله بأن يجيئوا ببرهان يكون مستندًا إلى كتاب منزل من السماء يبين صدق ما ادَّعوه، فقال ﷻ: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ (الصافات)، ولا يمكنهم أن يأتوا بشيء من ذلك دون شك؛ لأنه لا يستند إلى عقل ولا علم، بل لا يجوزه العقل بالكلية، وما هو إلا كذب عظيم، قال ﷻ: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ (الكهف)، وقال ﷻ: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ (مريم)، وقال أيضًا: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ (الصافات).

خامسًا. استحالة إرادته ﷻ للولد:

بيَّن الله ﷻ لهؤلاء المفترين أنه لو أراد أن يتخذ ما تقوَّلوه عليه لاصطفى مَن شاء مِن عباده، وما جعله ﷻ إليهم، ولكنه سبحانه منزَّه عن الولد، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادَّعوه وزعموه، قال ﷻ: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ (الزمر)، فهذا الشرط مستحيل وقوعه

لمقصد المتكلم، فجوابه ممتنع لامتناع شرطه، فتنزه وتقدس سبحانه أن يكون له ولد، وهو قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

الخلاصة:

- الله ﷻ منزَّه عن اتخاذ الولد، ولا يليق بجلاله ذلك؛ لانتفاء المشاركة في الألوهية.
- المشاهد والمعقول أن الولد ينشأ عن ازدواج بين ذكر وأنثى من جنس واحد، والله ليس كمثله شيء حتى يكون له منه زوج.
- المولى ﷻ لا كفء له، وهو غني عن الولد بذاته، فلا حاجة له إلى الولد كحاجة المخلوقين إليه.
- لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لاصطفى مَن يشاء، وما أوكل ذلك إلى هؤلاء الجاحدين.

الشبهة الثانية

دعوى أن الملائكةَ بناتُ الله ﷻ(*)

مضمون الشبهة:

ادَّعى المشركون أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، ثم عبدوهم من دون الله. قال ﷻ: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (النحل)، وقال ﷻ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ (الزخرف: ١٩).

وجوه إبطال الشبهة:

١) الله ﷻ لا ولد له أصلا، وهو مُنزَّه عن ذلك.

٢) المشركون لا يرضون البنات لأنفسهم فكيف يجعلونها لله؟!

٣) جعلهم الملائكة بنات الله هو كفر مبين بنعمة الله، وسوء أدب مع الله.

٤) جعلهم الملائكة بنات الله يتناقض مع إقرارهم بالربوبية لله تعالى.

٥) لم يشهد المشركون خلق الملائكة، فكيف يحكمون بأنهم بنات الله؟!

٦) ليس للمشركين حجةٌ ولا دليلٌ على ما يدَّعون ويزعمون، وإنما يتبعون الظن والتقليد الأعمى للآباء.

٧) الملائكة عباد الله ﷻ مُكرَمون وله طائعون، ولم يأمروا أحدًا بعبادتهم من دون الله.

التفصيل:

أولا. الله لا ولد له أصلا، وهو منزَّه عن ذلك:

لقد اجتمع على ضلالة أن الله اتخذ ولدًا ثلاث فرق: اليهود والنصارى ومشركو العرب؛ فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال مشركو العرب: الملائكة إناث وهن بنات الله، وقد سبق أن بيَّنا رد القرآن على اليهود والنصارى وكيف فنَّد مزاعمهم وأدحض شبههم، وهنا نعرض كيف فنَّد الله تعالى شبهةَ مشركي العربِ وزعمَهم أن الملائكة بنات

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (النحل/ ٥٧، الزخرف/ ١٥، ١٦، ١٩، الأنبياء/ ٢٦، الطور/ ٣٩، الأنعام/ ١٠٠).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (الإسراء/ ٤٠، النحل/ ٥٧، ٦٠، الصافات/ ١٤٩، ١٥٧، الزخرف/ ١٦، ١٩، ٢٠، الأنبياء/ ٢٦، ٢٩، الطور/ ٣٩، النجم/ ٢٢).

الله، وليس الرد مقصورًا على مشركي العرب فحسب، بل يشمل كل من ادَّعى البنوة لله تعالى، قال الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ (البقرة).

وحين يعرض القرآن قولهم بلفظ ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، فإن هذا تعريض بالاستهزاء بهم وسخرية، فكلامهم غير ملتئم؛ حيث إنهم أثبتوا ولدًا لله، ويقولون اتخذه الله، والاتخاذ: الاكتساب، وهو ينافي الولدية؛ إذ الولدية تولُّد بدون صنع، فإذا جاء الصنع جاءت العبودية لا محالة، وهذا التخالف هو ما يعبر عنه في علم الجدل بفساد الوضع، وهو أن يستنتج وجود الشيء من وجود ضده كما يقول قائل: القتلُ جناية عظيمة فلا تكفَّر مثل الردة، وهذه حجة أولى أن تكون عليهم.

وأصل هذه المقالة بالنسبة إلى المشركين ناشئ عن جهالة، وبالنسبة إلى أهل الكتاب ناشئ عن توغلهم في سوء فهم الدين، وذلك حين توهموا أن التشبيهات والمجازات حقائق؛ فقد ورد وصف الصالحين بأنهم أبناء الله على طريقة التشبيه، وورد في إنجيل النصارى وصف الله تعالى بأنه أبو عيسى وأبو الأمة، فتلقفته عقول لا تعرف التأويل ولا تؤيد اعتقادها بواضح الدليل فظنته على حقيقته!

وقوله ﷻ: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن شنيع هذا القول، وفيه إشارة إلى أن الولدية نقص بالنسبة لله وإن كانت كمالًا في الشاهد؛ لأنها إنما كانت كمالًا في الشاهد من حيث إنها تسد بعض نقائصه عند العجز والفقر وتسد مكانه عند الاضمحلال، والله تعالى منزَّه عن جميع ذلك، فلو كان له ولد لآذن بالحدوث وبالحاجة إليه.

وكيف يتخذ الله ولدًا وكل ما في السماوات والأرض من بديع صنعه، والكل خاضع لعظمته ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ (البقرة)، وهذه حجة أخرى على انتفاء الولد؛ لأن الخضوع من شعار العبيد، أما الولد فله إدلال على الوالد؛ وإنما يبرُّ به ولا يُقنت، فكان إثبات القنوت كناية عن انتفاء الولدية بانتفاء لازمها لثبوت مُساوي نقيضه[1].

ثانيًا. المشركون لا يرضون البنات لأنفسهم، فكيف بهم يجعلونها لله؟!

هذا الادِّعاء هو من قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، فقد جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، وجعلوها بناتٍ لله، ثم عبدوها معه، فأخطئوا خطأً كبيرًا في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه ﷻ الولد ولا ولد له، ثم أعطَوْه أخسّ القسمين من الأولاد - في نظرهم - وهو البنات، وهم لا يرضون هذا القسم لأنفسهم، ولهذا أنكر عليهم القرآن ذلك الافتراء في غير موضع، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (النحل)، وقوله ﷻ أيضًا: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ (النجم).

فهؤلاء المشركون يختارون لأنفسهم الذكور، ويأنفون من البنات التي نسبوها إلى الله ﷻ؛ ولذا فإن

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت، مج١، ج١، ص٦٨٤ بتصرف.

القرآن يحكي عنهم حالهم هذه إذا بُشّر أحدهم بالأنثى، يقول ﷻ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (النحل)، والمعنى: أنه إذا بُشّر أحدهم بأن امرأته ولدت له أنثى ظل وجهه مسودًّا كئيبًا من الهم، وهو كظيم ساكت من شدَّة ما هو فيه من الحزن، ويكره أن يراه الناس فيتوارى منهم من سوء ما بُشّر به، فإنه في هذه الحال إما أن يبقيها حية، ويجعلها مُهانة لا يورِّثها ولا يعتني بها، ويفضِّل أولاده الذكور عليها، وإما أن يئدها وهي حيَّة كما كانوا يصنعون في الجاهلية، فهذا هو موقفهم تجاه الأنثى.

والقرآن يرد على هؤلاء المفترين قائلًا لهم: أفمن تكرهونه هذه الكراهية وتأنفون منه لأنفسكم تجعلونه لله؟! فبئس الحكمُ ما حكمتم، وبئست القسمةُ هذه القسمة الجائرة، ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ (النجم)، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت جائرة باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة؟!

كما ردَّ القرآن عليهم توهمهم هذا بأن بيَّن لهم أن المرأة ناقصة يُكمَّل نقصها بلبس الحُلي منذ أن تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عييَّة لا تستطيع الانتصار، فهي ناقصة الظاهر والباطن في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما شابهه؛ ليجبر ما فيها من نقص، كما قال أحد شعراء العرب:

وما الحَلْيُ إلا زينةٌ من نَقِيصَةٍ
يُتَمِّمُ مِن حُسْنٍ إذا الحُسْنُ قَصَّرَا

وأمَّا إذا كانَ الجَمالُ مُوَفرًا
كَحُسْنِكِ لم يَحْتَجْ إلى أَنْ يُزَوَّرَا

فهل مَن كان شأنها كذلك تُنسب إلى الله العظيم؟!

قال ﷻ منكرًا عليهم هذه القسمة: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ (الزخرف).

ثالثًا. جعلهم الملائكة بنات الله كفر مبين بنعمة الله وسوء أدب مع الله ﷻ:

إذا كان الله تعالى متخذًا أبناء، فما له يتخذ البنات ويصطفيهم هم بالبنين؟! وهل يليق أن يزعموا هذا الزعم لله ﷻ في حين أنهم يستنكفون ولادة البنات لهم ويستاءون من ذلك: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ (النحل).

أَمَا كان من اللياقة والأدب ألّا ينسبوا إلى الله مَن يستاءون هم إذا بُشِّروا به حتى ليسودَّ وجه أحدهم من السوء الذي يبلغ حدًّا يجلّ عن التصريح به فيكظمه ويكتمه وهو يكاد يتميز من هذا السوء؟!

أما كان من اللياقة والأدب ألَّا يخصوا الله بمن يُنشَّأ في الحلية والدَّعة والنعومة، فلا يقدر على جدال ولا قتال، بينما هم - في بيئتهم - يحتفلون بالفرسان والقوَّالين البلغاء من الرجال؟!

إنه يأخذهم بمنطقهم ويخجلهم، فكيف ينتقون ما يكرهون وينسبونه إلى الله؟! فهلَّا اختاروا ما يستحسنونه وما يسرّون له فينسبونه إلى ربهم إن كانوا لا بد فاعلين[1]، وهذا كفر بنعمة الله بيِّن لا شبهة فيه،

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج ٥، ص٣١٨١ بتصرف.

قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ (الزخرف).

رابعًا. جعلهم الملائكة بنات الله يتناقض مع إقرارهم بالربوبية لله ﷻ:

إن ما يدعيه هؤلاء المفترون من أن الملائكة بنات الله يتناقض مع ما يقرُّون به، فالمشركون مقرُّون بأن الله خالق الأشياء كلها، ومع ذلك جعلوا له ﷻ شركاء في الألوهية، فكيف يستقيم أن يكون المخلوق إلهًا؟! كما جعلوا لله بنات، والبنوة تقتضي المماثلة في الماهية، وكيف يستقيم أن يكون لخالق الأشياء كلها بنات؟! فهن لا محالة مخلوقات له ﷻ، فإن لم يكنّ مخلوقات لزم أن يكنَّ موجودات بوجوده، فكيف يكنَّ بناته؟! وإلى هذا التناقض أشار القرآن، فقال ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ (الزخرف: ١٥) أي: من مخلوقاته. فهم جمعوا بين اعتقاد حدوث الملائكة وهو مقتضى أنها عباد الله، وبين اعتقاد ألوهيتها وهو مقتضى أنها بنات الله؛ لأن البنوة تقتضي المشاركة في الماهية.. وبعد هذا الإبطال النظري اليقيني لمعتقدهم الفاسد يسوق القرآن الكريم دليلًا جدليًّا بدهيًّا يدحض ما زعموا، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ (الزخرف).

فإذا بطل معتقدهم أن الملائكة بنات الله؛ لأنه ينافي الكمال الذي تقتضيه الألوهية، أنكر عليهم أن يجعلوا الإناث المكروهة عندهم أبناء الله[1].

وعليه فإن الملائكة عباد الله ونسبة بنوتهم له ﷻ معناها عزلهم من صفة العبودية، وتخصيصهم بقرابة خاصة بالله، وهم عباد كسائر العباد، ولا مقتضى لتخصيصهم بصفة غير صفة العبودية في علاقتهم بربهم وخالقهم، وكل خلق الله عباد له[2].

خامسًا. لم يشهد المشركون خلق الملائكة الكرام، فكيف يحكمون بأنهم بنات الله؟!

يبين القرآن مدى افتراء هؤلاء القوم وتقولهم على الله ﷻ بلا علم ولا دليل، فيقول ﷻ: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ (الصافات)، ويقول ﷻ: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الزخرف)، فهل شاهد هؤلاء المشركون خلق الملائكة فحكموا عليهم بأنهم إناث؟! لا شيء من ذلك قطعًا، ولكنهم أفَّاكون مفترون كذَّابون، يقولون على الله الكذب وهم يعلمون.

فالرؤية حجة ودليل يليق بصاحب الدعوي أن يرتكن إليه، وما يملك هؤلاء أن يزعموا أنهم شهدوا خلق الملائكة، ولكنهم يشهدون بهذا ويدَّعونه فليحتملوا تبعة هذه الشهادة التي لم تكن عن حضور ومشاهدة: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾.. ثم يتابع القرآن هذه الفِرْيَة وما يصوغونه حولها من جدل واعتذار: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الزخرف).

إنهم يهربون حين تحاصرهم الحجج، وتتهافت بين

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٢، ج ٢٥، ص١٧٦: ١٧٩ بتصرف.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج ٥، ص٣١٨١.

أيديهم الأسطورة؛ فيحيلون على مشيئة الله، يزعمون أن الله راضٍ عن عبادتهم للملائكة، ولو لم يكن راضيًا ما مكَّنهم من عبادتهم ولمنعهم من ذلك منعًا! وهذا القول احتيال على الحقيقة، فإن كل شيء يقع في هذا الوجود إنما يقع وفق مشيئة الله، هذا حق؛ ولكن من مشيئة الله أن جعل للإنسان قدرة على اختيار الهدى، أو اختيار الضلال وكلَّفه اختيار الهدى ورضيه له ولم يرضَ له اختيار الكفر والضلال، وهم حين يحيلون على مشيئة الله إنما يخبطون خبط عشواء؛ فهم لا يوقنون بأن الله أراد لهم أن يعبدوا الملائكة[1]، والقرآن في هذا إنما ينظِّر لمنهج علمي سديد، ويضع قاعدة علمية لا يختلف عليها أحد، وهي: طرح الدعاوى القائمة على الظن والخرص. وبذلك هَدَمَ هذه الدعاوى لأنها غير مبنية على علم ويقين.

سادسًا. المشركون ليس لديهم حجة ولا دليل على ما يدّعون ويزعمون:

لقد أنكر القرآن على هؤلاء المفترين ما زعموه من أن الملائكة بنات الله، فقال ﷻ: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ (الصافات)، والمعنى: أي شيء يحمله سبحانه على أن يختار البنات دون البنين؟! كما قال ﷻ: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ (الإسراء)، كما بيَّن الله ﷻ أنهم ليس لهم حجة ولا برهان ولا مستند على ما يدَّعون، فهل يستندون في ذلك إلى كتاب منزَّل من السماء عن الله تعالى أنه اتخذ مما يخلق بنات؟! فإن ما يقولون لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يُجوِّزُه العقل بالكلية، قال ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ (الصافات).

وعليه فإن قولهم هذا لا يدعمه دليل ولا برهان ولكنه زعم وافتراء مبني على مجرد الأهواء والظنون والخَرْص؛ ولذا قال ﷻ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الزخرف).

فمن أين يأتيهم اليقين وهم إنما يتبعون الأوهام والظنون؟! ولذا يستنكر الله ﷻ عليهم ذلك بقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الزخرف)، فهل عندهم من كتاب يستندون إليه في دعواهم، ويستمسكون بما فيه من حقائق، ويرتكنون إليه في عبادتهم؟! وهكذا يسد عليهم الطريق من هذه الناحية، ويوحي إليهم كذلك أن العقائد لا يُخبط فيها خبط عشواء، ولا يُرتكن فيها إلى ظن أو وهم؛ إنما تُستسقى من كتاب من عند الله يستمسك به من يؤتاه.. وعند هذا الحد يكشف عن سندهم الوحيد في اعتقاد هذه الأسطورة المتهافتة التي لا تقوم على رَوِيَّة، ومزاولة هذه العبادة الباطلة التي لا تستند إلى كتاب، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الزخرف)، وهي مَقُولةٌ تدعو إلى السخرية فضلًا عن أنها متهافتة لا تستند إلى قوة، إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل، وهي صورة مزرية تشبه صورة القطيع يمضي حيث هو منساق، فلا يسأل إلى أين يمضي، ولا يعرف معالم الطريق! فلا بد من تدبر وتفكر ثم اختيار

---

1. المرجع السابق، ص٣١٨٢.

مبني على الإدراك واليقين[1].

سابعًا. الملائكة عباد لله مكرمون وله طائعون:

إن الملائكة هم عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الخضوع طائعون قولًا وفعلًا، قال ﷻ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الأنبياء). ففي هذه الآيات رد بليغ على هؤلاء المشركين ببيان حقيقة الملائكة وطبيعتهم، فهم ليسوا بنات الله كما يزعمون: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ عند الله، لا يقترحون عليه شيئًا تأدبًا وطاعة وإجلالًا، وإنما يعملون بأمره لا يناقشون، ولا يتقدمون بالشفاعة إلا لمن ارتضاه الله ورضي أن يقبل الشفاعة فيه، وعلم الله بهم محيط، وهم بطبيعتهم خائفون من الله مشفقون من خشيته - على قربهم وطهارتهم وطاعتهم التي لا استثناء فيها ولا انحراف عنها، وهم لا يدَّعون الألوهية قطعًا، ولو ادَّعوها - جدلًا - لكان جزاؤهم جزاء مَن يدعي الألوهية كائنًا مَن كان، وهو الخلود في جهنم، فذلك جزاء الظالمين الذين يدَّعون هذه الدعوى الظالمة الحائدة عن كل حق في هذا الوجود! وهكذا تبدو دعوى المشركين في صورتها هذه واهية مستنكرة مستبعدة، لا يدَّعيها أحد، ولو ادَّعاها لذاق جزاءها الأليم! كما يتبين للوجدان مشهد الملائكة وهم طائعون لله، مشفقون من خشيته، بينما المشركون يتطاولون ويدَّعون[2]!

و بعد أن بيَّن لهم القرآن حقيقة الملائكة، وأن عبادتهم من دون الله ضلال وكفر، وأنهم - أي هؤلاء المشركين - إنما يتبعون الظن ولا يستندون إلى برهان من وحي أو دليل من علم، وهم يعلمون ذلك كله ويقرّون به في دواخلهم، كما بيَّن لهم أن اتباع الآباء وتقليدهم بلا دليل ليس بحجة... بعد ذلك كله أوعدهم القرآن بأن الله سيواجههم يوم القيامة بالملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله؛ فتتبرأ الملائكة منهم ومن عبادتهم لهم، فالملائكة لم يأمروا هؤلاء المشركين بعبادتهم من دون الله، وما كان ينبغي للملائكة أن يتخذوا من دون الله أولياء، وهم أخوف الخلق لله وأعبدهم له ﷻ؛ قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ (الفرقان).

والاستفهام في قوله ﷻ: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ﴾ استفهام تقريري للاستنطاق والاستشهاد، والمعنى: أأنتم أضللتموهم أم ضلوا من تلقاء أنفسهم دون تضليل منكم؟ فيتبرءون من عبادتهم لهم، ويشهدون عليهم بكفرانهم نعمة الله وإعراضهم عن القرآن، وتكذِّبهم الملائكة فيما نسبوه إليهم من أنهم أمروهم بالضلالات؛ حيث قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، وهو تعظيم

١. المرجع السابق، ص٣١٨٢.

٢. المرجع السابق، ص٣١٨٢ بتصرف.

لله تعالى في مقام الاعتراف بأنهم ينزهون الله عن أن يدَّعوا لأنفسهم مشاركته في الألوهية.

كما قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ (سبأ)؛ أي: إنما هم يتولون الشيطان؛ إما بعبادته والتوجه إليه، وإما بطاعته في اتخاذ شركاء من دون الله، وهم حين عبدوا الملائكة إنما كانوا يعبدون الشيطان في الحقيقة، وذلك بطاعتهم له.. وهكذا يحاصرهم القرآن من كل وجه ويبين لهم ضلالهم من كل ناحية؛ حتى لا يُبقي لمعذرتهم عذرًا[1].

الخلاصة:

- الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ولم يشهد المشركون خلق الملائكة حتى يحكموا عليهم بكونهم إناثًا.
- المشركون يأنفون من إنجاب البنات ولا يرضونها لأنفسهم، فكيف يجعلونها لله عز وجل؟!
- الملائكة أجسام نورانية، ولا يستطيع البشر رؤيتهم، وهم عباد الله تبارك وتعالى مكرمون، وله طائعون.
- إن كون المخلوق عبدًا ينافي دعوى كونه إلهًا أو ابن إله أو جزءًا من إله؛ فلا يصح عقلًا أن يجتمع المقامان ـ العبودية والألوهية ـ في ذات واحدة.

1. المرجع السابق، ص٢٩١١ بتصرف.

الشبهة الثالثة

دعوى أن في ضرب الله الأمثال بالشيء المُحتقَر كالبعوضة والذباب منقصة من قدره(*) ®

مضمون الشبهة:

يعترض المنافقون والمشركون على بعض الأمثال التي ضربها الحقُّ عز وجل ويقولون: الله أعلى وأجلُّ من أن يضرب الأمثال بهذه الأشياء الصغيرة المحتقرة قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (البقرة).

وجوه إبطال الشبهة:

١) الله خالق كل شيء وهو أعلم بخلقه.

٢) الأمثال التي ضربها الله عز وجل تحمل الكثير من الحِكَم والمواعظ ومنها:

- ابتلاء من الله للناس لتمييز المصدقين من المكذبين.
- تقريب الفكرة إلى ذهن السامع.
- تمييز العالمين الذين يعقلونها من غيرهم.
- الاتعاظ والاعتبار.

٣) في الأشياء التي يُظَنُّ أنها تافهة حِكَمٌ عظيمة.

(*) الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ٢٦، العنكبوت/ ٤٣، الحج/ ٧٣، الحشر/ ٢١).

® في "ضرب الأمثال في القرآن الكريم" طالع: الشبهة السادسة، من الجزء الثاني عشر (عصمة القرآن وكماله).

التفصيل:

أولا. الله خالق كل شيء وهو أعلم بخلقه:

لقد أنكر المشركون والمنافقون واليهود على الله ﷻ ضربه الأمثال بالمحقَّرات كالذباب والعنكبوت، محتجين بأنه لا يليق بالله ﷻ ضرب الأمثال بهذه الأشياء الحقيرة.

وقد دحض الله شبهتهم هذه، وأوضح أنه لا يستحي أن يُمثِّل بأي شيء صغيرًا كان أو كبيرًا؛ لأن الله ﷻ خالق كل شيء، ولله في خلقه شئون، وهو أعلم بمن خلق: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ (الملك)، فيجعل ما شاء من المنفعة والفائدة فيما شاء ومن شاء من خلقه، ويضربه مثلًا للناس يهتدون به، وليس هذا نقصًا في جانب الألوهية فيستحيي من ضربه مثلًا، بل إن من الكمال والفضل أن يجعل الله في المخلوقات الضعيفة والمحتقرة في العرف كالبعوض وغيره فوائد ومنافع.

قال الله تعالى رادًّا عليهم زعمهم وادِّعاءهم هذا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة: ٢٦)، والبعوضة هي صغيرة البَق، والمراد بـ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾؛ أي: ما هو أكبر منها، وقيل: ما دونها في الصغر.

ومعنى الآية: إن الله تعالى لا يترك ضرب المثل بالبعوضة، تَرْكَ مَن يستحي أن يتمثل بها لحقارتها؛ أي لا يستصغر شيئًا يضرب به مثلًا، ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة؛ فهو كما لا يَسْتَنْكِف[1] عن خلقها، لا يستنكف عن ضرب المثل بها، والأمر ليس مقصورًا على البعوض فحسب، فقد ضرب الله المثل بالذباب والعنكبوت أيضًا وذلك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ (الحج). وقال ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ (العنكبوت).

وغير ذلك من أمثال الكتاب العزيز، فما استنكره السفهاء وأهل العناد والمراء، واستغربوه - من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروبًا بها المثل - ليس بموضع للاستنكار والاستغراب، فالتمثيل إنما يُصار إليه لما فيه من كشف المعنى، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وتقريب المتوهم من المشاهد، فإن كان المتمثَّل له عظيمًا كان المتمثَّل به مثله، وإن كان حقيرًا كان المتمثَّل به كذلك، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل، إلا أمرًا تستدعيه حال المتمثَّل له، ومن ثَمَّ يعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية، ألا ترى إلى الحق لما كان واضحًا جليًّا أَبْلَج[2]، كيف تمثل له بالضياء والنور؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثل له بالظلمة[3].

وهذا كله معلوم لدى القوم ولكنه العجز والعناد؛

١. يَسْتَنْكِف: يمتنع أَنَفَةً وحَمِيَّة واستكبارًا.

٢. أَبْلَج: بيِّن سافر، وفي المثل: الحق أبلج والباطل لجلج.

٣. محاسن التأويل، القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج١، ص٣٠٧.

إذ إن الآيات السابقة اشتملت على تحدي البلغاء بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن، فلما عجزوا عن معارضة النظم سلكوا في المعارضة طريقة الطعن في المعاني فلبّسوا على الناس بأن في القرآن من سخيف المعنى ما يُنَزّه عنه كلام الله؛ ليصلوا بذلك إلى إبطال أن يكون القرآن من عند الله، وذلك بإلقاء الشك في نفوس المؤمنين، وبذر الخصيب في نفوس المشركين والمنافقين.

واستنكار ضرب المثل بالذباب والعنكبوت وغير ذلك من الأشياء المحقَّرة إنما كان على لسان اليهود والمشركين؛ فاليهود قالوا ذلك حسدًا وحقدًا ومكابرة وتجاهلًا؛ لأنهم كانوا أشد المعاندين، وقد شاع بينهم التشاؤم والغلوّ في الحذر من مدلولات الألفاظ، لذلك قال ﷻ: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة)، وهذه صفة اليهود، وأما مشركو العرب، فقد استنكروا ذلك مع علمهم بوقوع مثله في كلام بلغائهم، كقولهم: أجرأ من ذبابة، وأسمع من قُراد، وأطيش من فراشة، وأضعف من بعوضة. وما ذلك إلا مكابرة ومعاندة، فإنهم لما غُلبوا بالتحدي وعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله تعلقوا في معاذيرهم بهذه السفاسف، والمكابر يقول ما لا يعتقد، والمحجوج المبهوت يستعوج المستقيم ويخفي الواضح[1].

ثانيًا. فوائد ضرب الأمثال في القرآن:

١. **ابتلاء الناس لتمييز المصدقين من المكذبين:** يوضح الله ﷻ أن ضرب الأمثال في القرآن صغيرها وكبيرها، إنما هو ابتلاء من الله للناس واختبار لهم؛ ليميز أهل الإيمان والتصديق من أهل الضلالة والكفر، فهو إضلال لقوم وهداية لآخرين، قال ﷻ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (البقرة).

فالمثل إذا جاء في كتاب الله ﷻ ازداد به المؤمن هداية وتوفيقًا وإيمانًا بإذن الله؛ حيث يصدِّقه المؤمن ويعلم أنه من عند الله، وأما الكافر والمنافق والفاسق، فإذا ضرب الله ﷻ المثل ارتاب فيه وتحير وتردّد في أمره واعترض، فينصرف عن القرآن؛ فيصرف الله قلبه عنه، كما قال ﷻ: ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (التوبة)، وبهذا يتضح خطأ قول المنافقين واليهود وقبح ما نطقوا به؛ إذ هو ضلال وفسق.

٢. **تقريب الفكرة إلى ذهن السامع:** بحيث يتصوّر أن هذا الأمر الذي يسمعه كأنه مجسَّد أمامه، فالأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس فيتقبله العقل؛ لأن المعاني المعقولة تستقر في الذهن إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم.

وهذا نراه كثيرًا في القرآن الكريم والسنة النبوية، فكلما أراد الحق ﷻ أن يبين شيئًا ضرب له مثلًا، وكلما أراد رسول الله ﷺ أن يوضح شيئًا لأصحابه أو لغيرهم ضرب لهم مثلًا.

ومن ذلك ما ضربه الله مثلًا لحال المنفق رياءً؛ حيث لا يحصل من إنفاقه هذا على شيء من الثواب،

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٣٥٧: ٣٥٩ بتصرف.

فقال ﷻ: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ (البقرة: ٢٦٤).

وهكذا تقرب الأمثال الفكرة إلى ذهن السامع وتكشف الحقائق وتعرض الغائب في معرض الحاضر، كقوله ﷻ: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ (البقرة: ٢٧٥)[١].

٣. **معرفة العالم والعاقل من غيره:** فالذين يعقلون الأمثال هم العالمون، قال ﷻ: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (العنكبوت)، وقال أيضًا: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الحشر)، وقد كان بعض السلف يقول: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله قال: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (العنكبوت)، فكونه لا يفهم المثل معناه أنه ليس من العالمين.

٤. **ومن فوائد المثل أيضًا أنه يُضرب للعظة والتذكرة:** فالأمثال أوقع في النفس وأبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع، وقد أكثر الله ﷻ من ذكر الأمثال في القرآن للتذكرة والعبرة، قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الزمر)، وقد تمثّل النبي ﷺ في حديثه بكثير من الأمثال، واستعان بها الداعون إلى الله في كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة، كما يستعين بها المربون ويتخذونها من وسائل الإيضاح والتشويق، كما يعدونها من وسائل التربية؛ حيث استخدامها في الترغيب أو التنفير، وفي المدح والذم[٢].

فالمثل في كلام رب العالمين ليس نقصًا في جانبه ﷻ، وإنما هو حق؛ لأنه مبين للحق ومقرر له وسائق إلى الأخذ به بما له من التأثير في النفس، وذلك أن المعاني الكلية تُعرض للذهن مجملة مبهمة؛ فيصعب عليه أن يحيط بها وينفذ فيها فيستخرج سرَّها، والمثل هو الذي يفصّل إجمالها ويوضح إبهامها، فهو ميزان البلاغة وقسطاسها ومشكاة الهداية ونبراسها[٣].

ثالثًا. في الأشياء التي يُظن أنها حقيرة وتافهة حِكَم عظيمة:

إن الله لا يضرب المثل بشيء تافه أو حقير كما يظن هؤلاء بنظرهم القاصر، ولو أنهم تفكروا في هذا المخلوق الضعيف لأبصروا فيه طلاقة قدرة الله تعالى التي لا حدود لها؛ ولبيان ذلك علينا أن ننظر إلى المثل الذي ضربه الله في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (البقرة: ٢٦)، فالبعوضة قيل: هي صغيرة البَقّ، وتطلق أيضًا على الناموس المعروف عند الناس، والبقّ حيوان صغير شديد اللسع منتن الرائحة، ضعيف جدًّا قد يُقتل بمجرد اللمس، ويكون بجدران بعض الدور وفي فرشها، وإذا ضُغِط عليه بضاغط انفجر دمًا، وهو من عجيب خلق الله ﷻ، فإنه في غاية الصغر، وله ستُّ

١. مباحث في علوم القرآن، منّاع القطّان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٢٨١.

٢. المرجع السابق، ص٢٨٣.

٣. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ج١، ص٢٢٧ وما بعدها.

أرجل وأربعة أجنحة وذنب وخُرطوم مجوَّف، وهو مع صغره يغوص خرطومه في جلد الفيل والجاموس والجمل فيبلغ منه الغاية، "فكان يجب أن يفطنوا إلى أن هذه البعوضة دقيقة الحجم خَلْقها معجزة؛ لأن هذا المخلوق الدقيق وضع الله ﷻ فيه كل الأجهزة اللازمة له في حياته.. فالحق ﷻ حينما ضرب المثل بالبعوضة فما فوقها؛ أي: بما هو أقل منها حجمًا أراد أن يلفتنا إلى دقة الخلق.. فكلما لطف الشيء وصغر حجمه احتاج إلى دقة الخلق"[1].

"فالله رب الصغير والكبير، وخالق النحلة والفيل، والمعجزة في البعوضة هي ذاتها المعجزة في الفيل: إنها معجزة الحياة.. معجزة السر المغلق الذي لا يعلمه إلا الله، على أن العبرة في المثل ليست في الحجم والشكل، إنما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير، وليس في ضرب الأمثال ما يعاب وما من شأنه الاستحياء من ذكره، والله جلّت حكمته يريد اختبار القلوب وامتحان النفوس"[2].

وعلى الرغم من أن الله ﷻ قد مثَّل بالذباب ـ وهو من أضعف مخلوقاته، فإن الإنسان يعجز عن مقاومته والانتصار منه لو سلبه شيئًا، قال ﷻ: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ (الحج)، وخلق الذباب مستحيل شأنه شأن خلق الجمل والفيل؛ لأن الذباب هو الآخر يحتوي على ذلك السّر المعجز، سر الحياة فاستوى في استحالة خلقه مع غيره؛ ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الحقير؛ لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل، وذلك دون إخلال بالحقيقة في التعبير. وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب.. ثم يخطو القرآن خطوة أوسع في إبراز ضعفهم المزري: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، فالآلهة المدَّعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه... وكم من شيء يسلبه الذباب من الناس، فلا يملكون ردَّه. وقد اختير الذباب بالذات لأنه ضعيف محتقر، وهو في الوقت ذاته يحمل أخطر الأمراض ويسلب أغلى النفائس، يسلب العيون والجوارح، وقد يسلب الحياة والأرواح.. إنه يحمل ميكروب السل والتيفود والدوسنتاريا والرمد.

ويسلب ما لا سبيل إلى استنقاذه وهو الضعيف الصغير... ولو قال: وإن تسلبهم السباع شيئًا لا يستنقذوه منها؛ لأوحى ذلك بالقوة أمام الضعف، والسباع لا تسلب شيئًا أعظم مما يسلبه الذباب، ولكنه الأسلوب القرآني العجيب الذي بيّن ضعف كلٍّ، قال تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ (الحج)[3].

ثم انظر مثلًا إلى الأموال الطائلة التي تنفق في مكافحة هذه البعوضة وغيرها مما هو أصغر حجمًا منها، ومع ذلك لم يستطع المسئولون بأجهزتهم وأموالهم ووسائلهم القضاء عليها، فهل بعد ذلك ينكر هؤلاء

1. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ج١، ص٢١١ بتصرف.
2. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٥٠ بتصرف.
3. المرجع السابق، ج٤، ص٢٤٤٤ بتصرف.

المنافقون والمشركون واليهود ضرب الأمثال في القرآن الكريم؟!

الخلاصة:

- المولى ﷻ هو الخالق لكل شيء، وهو أعلم بما يُصْلِح هذا الخلق وما يفسده، وفي خلق الأشياء التي يُظن أنها حقيرة وتافهة حكم عظيمة.
- الأمثال التي ضربها الله ﷻ في القرآن تحمل الكثير من الحِكَم والمواعظ، ومن ذلك:
  - الاتعاظ وتقريب الفكرة وتمييز العالمين الذين يعقلونها من غيرهم.
  - تمييز أهل التصديق من أهل التكذيب ساعة ابتلاء الله للناس.
  - بيان طلاقة قدرة الله ﷻ التي لا حدود لها.

الشبهة الرابعة

ادِّعاء أنَّ بين الله والجِنَّة نسبًا (*)

مضمون الشبهة:

لـمَّا قال المشركون: إن الملائكة بنات الله، قال لهم أبو بكرؓ: فمَن أمهاتهن؟! قالوا: بنات سروات الجِنّ. وزعمت طائفة أخرى منهم أن الله ﷻ هو وإبليس أخوان! تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، قال ﷻ:

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ (الصافات:١٥٨).

(*)الآية التي وردت فيها الشبهة: (الصافات/ ١٥٨).
الآيتان اللتان ورد فيهما الرد على الشبهة: (الصافات/ ١٥٩، ١٦٠).

وجه إبطال الشبهة:

الجِنُّ يعلمون كذب المشركين في دعواهم؛ فإنهم يشهدون الحساب ويحضرون العذاب، والله ﷻ منزَّه عن كل نقيصة.

التفصيل:

الجن يعلمون كذب المشركين في دعواهم:

هناك بعض الآراء لأهل التأويل في معنى النسب الذي أخبر الله ﷻ أن المشركين جعلوه له سبحانه، فقال بعضهم: هو أنهم - يقصد المشركين - قالوا: إن الله وإبليس أخوان. وقال بعضهم: هو أنهم قالوا: الملائكة بنات الله. والجِنَّة هي الملائكة، وقالوا: إن الله تزوج من الجن فخرج منهما الملائكة. وقد رد الله ﷻ عليهم دعواهم هذه بأن أعلمهم أن الجِنّة أنفسهم يعلمون أنهم سوف يشهدون الحساب ويحضرونه، وهم يعلمون كذب المشركين في افترائهم على الله، وسوف يجازون على ذلك بالإحضار للعذاب، والإحضار إذا أُطلق فالمراد به العذاب؛ ولذا فهم يتبرءون من هذه النسبة، لما يعلمون من أنهم من أهل السعير، لا من عالم الأرواح الطاهرة، فما بال هؤلاء المشركين يَهْرِفون[1] بما لا يعرفون؟! قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ١٥٨﴾ (الصافات)، فالمراد بالجِنَّة هنا هم الشياطين وليس الملائكة كما يرى بعضهم؛ إذ إن خلق الملائكة من نور لا من نار كالجن، والملائكة معصومون ولا يتناسلون ولا يتصفون بذكورة ولا أنوثة بخلاف الجن[2].

١. يَهْرِف: يهذي ويَخْلِط في كلامه.
٢. محاسن التأويل، القاسمي، مرجع سابق، ج٨، ص١١٣، ١١٤ بتصرف.

ولعل ظاهر العلم في الآية حاصل للجِنَّة فيما مضى، ويجوز أن يكون من استعمال الماضي في موضع المستقبل لتحقيق وقوعه، كقوله ﷻ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ (النحل:١)، أي: ستعلم الجِنَّة ذلك يوم القيامة، والمقصود أنهم - أي هؤلاء المشركين - يتحققون ذلك ولا يستطيعون دفع العذاب عنهم؛ فقد كانوا يعبدون الجنَّ لاعتقاد وجاهتهم عند الله بالنسب الذي توهموه لهم، ولو كان بينهم وبين الله نسب، أو كانوا شركاء له في وجوب الطاعة لما عذَّبهم.

ويُتبع الله ﷻ حكاية قولهم الباطل بما يتضمن تنزيهه ﷻ عما نسبوه إليه، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩﴾ (الصافات)، فعجيب أن يخطر أمر مثل ذلك على بال ويحدَّث به نفسًا، فضلًا عن أن يجعله معتقدًا ويتظاهر به مذهبًا، وهو تنزيه يوحي بتسفيه أحلامهم وتجهيل نفوسهم واستركاك عقولهم، فلا نسبة تقتضي النسب بوجه ما فضلًا عن استحالة ذلك عقلًا[١].

الخلاصة:

إن زعم المشركين أن هناك نسبًا بين الله والجِنَّة هو مجرد هذيان منهم لا دليل عليه، والجِنَّة أنفسهم يعلمون كذب هؤلاء المشركين، وسيتبرءون منهم يوم القيامة، فلو كان بينهم وبين الله نسب لدفعوا عن أنفسهم وعن أتباعهم العذاب: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤٣﴾ (الإسراء).

١. الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، بيروت، د. ت، ج٣، ص٣٥٥ بتصرف.

الشبهة الخامسة

إنكار تفرد الله ﷻ بالألوهية والوحدانية (*)

مضمون الشبهة:

ينكر المشركون تفرد الله ﷻ بالألوهية والوحدانية، ومن ثَمَّ فهم يعبدون أوثانًا وأصنامًا زاعمين أنها تقربهم إلى الله وتشفع لهم عنده، كما أنهم يعلنون تعجبهم من وجود إله واحد تكون له العبادة وحده خالصةً. قال ﷻ حاكيًا عنهم قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾ (ص)، وقال ﷻ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ (يونس: ١٨).

وجها إبطال الشبهة:

لقد عالج القرآن هذه المسألة من طريقين:

١) بيان الأدلة العقلية على وجود الله ﷻ وأنه وحده هو الخالق المدبر لهذا الكون، وتحت هذا البيان وجه بعض الأسئلة للعقل البشري ليفكر ويتدبر ويستدل على وجود الخالق ﷻ، ومنها:

- هل يمكن أن يوجد هذا الكون بغير خالق؟!

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (مريم/ ٨١، الفرقان/ ٣، ص/ ٥، طه/ ٤٩، ٥١).

الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ٢٨، ١٦٢، ٢٥٨، آل عمران/ ١٨، الأنعام/ ٨٠، ٨١، الإخلاص/ ١: ٤، الأحقاف/ ٤: ٦، الرعد/ ١٦، ٣٣، الحجر/ ١٧، ٢٠، ٢٢، النحل/ ٧٣، ٧٤، الإسراء/ ٥٦، ٥٧، الكهف/ ١٥، ٥١، ١١٠، سبأ/ ٢٢، مريم/ ٨٢، طه/ ٥٠، ٥٢، ٥٤، الحج/ ٧٣، ٧٤، المؤمنون/ ٩١، ٩٢، الفرقان/ ٣، فاطر/ ١٣، ١٤، ٤٠، الصافات/ ٩٥، ٩٦، الزمر/ ٢٩، الطور/ ٣٥: ٣٧، الأعراف/ ١٩٠: ١٩٥).

- هل يمكن أن يدبر شئون هذا الكون الضخم إلا إله قادر حكيم؟!
- هل يمكن أن يكون لهذا الإله شريك في الملك أو شريك في التدبير؟!
- هل آيات القدرة المبثوثة في أرجاء الكون تشير إلى أن هذا الإله يمكن أن يعجز عن أمر من أمور الخلق أو التدبير أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة أو البعث أو الجزاء؟!

ويمكن أن نجيب عن هذه الأسئلة باختصار كالتالي:

- لا يمكن لهذا الكون الهائل أن يوجد بغير خالق؛ فالصنعة تدل على الصانع والأثر يدل على المسير، أفلا يدل هذا النظام الكوني الهائل الدقيق على الخالق ﷻ؟!
- لا يمكن أن يدبر شئون هذا الكون الضخم إلا إله قادر حكيم، فإنه لو لم يتصف بطلاقة القدرة التي لا حدود لها لعجز عن إيجاده فضلا عن تدبيره وتسييره.
- لا يمكن أن يكون لهذا الإله شريك في الملك أو شريك في التدبير؛ لأن تعدد الآلهة يؤدي إلى اختلال الكون وفساد نظامه.
- آيات القدرة في الكون دلائل واضحات على أن الله لا يعجزه شيء.

٢) بيان الأدلة على بطلان عبادة غير الله، وعجز أولئك الشركاء عن أن يملكوا لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فكيف ينفعون غيرهم أو يضرونهم؟! وتحت هذا يبين القرآن أن هذه الآلهة المدّعاة:

- لا تملك شيئًا من السماء والأرض.
- لا تسمع دعاء، ولا تضر ولا تنفع، ولا تقدر على خلق بعوضة أو ذبابة.
- يصنعها الإنسان، فكيف يعبد ما صنعت يداه؟!
- لا يخشى منها ولا يبالي بها الإنسان.
- ليس للمشركين دليل ولا كتاب يأمرهم بعبادة هذه الأنداد.

التفصيل:

لعل هذه الشبهة أكثر الشبه ترداداً وتكراراً في القرآن من جانب المشركين، فهم ينفون عن الله الألوهية والوحدانية، ويقولون لرسول الله ﷺ كما حكى القرآن عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ (ص)، وهذا حال الكافرين في كل عصر وزمن، ففرعون يقول لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾ (طه)، والنمروذ يقول لإبراهيم ؏ حين حاجّه في ربه: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ (البقرة:٢٥٨).

والمشركون يعبدون من دون الله ﷻ أصنامًا وأوثانًا وملائكة يستنصرون بها لتكون لهم عزًّا وشفعاء يشفعون لهم، قال الله ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١﴾ (مريم)، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ (يونس: ١٨)، وقد أكد القرآن وحدانية الله وألوهيته ودحض الشرك به ﷻ في آيات كثيرة، وذلك من عدة وجوه، وهذه الوجوه تسير في اتجاهين:

أولا. بيان الأدلة العقلية على وجود الله تعالى، وأنه وحده هو الخالق المدبر لهذا الكون:

فالله عز وجل ليس في حاجة إلى معونة من أحد على الإطلاق في تدبير الأمور، وليس هناك مَن يقوم أصلًا بالتدخل في أمر الله، فما دام لا يوجد أحد يشارك الله في الخلق - وهو أمر لا يجادل فيه أحد حتى المشركون - فكيف يوجد من يشاركه في التدبير؟! قال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ (الأعراف).

والقرآن في ذلك يخاطب الإنسان كله: وجدانه وعقله؛ إذ يعرض له الأدلة ويناقشه فيها، ويوقظه للتفكير المنطقي السليم الذي يؤدي إلى فهم حقيقة الألوهية وإدراكها والاقتناع بها، ومن ثَمَّ وجوب الإيمان بالله الواحد دون شريك[(١)] ومن ذلك:

١. أثبت القرآن الربوبية والألوهية لله عز وجل عن طريق سؤال وجهه لهؤلاء المشركين الذين ينفون ذلك، فقال عز وجل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ (الطور)، والمعنى: أَوُجِدوا من غير مُوجِد؟! أم هم أَوْجَدوا أنفسَهم؟! والجواب لا هذا ولا ذاك، بل الله عز وجل هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا. فهذه الآية تحمل أكبر تحدٍّ للعقل البشري الضال خلال التاريخ.. وكأنها نزلت للضالين اليوم الذين ينكرون وجود الله ويلجّون في الغي والإلحاد.

إن الذين يلجّون في الضلال إلى هذا الحد لا ينكرون وجود الله في الحقيقة؛ حيث لا يمكن للفطرة - مهما ضلت - أن تنكر وجود الخالق؛ ولكنهم - لسبب من الأسباب - يكابرون ويتظاهرون بالإنكار... إن الفطرة لا يمكن أن تنكل أبدًا عن الشهادة ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢)﴾ (الأعراف)، إنما الذي يحدث أن الإنسان الضال يكابر في هذه الحقيقة؛ لأنه لا يريد أن يخضع لله، ولو أقرّ علانية بوجود الله للزمه أن يطيعه وأن يعبده، وهو - لأمرٍ من الأمور - لا يريد، وبدلًا من أن يبدو مقصرًا وناكلًا - باعترافه - فإنه "يتفلسف" فيدَّعي أنه لا يؤمن بوجود الله أصلًا!

وكيف يمكن للفطرة أن تنكل عن الشهادة والكون حولها - بكل ما فيه - يحاصرها ويردّها إلى الحقيقة؟! كيف تواجه أمر الخلق؟! كيف تحل المشكلة إن لم تقرّ بوجود الله؟! كيف إذن تَمَّ هذا الخلق الذي تدركه الحواس ولا سبيل إلى إنكاره؟! كيف تَمَّ خلق السماوات والأرض والقمر والنجوم والكواكب... وكل ما على الأرض من شيء بما فيه الإنسان نفسه؟!

كيف تم خلق هذا الكون بغير خالق؟! هكذا من العدم؟! ثم كيف انتظم بعد أن تَمَّ؟! ثم كيف حافظ على نظامه كل تلك الملايين من السنين، التي لا يحصيها العقل البشري، دون أن يحدث في نظامه خلل أو اضطراب؟!

هل يتم ذلك كله بغير خالق؟! هل يتقبل العقل هذا القول، حتى وإن ضل هذا العقل وسار في الظلمات؟! ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾؟! أمّا إنهم هم الخالقون فأمر لم يزعمه أحد من المضلين، بقي السؤال الأول بغير جواب: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾؟! وهو السؤال الملجم المسكت، الذي لا يملك أحد من

١. ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص٤٣ بتصرف.

المكابرين أن يرد عليه بالإيجاب.

وهكذا لم يبقَ إلا أمر واحد، هو أن يكون هناك خالق، هو الذي خلق الخلق بقدرته، وهو الذي يدبر الأمر وحده بلا شريك. وذلك هو الأمر الذي لا تملك الفطرة أن تنكره وإن ضلت، بل وإن أمعنت في الضلال.. إنما ينكره المكابرون باللسان لكبر في نفوسهم عن عبادة الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝٥٦﴾ (غافر)[1].

٢. جاء القرآن بدليل عقلي يثبت الألوهية والوحدانية لله ﷻ، ومؤداه أنه لو قُدّر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق، وتكون النتيجة عندئذ عدم انتظام الوجود، والمشاهَد أن الوجود منتظم متسق، فكل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال، قال ﷻ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ (الملك: ٣)، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض، قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾ (المؤمنون)، وقد ذكر المتكلمون هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فُرض صانعان فصاعدًا، فأراد واحد تحريك جسم، وأراد الآخر سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والخالق لا يكون عاجزًا، ويمتنع اجتماع مرادهما للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالًا، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكنًا؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورًا.

قال ﷻ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ (الأنبياء). فالحق الظاهر أن هذا الكون متناسق إلى أبعد ما يتصور العقل من التناسق، فهل يمكن بعد ذلك أن يكون في السماوات والأرض إلا إله واحد مسيطر مدبر حكيم هو الله ﷻ؟! ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، أليس كل إله يخلق بمفرده كيف يشاء؟! فكيف يتطابق الخلق الصادر عن واحد من الآلهة مع الخلق الصادر عن إله غيره؟!.. كيف تنتظم دورة الفلك التي ينشئها إلهان مختلفان، ويشرف على شئونها أكثر من إله؟!

هل يمكن أن تنتظم إذا تعددت الإرادة التي تهيمن عليها والسلطان الذي يسيرها؟! أليس من المحتمل أن واحدًا من الآلهة يريد أن تطلع الشمس من المشرق وآخر يريدها أن تطلع من المغرب؟! فكيف يصير الأمر عندئذٍ؟!

هل ينضبط شيء حينئذ في الكون كله؟ هل يستقيم الأمر، أم يصبح الكون فوضى تتصادم فيه الأفلاك وتتعارض، وتتصادم فيه الإرادات المشرفة عليه وتتعارض، ويصبح كالعقد المنفرط لا يجمعه نظام؟! ومن أجل ذلك يخاطب القرآن العقل فيقول له: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ

---

١. المرجع السابق، ص٥٦: ٥٨ بتصرف.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنبياء).

ولا يكتفي القرآن بذلك، بل يمضي مع العقل البشري خطوة أخرى في المناقشة، فيعرض أمامه هذه الحقيقة ليتدبرها: لنفرض - جدلًا - أنه كان مع الله آلهة أخرى فكيف يكون الموقف؟! والحقيقة أنه لو كان في الكون عدد من الآلهة ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ (المؤمنون).

فإذا تصورنا أن كل إله يخلق جزءًا من الخلق، فهل يعقل أن ينزل عن خلقه لإله آخر؟ أو أن المعقول والبدهي أن يتشبث بخلقه ويستحوذ عليهم، ويحاول أن تكون له السيطرة؟! وعندئذ يحدث نزاع على السيطرة بين هذه الآلهة المفترضة.. كل يتشبث بكلمته زاعمًا أنه هو الأعلى وهو الأحق.. فهل يستقر حال الكون على هذه الحال؟! وهل يبدو متناسق الحركة، متناسق الصنع، متناسق التدبير؟!

والعقل البشري مكلف بأن يفكر ويتدبر، فما دام الإنسان قد سلَّم - أو ينبغي له أن يسلِّم - بأن الأرض لله، والسماوات لله، والملكوت لله، والتدبير لله، فماذا بقي إذن من عمل تقوم به تلك الآلهة الأخرى المزعومة؟!

وطالما أن الكون في سيره لا يبدو عليه الخلل والاضطراب، بل يظهر فيه الاتساق الكامل والانضباط، فإن ذلك يدل على وحدة السيطرة التي تدبر شئونه وترعاه[1].

٣. يؤكد القرآن الكريم أن الله هو المستقلُّ بخلق الأشياء كلِّها وهو مدبرها ومقدِّرها وحده، ليس معه في ذلك شريك، أما الذين اتخذهم المشركون أولياء من دونه فهم عبيد أمثالهم لا يملكون شيئًا، ولا أشهدهم الله خلق السماوات والأرض، ولا خلق أنفسهم ولا كانوا إذ ذاك موجودين أصلًا، قال ﷻ: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ (الكهف).

ويدلل القرآن على وجود الله ﷻ وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده؛ حيث أخرج الناس من العدم إلى الوجود، فقال ﷻ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ (البقرة: ٢٨)، وقال أيضًا: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ (الإنسان)؛ وهذا ما احتجَّ به المؤمن على صاحبه الذي كفر بالله في قصة صاحب الجنتين؛ حيث قال له: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ (الكهف)، وهذا إنكار منه وتعظيم لما وقع فيه صاحبه من جحود ربه الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين، فكيف يجحد الإنسان ربه، والأدلة على وجوده ظاهرة جلية يعلمها كل فرد من تلقاء نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدومًا ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستندًا إلى شيء من المخلوقات؛ لأنها جميعًا بمنزلته، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء، ولهذا قال له المؤمن: ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ (الكهف)، والمعنى: فأنا لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية؛ لأنه لا شريك له.

---

١. المرجع السابق، ص٤٦: ٥٠ بتصرف.

ومن الأدلة الظاهرة على قدرة الله تعالى وسيطرته واستقلاله بالخلق ما حاجّ به إبراهيم ﷺ النمروذ حينما أنكر ألوهية الله ووجوده، فأثبت له إبراهيم ﷺ أن الدليل على وجوده ﷻ هو حدوث هذه الأشياء بعد عدمها وأنه يحيي ويميت، ولمّا موّه النمروذ في الجواب وادّعى أنه يحيي ويميت طالبه إبراهيم ﷺ بالإتيان بالشمس من المغرب كما يفعل الإله المقتدر، فظهر عند ذلك عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ (البقرة).

كما أن من الأدلة الظاهرة على وجود الله ﷻ وتفرده بالخلق، وأنه ﷻ لا يمكن أن يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض تلك الآيات الكونية التي يوجه القرآن إليها العقل البشري ليتفكر فيها ويتدبر عظائم الإعجاز في آيات القدرة المبثوتة في أرجاء الكون، تلك التي تشير إلى أن هذا الإله لا يمكن أن يعجز عن أمر من أمور الخلق أو الرزق أو التدبير أو الإحياء أو الإماتة أو البعث أو الجزاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾ (البقرة).

فلو تأمل الإنسان بعقله هذه الآيات المبثوثة في الكون وفي النفس لأصابه العجب والذهول من كل آية من هذه الآيات المعجزة التي يدل كل منها على وجود الخالق ﷻ وقدرته المعجزة التي لا تقف عند حد.

قال ﷻ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)﴾ (النمل)®.

ثانيًا. الطريق الثاني الذي اعتمده القرآن لإثبات تفرد الله ﷻ بالألوهية هو بيان عجز هؤلاء الشركاء:

لقد اتخذ القرآن عدة طرق عقلية يشهد بها العقل والواقع المحسوس الملموس - أمام القوم - وكلها تثبت عجز هذه الآلهة ومن ثم بطلان عبادتها من دون الله تعالى، ومن هذه الأدلة:

١. أن الأصنام والأوثان والملائكة وغيرها من الآلهة التي يدعوها المشركون من دون الله لا تملك من

® في "الأدلة على وجود الله" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

السماوات والأرض شيئًا، وما الأصنام والأوثان إلا جمادات لا أرواح فيها، فهي لا تسمع دعاءً، ولا تجيب طلبًا، قال ﷻ: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ ﴾ (سبأ)، فبين الله ﷻ أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا نظير له، ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، أمَّا الآلهة التي يدعونها من دونه فهي لا تملك شيئًا، لا استقلالًا ولا على سبيل الشركة، كما قال ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) ﴾ (فاطر)، وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه، وهو سبحانه لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده ﷻ في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال ﷻ: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقال أيضًا: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) ﴾ (النجم).

وقال أيضًا: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ (فاطر: ١٤)، فهذه الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تقدر على شيء مما تطلبونه منها، قال ﷻ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥) ﴾ (الأعراف).

وقال ﷻ أيضًا: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ (الإسراء).

وقال ﷻ أيضًا: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾ (النحل)، فالأنداد والأوثان والأصنام التي تُعبد من دون الله تعالى لا تملك رزقًا ولا تقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا تجيب نداءً ولا تسمع أصلًا، وقد لقَّن الله ﷻ إبراهيم عليه السلام حُجَّته على قومه فقال لهم: ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾ (الأنبياء)، وقال لأبيه: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) ﴾ (مريم).

٢. أخبر الله ﷻ عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله لا تقدر على خلق جناح بعوضة؛ فهم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، فكيف يملكون ذلك لعابديهم؟!

قال ﷻ: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) ﴾ (الفرقان)، فالذي لا

يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا من ذلك لا يصحُّ أن يكون إلهًا؛ ولذلك نبّه الله ﷻ على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها؛ فبيّن أنه لو اجتمع جميع ما يعبدون من الأصنام والأنداد على أن يخلقوا ذبابًا ما قدروا على ذلك، ولذا قال ﷺ في الحديث الصحيح: "قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرّة أو ليخلقوا حبّة أو شعيرة"[1]؛ ولذا قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ (الحج: ٧٣)، فهذه الآلهة كلها عاجزة عن خلق ذباب، بل الأبلغ من ذلك أن الذباب لو سلب منها شيئًا ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على هذا أبدًا، والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ (الحج).

٣. بيّن الله ﷻ أن هذه الآلهة من الأصنام والأوثان ونحوها قد صنعها الناس بأيديهم، فكيف يعبد الإنسان ما صنعت يداه؟! إن ذلك لشيء عجاب! وهذه الحجة آتاها الله ﷻ إبراهيم عليه السلام على قومه حين قال لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ (الصافات)، وتلك حجة قاطعة ورد مفحم.

ومن ذلك أيضًا قوله ﷻ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ۝١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٩٤ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ۝١٩٥ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٧ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ (الأعراف).

فالإله الذي ينبغي أن يؤمن به الإنسان ويعبده هو الإله الخالق، فما بال هؤلاء المشركين يشركون آلهة لا تخلق شيئًا وهي ذاتها مخلوقة، يصنعها الناس بأيديهم ثم يجعلونها آلهة؟! هل في ذلك منطق يقبله العقل أو تقبله فطرة سوية؟! ثم يستطرد السياق فيشرح حال هذه الأصنام التي يعبدها المشركون، فهي لا تستطيع نصر أنفسها إذا اعتدى عليها معتدٍ فضلًا عن أن تنصر غيرها، وهي لا تسمع لو دعاها أحد، فسواء عليك أحدَّثتها أم لم تحدثها فالنتيجة واحدة، ثم يقرر القرآن حقيقة هذه الآلهة المدعاة، فهم ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، فهل لهذه المخلوقات أرجل أو أيد أو أعين أو آذان، لتمشي أو تبطش أو تبصر أو تسمع؟! فلأي شيء يا تُرى يعبدها أولئك العابدون، وهم يرونها أمام أعينهم بهذا العجز المزري؟! ثم يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ بأن يتحداهم أن يضرّوه بأصنامهم تلك - وقد كانوا يهددون الرسول ﷺ بأن تلك الآلهة المزعومة ستصيبه

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ (الصافات) (٧١٢٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة (٥٦٦٥)، واللفظ للبخاري.

بالضرر نتيجة مهاجمته إياها - فيقول الله ﷻ له: قل لهم: هلموا كيدكم الذي تهددون به ولا تتأخروا وأروني ماذا تستطيع آلهتكم أن تصنع؟! إن الله هو الذي يتولاني وهو يتولى الصالحين ويحميهم ويرعاهم، أمّا آلهتكم فلا تستطيع أن تنصركم إن أراد الله بكم ضرًّا، ولا تستطيع حتى أن تنصر نفسها وهي لا تسمع ولا تبصر فهي لا تستحق العبادة ولا الدعاء[1].

٤. من الأدلة الظاهرة على وحدانية الله وألوهيته، وكذب هؤلاء المشركين في صنيعهم - إضافة إلى ما سبق - ما احتجَّ به إبراهيم عليه السلام على قومه حين جادلهم في إشراكهم بالله، فذكر أن مِن أدل الأدلة على بطلان ما ذهبوا إليه أن هذه الآلهة التي يعبدونها لا تؤثر شيئًا، وهو لا يخافها ولا يبالي بها، ويطالبهم إبراهيم عليه السلام أن يكيدوه بها إن كان لها كيد ولا ينظروه بل يعاجلوه بذلك، قال ﷻ: ﴿ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (الأنعام).

هذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد، فقد قال الله ﷻ على لسانه: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ ﴾ (هود)، ومثل ذلك قوله ﷻ: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (الأعراف)، أي: استنصروا بها عليَّ فلا تؤخروني طرفة عين وأجهدوا جهدكم؛ ولذا قال بعدها: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ (الأعراف)، أي: فهو حسبي ونصيري وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة وفي كل صالح.

٥. يطالب القرآن هؤلاء المشركين الذين عبدوا هذه الأنداد من دون الله أن يذكروا مَن الذي أمرهم بهذا وأرشدهم إليه، ومَن ذا الذي دعاهم إلى عبادة غير الله؟! أم أن ذلك شيء اقترحوه من عند أنفسهم؟! وهل يملكون دليلًا أو سلطانًا أو حجةً بَيِّنة على ما يقولون، أو أنهم وجدوا كتابًا من الكتب المنزلة على الأنبياء - عليهم السلام - يأمرهم بعبادة الأصنام والأوثان؟!

يقول ﷻ في ذلك: ﴿ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (الأحقاف)، وقال أيضًا: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الطور)، أي: فليأتِ الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما يعبدون، وليس لهم سبيل إلى ذلك؛ فليسوا على شيء، ولا دليل لهم؛ ولذا قال ﷻ في موضع آخر على لسان أصحاب الكهف وهم يتحدثون عن قومهم المشركين بالله، قالوا: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ ﴾ (الكهف)، أي: هلّا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلًا واضحًا صحيحًا! ولكنهم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك.

والدَّعاوَى ما لم تُقيمُوا عليها
بَيِّناتٍ أبناؤها أدْعِياءُ

الخلاصة:

- هل يمكن أن يوجد هذا الكون الهائل بغير

1. ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص٦٧، ٦٨.

خالق؟ وهل البشر في هذا الكون مخلوقون أم خالقون؟

- إذا استحال وجود الكون بغير خالق، فهل نتصور أن يكون قد وجد بأكثر من إله؟ فضلًا عن أن هذه الآلهة من صنع البشر؟!
- الأصنام والأوثان لا تملك شيئًا من أمر نفسها، فكيف تملك أمر الشفاعة عند الله لمن يعبدونها؟!

الشبهة السادسة

الزعم أن الله عز وجل هو المسيح ابن مريم (*) ®

مضمون الشبهة:

يُغالي كثير من النصارى في المسيح ابن مريم عليه السلام ـ وهو عبد من عباد الله وخَلْقٌ من خَلْقِه ـ ويدَّعون أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، وربما أوقعهم في هذا الوهم تلك المعجزات التي أجراها الله عز وجل على يديه؛ من إحياء الموتى وشفاء الأكْمَه والأبرص.. وغيرها، وكذلك معجزة مولده عليه السلام من أم دون أب قال عز وجل: ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣٠).

(*) الآيتان اللتان وردت فيهما الشبهة: (المائدة/ ١٧، ٧٢).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (المائدة/ ١٧، مريم/ ٣٠، آل عمران/ ٥٩، ٦٤).

® في **"أكذوبة ألوهية عيسى"** طالع: الشبهة السابعة والثمانين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢). وفي **"إبطال القرآن الكريم لاعتقاد النصارى ألوهية عيسى ومريم"** طالع: الشبهة الحادية والستين، من هذا الجزء. وفي **"تهافت الاستدلال بخلق عيسى للطير على ألوهيته"** طالع: الشبهة الثامنة والثمانين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢).

وجوه إبطال الشبهة:

١) هذه الدَّعوى من أكبر الأدلة على ضلال النصارى.

٢) إقرار المسيح عليه السلام نفسه بالعبودية لله عز وجل في مَهْده ويوم القيامة، مما يدل على إفكهم.

٣) المسيح عليه السلام رسول الله يأكل الطعام، فكيف يكون إلهًا؟!

٤) لا أحد يقدر على منع الله أن يُهلك المسيح وأمَّه ومَن في الأرض جميعًا.

٥) الخوارق التي حدثت مع عيسى عليه السلام كانت بإذن من الله تعالى لتصديق نبوته، ولم تكن من صنع عيسى عليه السلام وذلك على لسانه في القرآن.

٦) مثل عيسى عليه السلام في معجزة خلقه كمثل آدم عليه السلام، ولم يقل أحد بألوهية آدم عليه السلام.

التفصيل:

أولا. هذه الدَّعوى دليل على ضلال النصارى:

هذه الدَّعوى من فضائح أهل الكتاب من النصارى، فقالت فرقة منهم وهي اليَعقُوبيَّة[1]: إن مريم ولدت إلهًا، وقالت المَلكانيَّة[2]: إن الله عز وجل حلَّ في عيسى عليه السلام واتَّحد بذاته، وقد ردَّ الله عليهم بقول عيسى عليه السلام: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ

١. اليَعقُوبيَّة: فِرْقة من النصارى، وهم أتباع يعقوب البَرَاذِعي الذي عاش في الشام في القرن السادس الميلادي، ويقولون باتحاد اللاهوت والناسوت، ويُعْرَفون بـ "أصحاب الطبيعة الواحدة".
٢. الملكانية: فرقة أخرى من النصارى، وهم أتباع ملك الروم، وهم يقولون: إن الله اسم لثلاثة معان، وإن المسيح له طبيعتان: طبيعة بشرية وطبيعة إلهية (ناسوت ولاهوت).

﴿ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ (المائدة)، فالحال أن سيدنا المسيح هو الذي ردّ عليهم بهذه المقالة، فكيف يدّعون الألوهية لمن يعترف على نفسه بأنه عبد مثلهم؟! وتلك حجة قاطعة على فساد قول النصارى؛ وذلك لأنه عليه السلام لم يفرق بين نفسه وبين غيره، وأنه عبد من عباد الله عز وجل، ولذا كان أول شيء نطق به عليه السلام حين تكلّم في المَهْد أن قال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ (مريم)، ولم يقل: إني أنا الله أو ابن الله، بل أثبت عبوديته الخالصة لله، والنبوة لنفسه.

ثانيًا. إقرار المسيح عليه السلام نفسه بالعبودية لله عز وجل:

إن الله عز وجل يوم القيامة سيسأل المسيح على رءوس الأشهاد بحضرة من اتّخذه وأمه إلهين من دون الله، فيقول له عز وجل وهو أعلم بالجواب: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (المائدة).

وقد ورد في "التحرير والتنوير": "قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ قولٌ يقوله يوم القيامة، وهذا مبدأ تقريع النصارى بعد أن فرغ من تقريع اليهود، فتقريع النصارى هو المقصود من هذه الآيات التي تبدأ من قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (المائدة: ١٠٩)، فالاستفهام هنا كالاستفهام في قوله تعالى للرسل: ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾، والله يعلم أن عيسى عليه السلام لم يقل ذلك، ولكن أُرِيد إعلان كذب مَن كفر مِن النصارى.

والمعنى أنه إن لم يكن هو قائل ذلك فلا عذر لمن قاله؛ لأنهم زعموا أنهم يتبعون أقوال عيسى وتعاليمه، فلو كان هو القائل لقال: اتخذوني وأمي، ولذلك جاء التعبير بهذين اللفظين في الآية، والمراد بالناس: أهل دينه..

وجواب عيسى عليه السلام بقوله: ﴿ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ تنزيهٌ لله تعالى عن مضمون تلك المقالة، وكانت المبادرة بتنزيه الله تعالى أهم من تبرئته نفسه على أنها مقدمة للتَّبرِّي؛ لأنه إذا كان يُنزِّه الله عن ذلك، فلا جَرَم أنه لا يأمر به أحدًا..

ثم برَّأ نفسه عليه السلام، فقال: ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾، فجملة: ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ ﴾ مستأنفة؛ لأنها جواب السؤال، وجملة: ﴿ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ تمهيد، وقوله: ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ ﴾ مبالغة في التبرئة من ذلك؛ أي: ما يوجد لديَّ قول ما ليس لي بحق، فاللام في قوله: ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ ﴾ للاستحقاق؛ أي: ما يوجد حق أن أقول. وذلك أبلغ من: "لم أقله"؛ لأنه نفى أن يوجد استحقاقه ذلك القول.

والباء في قوله: ﴿ بِحَقٍّ ﴾ زائدة في خبر ﴿ لَيْسَ ﴾؛ لتأكيد النفي الذي دلّت عليه ﴿ لَيْسَ ﴾. وقد أفاد الكلام تأكيد كون ذلك ليس حقًّا له بطريق المذهب الكلامي؛ لأنه نفى أن يُباح له أن يقول ما لا يحق له، فعلم أن ذلك ليس حقًّا له وأنه لم يقله لأجل كونه

كذلك، فهذا تأكيد في غاية البلاغة والتَّفنُّن.

ثم ارتقى عليه السلام في التَّبرؤ فقال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾، فالجملة مستأنفة؛ لأنها دليل وحجة لمضمون الجملة التي قبلها، فكانت كالبيان، فلذلك فُصِلَت، فاستدل على انتفاء أن يقوله بأن الله يعلم أنه لم يقله؛ وذلك لأنه يتحقق أنه لم يقله، فلذلك أحال على علم الله تعالى، وهذا كقول العرب: يعلم الله أني لم أفعل، كما قال الحارث بن عباد:

لم أكُنْ من جُناتِها عَلِمَ الله

وأنِّي لِحَرِّها اليومَ صالِ

ولذلك قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾، فجملة: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ بيان لجملة الشرط: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾، فلذلك فُصِلَت.. والمعنى هنا: تعلم ما أعتقده؛ أي: تعلم ما أعلمه؛ لأن النفس مَقرُّ العلوم في المتعارف.

وقوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ اعتراض نشأ عن ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ لقصد الجمع بين الأمرين في الوقت الواحد وفي كل حال، وذلك مبالغة في التَّنزيه، وليس له أثر في التَّبرؤ والتَّنصُّل؛ فلذلك تكون الواو اعتراضية. وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ عِلَّة لقوله ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾؛ ولذلك جيء بـ "إن" المفيدة التعليل، وقد جمع فيه أربع مؤكدات وطريقة حصر؛ فضمير الفصل أفاد الحصر، وإن وصيغة الحصر، وجمع الغيوب، وأداة الاستغراب.

وبعد أن تبرَّأ عيسى عليه السلام من أن يكون أمر أمَّته بما اختلقوه، انتقل فبيَّن أنه أمرهم بعكس ذلك حسبما أمره الله تعالى، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾، فقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ ارتقاء في الجواب، فهو استئناف بمنزلة الجواب الأول، وهو ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾، إلا أنه صرح هنا بما قاله؛ لأن الاستفهام عن مقاله، والمعنى: ما تجاوزت فيما قلت حدَّ التبليغ لما أمرتني به.

و ﴿أَنِ﴾ مُفسِّرة لـ ﴿أَمَرْتَنِى﴾؛ لأن الأمر فيه معنى القول دون حروفه، وجملة ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ تفسيرية لـ ﴿أَمَرْتَنِى﴾. واختير ﴿أَمَرْتَنِى﴾ على "قلت لي" مبالغة في الأدب.

ثم تبرَّأ عليه السلام من تبعتهم، فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾؛ أي: كنت مشاهدًا لهم ورقيبًا يمنعهم من أن يقولوا مثل هذه المقالة الشنعاء، والمعنى: أنك لما توفيتني قد صارت الوفاة حائلًا بيني وبينهم، فلم يكن لي أن أُنكِر عليهم ضلالهم؛ ولذلك قال: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، فجاء بضمير الفصل الدال على القصر؛ أي: كنت أنت الرقيب لا أنا؛ إذ لم يبقَ بيني وبين الدنيا اتصال، والمعنى أنك تعلم أمرهم وترسل إليهم من يهديهم متى شئت. وقد أرسل إليهم محمدًا ﷺ وهداهم بكل وجوه الاهتداء، وأقصى وجوه الاهتداء إبلاغهم ما سيكون في شأنهم يوم القيامة[1].

ثالثًا. عيسى عليه السلام عبد مخلوق كان يأكل الطعام:

أكد القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام رسول قد خلت من قبله الرسل، وأنه عبد مخلوق من عباد الله، وأمه

---

1. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٤، ج٧، ص١١٢: ١١٧ بتصرف.

صِدِّيقة كانا يأكلان الطعام ويحتاجان إليه، قال ﷻ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (المائدة).

فمن كان حاله كذلك فهل يكون إلهًا؟! وهل يكون إلهًا من يحتاج إلى الطعام ليقوم به بدنه؟! إن الإله الحقَّ غنيٌّ عن جميع الأشياء، لا يحتاج إلى شيء، وليس كمثله شيء، ومن أحسن ما قيل في ذلك، ولله دَرُّ قائله:

أَعُبَّادَ المَسِيحِ لنا سُؤالٌ
نُرِيدُ جَوابَه مِمَّن وَعاهُ
إذا ماتَ الإلهُ بِصُنْعِ قَومٍ
أَماتُوهُ فَهَلْ هذا إلهُ؟!
ويا عَجَبًا لِقَبْرٍ ضَمَّ رَبًّا
وأَعْجَبُ مِنهُ بَطْنٌ قَدْ حَواهُ
أَقَامَ هُناكَ تِسْعًا مِنْ شُهورٍ
لَدَى الظُّلُماتِ من حَيْضٍ غِذاهُ
ويَأْكُلُ ثُمَّ يَشْرَبُ ثُمَّ يَأْتِي
بِلازِمِ ذا فَهَلْ هَذا إِلَهُ؟!
تَعالى اللهُ عن إِفْكِ النَّصارَى
سَيُسْأَلُ كُلُّهم عَمَّا افْتَرَاهُ

رابعًا. مصير المسيح عليه السلام وأمه بيد الله ﷻ وحده يقرره كيفما يشاء:

إن الله ﷻ إذا أراد أن يهلكَ المسيح ابنَ مريمَ وأمَّه، ومَن في الأرض جميعًا، فلا يملك أحد أن يتدخل في إرادة الله ﷻ، وإذا لم يقدر أحد أن يمنعه ﷻ من ذلك فلا إله إلا الله، ولا ربَّ غيره، ولا معبود بحق سواه، ولو كان المسيح إلهًا كما تزعم النصارى لكان له من الأمر شيء، ولقدر على أن يدفع عن نفسه أقل حال، ولم يقدر على أن يدفع عن نفسه وأمه الضرر، قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ (المائدة).

خامسًا. معجزات المسيح عليه السلام حدثت بإذن الله ﷻ:

لقد وضح القرآن على لسان عيسى عليه السلام أن تلك المعجزات التي حدثت معه عليه السلام كانت بإذن الله ولم يكن لعيسى فيها أي دخل سوى أنها جرت على يديه، قال ﷻ على لسان سيدنا عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ (آل عمران).

فقد حرص القرآن الكريم على أن يذكر على لسان المسيح عليه السلام - كما هو مقدر في غيب الله عند البشارة لمريم، وكما تحقق بعد ذلك على لسان عيسى عليه السلام - أن كل خارقة من هذه الخوارق التي جاءهم بها إنما هي من عند الله، وذكر ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بعد كل واحدة منها

تفصيلًا وتحديدًا؛ ولم يدع القول يتم إلا وذكر في نهايته ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ زيادة في الاحتياط.

وفى نهاية الآيات يقول ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١﴾ (آل عمران)، وهكذا يعلن سيدنا عيسى ﷺ حقيقة التصور الاعتقادي التي قام عليها دين الله كله؛ فالمعجزات التي جاءهم بها لم يجئ بها من عند نفسه، فما له قدرة عليها فهو بشر؛ إنما جاءهم بها من عند الله تعالى ودعوته تقوم ابتداء على تقوى الله وطاعته.. ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على السواء - فما هو برب إنما هو عبد - ويدعوهم أن يتوجهوا بالعبادة للرب الواحد، فلا عبودية إلا لله... ويختم قوله بالحقيقة الشاملة.. فتوحيد الرب وعبادته، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه هذا صراط مستقيم، وما عداه عوج وانحراف[1] ®.

سادسًا. مثل عيسى ﷺ كمثل آدم ﷺ:

بيّن القرآن الكريم حقيقة سيدنا عيسى ﷺ، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ (آل عمران). إن كانت ولادة عيسى عجيبة حقًّا بالقياس إلى مألوف البشر، فأية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر؟! وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى - بسبب مولده - ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب؛ فهؤلاء أنفسهم يقرُّون بنشأة آدم من التراب، وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنساني... دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى... ودون أن يقولوا عن آدم: إن له طبيعة لاهوتية، في حين أن العنصر الذي صار به آدم إنسانًا هو ذاته العنصر الذي به ولد عيسى من غير أب؛ إنه عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك، وما هي إلا الكلمة: ﴿كُن﴾ فتنشئ ما يريد الله له النشأة ﴿فَيَكُونُ﴾وهكذا تتجلى بساطة هذه الحقيقة... حقيقة عيسى وحقيقة آدم وحقيقة الخلق كله، وتدخل إلى النفس في يسر ووضوح، حتى ليعجب الإنسان ويتساءل: كيف ثار الجدل حول هذا الحادث وهو جارٍ وفق السنة الكبرى، سنة الخلق والنشأة جميعًا، وهذه هي طريقة "الذكر الحكيم" في مخاطبة الفطرة بالمنطق الفطري الواقعي البسيط، حتى في أعقد القضايا فتبدو بعد هذا الخطاب وكأنها اليسر الميسور[2].

الخلاصة:

- القول بألوهية المسيح من أكبر الأدلة على ضلال النصارى؛ وذلك لأن كلام المسيح ﷺ ودلائل بشريته المؤكدة تنفي هذا الزعم من الأساس.
- إقرار المسيح ﷺ نفسه بالعبودية لله ﷻ في مهده ويوم القيامة ينفي هذا الادعاء؛ لأنه لا يتفق مقام الألوهية مع مقتضيات البشرية والإقرار بالعبودية لله.

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٣٩٩، ٤٠٠ بتصرف.

® في **"إنكار عقيدة البعث في الفكر الإلحادي"** طالع أيضًا: الشبهة التاسعة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). وفي **"تعلُّل المشركين في إنكار البعث بعدم رجعة آبائهم إلى الدنيا"** طالع: الشبهة الثانية والخمسين، من هذا الجزء.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٤٠٤، ٤٠٥.

- المسيح ﷺ رسول الله يأكل الطعام، فكيف يكون إلهًا؟
- لا أحد يقدر على منع الله ﷻ أن يهلك المسيح وأمَّه ومَن في الأرض جميعًا، فمصيره هو وأمه وكل مخلوقات الله ﷻ بيد الله وحده.

الشبهة السابعة

إنكارُ البعث والمَعاد وإحياء الخلق يوم القيامة مرةً أخرى واعتبارُ ذلك أسطورةً وسحرًا(*) ®

مضمون الشبهة:

ينكر الدَّهرِيُّون[1] ومَن وافقهم من مُشْركي العرب البعث والمعاد، ويؤيد هذا بعض الفلاسفة فيُنْكرون البُداءة والمعاد، ويعتبرون إحياء الخلق مرة أخرى من قبيل الأسطورة والخرافة، كما زعمت طائفة أخرى أن البعث يكون للأرواح دون الأجساد. قال ﷻ: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الجاثية).

وجوه إبطال الشبهة:

١) البعث حقيقة مؤكدة ومحددة بأجل معدود.

٢) الذي قدر على بدْء الحياة قادر على إعادتها.

٣) القادر على خلق ما هو عظيم قادر على خلق ما هو دونه.

٤) قدرته ﷻ على تحويل الخلق من حال إلى حال دليل على قدرته على البعث والإحياء بعد الإماتة.

٥) قصة من أنكر البعث خير دليل على قدرة الله تعالى على البعث والنشور يوم القيامة.

٦) إحياء بعض الأموات في هذه الحياة دليل واقعي على قدرته ﷻ على البعث.

٧) ضرب المثل بإحياء الأرض بالماء وكذلك دورة النبات؛ للاستدلال على صحة البعث.

٨) حكمة الله وعدله يقتضيان بعث العباد للجزاء والحساب.

٩) اتفاق جميع الأنبياء على الإخبار بالمعاد.

١٠) ضلال منكري البعث؛ حيث لا دليل لهم.

التفصيل:

هذه شبهة داحضة أكثر المشركون مقولتها، وهي من أكثر مزاعمهم وشبههم تردادًا وتكرارًا في القرآن، فهم

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (سبأ/ ٣، ٧، ٢٩، ٣٥، التغابن/ ٧، يونس/ ٥٣، الملك/ ٢٥، ق/ ٣، ١٥، الدخان/ ٣٥، الجاثية/ ٢٤، ٣٢، يس/ ٤٨، ٧٨، الصافات/ ١٦، ١٧، ٥٣، السجدة/ ١٠، ٢٨، النمل/ ٦٧، ٦٨، ٧١، المؤمنون/ ٣٥، ٣٧، ٨٢، ٨٣، الأنبياء/ ٣٨، مريم/ ٦٦، الكهف/ ٣٦، الإسراء/ ٤٩، ٥١، ٩٨، النحل/ ٣٨، الرعد/ ٥، هود/ ٧، الشعراء/ ١٣٨، الواقعة/ ٤٧، ٤٨، النازعات/ ١٠، ١٢).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (سبأ/ ٣، يونس/ ٥٣، ٥٤، التغابن/ ٧، سبأ/ ٨، ٣٠، الجاثية/ ٢٦، الإسراء/ ٥، ٥٢، ٩٩، النحل/ ٣٨، ٤٠، هود/ ٨، الأعراف/ ٢٥، طه/ ٥٥، الواقعة/ ٤٩، ٥٠، الحج/ ٥، ٧، الشورى/ ١٨، الصافات/ ١٨، ١٩، يس/ ٧٩: ٨٣، السجدة/ ٢٩، ٣٠، الأنبياء/ ٣٩، ٤٠، مريم/ ٦٧، الكهف/ ٢١، ٣٧، الروم/ ٢٧).
® في "**إنكار عقيدة البعث في الفكر الإلحادي**" طالع: الشبهة التاسعة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). وفي "**تعلُّل المشركين في إنكار البعث بعدم رجعة آبائهم إلى الدنيا**" طالع: الشبهة الثانية والخمسين، من هذا الجزء.

١. الدَّهرِيُّون: جمع دَهْري، وهو المُلْحِد الذي لا يؤمن بالآخرة، ويقول ببقاء الدنيا، أو بأن العالم موجود أزلا وأبدًا ولا صانع له.

يزعمون أنهم لن يبعثوا، ويستبعدون المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام ترابًا، ويعتبرون ذلك أسطورة وسحرًا، وقد حكى القرآن عنهم ذلك في غير موضع، قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجاثية: ٢٤) وقال ﷻ حاكيًا عنهم قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (المؤمنون) وقال ﷻ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ (التغابن: ٧)، وقال ﷻ: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾﴾ (هود)، وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ (سبأ:٣)، ومثل ذلك كثير.

وهؤلاء المنكرون للبعث الذين أخبر القرآن عنهم ليسوا فرقة واحدة، بل يمكن تصنيفهم - من خلال ردود القرآن عليهم - إلى ثلاثة أصناف:

الأول: الملاحدة الذين ينكرون وجود الخالق، ومن هؤلاء كثير من الفلاسفة الدَّهريَّة الطبائعية، ومثلهم الشُّيوعيُّون[1] في عصرنا، وهؤلاء ينكرون صدور الخلق عن خالق؛ فهم منكرون للنشأة الأولى والثانية، ومنكرون لوجود الخالق أصلًا. وهؤلاء ناقشهم الله ﷻ أولًا في وجود الخالق ووحدانيته - كما سبق أن بيَّنا - ثم يأتي بعد ذلك إثبات المعاد؛ لأن الإيمان بالمعاد فرع الإيمان بالله.

الثاني: الذين يعترفون بوجود الخالق، ولكنهم يكذِّبون بالبعث والنشور، ومن هؤلاء العرب الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (لقمان). فهم مع اعترافهم بوجود الخالق ﷻ ينكرون البعث والنشور يوم القيامة، وقد حكى القرآن عنهم ذلك، حيث قالوا: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (النمل). وهؤلاء يدَّعون أنهم يؤمنون بالله، ولكنهم - في الوقت نفسه - يدَّعون أن قدرة الله عاجزة عن إحيائهم بعد إماتتهم! وهم الذين ضرب الله لهم الأمثال، وساق لهم الحجج والبراهين لبيان قدرته على البعث والنشور، وأنه لا يعجزه شيء، ومن هؤلاء طائفة من اليهود يُسَمَّون "الصَّادوقيُّون"[2] يزعمون أنهم يؤمنون بتوراة موسى، وهم يكذِّبون بالبعث والنشور والجنة والنار!

الثالث: الذين يؤمنون بالمعاد على غير الصفة التي جاءت بها الشرائع السماوية من النصارى، وهؤلاء هم الذين يعتقدون أن الذي يُنَعَّم أو يُعَذَّب يوم القيامة إنما هو الروح فحسب، وقال بقولهم كثير من الفلاسفة والفرق الضالة[3].

وقد رد القرآن على هؤلاء المنكرين للبعث المكذِّبين

---

١. الشُّيوعيُّون: هم من يعتنقون المذهب الشُّيوعي، مذهب كارل ماركس، وهو نظام اجتماعي وسياسي واقتصادي يقوم على الإنتاج الجماعي وإشاعة المِلْكيَّة وإزالة الطبقات الاجتماعية، وأن يعمل الفرد على قَدْر طاقته ويأخذ على قَدْر حاجته.

٢. الصَّادوقيُّون: جماعة قليلة العدد نسبيًّا، ولكن معظمها كان من المثقَّفين والأعيان، واسمها مشتق من صادوق رئيس الكهنة في أيام داود وسليمان - عليهما السلام - وقد حصروا تعليمهم في الكتاب المقدس فقط، زاعمين أن حرف الناموس المكتوب وحده هو المُلْزِم، وينكرون القيامة.

٣. القيامة الكبرى، د. عمر سليمان الأشقر، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٦١، ٦٢، ٨٤ بتصرف.

بالمعاد ما زعموه في غير موضع من آياته بالأدلة والبراهين القاطعة المثبتة للبعث والنشور، ومن ذلك:

أولا. بيَّن القرآن الكريم أن البعث حقيقة مؤكدة ومحددة بأجل معدود:

لقد نوَّع الحق ﷻ أساليب الإخبار عن تلك الحقيقة، فتارة يجزم المولى ﷻ بوقوع ذلك اليوم ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا ﴾ (طه: ١٥)، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا ﴾ (غافر: ٥٩)، وقوله: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (الأنعام)، وقوله: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ ﴾ (الذاريات)، وفي بعض الأحيان يخبر عن اقترابه، ومنه قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ ﴾ (المعارج)، وقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ (القمر)، وفي مواضع أخرى يقسم الله تعالى على وقوعه ومجيئه، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ﴾ (النساء)، أو يأمر رسوله بالإقسام على وقوع البعث وتحققه، وذلك في معرض الرد على المكذبين به المنكرين له[1].

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (يونس)، ونظير هذه الآية قوله ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ (سبأ: ٣)، ويؤكد القرآن أن يوم القيامة يوم محدد لا يُزاد في موعده ولا يُنقص، قال ﷻ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (سبأ)، إذن فهو ميعاد معدود محرر لا يُزاد في موعده ولا يُنقص، قال ﷻ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ (نوح: ٤)، فذلك وعد صادق، وخبر لازم، وأجل لا شك فيه، قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (هود).

ثانيا. ومن الأدلة العقلية المفحمة التي برهن بها القرآن على البعث والمعاد أنه استدل على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى:

نشاهد كل يوم حياة جديدة تخلق: أطفال يولدون، وطيور تخرج من بيضها، وحيوانات تلدها أمهاتها، وأسماك تملأ البحر والنهر، يرى الإنسان ذلك كله بأم عينيه، ثم ينكر أن يقع مثل ذلك مرة أخرى بعد أن يبيد الله هذه الحياة. إن الذين يطلبون دليلا على البعث يغفلون عن أن خلقهم على هذا النحو أعظم دليل على ذلك، فالقادر على خلقهم ابتداءً، قادر على إعادة خلقهم مرة أخرى[2].

وقد أخبر الله ﷻ أن الإنسان نفسه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، قال ﷻ: ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾ (مريم).

ويبرهن ﷻ بالبداءة على الإعادة، يعني أنه ﷻ قد خلق الإنسان ولم يَكُ شيئًا، أفلا يمكنه ﷻ إعادته ثانية وقد صار شيئًا موجودًا؟! قال ﷻ: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ ﴾ (مريم).

---

١. المرجع السابق، ص٦٣: ٦٦ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص٦٦ بتصرف.

وهذا بيان لهؤلاء، مفاده أن الذي قدر على البدء قادر على الإعادة، وهذا بطريق الأولى والأحرى، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (الجاثية:٢٦)، فكما هو قادر على أن يخرجكم من العدم إلى الوجود، فهو قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها، قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (الروم: ٢٧) وقال ﷻ أيضًا: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الإسراء:٥١)، أي: فالذي خلقكم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا ثم صرتم بشرًا تنتشرون قادر على إعادتكم مهما تكن حالتكم.

ويذكرنا القرآن في موضع آخر بالخلق الأول للإنسان، فآدم خلقه الله من تراب؛ فالقادر على جعل التراب بشرًا سويًّا، لا يعجزه أن يعيده بشرًا سويًّا مرة أخرى بعد موته، كما يذكرنا بخلقتنا نحن ذرية آدم، فإنه خلقنا من سلالة من ماء مهين، تحول هذا الماء فأصبح نطفة، ثم صارت النطفة علقة، ثم تحولت إلى مضغة.

إلى أن نفخ فيها الروح وجعلها إنسانًا سويًّا، فالقادر على الخلق المشاهَد المعلوم قادر على إعادته وإحيائه بعد موته، قال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ (الحج)[1].

ثالثًا. ومن الأدلة القوية في هذا الصدد ما ساقه القرآن دليلا للعقل أن يتفكر فيه، إذ بيّن أن من جملة خلقه تعالى ما هو أعظم من خلق الناس؛ فالقادر على خلق الأعظم لا شك قادر على خلق ما هو دونه:

لقد نبَّه الله ﷻ كل مَن له عقل - يعي به - على قدرته على إعادة الخلق مرة أخرى، وذلك بدليل أنه خلق السماوات والأرض، فقدرته على إعادة الخلق أسهل من خلقه السماوات والأرض، قال تبارك وتعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ (غافر: ٥٧)، وقال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (الأحقاف: ٣٣)، وقال أيضًا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ (الإسراء: ٩٩)، وقال أيضًا: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾ (يس). ويوضح ذلك قول ابن تيمية بعد أن ساق هذه النصوص -: "فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم، والقدرة عليه أبلغ، وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك"[2].

---

١. المرجع السابق، ص٦٧.

٢. المرجع السابق، ص٦٨.

رابعًا. ومن ردود القرآن على منكري البعث ما بينه الحق تعالى برهانًا للعقل البشري أن يتدبره من أن قدرته تعالى على تحويل الخلق من حال إلى حال لا يعجزها إعادة الخلق بعد الممات:

إن من تمام ألوهيته وربوبيته تعالى قدرته سبحانه على تحويل الخلق من حال إلى حال، فهو يميت ويحيي، ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي، ويخلق ويفني، قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ (الأنعام)، فمن الحبة الجامدة الصماء يخرج نبتة غضة خضراء تزهر وتثمر، ثم تعطي هذه النبتة الحية حبوبًا جامدة، ومن الطيور الحية يخرج البيض الميت، ومن البيض الميت تخرج الطيور المتحركة المغردة التي تنطلق في أجواز الفضاء!

إن تقلب العباد: موت فحياة فموت فحياة، دليل عظيم على قدرة الله التي تجعل النفوس تخضع لعظمته وسلطانه، ولذلك يقول عز وجل: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (البقرة)[1].

خامسًا. ساق القرآن بعض أدلة البعث في معرض الرد على واحد من مكذبي المعاد:

يحكي القرآن عن أحد هؤلاء المشركين المستبعدين البعث ـ وهو العاص بن وائل ـ حين جاء إلى النبي ﷺ وفي يده عَظْم رميم وهو يفتّه ويذْرُوه في الهواء، ويقول: يا محمد، أيبعث الله هذا بعد ما أَرَمَّ؟! قال ﷺ: "نعم يبعث الله هذا، يُميتك ثم يُحييك ثم يدخلك نار جهنم"، قال: فنزلت الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ (يس)[2].

ونزلت في هذه القصة الآيات الأخيرة من سورة يس، وفيها يقول الحق عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ (يس)، فهذا المشرك ضرب لله مثلًا ونسي أنه خلقه من نطفة، فلم يهتدِ إلى أن ذلك أعجب من إعادة عظمه ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ (ق: ١٥)، ولذا قال عز وجل جوابًا على سؤاله المتهافت: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ (يس)، أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها أين ذهبت وتفرقت وتمزقت، ثم ضرب الله له مثلًا آخر وهو الشجر الأخضر الذي يوقد منه النار، فالله بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضرًا نضرًا ذا ثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صار حطبًا يابسًا توقد به النار، وكذلك هو فعّال لما يشاء، قادر على ما يريد، لا يعجزه شيء، قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (يس)، ثم يقدم القرآن استدلالًا آخر على إعادة الأجساد بخلق السماوات والأرض بما فيها من الكواكب السيّارة، والجبال، والبحار، والرمال، وما بين

---

١. المرجع السابق، ص٦٩، ٧٠.

٢. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة يس (٣٦٠٦)، وصححه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

ذلك، قال ﷻ: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ (يس).

ففي هذه القصة نلاحظ أن الله ﷻ ساق من الأدلة ما يكفي لإقناع هذا المشرك وغيره بحقيقة البعث والمعاد؛ إذ احتج بالإبداء على الإعادة، ثم بقدرته على تحويل الخلق من حال إلى ضده، ثم أكد ذلك بأن القادر على خلق الأعظم قادر من باب أولى على خلق الأيسر منه، فسبحان مَن يقول للشيء كن فيكون، فملكوت كل شيء بيده، وكلٌّ إليه راجع، قال ﷻ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ (يس).

سادسًا. إحياء بعض الأموات في هذه الحياة دليل واقعي على قدرته ﷻ على البعث والنشور يوم القيامة:

لقد ذكر القرآن الكريم عددًا من القصص التي أحيا الله فيها بعض الأموات في هذه الحياة الدنيا، وكذلك ما أيَّد الله به بعض رسله من إحياء الموتى على أيديهم، وفي كل ذلك أعظم دليل على قدرته تعالى على البعث والنشور، فحدثنا القرآن عن الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فتعجب من إحياء الله لها بعد موتها وقد كان مؤمنًا لا شاكًّا، ولكن الله أعلمه ذلك يقينًا؛ أي بالمعاينة، قال ﷻ: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ (البقرة).

وحدثنا عن إبراهيم عليه السلام الذي دعا ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فكان هذا المشهد الذي حدثنا القرآن عنه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ (البقرة).

وحدثنا عن عيسى عليه السلام الذي كان يصنع من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، وكان يحيي الموتى بإذن الله، فقد قال لقومه: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (آل عمران).

وحدثنا عن أصحاب الكهف الذين ضرب الله على آذانهم في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين، ثم قاموا من

رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) ﴾ (الكهف)، وقال أيضًا: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) ﴾ (الكهف).

وحدثنا عن قوم موسى عليه السلام، هؤلاء الذين قالوا له: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ (البقرة: ٥٥)، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، ثم بعثهم الله بعد موتهم هذا، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) ﴾ (البقرة).

وحدثنا عن قتل بني إسرائيل قتيلًا واتِّهام كل قَبيل القبيل الآخر بقتله، فأمرهم نبيهم أن يذبحوا بقرة، فذبحوها بعد أن تعنَّتوا في طلب صفاتها، ثم أمرهم بعد ذبحها أن يضربوا القتيل بجزء منها، فأحياه الله وهم ينظرون فأخبر عمَّن قتله، قال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ﴾ (البقرة).

سابعًا. ومن الأدلة التي ساقها القرآن على البعث أنه لفت نظر الناس إلى ذلك حين ضرب المثل بإحياء الأرض بما ينبته فيها من النبات بعد نزول الماء:

- قال ﷻ: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ (الروم).
- وقال: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) ﴾ (فاطر).
- وقال: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ (فصلت).
- وقال ﷻ: ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) ﴾ (الزخرف).

والمعنى المراد من هذا كله هو: الاستبصار والاستدلال؛ أي: استدلوا بذلك على أن مَن قدر عليه قادر من باب أولى على إحياء الموتى، وهذا من قبيل الاستدلال بالشاهد على الغائب[1].

ثامنًا. ومن أهم الأدلة الناصعة التي ذكرها القرآن على البعث أنه بيَّن الحكمة منه:

إن الحكمة والعدل يقتضيان بعث العباد يوم القيامة الحساب؛ إذ إن الخلق يصبح عبثًا وباطلًا إذا لم يكن هناك يوم آخر يُبعث فيه الناس، ويُحاسبون على أعمالهم التي عملوها في الحياة الدنيا؛ أي أن الحياة تصبح عبثًا، وخلق السماوات والأرض يصبح باطلًا لو كانت الحياة الدنيا هي نهاية المطاف، قال ﷻ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ (المؤمنون)[2].

وقال أيضًا: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) ﴾ (يونس)، فحكمة الله وعدله يقتضيان أن يبعث عباده ليجزيهم بما قدموا، إن خيرًا

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١٤، ص٤٥ بتصرف.

٢. ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص٣٨٧.

فخير، وإن شرًّا فشر، فالله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الطريق الذي يعبدونه به، فمن العباد من استقام على طاعته، وبذل نفسه وماله في سبيل ذلك، ومنهم من رفض الاستقامة على طاعة الله وطغى، أفيليق بعد ذلك أن يموت الصالح والطالح ولا يجزي الله المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؟! ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨)﴾ (القلم)[1].

فنحن نشاهد في حياتنا الدنيا ظالمين ظلوا على ظلمهم حتى لحظة الموت، ومظلومين ظلوا مظلومين إلى آخر حياتهم، أفيكون هذا عدلًا وحكمة إن كانت الحياة الدنيا هي نهاية المطاف؟! وأين هو العدل والظالم لم يُقتص منه والمظلوم لم يُقتص له؟! وأين هي الحكمة في خلق حياة تجري أحداثها على غير مقتضى العدل، ثم تنتهي على هذه الصورة؟!

أيكون من الحق أن الذين أجابوا داعي الله فآمنوا به واستقاموا على طريقه، يعيشون ويموتون في الهوان والذل كأنهم هم المغضوب عليهم، وأن الذين لم يستجيبوا لله ولم يؤمنوا به يعيشون ويموتون هانئين منعَّمين كأنهم هم الذين نالوا رضوان الله؟!

كلا بغير شك. ولا يجوز ذلك في حق الله. لا يجوز في حق عدالته وحكمته ﷻ أن تكون الأمور على هذه الصورة، وإلا تكون الحياة عبثًا لا معنى لها ولا حكمة فيها... لذلك جاء هذا السؤال الإنكاري:

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥)﴾ (القلم).

حاشا لله أن يكون ذلك، إنما ذلك ظن الذين كفروا، فهم الذين يظنون أن الأمر سواء، وأنه لا حساب ولا عقاب، فكأنهم يقولون: إن الله خلق السماوات والأرض باطلًا، كلَّا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)﴾ (ص).

فقد نزلت هذه الآية في كفار قريش الذين كانوا ينكرون البعث، ولكن العجيب أن الجاهلية المعاصرة تنتج نماذج تنطبق عليها الآية الكريمة تمامًا، ومن هؤلاء: سارتر الوجودي[2] المُلْحِد، الذي يقول: إن الوجود كله عبث وكله باطل، وإن حياة الإنسان لا معنى لها ولا حكمة فيها: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧)﴾ (ص)[3] ®.

تاسعًا. ومن الأدلة على البعث ما ذكره القرآن من اتفاق جميع الأنبياء على الإخبار بالمعاد: فالإيمان بالقيامة والجنة والنار من أصول الإيمان التي يشترك الأنبياء جميعًا وأتباعهم الصادقون في معرفتها والإيمان بها:

فقد أخبر القرآن الكريم عن هؤلاء الأشقياء أهل النار الذين يقرون بأن رسلهم أنذرتهم باليوم الآخر،

١. القيامة الكبرى، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٧٥، ٧٦.

٢. الوجودي: القائل بمذهب الوجود أو الوجودية، وهو مذهب فلسفي يرى أن الوجود سابق على الماهية، وأن الإنسان حرٌّ يستطيع أن يصنع نفسه، ويتخذ موقفه كما يبدو له؛ تحقيقًا لوجوده الكامل.

٣. ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص٣٩٠.

® في "اقتضاء فكرة "العدالة" لعقيدة البعث" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

قال تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) ﴾ (الملك)، وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) ﴾ (الزمر). فالكفار جميعًا عندما يسألون عند ورودهم النار يقرُّون بأن رسلهم خوفتهم لقاء ذلك اليوم، ولكنهم كفروا وكذَّبوا.

وهذا الذي قررته الآيات السابقة بيَّنه الله ﷻ في غير موضع من كتابه، فقد أخبر الحق ﷻ أن مقتضى عدله وحكمته ألَّا يعذب أحدًا لم تبلغه الرسالة ولم تقم عليه الحجة، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾ (الإسراء)، وقال أيضًا: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) ﴾ (النساء)، من أجل ذلك عمت الرسالة كل البشر، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ (فاطر).

كما ذكر القرآن الكريم أنه ما من نبي من الأنبياء إلا أنذر قومه يوم القيامة وأخبرهم بالبعث والنشور من أجل الجزاء والحساب، وذلك حين قصَّ قصص الأنبياء في القرآن الكريم[1].

عاشرًا. يؤكد القرآن الكريم في أكثر من موضع أن المنكرين للبعث والمعاد لا يستندون إلى دليل ولا يقيمون على دعواهم تلك أي برهان:

فما عندهم من علم بالبعث والمعاد إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون، قال ﷻ: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) ﴾ (الجاثية) وقال ﷻ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) ﴾ (الجاثية)، وقال ﷻ: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) ﴾ (النمل).

ويؤكد القرآن أيضًا في أكثر من موضع أن هؤلاء المُستبعِدين المعاد والقيامة والبعث يعيشون في الوهم والضلال البعيد، قال ﷻ: ﴿ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) ﴾ (سبأ)، وقال أيضًا: ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨) ﴾ (الشورى)، فهم في جهل وضلال بيِّن؛ لأن الذي خلق السماوات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأَوْلى.

الخلاصة:

- الموجد للشيء بعد العدم قادر على إعادة بعثه بعد فنائه؛ فالقادر على الخلق من عدم قادر على إعادة الخلق بعد إفنائه.
- المنكر للبعث والمعاد وإحياء الخلق يوم القيامة يعيش في الوهم والضلال، فالأمثلة على ذلك متعددة، والأدلة كثيرة، ومن ذلك إحياء الله ﷻ للأرض بعد

---

١. القيامة الكبرى، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٧٧: ٨١ بتصرف.

موتها ببعض الأمطار يسقطها عليها.

- هناك بون كبير بين حقيقة البعث والمعاد وبين الأسطورة والسحر، ولقد شاهد بعض البشر - في فترات مختلفة من التاريخ - عودة الحياة إلى الجثث الهامدة، وجاء القرآن بقصص من ذلك، كقتيل بني إسرائيل، وكالذي مرَّ على قرية، ومن ذلك أيضًا قصة إبراهيم عليه السلام والأربعة من الطير، وإحياء عيسى عليه السلام للموتى بإذن الله عز وجل.

الشبهة الثامنة

ادِّعاء أن الأصنام والأوثان آلهة تشفع عند الله عز وجل وتقرِّب إليه(*)

مضمون الشبهة:

يعبد المشركون مع الله عز وجل آلهة غيره، ويدَّعون أن شفاعة هذه الآلهة تنفعهم عند الله عز وجل في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا، ويزعمون أن هذه الآلهة تقرِّبهم عند الله منزلة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ (الزمر: ٣)، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٨). ولذا كانوا يقولون في جاهليتهم إذا حجُّوا: لبَّيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا.

وجوه إبطال الشبهة:

١) عبادة غير الله مخترعة، والشرك حادث في الناس.

٢) هذه الآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركون لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئًا.

٣) المخلوقات جميعًا خاضعة لله عز وجل.

٤) لو كان مع الله آلهة - كما زعم المشركون - لتقربوا إليه وعبدوه.

٥) الله عز وجل منزَّه عن الشريك.

التفصيل:

أولا. عبادة غير الله مخترعة، والشرك حادث في الناس:

إن الذي حمل المشركين على عبادة الأصنام هو عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله عز وجل في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا، أما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به، كما كانوا يعبدون هذه الأصنام أيضًا لتقربهم إلى الله منزلة عنده، قال تعالى حاكيًا عنهم هذا القول: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ (الزمر: ٣)، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجُّوا في جاهليتهم: لبَّيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

وهذه الدَّعوى هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - بردِّها والنهي عنها، فكان من أهداف الرسل الدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له،

(*) الآيتان اللتان وردت فيهما الشبهة: (يونس/ ١٨، الزمر/ ٣).

الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (يونس/ ١٨، الزمر/ ٣، الرعد/ ١٦، الإسراء/ ٤٢، ٤٣).

وتوضيح أن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن به الله ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)، وقال أيضًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء).

ثم أخبر الله عز وجل أن هذا الشرك حادث في الناس بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام إلا أنهم تفرقوا واختلفوا، قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ (يونس: ١٩).

ثانيًا. هذه الآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركون لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئًا:

لقد أنكر الله عز وجل على المشركين الذين عبدوا معه غيره ظانّين أن شفاعة تلك الآلهة تنفعهم عند الله، وأخبر عز وجل أن هذه الآلهة المزعومة لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئًا، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولن يكون هذا أبدًا، قال عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (يونس: ١٨). والمعنى: أتخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض.

وقال عز وجل أيضًا: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ (الرعد).

فبيّن عز وجل أن هذه الآلهة التي اتخذوها من دونه أولياء يعبدونهم لا تملك لأنفسها - ولا لعابديها بطريق الأولى - نفعًا ولا ضرًّا، ولا تُحصِّل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة، فهل يستوي مَن عبد الله وحده لا شريك له؛ فهو على نور من ربه، ومَن عبد هذه الآلهة مع الله فهو في الظلمات ليس بخارج منها؟!

وقوله عز وجل: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾، معناه: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق؟! أخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من الله أم من غيره؟! وليس الأمر كذلك؛ فإنه سبحانه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا نِدَّ له ولا وزير ولا ولد، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة من مخلوقاته وعبيد له، ولهذا نزَّه الله عز وجل نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ (يونس).

ثالثًا. المخلوقات جميعًا خاضعة لله عز وجل:

لقد أكد القرآن أن المخلوقات جميعها خاضعة لله لا يجرؤ أحد منها أن يشفع عنده إلا بإذنه، فالملائكة المقربون في السماوات وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا أن يأذن لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وكرهوه، قال عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقال أيضًا: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ (الأنبياء: ٢٨)، وطَلَبُ هؤلاء

المشركين الشفاعة منهم أمر في غاية الجهل حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضرر في الحال.

رابعًا. لو كان مع الله آلهة ـ كما زعم المشركون ـ لتقربوا إليه وعبدوه:

ومن ردود القرآن أيضا على هؤلاء المشركين قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ (الإسراء)، والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكًا من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون وأن معه آلهة تُعبد لتقرِّب إليه وتشفع لديه ـ لكان أولئك المعبودون يعبدون الله ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقُرْبَى، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون وساطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه، ووجه الاستدلال أنكم جعلتموهم آلهة، وقلتم: ما نعبدهم إلا ليكونوا شفعاءنا عند الله، فلو كانوا آلهة كما وصفتم إلهيتهم، لكانوا لا غنى لهم عن الخضوع لله، وذلك كاف لكم بفساد قولكم؛ إذ الإلهية تقتضي عدم الاحتياج، فكان مآل قولكم أنهم عباد لله مكرمون عنده، وهذا كافٍ في تفطنكم لفساد القول بإلهيتهم. والابتغاء على هذا ابتغاء محبة ورغبة كقوله ﷻ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ (المزمل)؛ فالسبيل على هذا المعنى مجاز عن التوسل إليه والسعي إلى مرضاته.

ويحتمل أن يكون المعنى المراد بالسبيل سبيل السعي إلى الغلبة والقهر، أي: لطلبوا مغالبة ذي العرش وهو الله تعالى، وهذا كقوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (المؤمنون: ٩١)، أي: لتغالبوا وسعى بعضهم إلى بعض بالغزو؛ إذ العادة في أهل السلطان أنهم يطلبون توسعة سلطانهم ويتألبون على السلطان الأعظم ليسلبوه ملكه أو بعضه، وكثيرًا ما ثارت الأمراء والسلاطين على ملك من الملوك وسلبوه ملكه، فلو كان معه آلهة لسلكوا عادة أمثالهم... وذلك يفضي إلى اختلال العالم لاشتغال مدبريه بالمقاتلة والمدافعة على نحو ما يوجد في مِيثُولوجيا اليونان[1] من تغالب الأرباب وكيد بعضهم لبعض؛ فيكون هذا في معنى قوله ﷻ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢)، وهو الدليل المسمى بدليل التمانع في علم أصول الدين، فالسبيل على هذا المعنى مجاز على التمكن، والظفر بالمطلوب، والابتغاء على هذا ابتغاء للمكانة، فيكون عن عداوة وكراهة[2].

خامسًا. الله ﷻ منزَّه عن الشريك:

وفي ختام تفنيده ﷻ لمزاعم هؤلاء المشركين نَزَّه الله تعالى نفسه عما يدَّعي هؤلاء فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ (الإسراء)... ثم يرسم السياق للكون كله بما فيه ومَنْ فيه مشهدًا فريدًا، تحت العرش، حيث يتوجه الكون كله إلى الله يسبح له ويجد إليه

١. المِيثُولوجيا: علم الأساطير والخرافات المتصلة بالآلهة وأنصاف الآلهة عند شعب من الشعوب.

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٥، ص١١١، ١١٢ بتصرف.

الوسيلة: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الإسراء) وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير وتنتفض روحًا حية تسبح لله، فإذا الكون كله حركة وحياة وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رخية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال..

وإنه لمشهد كوني فريد، حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر، كل حبة وكل ورقة، كل زهرة وكل ثمرة، كل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة، كل حيوان وكل إنسان، كل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء والهواء.. ومعها كل سكان السماء.. كلها تسبح الله تعالى وتتوجه إليه في علاه: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ يسبح بطريقته ولغته ﴿ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ لا تفقهونه لأنكم محجوبون بصفاقة الطين، ولأنكم لم تتسمعوا بقلوبكم، ولم توجهوها إلى أسرار الوجود الخفية، وإلى النواميس التي تنجذب إليها كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتتوجه بها إلى خالق النواميس، ومدبر هذا الكون الكبير..

﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ وذكر الحلم والغفران هنا بمناسبة ما يبدو من البشر من تقصير في ظل هذا الموكب الكوني المسبح بحمد الله، بينما البشر في جحود وفيهم من يشرك بالله، ومن ينسب له البنات، ومن يغفل حمده وتسبيحه، والبشر أولى من كل شيء في هذا الكون بالتسبيح والتحميد والمعرفة والتوحيد، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر ولكنه يمهلهم ويذكرهم ويعظهم ويزجرهم ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[1].

الخلاصة:

- الأصل أن الناس كانوا على الفطرة السليمة ثم حدث فيهم الشرك فبعث الله في كل أمة رسولًا ليردهم إلى فطرتهم وهي الإيمان والتوحيد.
- الواقع يشهد بأن هذه الآلهة التي عبدها الناس لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا فضلًا عن أن تملكه لعابديها.
- كل من في السماوات والأرض خاضع لله ولا يملك أحد لأحدٍ ضرًّا ولا نفعًا ولا يشفع أحد لأحدٍ عند الله إلا بإذنه تعالى.
- الله تعالى منزه عن الشريك، ولو كانت هناك آلهة مع الله - كما يدّعي هؤلاء - فليس لهم إلا أن يتقربوا إلى الله ولا يتخذوا عنده الشفعاء والوسطاء.

الشبهة التاسعة

دعوى ألوهيَّة العِجْل (*)

مضمون الشبهة:

لما أنقذ الله بني إسرائيل من فرعون، مروا على قوم يعبدون الأصنام فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص٢٢٣٠، ٢٢٣١

(*)الآية التي وردت فيها الشبهة: (طه/ ٨٨).
الآيتان اللتان ورد فيهما الرد على الشبهة: (طه/ ٨٩، ٩٠).

إلهًا كإله هؤلاء، فردهم وبين لهم ضلال ذلك. ثم افتتنوا بجيرانهم الذين يعبدون البقر، مما دفع السامري في غياب موسى أن يصنع لهم عجلا له منافذ، إذا دارت الريح أخرجت صوتًا كخوار البقر، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رءوسهم، فقال لهم السامري: هذا إلهكم وإله موسى، فأحبوه وعكفوا على عبادته. قال ﷻ: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾ (طه)، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ (الأعراف: ١٤٨).

وجوه إبطال الشبهة:

١) انتكاس فطرة بني إسرائيل وشغفهم الدائم بعبادة إله مجسد أمامهم هو الذي أوقعهم في عبادة العجل.

٢) العجل لا يضر ولا ينفع ولا يتكلم فكيف يكون إلهًا؟

٣) شواهد الحال أكدت عجز العجل عن رعاية عابديه، أو نصرة صانعه من غضب الله، أو حتى حماية نفسه من الحرق والنسف، فلا إله إلا الله الواحد الأحد.

التفصيل:

أولا. انتكاس فطرة بني إسرائيل وشغفهم الدائم بعبادة إله مجسد أمامهم هو الذي أوقعهم في عبادة العجل:

بين القرآن الكريم أن طبيعة بني إسرائيل المنحرفة، وفطرتهم المُنْتَكِسة عن البراءة التي فطر الله عليها الإنسان - ذلك هو الذي أوقعهم في عبادة العجل، فلقد قصّ علينا القرآن أن بني إسرائيل عاشوا في العذاب طويلًا، في ظل الوثنية الفرعونية، عاشوا يقتل فرعون أبناءهم، ويستحيي نساءهم، فإذا فتر هذا النوع البشع من الإرهاب الوحشي، عاشوا حياة الذل والسخرة والمطاردة على كل حال، ففسدت نفوسهم، وفسدت طبيعتهم، والتَوَتْ فطرتهم، وانحرفت تصوراتهم، وامتلأت نفوسهم بالجبن والذل من جانب، وبالحقد والقسوة من الجانب الآخر، وهما جانبان متلازمان في النفس البشرية حيثما تعرضت طويلًا للإرهاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ (القصص).

ولقد مَنَّ الله تعالى على بني إسرائيل ونجاهم من هذا العذاب: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ (الدخان)، نجاهم الله تعالى بمعجزة عظيمة ذكرها الله بقوله ﷻ لهم: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (البقرة).

وبهذه المعجزة انتهت مرحلة تخليص بني إسرائيل من حياة الذل والهوان والنكال، والتعذيب بين فرعون وملئه، وإنقاذهم من أرض الذل والقهر إلى الصحراء الطليقة في طريقهم إلى الأرض المقدسة، ولكن القوم اشرأبّت أنفسهم إلى الوثنية والشرك بمجرد أن رأوا قومًا يعكفون على أصنام لهم، وتخلخلت عقيدة التوحيد التي جاءهم بها موسى عليه السلام ولم يمض إلا القليل على معجزة نجاتهم بعناية الله الواحد.

قال ﷻ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ

﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ (الأعراف).

فهذه طبيعة القوم المنحرفة، بما ترسَّب فيها من ذلك التاريخ القديم، إن العهد لم يَطُلْ بهم منذ أن كانوا يُسامون الخَسْف في ظل الوثنية الجاهلية - عند فرعون - ومنذ أن أنقذهم نبيهم وزعيمهم موسى عليه السلام باسم الله الواحد رب العالمين الذي أهلك عدوهم، وشقَّ لهم البحر، وأنجاهم من العذاب الوحشي الفظيع الذي كانوا يسامونه، إنهم خارجون للتوِّ واللحظة من مصر ووثنيتها.

ولكن ها هم أولاء ما إن يجاوزون البحر حتى تقع أبصارهم على قوم وثنيين، عاكفين على أصنام لهم، مستغرقين في طقوسهم الوثنية، وإذا هم يطلبون إلى موسى - رسول رب العالمين الذي أخرجهم من مصر باسم الإسلام والتوحيد - أن يتخذ لهم وثنًا يعبدونه من جديد ويطلبون ممن.. من موسى أن يتخذ لهم بنفسه آلهة، ولو أنهم اتخذوا لهم آلهة لكن الأمر أقل غرابة من أن يطلبوا إلى رسول رب العالمين أن يتخذ لهم آلهة.. فغضب موسى عليه السلام لربه وقال قولته التي تليق بهذا الطلب العجيب: قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ثم بين لهم فساد هذه العبادة وضلال هؤلاء ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾، ثم يتعجب من غبائهم، وجهلهم وحماقتهم المزرية إذ كيف يطلب لهم إلهًا غير الله وهم في نعمته وفضله يتقلبون؟ ويذكّرهم - في الوقت ذاته - بمعجزة نجاتهم التي ما تزال حاضرة في أذهانهم وأعصابهم، ولقد كانت هذه المنَّة وحدها كفيلة بأن تذكر وتشكر ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

ثم يتركهم موسى عليه السلام ويمضي لميقات ربه بعد أن استخلف عليهم هارون، وهو نبي أيضًا حتى لا يضلوا، ويوصيهم بعبادة الله وحده والدوام عليها، ولكنها طبيعة بني إسرائيل التي ما تكاد تستقيم خطوة حتى تلتوي عن الطريق، والتي ما تكاد ترتفع عن مدى الرؤية الحسية في التصور والاعتقاد، والتي يسهل انتكاسها كلما فتر عنها التوجيه والتسديد والأخذ بالشدة: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ (الأعراف)[1].

إنه الاستعباد والذل الطويل في ظل الفرعونية الوثنية الذي كان قد أفسد طبيعة القوم، وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها، والوفاء بالعهد والثبات عليه، وترك في كيانهم النفسي خلخلة واستعدادًا للانقياد والتقليد المريح، فما يكاد موسى يتركهم في رعاية هارون ويبعد عنهم قليلًا حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختبار[2].

لقد راودوا نبيهم من قبل أن يجعل لهم إلهًا يعكفون

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٣، ص١٣٦٤: ١٣٧٣ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ج٤، ص٢٣٤٦.

عليه بمجرد رؤيتهم لقوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم، فصدهم نبيهم عن ذلك الخاطر وردهم ردًا شديدًا، فلما خلوا إلى أنفسهم ورأوا عجلًا جسدًا من الذهب - لا حياة فيه كما تفيد كلمة جسد - صنعه لهم السامري، وهو رجل من السَّامِرة[1] كان يرافقهم أو واحد منهم، واستطاع أن يجعله بهيئة بحيث يخرج صوتًا كصوت خُوار الثِّيران.. لما رأوا ذلك العجل الجسد طاروا إليه، وتهافتوا عليه حتى قال لهم السامري: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ (طه:٨٨) الذي خرج موسى لمقياته معه؛ فنسي موسى موعده معه، ربما لزيادة الليالي العشر الأخيرة في الميقات التي لم يكن القوم يعلمونها، فلما زاد عن الثلاثين ولم يرجع قال لهم السامري: لقد نسي موسى موعده مع إلهه فهذا إلهه - ولم يتذكروا وصية نبيهم لهم من قبل بعبادة ربهم الذي لا تراه الأبصار- رب العالمين - ولم يتدبروا حقيقة هذا العجل الذي صنعه لهم واحد منهم، وإنها لصورة زرية للبشرية تلك التي كان يمثلها هؤلاء القوم، صورة يعجب منها القرآن الكريم، وهو يعرضها على المشركين في مكة، وهم يعبدون الأصنام[2].

ثانيًا. العجل لا يضر ولا ينفع فكيف يكون إلهًا؟

من الأدلة القاطعة التي ساقها القرآن على بطلان تلك العبادة ومثلها كل عبادة يُتوجَّه بها إلى أي معبود غير الله ﷻ - أن الله ﷻ أرشد من اتخذوا العجل إلهًا وزعموا أنه إله موسى أرشدهم أن يتدبروا ويتفكروا، هل يجيبهم هذا العجل إذا سألوا، وهل يخاطبهم إذا تكلموا؟ وهل يملك لهم نفعًا أو ضرًا في دنياهم أو أخراهم؟ فقال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩﴾ (طه).

وإذا كان هذا حاله فكيف يكون إلهًا، ألا يتدبر هؤلاء القوم ويعقلون ما يعتقدون، ويفهمون ما يقولون، فالله تعالى الذي أهلك فرعون وملأه الطغاة ونجّى بني إسرائيل من العذاب على أيدي فرعون وجنده هو الذي يضر وينفع، ويثيب ويجزي، ويعطي ويمنع.

وأمّا هذا العجل المصنوع فشواهد الحال تشير إلى عجزه وعدم تحركه فهو عاجز أن ينفع أو يضر، فكيف تعتقدون ألوهيته، وتلك دلالة عقلية؛ لأن من فقد صفات العاقل من السمع والكلام كيف يكون إلهًا؟! إنهم يثنون عليه ويُمجِّدونه ويدعونه وهو ساكت لا يشكر لهم ولا يعدهم باستجابة، وشأن الكامل إذا سمع ثناء أو تلقى طَلَبة أن يجيب، وأما الصوت الذي كان يخرج من العجل فإن الذي صنع لهم العجل كان عارفًا بصناعة الحيل التي كانوا يصنعون بها الأصنام، حيث يجعلون في أجوافها وأعناقها منافذ كالزمّارات تخرج منها أصوات إذا أطلقت عندها رياح بالكير ونحوه، ولذا قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دُبُره فيخرج من فمه فيسمع له صوت[3].

---

١. السَّامِرة: قوم يشتركون مع اليهود في بعض العقائد، ويخالفونهم في بعضها.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٣، ص١٣٧٣.

٣. ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢١٨) في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ (الأعراف: ١٤٨).

وهذا الإرشاد الذي أمر الله به هؤلاء الضالين هو عَين الحجة التي أقامها إبراهيم عليه السلام على قومه في عبادتهم الأصنام حيث قال لهم: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾ (الأنبياء) فأقام إبراهيم عليه السلام عليهم الحجة، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ (الأنعام: ٨٣).

فالمقصود هنا بقوله عز وجل: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) ﴾ (طه). أنه حتى لم يكن عجلًا حيًّا يسمع قولهم ويستجيب له على عادة العجول البقرية، فهو درجة أقل من درجة الحيوانية، وهو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا في أبسط صوره، فهو لا ينطح ولا يرفس ولا يدير طاحونة ولا ساقية، جسد لاحياة فيه ولا روح، فكيف نسوا ربهم الذي أنقذهم من أرض الذل وعكفوا عليه في بلاهة فكر وبلادة روح[1].

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) ﴾ (الأعراف). وهل أظلم ممن يعبد خلقًا من صنع أيدي البشر، والله خلقهم وما يصنعون؟! وكان فيهم هارون، فلم يملك لهم ردًّا عن هذا الضلال السخيف، وكان فيهم بعض عقلائهم فلم يملكوا زمام الجماهير المتدافعة على العجل - وبخاصة أنه من ذهب معبود إسرائيل الأصيل[2].

لقد نصح لهم هارون وهو نبيهم كذلك، والنائب عن نبيهم المنقذ ونبَّههم إلى أن هذا ابتلاء، قال: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) ﴾ (طه)، ونصحهم باتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى، وهو عائد إليهم بعد ميعاده مع ربه على الجبل، ولكنهم التووا وتملصوا من نصحه ومن عهدهم لنبيهم بطاعته، وقالوا: ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) ﴾ (طه).

فرجع موسى إليهم غضبان أسفًا، فسمع منهم حجتهم التي تكشف عن مدى ما أصاب نفوسهم من تخلخل وأصاب تفكيرهم من فساد، فأنَّبهم وقرَّعهم، ثم التفت إلى أخيه وهو في ثورة الغضب يأخذ بشعر رأسه وبلحيته في انفعال وثورة: ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) ﴾ (طه)، فما كان من هارون إلا أن يُطلعه على تفاصيل الحال كما وقع: ﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) ﴾ (طه)، وفي سورة أخرى: ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) ﴾ (الأعراف). ثم طرد السامريَّ وحرَّق العجل الذي كانوا يعبدونه من دون الله ونسفه في اليمِّ، وهكذا انتهت عبادة العجل في بني إسرائيل.

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص٢٣٤٨ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ج٣، ص١٣٧٣.

ثالثا. شواهد الحال أكدت عجز العجل عن رعاية عابديه، أو نصرة صانعه من غضب الله، أو حتى حماية نفسه من الحرق والنسف:

من الأدلة العملية التي ساقها القرآن الكريم على بطلان عبادة العجل، وأنَّ العبادة ينبغي ألَّا تُصرف إلا لله الواحد القهار: أن بيَّن لهم القرآن ما أكدته شواهد الحال من أن هذا العجل الذي عبدوه لو كان إلهًا لما عجز عن رعاية عابديه وحمايتهم من غضب الله الذي حلَّ بهم، وكذلك لاستطاع حماية صانعه أو حتى حماية نفسه من الحَرْق والنَّسْف.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ (الأعراف)، إن الله حكم ووعد.. إن القوم الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا.. ذلك مع قيام القاعدة الدائمة: إن الذين يعملون السيئات ثم يتوبون يغفر الله لهم برحمته، وإذن فقد علم الله أن الذين اتخذوا العجل لن يتوبوا توبة موصولة، وأنهم سيرتكبون ما يخرجهم من تلك القاعدة.. وهذا ما كان.

فقد ظل بنو إسرائيل يرتكبون الخطيئة بعد الخطيئة، ويسامحهم الله المرة بعد المرة، حتى انتهوا إلى الغضب الدائم واللعنة الأخيرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ (الأعراف: ١٥٢).

كل المفترين إلى يوم الدين.. فهو جزاء متكرر كلما تكررت جريمة الافتراء على الله، من بني إسرائيل ومن غير بني إسرائيل.

ووعيد الله للكافرين صادق لا محالة، وقد كتب على الذين اتخذوا العجل الغضب والذلة، وكان آخر ما كتب الله عليهم أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، فإذا بدا في فترة من فترات التاريخ أنهم يطغون في الأرض، ويستعلون بنفوذهم على الأميين -أو كما يقولون عنهم في التلمود: "الجوييم"! وأنهم يملكون سلطان المال، وسلطان أجهزة الإعلام، وأنهم يقيمون الأوضاع الحاكمة التي تنفذ لهم ما يريدون، وأنهم يستذلون بعض عباد الله ويطردونهم من أرضهم وديارهم في وحشية، والدول الضالة تساندهم وتؤيدهم.. إلى آخر ما نراه في هذا الزمان.. فليس هذا بناقض لوعد الله لهم ولا لما كتبه الله عليهم.. فهم بصفاتهم هذه وأفعالهم يختزنون النقمة في قلوب البشر، ويهيئون الرصيد الذي يدمرهم من السخط والغضب[1].

قال ﷻ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ (الأعراف). فهو إذنْ الحكم الأبدي الذي تحقق منذ صدوره؛ فيبعث الله على اليهود في فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب، والذي سيظل نافذًا في عمومه، فبعث عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب، وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا في الأرض وبغوا، جاءتهم الضربة ممن سلَّطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة، الناكثة العاصية، التي لا تخرج من معصية إلا لتقع في معصية، ولا تثوب من انحراف حتى

١. المرجع السابق، ص١٣٧٥.

تجنح إلى انحراف[1].

والمقصود أن عبادة العجل لم تنفعهم في شيء، بل أوقعتهم في غضب الله ووعيده الذي تحقق، فلو كان هذا العجل إلهًا لحماهم من الله ولأنقذهم من غضبه، ولكنه صنم لا يضر ولا ينفع.

ومن جملة ما استدل به القرآن الكريم على بطلان عبادة العجل وأكدته شواهد الواقع العملي أيضًا: أن هذا العجل عجز عن حماية صانعه - السامري - من غضب الله، أو حتى حماية نفسه من الحَرْق والنَّسْف، "فقد أعلن موسى عليه السلام السامريَّ بالطرد من جماعة بني إسرائيل مدة حياته، ووكل أمره بعد ذلك إلى الله وواجهه بعنف في أمر إلهه الذي صنعه بيده؟ ليري القوم بالدليل المادي أنه ليس إلهًا، فهو لا يحمي صانعه ولا يدفع عن نفسه: ﴿ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدًا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ٩٧ ﴾ (طه)، اذهب مطرودًا لا يمسَّك أحدٌ لا بسوء ولا بخير ولا تمسّ أحدًا، وكانت هذه إحدى العقوبات في ديانة موسى عليه السلام، عقوبة العزل وإعلان دَنَس المُدنَّس، فلا يَقْربه أحد ولا يَقْرب أحدًا.

أما الموعد الآخر فهو موعد العقوبة والجزاء عند الله، وفي حَنَق وعنف أمر أن يُهْوَى على عجل الذهب فيُحَرَّق ويُنْسَف ويلقى في الماء، إنها غَضْبَة لله ولدين الله، حيث يُستحبُّ الحزم وتَحْسُن الشدة.

ثم يُعلِن موسى حقيقة العقيدة: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨ ﴾ (طه)"[2].

الخلاصة:

- افتتان بني إسرائيل بعبَّاد البقر من قوم السامري كان جهلًا وارتدادًا منهم عن شريعة نبي الله تعالى موسى عليه السلام فضلًا عن شغفهم الدائم بعبادة إله مجسَّد أمامهم.
- قابل موسى عليه السلام هذا الافتتان بوصفهم بأنهم قوم يجهلون وأن هذه الآلهة لا تنفع ولا تضر وهي سبب الخسران والضياع في الدنيا والآخرة.
- العجل الذي صنعه السامري لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يكون إلهًا؟!
- تحطيم موسى عليه السلام للعجل ونسفه في اليم دليل على بطلان هذه العبادة؛ لأن العجل لم يستطع الدفاع عن نفسه فضلًا عن الدفاع عن عابديه.

الشبهة العاشرة

ادعاء النَّمروذ بن كنعان أنه يستطيع الإحياء والإماتة(*) ®

مضمون الشبهة:

ادّعى النمروذ بن كنعان - عنادًا ومكابرة - لنفسه أنه

1. المرجع السابق، ص١٣٨٦.

2. المرجع السابق، ج٤، ص٢٣٤٩ بتصرف.

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (البقرة/ ٢٥٨).
الآية التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ٢٥٨).

® في "محاجّة إبراهيم للنمروذ" طالع: الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١).

يحيي ويميت، وذلك عندما أنكر عليه إبراهيم عليه السلام تألهه، ورفض الخضوع له قائلًا: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾(البقرة:٢٥٨)، فأتى النمروذ برجلين وأمر بقتل أحدهما وترك الآخر، وزعم أنه بذلك يحيي ويميت. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾(البقرة: ٢٥٨).

وجها إبطال الشبهة:

١) ضعف حجة النمروذ وتمويهه وهروبه، وعدم فهمه لمقالة إبراهيم عليه السلام.

٢) إفحام إبراهيم للنمروذ وإلزامه الحجة بطلبه تغيير مسار الشمس.

التفصيل:

أولا. ضعف حجة النمروذ وتمويهه وهروبه من الحق:

إن هذا الملك - النمروذ - الذي حاج إبراهيم في ربه لم يكن منكرًا لوجود الله أصلًا إنما كان منكرًا لوحدانية الله في الألوهية والربوبية ولتصريفه للكون وما يجري فيه وحده، وهنا كان لا بُدَّ من المواجهة والمحاجة بينه وبين إبراهيم عليه السلام وإقامة الحجة في المناظرة، وكان النمروذ قد طلب من إبراهيم دليلًا على وجود الرب الذي يدعو إليه، فقال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾(البقرة: ٢٥٨)، أي: إنما الدليل على وجود حدوث هذه الأشياء: المشاهدة بعد عدمها وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بُد لها من مُوجد أوجدها، وهو الرب الذي أدعو إليه وإلى عبادته وحده لا شريك له، فعند ذلك قال المُحاجّ وهو النمروذ: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾، وذلك أنه أُتِيَ برجلين قد استحقًّا القتل، فأمر بقتل أحدهما فقُتل، وأمر بالعفو عن الآخر فلم يُقتل، فذلك عنده هو معنى الإحياء والإماتة.

وفي الحقيقة هذا ليس جوابًا لإبراهيم عليه السلام ولا في معنى ما قاله، فإما أنه لم يفهم قول إبراهيم عليه السلام إذ جوابه منقطع عن الدليل لا يتصل به بالمرة، فإنه أراد أن يكون سببًا للإحياء والإماتة، والكلام إنما هو في الإنشاء والتكوين لا في اتخاذ الأسباب والتوسل في الشيء المُكوَّن، فالمراد بالذي يحيي ويميت الذي يُنْشئ الحياة في جميع العوالم الحية من نبات وحيوان وغيرها، ويزيل الحياة بالموت، وإما أنه موَّه على قومه مُوْهمًا أنه فاعل لذلك وأنه هو الذي يحيي ويميت، فادّعى لنفسه هذا المقام عنادًا ومكابرة.

ثانيًا. إفحام إبراهيم عليه السلام للنمروذ:

لما رأى إبراهيم عليه السلام أن النمروذ لم يفهم أن مراده بالذي يحيي ويميت مصدر التكوين الذي يَحْيا كلُّ حي بإحيائه ويموت بقطع إمداده له بالحياة، أو أن إبراهيم عليه السلام لما رآه ادَّعى هذه المكابرة قال له: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾(البقرة: ٢٥٨) وهذا من إبراهيم - في الحقيقة - إيضاحٌ لقوله الأول، أي إذا كنت كما تدّعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذرَّاته وتسخير كواكبه وحركاته، وربِّي هو الذي يعطي الحياة ويسلبها بقدرته وحكمته، وهو المكون لهذه الكائنات بهذا النظام وهذه السنن الحكيمة

التي نشاهدها عليها، وهو الذي يأتي بالشمس من المشرق فتبدو كل يوم كذلك، فإن كنت إلهًا تحيي وتميت كما تدّعي فأت بها من المغرب وغيرّ لنا نظام طلوعها، وائت بها من الجهة المقابلة للجهة التي جرت سنته ﷻ بظهورها منها، فبُهت الذي كفر وأدركته الحيرة وأخذه الحَصر والعَي من نصوع الحُجَّة وسطوعها فلم يحر جوابًا؛ لعلمه بعجزه وانقطاعه وظهور عورة جهله وكذبِ زعمه وادعائه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام، فخرس وقامت عليه الحجة.

وهذا التنزيل على هذا المعنى السابق أحسن مما ذكره بعض الأصوليين والمنطقيين من أن عدول إبراهيم عليه السلام عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقالٌ من دليل إلى دليل أوضح منه، أو أنه جواب آخر، أو أن إبراهيم عليه السلام لما وصف ربه ﷻ بما هو صفة له من الإحياء والإماتة - وهو أمر له حقيقة ومجاز - قصد إبراهيم عليه السلام إلى الحقيقة، وفزع النمروذ إلى المجاز وموَّه على قومه، فسلمَّ له إبراهيم عليه السلام تسليم الجدل وانتقل معه من المثال الأول إلى الثاني وجاء بأمر لا مجاز فيه فانقطعت حجة النمروذ ولم يمكنه أن يقول: أنا آتي بها من المشرق؛ لأن ذوي الألباب والعقول يكذِّبونه.

وليس الأمر في الحقيقة على ما ذكروا، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني، ويبيِّن ما ادعاه النمروذ في الأول، ومن فهم الآية على الوجه السابق الذي قررناه يعلم أنه لا محل للشبهة التي يوردها بعض الناس على حجة إبراهيم عليه السلام، وهي أنه كان للنمروذ أن يقول له: إذا كان ربك هو الذي يأتي بالشمس من المشرق وهو قادر على ما طالبتني به من الإتيان بها من المغرب فليأت بها يومًا ما، قال بعض المُقلِّدين: ولا يمكن أن يسأل إبراهيم عليه السلام ربه ذلك؛ لأن فيه خراب العالم، وقال بعض المرتابين: إنه لو قال له النمروذ ذلك لألزمه، والحقيقة أن النمروذ على طغيانه وغروره قد فهم من الحجة ما لم يفهمه هؤلاء القائلون، فقد فهم أن مراد إبراهيم عليه السلام أن هذا النظام في سير الشمس لا بد له من فاعل حكيم، إذ لا يكون مثله بالمصادفة والاتفاق، وإن ربي الذي أعبده هو ذلك الفاعل الحكيم الذي قضت حكمته بأن تكون الشمس على ما ترى، ومن فهم هذا لا يمكن أن يقول: اطلب من هذا الحكيم أن يرجع عن حكمته ويبطل سنته، كذلك لا محل لقول بعضهم: لم سكت إبراهيم عليه السلام عن كشف شبهته الأولى إذ زعم أن ترك القتل إحياء، فقد علمت أن مسألة الشمس قد كشفت ذلك انكشافًا لا يخفى إلا على من تخفى عليه الشمس.

الخلاصة:

- مكابرة النمروذ وعناده وهروبه من حجة إبراهيم عليه السلام لضعف حجته إذ هو يعلم أنه لا يقدر على الإحياء والإماتة إلا الله تعالى، ولو طالبه إبراهيم بإحياء الميت الذي أمر بقتله لما استطاع.
- المعنى المراد من حجة إبراهيم عليه السلام المُفْحِمة للنمروذ هي إعلامه أن هذا النظام في سير الشمس لا بد له من فاعل حكيم، وهذا هو الله ﷻ، وقد اقتضت حكمته بأن تكون الشمس على ما ترى.

الشبهة الحادية عشرة

الاحتجاج بالقَدَر على الإشراك بالله وعدم الهداية (*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشركين أن شركهم بالله قَدَرٌ مكتوب عليهم منذ الأزل، وأن الله راضٍ عن شركهم؛ إذ لو كان كارهًا لشركهم لما مكَّنهم منه. قال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ (النحل: ٣٥).

وجوه إبطال الشبهة:

١) بعث الله الرسل وأمرهم بأن يأمروا الناس بعبادة الله وحده، وليس على الرسل إلا البلاغ المبين، وبذلك أعذرهم الله ﷻ.

٢) لا حُجّة لهم في مشيئة الله الشرعية ولا الكونية، فإن الله لا يرضى لعباده الكفر.

٣) ليس للمشركين علم يستندون إليه في دعواهم، بل هو العناد والجحود.

التفصيل:

أولا. انتفاء العذر بإرسال الرسل:

اعتذر المشركون عن شركهم محتجين بالقدر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ (النحل: ٣٥)، أي: من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم مما لم يُنزِلْ به سلطانًا، فردَّ الله عليهم شبهتهم وأنكر عليهم أشد الإنكار، ونهاهم عنه آكد النهي، إذ بعث في كل أمة - أي قرن وطائفة - رسولًا، والرسل كلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه، قال ﷻ: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ (النحل).

فلم يزل ﷻ يرسل الرسل إلى الناس بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم من لدن قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح عليه السلام، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض حتى ختمهم بمحمد ﷺ، الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء).

وقال أيضًا: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (الزخرف)، فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ (النحل: ٣٥). ثم إنه ﷻ قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل؛ فلهذا قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (النحل)، أي: اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذّب

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (النحل/ ٣٥، الأنعام/ ١٤٨، الزخرف/ ٢٠).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (النحل/ ٣٥: ٣٧، الأنعام/ ١٤٨، ١٤٩، الزخرف/ ٢٠، الزمر/ ٧).
® في "الإيمان بالقدر وسلب إرادة العبد" طالع: الشبهة الثانية والعشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

الحق كيف: ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ (محمد)، فقال: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾ (الملك) ثم أخبر الله ﷻ رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله ﷻ: ﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ (المائدة: ٤١).

واحتجاج المشركين بمشيئة الله ﷻ وقدره على الإشراك به هو نظير قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ (الأعراف: ٢٨).

ثانيًا. الله ﷻ لا يرضى لعباده الكفر:

مشيئة الله ﷻ الشرعية عنهم منتفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرًا فلا حجة لهم فيها؛ لأن الله ﷻ خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة، قال ﷻ: ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ (الزمر:٧).

فالله ﷻ قد علم قبل أن يوجد عباده أحوالهم وما هم عاملوه وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلى هذه الدار ليظهر معلومه الذي علمه فيهم كما علمه، وابتلاهم من الأمر والنهي والخير والشر بما أظهر معلومه، فاستحقوا المدح والذم والثواب والعقاب بما قاموا به من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق، ولم يكونوا يستحقون ذلك وهي في علمه قبل أن يعلموها، فأرسل رسله وأنزل كتبه وشرع شرائعه إعذارًا إليهم وإقامة للحجة عليهم؛ لئلا يقولوا كيف تعاقبنا على علمك فينا وهذا لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا فلما أظهر علمه فيهم بأفعالهم جعل العقاب في معلومه الذي أظهره الابتلاء والاختبار[1].

والمقصود أن إرادة الله ﷻ تنقسم إلى إرادة كونية فتكون هي المشيئة كما في قوله ﷻ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ (البقرة)، فما وجد من الكفر والفسوق والعصيان تعلقت به مشيئته وما تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني، والقسم الثاني من الإرادة: إرادة دينية، فتكون هي المحبة وهي شرعه على ألسنة رسله كما في قوله ﷻ: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ (الزمر: ٧)، وقوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ (البقرة)[2].

وبهذا يتبين لهؤلاء المحتجين بالقدر على كفرهم بأن فعالهم تقع تحت المشيئة أو الإرادة الكونية القدرية، وأن الله ﷻ وإن كان هو الخالق لأفعالهم - لأن أفعالهم ممكنة، والله قادر على كل ممكن - فهو الذي جعلهم قادرين بقدرته ومشيئته، ولكنه لا يرضى أفعالهم ولا يحبها، فليس كل شيء خلقه الله ﷻ رضيه وأحبه، فالله ﷻ شاء وجود الكفر والشرك والذنوب والمعاصي، ولكنه أبغضها وكرهها ونهى عباده عنها[3].

---

١. عقيدة أهل السنة والجماعة، د. أحمد فريد، مكتبة فياض، مصر، ٢٠٠٥م، ص٢٠٣.

٢. المرجع السابق، ص٢١٥.

٣. القضاء والقدر، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٨٢.

ثالثًا. لا برهان للمشركين يستندون إليه في دعواهم:

لذا فهي شبهة داحضة منشؤها الجحود والجهل؛ لأن هؤلاء المشركين أعرضوا عن الآيات الواضحة وعما جاء به الرسل من قبل بالتوحيد، وما حدث من عقاب أليم لمن كذبوا دعوتهم، وأصروا على جحودهم وعنادهم حتى ذاقوا العذاب، ولم يكن لهؤلاء علم يعتمدون عليه في شركهم بالله، بل هم متبعون للظن والخرص، ولذا قال ﷺ: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ (الأنعام).

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين الذين بنوا قواعد دينهم على أساس الخَرْص، الذي هو أضعف الظن، بعد تعجيزك إياهم عن الإتيان بأدنى دليل أو قول يرتقي إلى أدنى درجة العلم - قل لهم: إن لم يكن عندكم علم ما في أمر دينكم، فلله وحده أعلى درجات العلم بما بعثني به من محجة دينه القويم، وهو الحجة البالغة لما أراد من إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

وحاصل هذه الحجة: أنهم يحتجون على النبي ﷺ بأن ما هم عليه لو لم يكن يرضي الله تعالى لصرفهم عنه، ولما يسّره لهم، يقولون ذلك في معرض إفحام الرسول ﷺ وإبطال حكمه عليهم بالضلالة، وهذه شبهة أهل العقول الآفِنَة[1] الذين لا يفرقون بين تصرف الله تعالى بالخلق والتقدير وحفظ قوانين الوجود، وهو التصرف الذي نسميه نحن بالمشيئة وبالإرادة، وبين تصرفه بالأمر وبالنهي، وهو الذي نسميه نحن بالرضا وبالمحبة؛ فالأول تصرف التكوين، والثاني تصرف التكليف، فهم يحسبون أن تمكنهم من وضع قواعد الشرك ومن التحريم والتحليل ما هو إلا بأن خلق الله فيهم التمكن من ذلك، فيحسبون أنه حين لم يمسك عنان أفعالهم كان قد رضي بما فعلوه، وأنه لو كان لا يرضى لما عجز عن سلب تمكنهم.

ولو كان الأمر كما يتوهمون لكان الباطل والحق شيئًا واحدًا.. فإنهم حين يقولون: لو شاء الله ما أشركنا غافلون عن أن يقال لهم من جانب الرسول ﷺ: لو شاء الله ما قلت لكم إن فعلكم ضلال، فيكون الله على حسب شبهتهم قد شاء الشيء ونقيضه؛ إذ شاء أنهم يشركون وشاء أن يقول لهم الرسول لا تشركوا... وبهذا ظهر تخليط أهل الضلالة بين مشيئة العباد ومشيئة الله؛ فلذلك رد عليهم... بأن هذه المشيئة التي تعللوا بها مشيئة خفية، لا تتوصل إلى الاطلاع عليها عقول البشر؛ فلذلك نعى عليهم استنادهم إليها على جهلهم بكُنْهها فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (الأنعام: ١٤٨)، فشبَّه بتكذيبهم تكذيب الذين من قبلهم؛[2] أي كفعل هؤلاء فعل الذين من قبلهم، والمقصود فعلوا كفعلهم فكانت عاقبتهم ما علمتم، فلو كان فعلهم مرضيًا لما أهلكهم الله، فهلَّا استدلوا بهلاكهم على أن الله غير راضٍ بفعلهم، فإن دلالة الانتقام أظهر من دلالة الإمهال؛ لأن دلالة الانتقام وجودية ودلالة الإمهال عدمية.."[3].

١. الآفِنَة: الناقصة.

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٥، ج٨، ص١٤٧، ١٤٨ بتصرف.

٣. المرجع السابق، مج٧، ج١٤، ص١٤٨ بتصرف.

الخلاصة:

- المقصد الأسمى من بعث الله ﷻ الرسل إلى الخلق هو تعريفهم بالله ﷻ، وإعلامهم بأنه هو المستحق للعبادة، فالله ﷻ لا يرضى لعباده الكفر والشرك.
- احتجاج المشركين بالقدر على شركهم يتنافى مع مشيئة الله الشرعية الدالة على النهي عن الشرك على ألسنة الرسل.
- المشيئة الكونية تدل على علم الله الأزلي ولا تدل على أمر الله ورضاه بالمعصية والكفر، فالله ﷻ يقول: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر: ٧).

ثانيًا. افتراءات وشبهات على الله ﷻ في غير قضية الألوهية

الشبهة الثانية عشرة

ادِّعاء اليهود أن الله ﷻ فقير وبخيل وهم أغنياء (*) ®

مضمون الشبهة:

ادّعى اليهود أن الله فقير وهم أغنياء؛ وذلك أنه لما نزل قوله ﷻ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البقرة: ٢٤٥) قالت اليهود: يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض، وقال كبير أحبارهم فنحاص: ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، ولو كان عنا غنيًّا ما استقرض منا، وقال أيضًا مخاطبًا المسلمين: ينهاكم عن الرِّبا ويعطينا، ولو كان غنيًّا ما أعطانا الرِّبا، ويصف اليهود الله ﷻ أيضا بأنه بخيل، وأن يده تمسك ما عنده بخلا، تعالى الله عن قولهم هذا علوًّا كبيرًا، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ (آل عمران: ١٨١)، وقال ﷻ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (المائدة: ٦٤).

وجوه إبطال الشبهة:

١) تجرؤ اليهود على الله ﷻ ووصفه بما لا يليق بجلاله وعظمته ﷻ.

٢) هذا جهل من اليهود بمعنى إقراض الله واستخفاف منهم بالإسلام ونبيه.

٣) الله ﷻ واسع الفضل جزيل العطاء ينفق كيف يشاء، واليهود كُتبت عليهم الذِّلَّة واللَّعنة والعدواة ثم لهم العذاب في الآخرة.

التفصيل:

أولا. تجرؤ اليهود على الله ﷻ:

وقعت هذه المجازفة في حق الله ﷻ من غير واحد من اليهود مثل فِنْحاص وهو من أحبارهم وعلمائهم، وكذلك من حُيَي بن أخطب؛ زعموا أن الله فقير يسأل عباده القرض، وهو قول عظيم وأذى كثير.

(*) الآيتان اللتان وردت فيها الشبهة: (آل عمران/ ١٨١، المائدة/ ٦٤).

الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (آل عمران/ ١٨١، المائدة/ ٦٤، الإسراء/ ١٠٠).

® في "قول اليهود: إن الله بخيل!" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة والثلاثين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

وقد تهددهم الله ﷻ وتوعدهم فقال: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ (آل عمران: ١٨١).

فالله قد سمع قول هؤلاء المجازفين، ولم يفته ولم يخف عليه وهو سيجزيهم بما كانوا يفترون، وقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ تهديد ووعيد لهم. وقد قال اليهود لعنهم الله هذه المقالة لما نزلت آية الصدقة، وهي قوله ﷻ: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ (البقرة: ٢٤٥).

وقد أرادوا بهذه المقالة التمويه على الضعفاء لا أنهم يعتقدون ذلك، فهم أرادوا تشكيك الضعفاء منهم ومن المسلمين وتكذيب النبي ﷺ أي: أنه فقير على قول محمد ﷺ؛ لأنه اقترض منا.

وقائل ذلك هو حيي بن أخطب حبر اليهود، إذا إنه لما سمع الآية السابقة قال: يستقرض الفقير الغني، وقيل: قاله فنحاص بن عازوراء لأبي بكر الصديق بسبب أن رسول الله ﷺ أرسل أبا بكر إلى يهود قَيْنُقاع يدعوهم، فأتى بيت المِدْراس فوجد أنهم قد اجتمعوا على فنحاص حَبْرهم، فدعاه أبو بكر، فقال فنحاص: ما بنا إلى الله حاجة، وإنه إلينا لفقير ولو كان غنيًّا لما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم؛ فغضب أبو بكر ولَطَم فنحاص وهمّ بقتله، فنزلت الآية وشاع قولهما في اليهود.

وقوله ﷻ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ تهديد، وهو يؤذن بأن هذا القول جراءة عظيمة، وإن القصد منها التعريض ببطلان القرآن؛ لأنهم أتوا بهذه العبارة بدون محاشاة، ولأن الاستخفاف بالرسول ﷺ وقرآنه إثم عظيم وكفر على كفر؛ ولذلك قال ﷻ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ المستعمل في لازم معناه، وهو التهديد على كلام فاحش؛ إذ قد علم أهل الأديان أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فليس المقصود إعلامهم بأن الله علم ذلك بل لازمه وهو مقتضى قوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ والمراد بالكتابة، إمَّا كتابته في صحائف آثامهم إذ لا يخطر ببال أحد أن يكتب في صحائف الحسنات... أو أنه أُريد من الكتابة عدم الصفح.. بل سيثبت لهم ويجازون عنه، فتكون الكتابة كناية عن المحاسبة، فعلى الأول يكون وعيدًا وعلى الثاني يكون تهديدًا[1].

ثانيًا. جهل اليهود لمعنى إقراض الله ﷻ:

لقد جهل هؤلاء اليهود المراد بإقراض الله ﷻ فليس معنى إقراض الله أنه محتاج إلى ذلك، بل المراد إقراض الفقراء والمحتاجين والإنفاق في سبيل الله، فقد جاء في الحديث القدسي الجليل: "إن الله ﷻ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مَرِضْتُ فلم تَعُدْني، قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمتَ أن عبدي فلانًا مرض فلم تَعُدْه، أما علمتَ أنك لو عُدْتَه لوجدتني عنده. يا ابن آدم، استطعمتُكَ فلم تطعمني، قال: يا رب، وكيف أُطْعِمُكَ وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمتَ أنه استطعمك عبدي فلان فلم تُطْعِمه، أما علمتَ أنك لو أطعمته لوجدتَ ذلك عندي. يا ابن آدم، استسقيتُكَ فلم تَسْقِني، قال: يا رب، كيف أَسْقِيك وأنت رب العالمين؟! قال: استسقاك عبدي فلان فلم

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٤، ص١٨٣، ١٨٤ بتصرف.

تَسْقِه، أَمَا إنك لو سَقَيْته وجدت ذلك عندي"[1].

فالله ﷻ جعل البذل والإنفاق بمثابة الإقراض له، وهو سبحانه غني عن العالمين، له ملك السموات والأرض وما بينهما، فلا يحتاج إلى شيء، والغرض من هذا التعبير السابق هو ترغيب الناس في الإنفاق في سبيل الله، قال ﷻ: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ (التغابن: ١٧)، ولكن اليهود لجهلهم وسوء أدبهم وسخف قولهم غفلوا عن هذا المعنى.

ولم يأخذوا المسألة بهذا الفهم بل أخذوها بغباء المادة فقالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، ولم يفهم هؤلاء اليهود أن القرض لله هو تَلَطُّف من الحق ﷻ واستدرار لحنان الإنسان على الإنسان، فقد شاء أن يحترم مجهودك أيها الإنسان، فإن وصلت إلى شيء من المال فهو مالك، ولم يقل الله لك: أَعْطِ أخاك، فسبحانه وتعالى تَلَطُّفًا منه مع خلقه يقول: أقرضني؛ ليضمن الإنسان أن ما أعطاه إنما هو عند مليء، لكن أدب بني إسرائيل مع الله مفقود[2].

فهذا هو طبع اليهود الذين وجدوا في أيديهم المال ـ الذي آتاهم الله من فضله ـ فحسبوا أنفسهم أغنياء عن الله، لا حاجة بهم إلى جزائه ولا إلى الأضعاف المضاعفة التي يعدها لمن يبذل في سبيله ـ وهو ما يسميه تفضلًا منه ومنَّة إقراضًا له ﷻ ـ وقالوا في وقاحة: ما بال الله يطلب إلينا أن نقرضه من مالنا ويعطينا عليه الأضعاف المضاعفة وهو ينهى عن الربا والأضعاف المضاعفة؟! وهو تلاعب بالألفاظ ينم عن القحة وسوء الأدب في حق الله لذلك سوف يحاسبهم الله على ذلك، فما هو بمتروك ولا منسي ولا مهمل[3]. ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢)﴾ (آل عمران).

ثالثًا. الله ﷻ واسع الفضل، ولعنة الله على اليهود:

من المآثم والجرائم التي يحكيها القرآن عن اليهود ذلك النموذج المتمثل في قولهم بأبشع صوره: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (المائدة: ٦٤).

وهذا القول: إمَّا أن يكون جرى مجرى التهكم بالمسلمين إلزامًا لهذا القول الفاسد لهم، كما روي أنهم قالوا ذلك لَمَّا كان المسلمون في أول زمن الهجرة في شدة، وفرض الرسول عليهم الصدقات، وربما استعان باليهود في الديات، وكما روي أنهم قالوه لما نزل قوله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾ (البقرة)، فقالوا: إنَّ ربَّ محمد فقير وبخيل... وإمَّا أن يكونوا قالوه في حالة غضب ويأس؛ فقد روي في سبب نزولها أن اليهود نزلت بهم شدَّة وأصابتهم مجاعة وجهد، فقال فنحاص بن عازوراء هذه المقالة، فإمَّا تَلَقَّفوها منه على عادة جهل العامَّة، وإمَّا نسب قول حَبْرهم إلى جميعهم؛ لأنهم يقلدونه ويقتدون به.

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض (٦٧٢١).

٢. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، مج٣، ص١٩١٠.

٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٥٣٦.

وقد ذمهم الله على كلا التقديرين، إذ الأول استخفاف بالإسلام وبدينهم أيضًا، إذ يجب تنزيه الله عن هذه المقالات، ولو كانت على نيّة إلزام الخصم، والثاني ظاهر ما فيه من العجرفة والتأفف من تصرف الله، فقابل الله قولهم بالدعاء عليهم وذلك ذم على طريقة العرب[1].

وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ من سوء تصور اليهود لله، يعللون بذلك بخلهم فالله - بزعمهم - لا يعطي الناس، ولا يعطيهم إلا القليل، فكيف ينفقون؟!

وقد بلغ من غلظ حسهم، وجلافة قلوبهم، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه وهو البخل بلفظه المباشر، فاختاروا لفظا أشد وقاحة وتهجما وكفرًا فقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، ويجيء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم، ولعنهم وطردهم من رحمة الله جزاءً على قولهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾، وكذلك كانوا، فهم أبخل خلق الله بالمال.

ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم، ويصف الله تعالى بوصفه الكريم وهو يفيض على عباده من فضله بغير حساب: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، وعطاياه التي لا تكف ولا تنفد لكل مخلوق، ظاهرة للعيان.. شاهدة باليد المبسوطة، والفضل الغامر، والعطاء الجزيل، ناطقة بكل لسان، ولكن اليهود لا تراها؛ لأنها مشغولة عنها باللم والضم، وبالكنود وبالجحود، وبالبذاءة حتى في حق الله، ويحدِّث الله نبيه عما سيبدو من القوم وعما سيحل بهم، بسبب حقدهم وغيظهم من اصطفاء الله له بالرسالة، وبسبب ما تكشفه هذه الرسالة من أمرهم في القديم والحديث: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ (المائدة: ٦٤)، فبسبب من الحقد والحسد وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله، سيزيد الكثيرون منهم طغيانًا وكفرًا؛ لأنهم وقد أبوا الإيمان، لا بد أن يشتطوا في الجانب المقابل؛ ولا بد أن يزيدوا تبجحًا ونكرًا وطغيانًا وكفرًا، فيكون الرسول رحمة للمؤمنين، ووبالًا على المنكرين. ثم يحدث الله الرسول عما قدر الله لهم من التعادي والتباغض فيما بينهم؛ ومن إبطال كيدهم وهو في أشد سعيره تلهبًا؛ ومن عودتهم بالخيبة فيما يشنونه من حرب على الجماعة المسلمة.

قال ﷻ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ (المائدة: ٦٤)، وما تزال طوائف اليهود متعادية، وإن بدا في هذه الفترة أن اليهودية العالمية تتساند، وتوقد نارًا للحرب على البلاد الإسلامية، ولكن ينبغي ألَّا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كاملة، ففي أكثر من ألف وثلاثمائة عام، بل من قبل الإسلام، واليهود في شحناء وفي ذل كذلك وتشرد، ومصيرهم إلى مثل ما كانوا فيه مهما تقم حولهم الأسناد، ولكن مفتاح الموقف كله في وجود العصبة المؤمنة التي يتحقق لها وعد الله، فأين هي العصبة المؤمنة اليوم التي تتلقى وعد الله وتقف ستارًا لقدر الله ويحقق الله بها في الأرض ما يشاء؟ ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾.

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٤، ج٦، ص٢٤٩.

إن هذا الشر والفساد الذي تمثله اليهود، لا بد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه، فالله لا يحب الفساد في الأرض، وما لا يحبه الله لا بد أن يبعث عليه من عباده من يزيله: ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (المائدة)[1].

الخلاصة:

- جهل هؤلاء اليهود المراد بإقراض الله، فليس معنى إقراض الله أنه محتاج إلى ذلك، بل المراد إقراض الفقراء والمحتاجين والإنفاق في سبيل الله، كما دلت على ذلك الآيات والآثار الكثيرة.
- مراد هؤلاء اليهود من ادعائهم هذا، تشكيك ضعفاء الإيمان، وتكذيب النبي ﷺ، وضرب المسلمين في عقيدتهم.
- سوء أدب اليهود مع الله ﷻ ونعته بما لا يليق بذاته ﷻ كان من أسباب لعنهم واستحقاقهم غضب الله عليهم.

الشبهة الثالثة عشرة

فِرْيَة أن الله يأمر بالفحشاء(*)

مضمون الشبهة:

كان العرب ـ ما عدا قريشًا ـ لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها مُحتَجِّين بأنهم لا يلبسون ثيابًا عصوا الله فيها، وكانت المرأة تطوف عريانة وتجعل على فرجها شيئًا يستره بعض الستر، وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل، ويحتجون بأنهم وجدوا آباءهم يفعلون ذلك، وفعل آبائهم مستند إلى أمر من الله. قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ (الأعراف: ٢٨).

وجوه إبطال الشبهة:

١) طريقة تقليد الآباء طريقة فاسدة.

٢) الله ﷻ لا يأمر بالفحشاء والقبائح.

٣) لم يثبت بطريق العقل أو النقل أن الله أمرهم بالفحشاء، أو بأن يطوفوا حول البيت عراة.

٤) الله ﷻ لا يأمر إلا بالفضيلة والصلاح المحض، إنما الشيطان هو الذي يأمر بالسوء والفحشاء.

٥) إنما حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي والشرك.

التفصيل:

أولا. فساد طريقة تقليد الآباء:

الفاحشة اسم للعمل الذميم، وهي مشتقة من الفحش وهو الكثرة والقوة في الشيء المذموم المكروه، وغلبت الفاحشة في الأفعال الشديدة القبح، وهي التي تنفر منها الفطرة السليمة، أو ينشأ عنها ضرّ وفساد بحيث يأباها أهل العقول الراجحة، وينكرها أولو الأحلام، ويستحي فاعلها من الناس، ويستتر من فعلها مثل البغاء والزنا والوأد والسرقة، ثم تنهى عنها الشرائع الحقة، فالفعل يوصف بأنه فاحشة قبل ورود

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٢، ص٩٣٠.

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (الأعراف/ ٢٨).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (الأعراف/ ٢٨، ٢٩، ٣٣، الأنعام/ ١٥١، النحل/ ٩٠).

الشرع، كأفعال الجاهلية؛ مثل السجود للتماثيل والحجارة وطلب الشفاعة منها وهي جماد، ومثل العُري في الحج، وترك تسمية الله عند ذبح الذبائح، وهي من خلق الله وتسخيره، والبغاء واستحلال أموال اليتامى والضعفاء، وحرمان الأقارب من الميراث، واستشارة الأزلام في الإقدام على العمل أو تركه، وقتل غير القاتل؛ لا لشيء إلا أنه من قبيلة القاتل، وتحريمهم على أنفسهم كثيرًا من الطيِّبات التي أحلَّها الله وتحليلهم الخبائث؛ مثل: الميْتَة[1] والدَّم[2].

وقد روي عن ابن عباس أن الفاحشة المذكورة هنا يراد بها طوافهم بالبيت عراة، ويقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، ويتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكان هذا الشيء قد ابتدعوه من عند أنفسهم، فإذا ما سُئلوا عن ذلك أجابوا بأنهم متبعون فيه لآبائهم، ويعتقدون أن آباءهم يستندون في فعلهم هذا إلى أمر من الله وشرع.

وكلام ابن عباس إنما يحمل على أن التعري في الحج من أول ما أريد بالفاحشة لا قصرها على ذلك، فكأن أئمة الشرك قد أعدوا لأتباعهم معاذير عن تلك الأعمال ولقنوها إياهم، وجماعها أن ينسبوها إلى آبائهم السالفين الذين هم قدوة لخلفهم، واعتقدوا أن آباءهم أعلم بما في طي تلك الأعمال من مصالح لو اطّلع عليها المنكرون لعرفوا ما أنكروا، ثم عطفوا على ذلك أن الله أمر بذلك، يعنون أن آباءهم ما فعلوها من تلقاء أنفسهم، ولكنهم رسموها بأمر الله ﷻ[3].

لقد رد القرآن اعتذارهم بتقليد الآباء في مواضع عدة، منها قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (البقرة)، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ (المائدة) فطريقة التقليد فاسدة، وهي حجة داحضة.

فأنكر القرآن عليهم ما كان مماثلًا لهذا الاستدلال، وهو كل دليل توكَّأ على اتباع الآباء في الأمور الظاهر فحشها وفسادها[4].

ثانيًا. الله ﷻ لا يأمر بالفحشاء:

من ردِّ القرآن عليهم أن أمر الله رسوله ﷺ أن يدحض قولهم، فقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأعراف). فهذا الذي تفعلونه فاحشة منكرة، والله تعالى لا يأمر بمثل ذلك، أتسندون إلى الله تبارك وتعالى من الأقوال ما لا تعلمون صحته.

وبهذا دحض حجتهم وأنكر عليهم كل دليل استند إلى ما لا قبل للمستدل بعلمه، فإن قولهم ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ (الأعراف: ٢٨) دعوى باطلة إذا لم يبلغهم أمر الله بواسطة مبلغ، فإنهم كانوا ينكرون النبوة فمن أين لهم

---

١. الميْتَة: حيوان مات حَتْف أَنْفِه، أو على هيئة غير مشروعة، وهو مما يَحْرُم أَكْله.

٢. الدَّم: الدم المُسال المُراق، وهو حرام لنجاسته.

٣. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٥، ج٨، ص٨٢ بتصرف.

٤. المرجع السابق، ص٨٤.

تلقي مراد الله تعالى... فقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ نقض لدعواهم أن الله أمرهم بها؛ أي بتلك الفواحش، وهو ردّ عليهم وتعليم لهم، وإفاقة لهم من غرورهم؛ لأن الله متصف بالكمال فلا يأمر بما هو نقص لم يرضه العقلاء وأنكروه، فكون الفعل فاحشة كافٍ في الدلالة على أن الله لا يأمر به لأن الله له الكمال الأعلى[1].

ثالثًا. العقل والنقل يرفضان أن تكون الفحشاء من الله تعالى:

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ تكذيب لهم من طريقي العقل والنقل، أما العقل فتقريره أن هذا الفعل لا خلاف بينكم وبيننا في أنه من الفحشاء؛ أي: أقبح القبائح، والله ﷻ منزَّه بكماله المطلق - الذي لا شائبة للنقص فيه - من أن يأمر بالفحشاء، وإنما الذي يأمر بها هو الشيطان الذي هو مجمع النقائص، كما قال الله ﷻ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ (البقرة: ٢٦٨)، وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ (البقرة: ١٦٩).

وأما طريق النقل فهو أن ما يُسنَد إلى الله تعالى من أمر ونهي لا يثبت بمجرد الدعوى، بل يجب أن يُعلم بوحي منه ﷻ إلى رسول من عنده ثبتت رسالته بتأييده تبارك وتعالى له بالآيات البينات، وهذا الاستفهام ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ للإنكار المتضمن للتوبيخ، وللرد على المقلِّدين، فإنهم باتباع آبائهم وأجدادهم وشيوخهم في آرائهم وأعمالهم الدينية غير المستندة إلى الوحي الإلهي يقولون على الله ما لا يعلمون أنه شرعه لعباده.

رابعًا. الله لا يأمر إلا بالفضيلة، والشيطان هو الذي يأمر بالسوء والفحشاء:

بعد أن أنكر الله ﷻ عليهم أن يكونوا على علم في هذا الطريق النقلي، وهو من باب السلب والنفي، توجهت الأنفس إلى معرفة ما يأمر الله به من محاسن الأعمال ومكارم الأخلاق وجميل الخصال، فبينه بطريق الاستئناف، فقال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ (الأعراف: ٢٩)، أي: العدل والاعتدال في الأمور كلها أي الفضيلة من كل فعل. فالله تعالى أمر بالفضائل وبما تشهد العقول السليمة أنه صلاح محض وأنه حسن مستقيم.

وقد نقل عن ابن عباس: أن القسط قول لا إله إلا الله، وإنما يعني بذلك أن التوحيد من أعظم القسط، وهذا إبطال للفواحش التي زعموا أن الله أمرهم بها لأن شيئًا من تلك الفواحش ليس بقسط[2] فما أمر الله به يضاد ما هم عليه من اتباعهم لآبائهم وللشرائع التي وضعها لهم عباد أمثالهم، أنزل عليهم لباسًا يواري سوآتهم وريشًا يتجملون به كذلك، ويضاد الشرك الذي يزاولونه[3]، ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (الأعراف)، أي: توجهوا إلى الله ﷻ عند كل مسجد تعبدونه فيه، وادعوه وحده مخلصين له

١. المرجع السابق، ص٨٤.

٢. المرجع السابق، ص٨٤.

٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٣، ص١٢٨١ بتصرف.

الدين، فلا تشوبوا دعاءكم بأدنى شائبة من الشرك الأكبر أو الأصغر.

ثم يوضح القرآن الكريم أن الكل عائد إلى الله، فريق هداهم الله؛ لأنهم جعلوا ولايتهم لله، وفريق ضلوا؛ لأنهم جعلوا ولايتهم للشيطان، قال ﷻ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأعراف) فهؤلاء الضالون اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله والشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ (البقرة: ١٦٩).

خامسًا. أصول المحرمات عند الله ﷻ:

في ختام رد القرآن على هذه الشبهة يبين لهم أصول المحرمات التي حرمها الله حقًّا وأنها أمور يزاولونها بالفعل، قال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف)، هذا هو الذي حرمه الله؛ الفواحش من الأعمال المتجاوزة لحدود الله، ظاهرة للناس أو خافية، والإثم وهو كل معصية على وجه الإجمال، والبغي بغير الحق وهو الظلم الذي يخالف الحق والعدل - كما بينها الله أيضًا - وإشراك ما لم يجعل الله به قوة أو سلطانًا مع الله في خصائصه، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون كالذي يقولونه من التحليل والتحريم ومن نسبتهم هذا إلى أمر الله بغير علم ولا يقين[1].

والقَصْر المُفاد من ﴿إِنَّمَا﴾ في الآية قَصْر إضافي[2]، مُفاده أن الله حرَّم الفواحش وما ذُكر معها لا ما حرمتموه من الزينة والطيبات، فأفاد إبطال اعتقادهم، ثم هو يفيد - بطريق التعريض - أن ما عدَّه الله من المحرَّمات الثابت تحريمها قد تلبَّسوا بها[3].

الخلاصة:

- الله ﷻ مُتَّصف بالكمال، فلا يأمر بما هو نقص، والفاحشة نقص، وكيف يأمر سبحانه بنقص لا يرضاه العقلاء وينكرونه؟!
- المعقول والمعلوم أن ما يسند إلى الله ﷻ من أمر ونهي لا يثبت بالدعوى، بل يجب أن يعلم بوحي منه سبحانه إلى رسول من عنده مؤيدًا بالآيات والبراهين.
- التوبة هي الإنابة والرجوع إلى الله ﷻ، ومجال ذلك النية والفعل، وليست أمرًا ظاهريًّا بارتداء ثياب أو خلعها.
- الله ﷻ لا يأمر إلا بالقسط، وبما يتفق مع العقل، وبما فيه الخير لخلقه وإن جهلوا الحكمة من وراء أمره

١. المرجع السابق، ص١٢٨٣ بتصرف.

٢. القَصْر: تخصيص شيء بشيء، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، ومن وسائله "ما" و"إلا" و"إنما"، والمقصود من القصر الإضافي: أن يكون الأمر المثبت بدلا عن أمر منفي، أو يُراد إثبات الحُكم لشيء دون آخر، نحو: ما زيد إلا كاتب، فإذا كان المخاطب يعتقد أنه شاعر فأنت تثبت أنه كاتب بدلا من شاعر، وإن كان يعتقد أنه كاتب وشاعر معًا فأنت تنفي أنه شاعر وتثبت أنه كاتب فقط، والمهم هنا أن ما تنفيه في القصر الإضافي ليس كل ما يمكن نفيه؛ بل ما يعتقد المخاطب ثبوته فقط، ومن ثم فقصر التحريم على الأشياء المذكورة في الآية ينفي التحريم عن الزينة والطيبات، ولا يعني أنه لا يوجد محرمات أخرى.

٣. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٥، ج٩، ص٩٩ بتصرف.

تعالى، أما الشيطان فهو الذي يأمر بكل سوء ومنكر.

الشبهة الرابعة عشرة

زعم اليهود والنصارى أنهم أبناء الله ﷻ وأحباؤه(*)

مضمون الشبهة:

يزعم اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه؛ لأنهم منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه، وله بهم عناية، وهو يحبهم، ويستدل اليهود على زعمهم بما نقلوا عن كتابهم أن الله ﷻ قال لعبده إسرائيل: أنت ابني بكري، وينقل النصارى أيضًا عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم. قال ﷻ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ (المائدة: ١٨).

وجوه إبطال الشبهة:

١) ردُّ عقلاء اليهود الذين أسلموا على تأويلهم الفاسد المحرَّف.

٢) ادعاء التميز والخصوصية على خلق الله لا دليل عليه.

٣) لِمَ يعذبكم الله بذنوبكم إن كنتم أبناءه وأحباءه حقًّا؟!

٤) اليهود والنصارى بشر كسائر البشر لا فضل لهم على أحد من خلق الله إنما العبرة بالإيمان والعمل الصالح.

التفصيل:

أولا. رد عقلاء اليهود والنصارى هذا التأويل الفاسد:

هذه شبهة لا دليل عليها، وافتراء لا أساس له من أقوال هؤلاء المتبجِّحين من اليهود والنصارى، حيث يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه، فهم منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية، ونقل اليهود عن كتابهم أن الله ﷻ قال لعبده إسرائيل: "أنت بكري". (التكوين ٤٩: ٣)، ونقل النصارى عن كتابهم أن عيسى عليه السلام قال لهم: "إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم". (يوحنا ٢٠: ١٧)، فحملوا هذا على غير تأويله وحرَّفوه، وقد ردَّ عليهم غير واحد من عقلائهم، وقالوا: هذا يُطلق - عندهم - على التشريف والإكرام.

وبهذا المعنى كان يستخدم اليهود - مخاطبي عيسى - لفظة "ابن الله" التي لم تكن غريبة عليهم، بل شائعة ومستخدمة لديهم بالمعنى الذي ذكرناه، ولذلك نجد مثلًا أن أحد علماء اليهود واسمه نثنائيل لما سمع من صديقه فيلبس عن نبي خرج من مدينة الناصرة استنكر ذلك في البداية، لكنه لما ذهب ليرى عيسى بنفسه عرفه عيسى: "فيلبس وجد نثنائيل وقال له: وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء، يسوع بن يوسف الذي من الناصرة. فقال له نثنائيل: أَمِن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟ قال له فيلبس: تعالَ وانظر. ورأى يسوع نثنائيل مقبلًا إليه، فقال عنه: «هوذا إسرائيلي حقًّا لا غش فيه».

قال له نثنائيل: من أين تعرفني؟ أجاب يسوع وقال له: «قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التِّينة، رأيتك». أجاب نثنائيل وقال له: يا معلم، أنت ابن الله، أنت

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (المائدة/ ١٨).
الآية التي ورد فيها الرد على الشبهة: (المائدة/ ١٨).

ملك إسرائيل". (يوحنا ١: ٤٥ ـ ٤٩).

ولا شك في أن مقصد نثنائيل ـ كإسرائيلي يهودي موحد، عالم بالكتاب المقدس ـ من عبارة "ابن الله" هذه لن يكون: أنت ابن الله المولود منه والمُتجسِّد! ولم يكن قصده: أنت أقنوم الابن المتجسِّد من الذات الإلهية!! لأن هذه الأفكار كلها لم تكن معروفة في ذلك الوقت، ولم يتحدث عيسى نفسه عنها، لأن هذه الحادثة حدثت في اليوم الثاني لبعثة عيسى فقط، بل من الواضح المقطوع به أن مقصد نثنائيل من عبارته "أنت ابن الله": أنت مختار الله ومُجْتَباه، أو أنت حبيب الله أو من عند الله، أو أنت النبي الصالح البار المقدس، ونحو ذلك.

هذا، ومما يؤكد ذلك أن لقب "ابن الله" جاء بعينه في الإنجيل، في حق كل بار صالح غير عيسى، كما استعمل "ابن إبليس" في حق الإنسان الفاسد الطالح[1].

ثانيًا. لا دليل للفريقين على دعواهم:

هؤلاء اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار ميزهم لذاتهم على جميع البشر، فلا يمكن أن يساويهم شعب آخر عنده، وإن كان أصح منهم إيمانًا وأصلح عملًا، وأنهم لا يكونون تابعين لغيرهم في الدين، فلا يصح أن يتبعوا محمدًا ﷺ؛ لأنه عربي لا إسرائيلي، والفاضل لا يتبع المفضول بزعمهم، ولا يمكن أن يؤاخذهم الله على الكفر به؛ لأنهم شعبه الخاص المحبوب، وهو لا يعاملهم إلا معاملة الوالد لأبنائه الأعزاء والمحب لمحبوبه الخاص، وأما النصارى فيدَّعون أن المسيح فداهم بنفسه وأنهم أبناء الله، بولادة الروح، والمسيح ابنه الحقيقي، ويخاطبون الله ﷻ بلقب الأب دائمًا، ويرون أنهم غير محتاجين إلى إصلاح في دينهم ودنياهم، ولهذا رفضوا ما دعاهم إليه النبي ﷺ من التوحيد الخالص والعمل الصالح[2].

وهذا الزعم من اليهود والنصارى لا يستند إلى دليل من وحي أو علم أنزله في كتاب بل الموجود في كتبهم البشارة بمحمد ﷺ، والمعلوم عنهم أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه وأنهم يفترون على الله الكذب وهم يعلمون قال ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠) ﴾ (النساء).

ثالثًا. الله ﷻ لا يعذب أحباءه:

لقد ردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ (المائدة: ١٨)؛ أي: إذا كان الأمر كما زعمتم وادَّعيتم أنكم أبناء الله وأحباؤه فلم يعذبكم الله ﷻ في الدنيا كما تعلمون من تاريخكم الماضي، وكما مسخكم قردة وخنازير، وعذَّب من قبلكم من اليهود والنصارى بألوان العذاب، أو كما ترون في تاريخكم الحاضر، ومن هذا العذاب تخريب الوثنيين لمسجد اليهود الأكبر، وإزالة ملكهم في الأرض[3]، واضطهاد الأمم للنصارى والتنكيل ببعضهم، أو المعنى: فلم أعدَّ لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم؟ وقد أقر اليهود بذلك، واعترفوا بأنهم سيعذبون في النار أيامًا معدودة، كما حكى الله عنهم ذلك في قوله: ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا

١. المناظرة الكبرى، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٧٧، ١٧٨.

٢. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٦، ص٣١٦.

٣. المرجع السابق، ص٣١٥.

﴿ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠).

ومعلوم أن المُحِبَّ لا يعذب حبيبه، والأب لا يعذب ابنه، فلستم إذًا أبناء الله ولا أحباءه، وهذا دليل كذبكم وافترائكم، وهذا هو المسمّى عند الجدليين ببرهان الخلف.

رابعًا. التفضيل عند الله تعالى للبشر بالإيمان والعمل الصالح:

ولهذا بيّن الله لهم أنهم بشر من جملة البشر من خلق الله ﷻ، وهو ﷻ الحَكَمُ العدل لا يحابي أحدًا على حساب أحد من خلقه، وإنه ليس لكم ولا لغيركم من طوائف البشر امتياز ذاتي خاص، ولا نسبة ذاتية إليه تعالى؛ لأن جميع خلقه بالنسبة إليه سواء، وهو سبحانه يغفر لمن يعلم أنه يستحق للمغفرة، ويعذب من يعلم أنه مستحق للعذاب، فهو يجزيكم بأعمالكم كما يجزي سائر البشر أمثالكم، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم، فإنما العبرة بالإيمان الصحيح والعمل الصالح، قال ﷻ: ﴿بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (المائدة). وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات)[1].

الخلاصة:

- اعتقاد اليهود والنصارى التميز والخصوصية لذاتهم على خلق الله اعتقاد باطل، لا دليل عليه، فالأصل في التميز والتفاضل - عند الله - هو التقوى والعمل الصالح.
- إذا سلَّمنا جدلًا أن اليهود والنصارى أبناء الله وأحباؤه، أفيعذب والد أولاده ويهلكهم بذنوبهم وخطاياهم، وهو لهم محب وبهم رحيم؟!
- ما استدل به اليهود والنصارى من كتبهم المحرفة استدلال خاطئ وتأول فاسد بيّن المراد منه عقلاء هؤلاء وهؤلاء.

الشبهة الخامسة عشرة

دعوى اليهود أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس(*) ®

مضمون الشبهة:

يدَّعي اليهود أن الدار الآخرة عند الله خالصة لهم من دون الناس؛ لأنهم أولياء لله، ويدَّعون أنهم على هدى، وأن محمدًا ﷺ وأصحابه على ضلالة. قال ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ (البقرة).

وجوه إبطال الشبهة:

١) هذه دعوى باطلة لأنها لا دليل عليها.

٢) إحجامهم عن تمنّي الموت - الذي يوصلهم إلى

---

١. المرجع السابق، ص٣١٧.

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (الجمعة/ ٦).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ٩٤، ٩٧، الجمعة/ ٦: ٨، آل عمران/ ٦١، مريم/ ٧٠).
® في "ردّ القرآن الكريم على زعم اليهود والنصارى أن لن يدخل الجنة إلا من تبع ملتهم" طالع: الشبهة السابعة عشرة، من هذا الجزء.

الدار الآخرة ـ دليل كذبهم وبطلان دعواهم.

٣) إحجامهم عن المُباهَلَة[١] لتعلقهم بالحياة وخوفهم من سوء عاقبتهم دليل ضلالهم وافترائهم.

التفصيل:

أولا. بطلان دعوى اليهود:

هذه دعوى من دعاوى اليهود الباطلة التي سبقتها وتلتها دعاوى أخرى، منها قولهم: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ (البقرة: ١١١)، وقولهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ (المائدة: ١٨)، وقولهم: ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ (البقرة: ٨٠)، وقولهم: ﴿ كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ (البقرة: ١٣٥)، وهم هنا يزعمون أن الدار الآخرة وهي الجنة خاصة لهم لن يشركهم فيها أحد، وأن نعيمها وثوابها خالص لهم سالم من الشوائب؛ لأنهم أولياء الله من دون الناس، وهذه الحجة كما ترى تتعلق بفائدة الإيمان ومثوبته في الحياة الأخرى، وكل هذا الكلام مرسل، وخبر لا دليل على صحته، بل إن الواقع وحال كل من اليهود والنصارى يكذبه.

ثانيا. دليل كذب اليهود:

يقول الله ﷻ رادًّا عليهم دعواهم: ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (البقرة)؛ أي: إن صحت دعواكم وصدق قولكم: إن الدار الآخرة خالصة لكم من دون الناس؛ لأنكم أولياء لله، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتكم، وإنكم شعب الله المختار، فلن تمسكم النار إلا أيامًا معدودات لا تزيد على أيام عبادة العجل؛ فتمنوا الموت الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم الذي لا مُنَازِع لكم فيه ولا مُزاحم لكم ولا مشارك، وإن لم تتمنوا الموت فما أنتم بصادقين؛ إذ لا يعقل أن يرغب الإنسان عن السعادة ويختار عليها الشقاء، وفي هذه حجة عظيمة للمسلمين على اليهود تدفع باطلهم وتزهقه.

ووجه هذه المحاجة أن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من البقاء في هذه الحياة الدنيا لما يصير إليها من نعيم في الآخرة، ولما يتركه من كدر الحياة الدنيا وأذاها، فلو كنتم صادقين معشر اليهود فيما زعمتم أن الدار الآخرة خالصة لكم والجنة خاصة بكم دون سواكم فتمنوا الموت، وهذه دعوى إلى قضية عادلة لفصل ما بين المؤمنين وهؤلاء من الخلاف، إذ لو كانوا محقين في زعمهم قرب المنزلة من الله فإن ذلك غير ضارهم، ولكنهم في الحقيقة كاذبون في دعواهم فلم يتمنَّ أحد منهم الموت وأحجموا عن ذلك التمني؛ فَرَقًا من عذاب الله وخوفا من سوء العاقبة، إذ هم يعلمون سوء صنيعهم وقبح أعمالهم، وأنهم إن تمنوا الموت هلكوا في الدنيا والآخرة، ولذا قال ﷻ: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ (البقرة)، فظهر بامتناعهم بطلان قولهم[٢].

ثالثا. حرصهم على الحياة وإحجامهم عن المباهلة:

ومن ردود القرآن على دعواهم هذه أن دعاهم إلى

١. المُباهَلَة: اجتماع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الكاذب والظالم منَّا.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٢، ص٣٢، ٣٣ بتصرف. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٨٤، ٨٣ بتصرف.

المباهلة وقال لهم: إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس وأنكم أبناء الله وأحباؤه وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة، فلما تأخروا عُلِمَ كذبهم، وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة وعُتُوِّهم وعنادهم في المباهلة، فقال ﷻ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ (آل عمران).

فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف، ومثل هذا المعنى السابق، أو قريب منه قول الله ﷻ لنبيه: أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ (مريم)، أي من كان في الضلالة منا ومنكم زاده الله مما هو فيه ومدّ له واستدرجه. وكانت المباهلة على هذا النحو بالموت؛ لأن الحياة عند هؤلاء عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ (البقرة: ٩٦)[1].

الخلاصة:

- أمَر القرآن اليهود بتمنِّي الموت إن كانوا صادقين في دعواهم حتى يظفروا بالدار الآخرة.
- عدم وجود دليل على دعواهم هو في حد ذاته دليل كذبهم وبطلان دعواهم.
- دعوة القرآن اليهودَ إلى المُباهَلَة والمناظرة التي تستأصل الكاذب.
- إحجام اليهود عن المباهلة؛ لتعلقهم بالحياة، وخوفهم من سوء عاقبتهم، هو من الأدلة القوية على كذبهم فيما يدعونه.

الشبهة السادسة عشرة

دعوى أن النار لن تمسَّ اليهود والنصارى إلا أيامًا معدودة(*)

مضمون الشبهة:

زعم اليهود والنصارى كذبًا وافتراءً فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة ثم ينجون منها، حيث قالوا: إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعذَّب بكل ألف سنة يومًا في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة. قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠).

وجوه إبطال الشبهة:

١) لم يعهد الله ﷻ لليهود والنصارى بما زعموا.

---

١. للمزيد انظر: التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٣، ص٢٦٦: ٢٦٤. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٤، ص١٠٤ بتصرف.

(*) الآيتان اللتان وردت فيهما الشبهة: (البقرة/ ٨٠، آل عمران/ ٢٤).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ٨٠، ٨٢، آل عمران/ ٢٤، ٢٥).

٢) هذه دعوى بلا علم ولا دليل فهي باطلة.

٣) الجزاء من جنس العمل بلا عنصرية أو تمييز، فالخلود في النار للمشركين، والخلود في الجنة للمؤمنين.

٤) غرور اليهود والنصارى في دينهم هو الذي أدى بهم إلى هذه المقالة المزعومة.

التفصيل:

أولا. افتراء اليهود والنصارى على الله ﷻ بغير علم:

هذا ضرب من ضروب غرورهم وتقوُّلهم على الله بغير علم، فهم يزعمون أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، وهذه الأيام هي بعدد الأيام التي عبدوا فيها العجل، فقيل هي سبعة أيام وقيل أربعون يومًا، وقيل غير ذلك، ثم يزعمون أنهم يخرجون من النار بعد ذلك، وقد أخبروا بذلك رسول الله ﷺ عندما فُتحت خيبر، وأكل رسول الله ﷺ من الشاة التي وضعوا له فيها السم، فجمعهم رسول الله ﷺ وسألهم: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها. فقال النبي ﷺ: "اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا"[1].

والمس يعني اللمس الخفيف، أو اقتراب شيء من شيء ولكن لا يحس أحدهما بالآخر إلا إحساسًا خفيفًا لا يكاد يذكر، ولا تكون مدته إلا لحظات، فكيف يكون أياما ذوات عدد؟ وكيف يكون بهذه الهيئة عقابًا على ذنب ارتكب؟!

فاليهود يعتقدون أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، واليهودي سيمكث في النار سبعة أيام، عن كل ألف سنة يومًا، ومثل هذا الحكم لا يمكن القول به إلا بعهد من الله ﷻ مالك يوم الدين ومالك الجزاء، وإلا كان افتئاتًا عليه سبحانه، وتقولًا عليه بغير علم، وهذا ما رد الله به عليهم، ولله الحجة البالغة، وأمر رسوله ﷺ أن يخاطبهم بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ (البقرة: ٨٠)؛ أي: هل عهد الله إليكم ذلك ووعد به فكان حقا لكم عنده؛ لأن الله لا يخلف وعده ولا ينقض ميثاقه، ولا يبدل عهده وعقده ولا يغير وعده؟ وهذا الاستفهام للإنكار؛ أي: فلستم على عهد من الله ﷻ[2].

ثانيًا. دعواهم بلا برهان أو دليل:

إن هذه الدعوى ليس لها برهان ولا يؤيدها دليل لذلك كذَّبهم الله ﷻ بقوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (البقرة)، أي: أم تقولون على الله شيئًا ليس لكم به علم، إذ العلم بمثله لا يكون إلا بوحي منه يبلِّغه عنه رسله، والقول على الله بغير علم جرأة وافتيات عليه وكفر به، والمعنى أنه لا بد من أحد الأمرين إذ لا واسطة بينهما: إما اتخاذ عهد عند الله، وإما القول على الله بغير علم، وإذا كان الله لم يعهد إليهم فلا يبقى إلا تقوُّلهم على الله بغير علم، وبهذا يثبت بطلان دعواهم، وكذب زعمهم الذي زعموا:

والدَّعاوَى ما لم تُقِيمُوا عليها
بيِّنَاتٍ أبناؤُها أدْعِياءُ

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية والموادعة، باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم (٢٩٩٨).

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٨٥، ٨٦ بتصرف. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٥٧٩، ٥٨٠ بتصرف.

ثالثًا. الجزاء من جنس العمل:

بعد أن أبطل الله دعوى اليهود والنصارى هذه أخبرهم أنه يُعَذِّب من أشرك به وكفر برسله في النار خالدًا مخلدًا، فإن الجنة لا يسكنها إلا أهل الإيمان بالله ورسله، قال ﷻ: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (البقرة).

وبهذا الجواب القاطع والقول الفصل في هذه الدعوى دحضت حجتهم، وهذه صورة كلية من كليات التصور الإسلامي تنبع من فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان: إن الجزاء من جنس العمل ووفق هذا العمل[1].

رابعًا. غرور اليهود:

لقد ذكر الله أيضًا أن منشأ هذا الافتراء ليس الدليل ولا العلم، وإنما منشؤه الغرور في الدين؛ إذ مثل ذلك الحكم لا يعرف بالرأي ولا الفكر؛ لأنه من أمر الغيب فلا يعرف إلا بوحي من الله، وليس في الوحي ما يؤيده، قال ﷻ: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (آل عمران)، وهذا إشارة إلى التولِّي والإعراض واغترار منهم في قولهم الكاذب: ﴿ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾ (المائدة: ١٨)... إلى غير ذلك من أقوالهم[2].

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٨٦. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٥٨٠، ٥٨١ بتصرف.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٤، ص٥١.

الخلاصة:

- المس يعني اللمس الخفيف، أو اقتراب شيء من شيء ولكن لا يحس أحدهما بالآخر إلا إحساسًا خفيفًا لا يكاد يذكر، ولا تكون مدته إلا لحظات، فكيف يكون أيامًا ذوات عدد؟ وكيف يكون بهذه الهيئة عقابًا لذنب ارتكب؟
- ما يعتقده اليهود ـ مدة العذاب القليلة ـ منشؤه أمران: الأول: تزيين الشيطان لهم هذا الاعتقاد، الثاني: غرور هؤلاء اليهود في دينهم.
- إخبار المولى ﷻ ـ على لسان نبيه ﷺ ـ أن المشرك والكافر مخلَّد في النار؛ وهؤلاء اليهود ليسوا عصاة بل مشركون كافرون، ومن ثم فهم في النار خالدون.

الشبهة السابعة عشرة

دعوى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على مِلَّة اليهود أو النصارى(*) ®

مضمون الشبهة:

ادَّعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، وهذه عقيدة الفريقين إلى اليوم. قال ﷻ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ﴾ (البقرة: ١١١).

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (البقرة/ ١١١).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ١١١: ١١٣).
® في "ردّ القرآن على زعم اليهود استئثارهم بالجنة من دون الناس" طالع: الشبهة الخامسة عشرة، من هذا الجزء.

وجها إبطال الشبهة:

١) هذه الدعوى من أمانيهم التي لا يدركونها، فلا بُدَّ من الإتيان بالبرهان لإثبات صحة الدعوى؛ لأنه لا يقبل قول بلا دليل.

٢) الجنة متاحة لكل من يعمل لها وليست حِكْرًا على طائفة دون طائفة والحكم لله بين الجميع وهو أعلم بأهل الحق.

التفصيل:

يغتر اليهود والنصارى بما هم فيه، ويدَّعون أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتهم، وهي عقيدتهم إلى يومنا هذا، كما قالوا أيضًا فيما حكاه عنهم القرآن: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ (المائدة: ١٨)، وقد أكذبهم الله ﷻ بما أخبرهم أنه يعذبهم في الدنيا والآخرة بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، ومثله ما ادّعوه من أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة ثم ينتقلون إلى الجنة، وردَّ الله ﷻ عليهم قائلًا: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (البقرة).

أولا. أُمْنِية بلا برهان:

ردَّ الله تعالى على هؤلاء المدَّعين، بأن هذا من أمانيهم التي لا يدركونها، فقال ﷻ: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ (البقرة: ١١١)، ثم طالبهم الله ﷻ بالبرهان على دعواهم تلك، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ (البقرة)، فهذه دعوى بلا دليل ولا حجة ولا بينة، وهنا يقرر القرآن قاعدة جليلة لا توجد في غير القرآن من الكتب السماوية، وهي أنه لا يُقْبَلُ من أحد قول لا دليل عليه، ولا يُحْكَمُ لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها.

والدَّعاوَى ما لم تُقِيمُوا عليها
بَيِّنَاتٍ أبناؤُها أَدْعِياءُ

وإيضاح ذلك أن الأمم التي خوطبت بالكتب السالفة لم تكن مستعدة لاستغلال الفكر ومعرفة الأمور بأدلتها وبراهينها، ولذلك اكتفى الله منهم بتقليد الأنبياء فيما يبلغونهم وإن لم يعرفوا برهانه، فهم مكلفون أن يفعلوا ما يُؤمرون سواء عرفوا لماذا أمروا أو لم يعرفوا، ولكن القرآن يخاطب من أنزل عليه بمثل قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ (يوسف: ١٠٨)، وقد فسَّروا البصيرة بالحجة الواضحة، وهذه عادة القرآن في الاستدلال على قدرة الله ووحدانيته وعلمه وحكمته بالآيات الكونية والأدلة النظرية والعقلية.

فالقرآن يُعلِّم أهله أن يطالبوا الناس بالحُجَّة فيما يدَّعون؛ لأنه أقامهم على سواء المحجة، وجدير بصاحب اليقين أن يطالب خصمه به ويدعوه إليه، وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح، قالوا بالدليل وطالبوا بالدليل، ونهوا عن الأخذ بشيء من غير دليل.

ثانيًا. الجنة متاحة لكل من يعمل لها:

يقول الله تعالى ردًّا عليهم أيضًا: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (البقرة)، والمعنى: بلى إنه يدخل الجنة من لم يكن هودًا ولا نصارى؛ لأن رحمة الله ليست خاصة بشعب دون شعب، وإنما هي مبذولة

لكل من يطلبها ويعمل لها عملها، وهو أن يسلم وجهه لله عز وجل وحده ويخصصه بالعبادة دون سواه، فهذا له الأجر حقًّا، ولا يصيبه خوف ولا حزن.

"وبذلك يقرر القرآن قاعدة من قواعد التصور الإسلامي في ترتيب الجزاء على العمل بلا محاباة لأمة ولا لطائفة ولا لفرد، إنما هو الإسلام والإحسان لا الاسم والعنوان فقط: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، ومن قبل قرر هذه القاعدة في العقاب ردًّا على قولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ (البقرة: ٨٠)، فقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (البقرة).

إنها قاعدة واحدة بطرفيها في العقوبة والمثوبة، طرفاها المتقابلان: ﴿ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾، وفي مقابله: ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾، فأخلص ذاته كلها لله ووجَّه مشاعره كلها إليه وخلص لله، في مقابل خلوص الآخر للخطيئة.

لقد كانوا - يهودًا ونصارى - يطلقون تلك الدعوى العريضة، بينما يقول كل منهما عن الفريق الآخر: إنه ليس على شيء، وبينما كان المشركون يجابهون الفريقين بالقولة ذاتها: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (البقرة).

﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ هم الأميون العرب الذين لم يكن لهم كتاب؛ وكانوا يرون ما عليه اليهود والنصارى من الفرقة والتقاذف بالاتهام، ومن التمسك بخرافات وأساطير لا ترتفع كثيرًا عن خرافات العرب وأساطيرهم في الشرك ونسبة الأبناء أو البنات لله عز وجل، فكانوا يزهدون في دين اليهود ودين النصارى ويقولون: إنهم ليسوا على شيء، والقرآن يسجل على الجميع ما يقوله بعضهم على بعض، وذلك عقب تفنيد دعوى اليهود والنصارى في ملكية الجنة، ثم يدع أمر الخلاف بينهم إلى الله: ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾، فهو الحكم العدل وإليه تصير الأمور... وهذه الإحالة إلى حكم الله هي وحدها المجدية في مواجهة قوم لا يستمدون أحكامهم من منطق ولا يعتمدون على دليل، بعد دَحْض دعواهم العريضة في أنهم وحدهم أهل الجنة وأنهم وحدهم المهديون"[1]!

الخلاصة:

- كذَّب الله اليهود والنصارى في دعواهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتهم وبيَّن أن هذا تقوُّل بلا علم أو برهان، وأنها أمنية لم يعملوا لها؛ لذا فهي أمنية لن يدركوها.
- أن الجنة ليست حكرًا على طائفة دون أخرى بل هي لكل من عمل صالحًا وأسلم وجهه لله وهو محسن.

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص١٠٤.

المحور الثاني

التشكيك في القرآن الكريم

الشبهة الثامنة عشرة

استنكار إنزال القرآن مُنَجَّمًا وعدم إنزاله جُملةً واحدة(*) ®

مضمون الشبهة:

اعترض المشركون والكفار على طريقة نزول القرآن منجمًا[1] على النبي ﷺ وقالوا: لماذا لم ينزل الكتاب على محمد ﷺ جملة واحدةً، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة كالتوراة، والإنجيل، والزَّبور، وغيرها من الكتب الإلهية. قال ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان:٣٢).

وجها إبطال الشبهة:

١) الكتب السابقة لم تنزل جملة واحدة.

٢) هناك أسباب لنزول القرآن الكريم منجمًا:

- تنزيل القرآن الكريم مُنَجَّمًا حسب الوقائع والأحداث ليكون أثبت لقلب النبي ﷺ وأدعى إلى تقوية حفظه وفهمه.
- وكذلك ليكون أيسر على العامل به فلو أَخَذَ المسلمون بجميع الفرائض مرة واحدة لنفروا.
- نزول القرآن مُنَجَّمًا فيه مطابقة لمقتضى الحال ومناسبة للمقام وبيان إعجازه.
- وكذلك تلقين النبي ﷺ الحجة كلما فتحوا له بابًا من الجدل.

التفصيل:

أولا. الكتب السابقة لم تنزل جملة واحدة:

هذه الشبهة من معاذير المشركين وتعليلاتهم الفاسدة؛ إذ طعنوا في القرآن بأنه نزل مُنَجَّمًا وقالوا: لو كان من عند الله لنزَّل كتابًا جملة واحدة، وهذا القول ظاهر في أنه عائد إلى المشركين، وهذه جهالة منهم بنسبة كتب الرسل، فإنها لم تنزل جملة واحدة، وإنما كانت وحيًا مُفرَّقًا، فالتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام في الألواح هي عشر كلمات بمقدار سورة الليل في القرآن، وما كان الإنجيل - قبل تحريفه - إلا أقوالًا ينطق بها عيسى عليه السلام في الملأ، وكذلك الزَّبور نزل قطعًا كثيرة، فالمشركون نسوا ذلك أو جهلوا، فقالوا: هلَّا نزل القرآن على محمدجملة واحدة فنعلم أنه رسول الله، وقيل: قائل هذا اليهود أو النصارى، فإن صح ذلك فهو بهتان منهم؛ لأنهم يعلمون أنه لم تنزل التوراة والإنجيل والزبور إلا مفرقة.. فإن تلك الكتب لم تنزل أسفارًا تامة قط[2].

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (الفرقان/ ٣٢).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (الفرقان/ ٣٢، ٣٣، الإسراء/ ١٠٦).
® في "الحكمة من نزول القرآن الكريم مُنجَّمًا" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الخامسة عشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

١. التَّنجِيم: التَّفرِيق، والمقصود أن القرآن نزل مُفرَّقًا بحسب الوقائع التي كانت تحدث مع النبي ﷺ، وما يحتاج إليه من الأحكام.

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٩، ج١٩، ص١٨ بتصرف.

ثانيًا. علل تنزل القرآن الكريم منجمًا:

- **تثبيت قلب النبي ﷺ:**

لقد أجاب الله ﷻ عن اعتراض الكفار وتعنت المشركين فيما لا يعنيهم بأن القرآن إنما نزل منجمًا في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والأحداث وما يحتاج إليه من الأحكام؛ ليُثبِّت به أولًا قلب النبي ﷺ أي يقوي قلبه ليعيه ويتحمله؛ قال ﷻ: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (الفرقان: ٣٢).

والفؤاد: هنا العقل، وتثبيته بذلك الإنزال جعْله ثابتا في ألفاظه ومعانيه لا يضطرب وجاء في بيان حكمة إنزال القرآن منجمًا بهذه الكلمة الجامعة ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾؛ لأن تثبيت الفؤاد يقتضي كل ما به خير للنفس، ومنه ما قاله الزمخشري: الحكمة في تفريقه أن نقوي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه؛ لأن المتلقن إنما يقوي قلبه على حفظ العلم يلقى إليه إذا ألقى إليه شيئًا بعد شيء وجزءًا عقب جزء، كما أن نزوله منجمًا أعون لحُفَّاظه على فهمه وتدبره؛ فتكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين، ولذا قال: ﴿ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ (الإسراء: ١٠٦).

- **تيسير العمل به:**

ومن الحِكَم العظيمة التي ذكرها الله ﷻ لنزول القرآن مُفَرَّقًا أنَّ من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور معينة، ففرقناه ليكون أوعى للنبي ﷺ وأيسرَ على العامل به، ولذا رتلناه ترتيلًا؛ أي: شيئًا بعد شيء، والترتيل: الترسل والتثبت، فكان كلما نزل وحي جديد زاده قوة في القلب، قال تعالى: ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الفرقان)، وقال: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ (الإسراء).

والمعنى: أنزلناه مُنَجَّمًا مُفرَّقًا لما في ذلك من المصلحة، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا ولم يطيقوا وكذلك كان نزوله على حسب الدواعي والحوادث وجوابات السائلين ليكونوا أوعى لما ينزل فيهم؛ لأنهم بحاجة إلى علمه فيكثر العمل بما فيه وذلك مما يثبت فؤاد النبي ويشرح صدره.

- **مطابقة مقتضى الحال:**

ومن المصلحة أيضًا أنه لو لم ينزل منجمًا على حسب الحوادث لما ظهر في كثير من آياته مطابقتها لمقتضى الحال ومناسبتها للمقام، وهذا من تمام إعجازها، كما أن تنزيله وتحديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل كلُّه جملة واحدة، قال ﷻ: ﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾؛ أي: أنزلناه منجمًا، حسن التأليف، بيِّن الدلالة، منسقًا في ألفاظه ومعانيه غير متراكم، فهو مفرَّق في الزمان فإذا كمل إنزال سورة جاءت آياتها مرتبة متناسبة كأنها أنزلت جملة واحدة، ومفرّق في التأليف بأنه مفصَّل واضح، وفي ذلك إشارة إلى أن ذلك من دلائل أنه من عند الله؛ لأن شأن كلام الناس إذا فُرّق تأليفه على أزمنة متباعدة أن يعتوره التفكيك وعدم تشابه الجمل[1].

- **تلقين النبي الحجة:**

ومن علل نزول القرآن مفرَّقًا أنه يثبِّت الرسول ﷺ

---

١. المرجع السابق، ص٢٠ بتصرف.

ويطمئنه ويمده بالحجة البالغة كلما فتحوا له بابًا من الجدل، وكلما اقترحوا عليه اقتراحًا، أو اعترضوا عليه اعتراضًا: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الفرقان).

وإنهم ليجادلون بالباطل، والله يرد عليهم باطلهم بالحق الذي يدفعه، والحق هو الغاية التي يريد القرآن تقريرها، وليس مجرد الانتصار في الجدل، ولا الغلبة في المحاجة إنما هو الحق القوي بنفسه، الواضح الذي لا يلتبس به الباطل. والله ﷻ يعد رسوله ﷺ بالعون في كل جدل يقوم بينه وبين قومه فهو على الحق، والله يمده بالحق الذي لا يعفي على الباطل، فأنى يقف جدلهم لحجة الله البالغة؟ وأنى يقف باطلهم للحق الدامغ الذي يتنزل من عند الله[1].

قال ﷻ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء: ١٠٥)، وقال ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ (الإسراء).

وذلك من حكم نزوله منجمًا أنه ينزل بالدواء للمؤمنين كلما حزبهم أمر من الشهوات أو الشبهات، ويزداد الظالمون بذلك ضلالًا وخسرانًا.

الخلاصة:

- نزل القرآن منجّمًا ليكون أيسر على العامل به وأثبت لقلب النبي ﷺ.
- ماذا لو أخذ المسلمون بجميع الفرائض مرة واحدة؟! أفلا يكون النفور وعدم الاستطاعة هو الغالب في تنفيذهم للفرائض؟

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٢٥٦٣.

- المتلقن يقوي حفظه وفهمه إذا تلقى الشيء مرة بعد مرة، وهذا ما كان يفعله النبي ﷺ مع صحابته.
- نزول القرآن منجّمًا فيه مطابقة لمقتضى حال المؤمنين، ومناسبة لمقام التشريع.

الشبهة التاسعة عشرة

دعوى اختلاف القرآن في أحكامه وتناقض معانيه(*)

مضمون الشبهة:

يرمي المشركون والمنافقون القرآن بالتناقض واختلاف أحكامه وتضارب معانيه، وتكذيب بعضه بعضًا.

وجها إبطال الشبهة:

١) دعوتهم إلى تدبُّر القرآن والنظر فيه وتفهم معانيه وأحكامه، فإنه لو كان من عند غير الله لكان فيه اختلاف وتضاد كثير.

٢) القرآن لا اختلاف فيه ولا اضطراب وقد سلم من كل ذلك، وما جهله الناس من القرآن هو من قصور عقلهم.

التفصيل:

أولا. مَن تدبَّر القرآن علِم أنه من عند الله ﷻ:

يدعو القرآن هؤلاء المنافقين والمشركين أن يتدبروا

(*) الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (النساء/ ٨٢، الكهف/ ١، فصلت/ ٤٢، البقرة/ ٢، الطارق/ ١٣، ١٤، الزمر/ ٣).

كتاب الله ﷻ؛ ليعلموا حجة الله عليهم في طاعة النبي ﷺ واتباع أمره، وأن الذي أتاهم به من التنزيل هو من عند ربهم لاتساق معانيه، وائتلاف أحكامه وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض، ولكان فيه اختلاف كثير.

يقول قتادة ـ رحمه الله ـ في هذه الآية: قول الله لا يختلف وهو حق ليس فيه باطل، وقول الناس يختلف، ولذا قال ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء).

وكل متدبِّر في القرآن بحق يعلم أنه من عند الله، ولو كان من عند غيره لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا؛ لعدم استطاعته أن يأتي بمثله في تصوير الحق بصورته كما هي لا يختلف ولا يتفاوت في شيء منها، لا في حكايته عن الماضي الذي لم يشهده محمد ﷺ، ولا في إخباره عن الآتي في مسائل كثيرة وقعت كما أنبأ بها، ولا في بيانه لخفايا الحاضر حتى حديث النفس ومُخَبَّآت الضمائر، ولعدم استطاعة محمد ﷺ ولا غيره أن يأتي بمثله في بيان أصول العقائد وقواعد التشريع، وفلسفة الآداب والأخلاق، وسياسة الشعوب والأقوام، وفنون القول، وألوان العبر في أنواع المخلوقات، وسنن الاجتماع ونواميس العمران، وضرب الأمثال، وتكرار القصة الواحدة بالعبارات البليغة، وفوق ذلك كله ما فيه من العلم الإلهي والخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة، وما فيها من الحساب على الأعمال والجزاء الوفاق، وكون ذلك موافقًا لفطرة الإنسان، فالالتئام بين آياته الكثيرة هو غاية الغايات عند من أوتي الحكمة وفصل الخطاب.

وهكذا تَدبُّر القرآن وتأمُّل ما فيه يهدي صاحبه إلى كونه من عند الله ﷻ، وإلى وجوه الاهتداء بهداه[1].

ثانيًا. جهل من زعم أن القرآن من عند غير الله:

أما ما جهله الناس من أمر القرآن فهو من تقصير عقولهم وجهالتهم، فإن مُحكَم القرآن حق، و مُتشابهه حق، ولا يضرب بعضه ببعض، فما جهله الناس من أمر القرآن وجب ردُّه إلى العَالِم به، ولهذا مدح الله الراسخين في العلم الذين قالوا: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧)، أي: محكمه ومتشابهه حق؛ فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، وذم الله الزائغين عن الحق الذين اتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة حيث ردوا المحكم إلى المتشابه فغووا.

ومن ردِّ القرآن على هذه الدعوى أيضًا قوله ﷻ في آية أخرى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ (الزمر: ٢٣)، فالقرآن أحسن الحديث، ولا كتاب أحسن منه، ولا يمكن لأحسن الحديث أن يكون فيه تناقض أو إشكال أو اضطراب.

ومعنى المتشابه هنا يراد به أن القرآن متماثل في النظم والبلاغة والهدف الذي يدعو إليه فلا تجد في أسلوبه اختلافًا ولا في معانيه مناقضة، فهو يشبه بعضه بعضًا في الحسن والحكمة، ويصدق بعضه بعضًا، في غاية الفصاحة والبلاغة والجزالة.

وأيضًا فقد نفى الله ﷻ عن كتابه جميع أنواع الريبة

1. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٥، ص١٣٧، ١٣٨ بتصرف. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٥، ص٢٩٠ بتصرف.

والشك فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة: ٢)، وقد استفتح بهذه الكلمة كتابه معلنا فيها التحدي لكل من يقرأ أن يجد فيه خطأ أو ريبًا أو شكًّا، على خلاف عادة البشر الذين يستفتحون كتبهم بالاعتذار عن الأخطاء، وإظهار العجز، فالمرجوُّ تقبل الحق الذي فيه والتماس العذر لأخطائه، أما القرآن فلا زيغ فيه ولا اختلال في نظمه ولا تنافي في معانيه، قال ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١)﴾ (الكهف)، وهكذا ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ (فصلت)، فهو كتاب عظيم فَصْل، قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ (١٤)﴾ (الطارق)[1].

الخلاصة:

- القرآن وحي من الله ﷻ؛ ولذا سلم من الاضطراب والاختلاف، إذ لو كان من عند غير الله لكان فيه كثير من الاختلاف والتعارض.
- ما توهمه الجاهلون من تناقض القرآن في أحكامه وتضارب معانيه مردوده إلى قصور عقولهم، وعدم تدبر وفهم معانيه وأحكامه.
- القرآن الكريم تدل تفاصيل آياته على مقاصده؛ فلو تأمَّل هؤلاء المغرضون وتدبروا هدي القرآن لحصل لهم خير عظيم، ولما بقوا على فتنتهم الناتجة عن كفرهم.

١. للمزيد انظر: التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٢٢٣: ٢٢٨.

الشبهة العشرون

دعوى أن القرآن سحرٌ مبين أتى به محمد ﷺ(*)

مضمون الشبهة:

ادَّعى المشركون أن ما جاء به محمد ﷺ من القرآن ما هو إلا سحر مبين ينقله محمد ﷺ عن غيره ويحكيه عنهم. قال ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾ (الأحقاف)، وقال ﷻ: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ (٢)﴾ (يونس). ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في القرآن.

وجوه إبطال الشبهة:

١) تخبُّط المشركين في أمر القرآن ومحمد ﷺ يدل على كذبهم.

٢) حقيقة السحر وبطلان كون القرآن منه.

٣) لو كان القرآن سحرًا لتعلموا صناعة السحر وأتوا بمثله، ولكنهم عجزوا عن تحديه لهم أن يأتوا بمثل أقصر سوره.

٤) لا دليل للمشركين ولا حجة تؤيد دعواهم فهي باطلة.

٥) دعا القرآن المشركين إلى التجرد في الحكم واستخدام المنهج الصحيح في البحث.

٦) أنذر القرآن الكريم المشركين عاقبة تكذيبهم وافترائهم في الآخرة.

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (الصافات/ ١٥، المدثر/ ٢٤، سبأ/ ٤٣، الأحقاف/ ٧).

الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (الإسراء/ ٨٨، هود/ ١٣، يونس/ ٣٨).

التفصيل:

أولا. تخبط المشركين:

يرمي المشركون القرآن بالسحر تارة، ويرمون محمدًا ﷺ تارة أخرى بالسحر، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾، وقال ﷻ: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾، وهذا تخبُّط منهم وضلال في أمر القرآن ومحمد ﷺ.

ولذلك فإن آية يونس السابقة قرأها ابن عامر، وأبو عمرو، ونافع، ويعقوب، وأبو جعفر "لَسِحر"، وقرأ الباقون ﴿لَسَٰحِرٌ﴾، يقصدون بالسحر القرآن، ويقصدون بالساحر رسول الله ﷺ، وكلا القولين قد قالوا، وكلا القولين يشير إلى إثبات رسالته ﷺ.

فقد قالوا: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ لأن ما ينطق به معجز، وأولى لهم ـ لو كان يتدبرون ـ أن يقولوا: نبي يوحى إليه؛ لأن ما ينطق به معجز، فالسحر لا يتضمن من الحقائق الكونية الكبرى ومن منهج الحياة والحركة، ومن التوجيه والتشريع ما يقوم به مجتمع راقٍ، وما يرتكز عليه نظام متفرد.

ولقد كان الوحي عندهم يختلط بالسحر؛ لاختلاط الدين بالسحر في الوثنيات كلها[1].

ثانيًا. حقيقة السحر تختلف عن القرآن:

إن قولهم: القرآن سحر جاء به ساحر، يتضمن اعترافهم بأنها فوق المعهود والمعلوم للبشر في عالم الأسباب المقدورة لهم، وسمّوه سحرًا؛ لأنه خارق للعادة بقوة تأثيره في القلوب وجذبه النفوس إلى الإيمان، وحملها على احتقار الحياة، ولذَّاتها في سبيل الله، حتى إنه ليفرق بين المرء وأخيه، وأمه وأبيه، وزوجه وبنيه، وفصيلته التي تؤويه وتمنعه وتحميه، وإنما السحر ما كان بأسباب خفية خاصة ببعض الناس يتعلمها بعضهم من بعض، وهي إما حِيَل وشعوذة، وإما خواص طبيعية علمية مجهولة للجماهير، وإما تأثير قُوَى النفس وتوجيه الإرادة، وكلها من الأمور المشتركة بين كثيرين من العارفين بها.

ثالثًا. عجز المشركين أمام تحدي القرآن:

لقد استبان للعرب والعجم أن القرآن ليس بسحر يُؤْثَر بالتعليم والصناعة، بل هو مجموعة علوم عالية في العقائد والآداب والتشريع والاجتماع، مرقية للعقول، مزكية للنفوس، مصلحة للناس، وأنه معجز للبشر في أسلوبه ونظمه ومعانيه وهدايته وتشريعه وإخباره بالغيب، وأن محمدًا ﷺ مبلِّغ له، ولم يكن ليقدر على شيء منه، وقد عجز عنه غيره، فقد تحدى الله العرب أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مفتريات أو بسورة منه فعجزوا، قال ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء)، وقال ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ (هود)، وقال ﷻ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (يونس).

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٣، ص١٧٦١ بتصرف.

ولو كان القرآن سحرًا كما زعم هؤلاء لتعلموا صناعة السحر وأتوا بمثله أو ببعض سور منه، لكنهم عجزوا عن التحدّي، فثبت أن محمدًا ﷺ نبي الله ورسوله، وأن ما جاء به وحي من الله ﷻ.

رابعًا. دعوى المشركين بلا دليل:

ومن رد القرآن عليهم أن بيّن لهم أنهم يفترون كذبًا وزورًا بغير علم أو دليل يستندون إليه في دعواهم: أن القرآن سحر مبين، إنما هي دعوى كاذبة حاولوا أن يعللوا بها وقع القرآن القاهر في القلوب كغيرها من الاتهامات الباطلة التي ظنوا أنهم يستطيعون أن يواجهوا بها الآيات البينات؛ كي يحولوا بينها وبين القلوب ولا دليل لهم على دعواهم، ولكنها من جملة الأكاذيب لتضليل العامة من الجماهير، أما الذين كانوا يقولون هذا القول ـ وهم من السادة ـ فقد كانوا على يقين أنه قرآن فوق مقدور البشر وفوق طاقة المتكلمين.. ولقد حدَّث بذلك بعض هؤلاء الكبراء بعضًا في أمر محمد ﷺ وأمر القرآن ثم دبَّروا بينهم تلك المكيدة؛ ليصدوا بها الجماهير عن القرآن الذي يغلب القلوب ويأسر النفوس!

وقد كشف القرآن أمرهم، وهو يقرر أنهم أميون لم يؤتوا من قبل كتابًا يقيسون به الكتب ويعرفون به الوحي؛ فيفتوا بأن ما جاءهم اليوم ليس كتابًا وليس وحيًا، وليس من عند الله، ولم يرسل إليهم من قبل رسولاً، فهم يهرفون إذن بما لا علم لهم به ويدعون ما ليس يعلمون: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤﴾ (سبأ).

خامسًا. المنهج الحق في البحث عن الحقائق هو الذي دعاهم إليه القرآن الكريم:

لقد رد القرآن عليهم بأن دعاهم إلى المنهج الصحيح في البحث عن الحقائق بكل حيادية وموضوعية بعيدًا عن الأهواء والأحكام المسبقة، وهي دعوة خالصة إلى منهج البحث عن الحق، ومعرفة الافتراء من الصدق، وتقدير الواقع الذي يواجهونه من غير زيف ولا دخل: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾ (سبأ).

إنها دعوة إلى القيام لله بعيدًا عن الهوى، بعيدًا عن المصلحة، بعيدًا عن ملابسات الأرض، بعيدًا عن الهواتف والدوافع التي تشتجر في القلب، فتبعد به عن الله، بعيدًا عن التأثر بالتيارات السائدة في البيئة، والمؤثرات الشائعة في الجماعة.

دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط، لا مع القضايا والدعاوى الرائجة، ولا مع العبارات المطاطة، التي تبعد القلب والعقل عن مواجهة الحقيقة في بساطتها.

دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ الصافي، بعيدًا عن الضجيج والخلط واللبس، والرؤية المضطربة والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة.

وهي في الوقت ذاته منهج في البحث عن الحقيقة، منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشي والمؤثرات وعلى مراقبة الله وتقواه.

وهي "واحدة" إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق، القيام لله.. لا لغرض ولا لهوى ولا لمصلحة ولا لنتيجة.. التجرد.. الخلوص.. ثم التفكر والتدبر

بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون.

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.. مثنى ليراجع أحدهما الآخر.. ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ، ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء.. وفرادى مع النفس وجها لوجه في تمحيص هادئ عميق.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.. فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة، وما يقول شيئًا يدعو إلى التظنن بعقله ورشده إن هو إلا القول المحكم[1] القوي المبين.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ كالهاتف المحذر من حريق في دار يوشك أن يلتهم من لا يفر من الحريق وهو تصوير ـ فوق أنه صادق ـ بارع موح مثير.

وبعد أن دعاهم إلى التفكير الهادئ البريء.. ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ يدعوهم إلى أن يفكروا ما مصلحته؟ وما بواعثه؟ ماذا يعود عليه؟ ويأمره أن يلمس منطقهم ويوقظ وجدانهم إلى هذه الحقيقة في صورة موحية: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧)﴾ (سبأ).

هو يعلم ويرى ولا يخفى عليه شيء، وهو على كل شيء شهيد، فيما أفعل وفيما أنوي وفيما أقول... ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (٤٨)﴾ (سبأ).

وهذا الذي جئتكم به هو الحق القوي الذي يقذف به الله ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، فهو يقذف به عن علم ويوجهه على علم ولا يخفى عليه هدف ولا تغيب عنه غاية ولا يقف للحق الذي يقذف به الله معترض.. ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩)﴾ (سبأ).

فمنذ جاء القرآن استقر منهج الحق واتضح ولم يعد الباطل إلا مماحكة أمام الحق الواضح الحاسم الجازم: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِيۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)﴾ (سبأ).

فلا عليكم إذن إن ضللتُ، فإنما أضلُّ على نفسي، وإن كنتُ مهتديًا فإن الله هو الذي هداني بوحيه، لا أملك لنفسي شيئًا إلا بإذن الله، وأنا تحت مشيئته أسير فضله. ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[2].

سادسًا. عاقبة المكذبين المفترين:

يحذرهم القرآن مغبة تكذيبهم بآيات الله وافترائهم على الله كذبا الذي منه ادعاؤهم أن القرآن سحر مبين وأن الرسول ساحر؛ فيذكرهم بمصارع الذين كذبوا من قبل وهم لم يؤتوا معشار ما أوتي أولئك الغابرون من علم، ومن قوة، ومن مال ومن تعمير، فلمّا كذبوا الرسل أخذهم النكير، أي الهجوم المدوي الشديد: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥)﴾ (سبأ).

ولقد كان النكير مهلكًا، وكانت قريش تعرف مصارع بعضهم في الجزيرة، فهذا التذكير يكفي وهذا

---

١. المُحكَم: ما لا يحتاج سامعه إلى تأويله لبيانه، أو ما أمكن معرفة المراد بظاهره، أو بدلالة تكشف عنه.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٢٩١٣: ٢٩١٧ بتصرف.

السؤال التهكمي ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ سؤال يلمس قلوب المخاطبين وهم يعرفون كيف كان هذا النكير.

وفي ختام الرد على تكذيب هؤلاء الظالمين للنبي ﷺ ورميه بأنه ساحر وأن ما جاء به سحر يعقب القرآن الكريم بمشهد من مشاهد يوم القيامة حيث لا ينفعهم تكذيبهم وافتراؤهم على القرآن الكريم والرسول الخاتم، بل سيكون ذلك حسرة وندامة عليهم يوم لا ينفع الندم وكان بإمكانهم الإيمان في الحياة الدنيا وكانت الفرصة متاحة لهم لكنهم كذبوا وقالوا: سحر وساحر... ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾ (سبأ).

فلا يستطيعون الإفلات ولا إفلات ﴿ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾.. ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ الآن بعد فوات الآوان.. ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾، وكيف يتناولون الإيمان من مكانهم هذا. ومكان الإيمان بعيد عنهم، فقد كان ذلك في الدنيا فضيعوه، وقد كفروا به من قبل، وقالوا سحر وساحر وإفك مفترى وأساطير الأولين.. فانتهى الأمر ولم يعد لهم أن يحاولوه اليوم.... ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من الإيمان في غير موعده.. ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾، فها هو ذا اليقين بعد الشك المريب[1].

١. المرجع السابق، ص٢٩١٦ بتصرف.

الخلاصة:

- السحر هو صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره وهو إما حيل وشعوذة، وإما خواص طبيعية علمية مجهولة للجماهير، وإما التأثير على قوى النفس وتوجيه الإرادة، وكلها أمور مكتسبة يتعلمها الراغب في ذلك.
- القرآن الكريم مجموعة من العلوم والمعارف في العقائد والآداب والتشريع والاجتماع، مرقية للعقول، مزكية للنفوس، مصلحة للناس، وليس حيل وشعوذة.
- إذا كان القرآن سحرًا - كما زعم هؤلاء - لتعلَّم هؤلاء صناعة السحر وأتوا بمثل القرآن أو ببعض سور منه أو حتى سورة منه، لكنهم عجزوا، فثبت أن ما جاء به محمد ﷺ وحي من السماء، وأنه نبي من عند الله.
- القرآن وحي من عند الله معجز في أسلوبه ونظمه ومعانيه وهدايته وتشريعه وإخباره بالغيب ومن ثم فلا حجة لمن يدَّعي أنه من عند محمد ﷺ أو أنه تعلمه من أحد البشر.

الشبهة الحادية والعشرون

دعوى أن القرآن أساطير الأولين وقصص السابقين(*)

مضمون الشبهة:

يزعم المشركون أن القرآن الذي جاء به محمد ﷺ ما

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (القلم/ ١٥، الأحقاف/ ١١، ١٧، النحل/ ٢٤، الفرقان/ ٥، الأنفال/ ٣١، المؤمنون/ ٨٣، الأنعام/ ٢٥).
الآيتان اللتان ورد فيهما الرد على الشبهة: (الفرقان/ ٦، الأحقاف/ ١٢).

هو إلا أساطير الأولين، ومن قصص السابقين الأوائل، استنسخها محمد ﷺ وهي تُملَى عليه أول النهار وآخره. قال ﷻ: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ ﴾ (الفرقان).

وجوه إبطال الشبهة:

١) هذا الادِّعاء مَنْشَؤُه الكفر والعناد.

٢) التذكير بنظير القرآن من الكتب السابقة.

٣) شهادة الشهود من بني إسرائيل والكتب السابقة بصحة القرآن وصدقه.

٤) تدبر آيات القرآن تؤكد خُلُوَّه من الإفك والاختلاف؛ لأنه من عند الله ﷻ.

٥) كِبْر المشركين وجدالهم بغير علم في آيات الله ﷻ يمنعهم من اتباع الحق.

التفصيل:

أولا. عناد المشركين وكفرهم هو مصدر مثل هذا الادّعاء:

يرمي المشركون والكفار القرآن بأنه أساطير اقتبسها محمد ﷺ؛ فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس، وهو كذب صُراح وافتراء محض وادعاء بحت، وقد تكررت منهم هذه المقالة في كثير من آيات القرآن، فهم يقولون: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ ﴾ (الفرقان)، وتارة يقولون: ﴿ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾ (الأحقاف)، وقد ردَّ الله عليهم افتراءاتهم هذه مبيِّنًا أن هذه الادعاءات ناشئة عن كفرهم وعنادهم، دل على ذلك قوله ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾ (الأحقاف)، وهذا من الغرور الواضح والجهل الناتج عن حقدهم على الإسلام والمسلمين.

ثانيًا. تصديق القرآن للكتب السابقة:

من إبطال القرآن لمزاعمهم تذكيره لهم بنظير القرآن ومثيله من كتب الله ﷻ، وهو مشهور عندهم، وهو التوراة، مع التنويه بالقرآن ومزيته، والنعي عليهم إذا حرموا أنفسهم الانتفاع بها، قال ﷻ: ﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ (الأحقاف)، وقد كان في التوراة نعت النبي ﷺ والإيمان به، فتركوا ذلك ولم يهتدوا به عنادًا وكبرًا، بل حرفوا هذه الكتب المقدسة ليُضِلوا بها ويُضلوا غيرهم من بني إسرائيل عن صحة القرآن الكريم.

ثالثًا. شهادة الشهود:

ومن ردود القرآن الكريم عليهم أيضًا ما أثبته من شهادة الكتب السابقة، وشهادة الشهود من بني إسرائيل بصدقه وصحته، قال ﷻ: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الأحقاف).

فأهل الكتاب يؤمنون بوقوع الرسالات ونزول الكتب على الرسل، وكان اليهود يخبرون المشركين ببعض الأخبار عن رسالة موسى عليه السلام وكتابه، وفي هذا إبطال لمزاعم المشركين بالتأكيد على أن الوحي سُنَّة إلهية سابقة معلومة أشهره كتاب موسى، وهو التوراة، وقد بلغتهم نبوءتها من اليهود؛ لذا قال ﷻ: ﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ ﴾.

رابعًا. القرآن تنزيل من الله تعالى الذي يعلم السر في السماوات والأرض:

إن القرآن نفسه يخالف ظاهره ما يرمونه به، فالقرآن ليس فيه شيء من الإفك، ولا يستطيع أحد منهم أن يأتي بكلام عربي مبين بليغ ومرتق إلى حد الإعجاز، ولذا لقن الله رسوله ﷺ الجواب لرد بهتان المفترين بأن الله أنزل القرآن على رسوله؛ لأنه يعلم كل سر في كل مكان، قال ﷻ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الفرقان: ٦). وفي ذلك إيقاظ لهم بأن يتدبروا في هذا الذي زعموه إفكًا أو أساطير الأولين؛ ليظهر لهم اشتماله على الحقائق الناصعة التي لا يحيط بها إلا الله الذي يعلم السر في السموات والأرض، فيوقنوا أن القرآن لا يكون إلا من إنزاله، وليعلموا براءة الرسول ﷺ من الاستعانة بمن زعموهم يعينونه.

خامسًا. كبر المشركين وجدالهم بغير علم يمنعهم عن اتباع الحق:

من ردود القرآن على هؤلاء الذين يطعنون في القرآن ويزعمون أنه أساطير الأولين: أنهم يحاولون في آيات الله بغير حجة ولا برهان، وإنما يدفعهم إلى ذلك كبر في نفوسهم عن الحق، وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر، قال ﷻ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾ (غافر)، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ (غافر: ٥٦).

إن الإنسان ليجادل في آيات الله ويكابر، وهي ظاهرة ناطقة معبرة للفطرة بلسان الفطرة، وهو يزعم لنفسه وللناس أنه إنما ينافس لأنه لم يقتنع، ويجادل لأنه غير مستيقن، والله العليم بعباده، السميع البصير المطلع على السرائر يقرر أنه الكبر، والكبر وحده هو الذي يحيك في الصدر وهو الذي يدعو صاحبه إلى الجدال فيما لا جدال فيه، وإلى الكبر والتطاول إلى ما هو أكبر من حقيقته، ومحاولة أخذ مكان ليس له، ولا تؤهله له حقيقته، وليست له حجة يجادل بها، ولا برهان يصدع به، إنما هو ذلك الكبر وحده[1].

فالحق واضح، ولكن الذين كفروا يجادلون بالباطل؛ ليغلبوا به الحق ويبطلوه، وهم حين يطلبون الخوارق ويستعجلون بالعذاب، إنما هم يستهزئون بالآيات والنذر ويسخرون، قال ﷻ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ (الكهف)، فهؤلاء الذين يستهزئون بآيات الله ونذره لا يرجى منهم أن يفقهوا هذا القرآن، ولا أن ينتفعوا به؛ لذلك جعل الله على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه، وجعل في آذانهم كالصمم فلا يستمعون إليه، وقدر عليهم الضلال - بسبب استهزائهم وإعراضهم - فلن يهتدوا إذن أبدًا فللهدى قلوب متفتحة مستعدة للتلقي[2].

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٣٠٨٩.
٢. المرجع السابق، ج٤، ص٢٢٧٦.

قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (الروم).

فالقرآن فيه من كل مثل، وفيه من كل نمط من أنماط الخطاب، وفيه من كل وسيلة لإيقاظ القلوب والعقول، وفيه من شتى اللمسات الموحية العميقة التأثير وهو يخاطب كل قلب وكل عقل في كل بيئة وكل محيط، وهو يخاطب النفس البشرية في كل حالاتها وفي كل طور من أطوارها، ولكنهم - بعد ذلك كله - يكذبون بكل آية، ولا يكتفون بالتكذيب، بل يتطاولون؛ لذلك يعقب على هذا الكفر والتطاول بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (الروم)[1].

الخلاصة:

- هذه المقالة ناشئة عن كفر الكافرين وعنادهم واستكبارهم عن الحق. بلا برهان ولا دليل يؤيدها.
- القرآن مصدق للكتب السابقة فهو مثلها ومؤكد لها ومهيمن عليها.
- شهادة الشهود من بني إسرائيل ببشاراته ﷺ في الكتب السابقة تدل على أنه من عند الله ﷻ.
- كيف يكون القرآن إفكًا وأساطير وقد أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض، فمن تدبره حقًّا لا يجد بدًّا من الاعتراف بأنه من عند الله ﷻ؟

---

١. المرجع السابق، ج٥، ص٢٧٧٨.

الشبهة الثانية والعشرون

دعوى أن ما جاء به محمد ﷺ ما هو إلا شعر وأضغاث أحلام وما هو إلا شاعر أو كاهن(*)

مضمون الشبهة:

ادعى المشركون أن ما جاء به النبي ﷺ ما هو إلا شعر وأضغاث أحلام أو كهانة، وأن الشياطين تنزلت بهذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ. قال ﷻ: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ (الأنبياء: ٥).

وجوه إبطال الشبهة:

١) حيرة المشركين وتخبطهم في أمر القرآن دليل على جهلهم وضلالهم.

٢) القرآن كلام الله، أوحاه إلى رسوله ﷺ.

٣) لو تقوَّل محمد ﷺ القرآن على الله ﷻ لعاجله بالعقوبة.

٤) الشياطين لا تستطيع النزول بالقرآن.

التفصيل:

أولا. ضلال المشركين وجهلهم:

هذه المقولة تدل على تعنّت المشركين وإلحادهم وتناقضهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه وضلالهم عنه، فتارة يجعلونه سحرًا، كما قال ﷻ: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (الأنبياء/ ٥، الصافات/ ٣٦، الحاقة/ ٤١، ٤٢، الطور/ ٣٠).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (النجم/ ٢: ٤، الحاقة/ ٤١: ٤٧، الشعراء/ ٢١٠: ٢١٢، الفرقان/ ٩، التكوير/ ١٩: ٢١، ٢٥، الإسراء/ ٤٨).

كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴿٧﴾ ﴾ (الأنعام)، وقال ﷻ: ﴿ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ﴿١٥﴾ ﴾ (الصافات)، وقال أيضًا: ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ﴿٧﴾ ﴾ (الأحقاف) وكذلك قوله تعالى: ﴿ فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ﴿٢٤﴾ ﴾ (المدثر).

وتارة يجعلونه شعرًا، كما قال ﷻ: ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴿٣٠﴾ ﴾ (الطور)، وقال تعالى: ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ﴾ (الأنبياء: ٥)، وقال أيضًا: ﴿ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴿٣٦﴾ ﴾ (الصافات).

وتارة يجعلونه أضغاث أحلام كما في آية سورة الأنبياء السابقة.

وتارة يجعلونه مُفترى، كما قال ﷻ: ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ (يونس: ٣٨)، وقال أيضًا: ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه ﴾ (الفرقان: ٤).

وهكذا يتخبطون في وصف القرآن مما يدل على ضلالهم وافترائهم فيضربون له الأمثال ولا يستطيعون سبيلًا؛ ولذا قال ﷻ في الرد عليهم مبينًا جهلهم وتخبطهم وضلالهم: ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴿٤٨﴾ ﴾ (الإسراء).

ثانيًا. القرآن كلام الله أوحاه إلى رسوله ﷺ:

من ردِّ القرآن عليهم أن بيَّن أن هذا القرآن هو تنزيل رب العالمين، يبلِّغه رسول كريم، وليس بقول شيطان رجيم ولا شاعر ولا كاهن كما يدعون، وإنما هو من وحي الله وكلامه، يبلغه جبريل ﵇ لمحمد النبي ﷺ الذي يبلغ عن الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ﴿٤١﴾ ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ﴿٤٢﴾ تنزيل من رب العالمين ﴿٤٣﴾ ﴾ (الحاقة).

ثالثًا. لو تقوَّل النبي ﷺ القرآن على الله ﷻ لعاجله بالعقوبة:

يقول الله ﷻ بعد الآيات السابقة: ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ﴿٤٤﴾ لأخذنا منه باليمين ﴿٤٥﴾ ثم لقطعنا منه الوتين ﴿٤٦﴾ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴿٤٧﴾ ﴾ (الحاقة).

والمعنى: لو تقوّل علينا محمد ﷺ كما يزعمون مفتريًا علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئًا من عنده فنسبه إلينا - وليس كذلك - لعاجلناه بالعقوبة، وما يقْدِر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئًا من ذلك، فعدم إهلاكه ﷺ دال على أنه لم يتقوّل على الله شيئًا، وبهذا يتبين أنه لو افتراه على الله وتقوّله عليه لما أقرّه على ذلك، فدل على أنه صادق بارٌّ راشد؛ لأن الله ﷻ مقرر له ما يبلغه عنه، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلائل القاطعات، فما أتى به محمد ليس شعرًا ولا سحرًا، ولا كهانة ولا أضغاث أحلام، وإنما هو تنزيل من رب العالمين.

رابعًا. الشياطين لا تستطيع النزول بالقرآن:

وأما فِرْيتهم التي زعموا من أن الشياطين قد تنزّلت بهذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ فما أوهاها من فرية، وما أسخفه من افتراء، وقد ذكر ﷻ أنه يمتنع على الشياطين ذلك من عدة وجوه:

١. أنه ما ينبغي لهم، أي: ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد،

وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو نور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة؛ ولذا قال ﷻ: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ ﴾ (الشعراء: ٢١١).

٢. أنه لو انبغى لهم ذلك ما استطاعوه، قال ﷻ: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (الحشر: ٢١). ولهذا قال ﷻ: ﴿ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴾ (الشعراء: ٢١١).

٣. أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله؛ لأن السماء مُلئت حَرَسًا شديدًا وشُهُبًا في مدة إنزال القرآن على رسول الله ﷺ فلم يَخْلُص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشتبه الأمر ويلتبس، وهذا من رحمة الله بعباده وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ورسوله، ولهذا قال ﷻ: ﴿ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ (الشعراء)، وقال ﷻ مخبرًا عن الجن: ﴿ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ﴿٩﴾ ﴾ (الجن).

وهذا خير ردٍّ على قولهم في النبي ﷺ: إنه كاهن، وزعمهم أن الذي يأتيه شيطان، وكلام الكهان في مزاعمهم من إلقاء الجن والشياطين إليهم، وإنما هو خواطر نفوسهم ينسبونها إلى شياطينهم المزعومة، فنفى القرآن أن يكون من ذلك القبيل، فالكُهّان لا يجيش في نفوسهم كلام مثل القرآن، وما كان لشياطين الكهان أن يفيضوا على نفوس أوليائهم مثل هذا القرآن، فالكهانة هي كذب الكهان وتمويههم، وأخبار الكهان كلها أقاصيص وسّعها الناقلون.

الخلاصة:

- هذه المقالة تدل على ضلال المشركين وصلفهم وكبرهم عن اتباع الحق؛ فالقرآن كلام الله أوحاه إلى نبيه ﷺ وليس هو بالشعر ولا بالكهانة ولم يُعرف عن نبيهم مثل ذلك قبل بعثته.
- لو تقوَّل النبي ﷺ القرآن الكريم على الله تعالى لعاجله بالعقوبة ولا يستطيع أحد أن يرفعها عنه، وعدم إهلاكه دليل على أنه ﷺ لم يتقوّله ودليل على إقرار الله ﷻ له.
- لا تستطيع الشياطين النزول بالقرآن؛ لأن ما جاء في القرآن لا يتناسب مع طبيعتهم التي تتسم بالفساد والشرور والقرآن نور وهدى ورحمة، كما أنهم عُزلوا عن التسمع في السماء أثناء نزول القرآن.

الشبهة الثالثة والعشرون

دعوى أن القرآن افتراه محمدٌ ﷺ من عند نفسه(*)

مضمون الشبهة:

ادَّعى المشركون أن القرآن من تأليف محمد ﷺ، افتراه ونسبه إلى الله ﷻ وما هو من عند الله، قال تعالى:

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (هود/ ١٣، يونس/ ١٥، ٣٨، سبأ/ ٤٣، الفرقان/ ٤، الطور/ ٣٣، المدثر/ ٢٥، الأنبياء/ ٥، السجدة/ ٣).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ٢٣، هود/ ١٣، ١٤، القصص/ ٤٩، الإسراء/ ٨٨، يونس/ ١٥، ١٦، ٣٧، ٣٨، الحاقة/ ٤٣: ٤٧).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ﴾ (الفرقان)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ (سبأ).

وجوه إبطال الشبهة:

١) أمِّيَّة رسول الله ﷺ - قبل أن يُنزَّل عليه القرآن وبعد - تدلل على أن القرآن وحي من عند الله ﷻ.

٢) المشركون لا يستندون إلى برهان في دعواهم، إنما يتبعون الظن.

٣) عجز المشركين أمام تحدِّي القرآن لهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة من مثله - أثبت بطلان دعواهم.

٤) لو تقوَّل محمد ﷺ القرآن من عنده لعاجله الله بالعقوبة.

التفصيل:

أولا. أميَّة النبي ﷺ - قبل نزول القرآن وبعد نزوله - تدلل على أنه وحي من الله:

لقد أفحم القرآن الكريم المشركين وألجمهم بالحجة الناطقة بين أيديهم؛ إذ رد عليهم دعواهم أن القرآن من تأليف محمد ﷺ ردًّا ألزمهم فيه الحجة، وقدم لهم البرهان الساطع على أن القرآن من عند الله تعالى وحده، وأن محمدًا ﷺ عاجز - كغيره من البشر - عن الإتيان بمثله في هدايته وفي علمه ولغته، وأقام الحجة البالغة عليهم في كون القرآن وحيًا من عند الله، وذلك في معرض تفنيد ما اقترحه المشركون على الرسول ﷺ وما طالبوه به من الإتيان بقرآن آخر، أو تبديل هذا القرآن الذي معه.

فقد حكى القرآن عنهم بعض أساليب تكذيبهم للنبي ﷺ أن يكون القرآن موحى إليه من الله تعالى، فهم يتوهمون أن القرآن وضعه النبي ﷺ من تلقاء نفسه؛ ولذلك جعلوا من تكذيبهم أن يقولوا له: ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ (يونس:١٥)؛ إطماعًا له بأن يؤمنوا به مغايرًا أو مبدلًا إذا وافق هواهم.

ومعنى ﴿ غَيْرِ هَٰذَآ ﴾ مخالفه، والمراد: المخالفة للقرآن كله بالإعراض عنه وابتداء كتاب آخر بأساليب أخرى، كمثل كتب الفرس وملاحمهم.

والمعنى أن يأتي بكلام غير الذي جاء به من قبل، لا يكون فيه ما يكرهونه ويغيظهم، والمراد بالتبديل: أن يعمد إلى القرآن الموجود فيغيِّر الآيات المشتملة على عبارات ذم المشركين بمدحهم، وعبارات ذم أصنامهم بالثناء عليها، وعبارات البعث والنشر بضدها، وعبارات الوعيد لهم بعبارات بشارة[1].

وعن مجاهد تسمية أناس ممن قال هذه المقالة وهم خمسة: عبد الله بن أمية، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس، والعاص ابن عامر، قالوا للنبي ﷺ: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة الأصنام، واللات والعزى ومناة وهبل، وليس فيه عيبها[2].

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١١، ص١١٦.

٢. المرجع السابق، ص١١٨.

قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) ﴾ (يونس).

ويظهر في هذه الآيات أن نكتة حكاية هذا الاقتراح السخيف بأسلوب الإخبار عن قوم غائبين إفادة أمرين:

أحدهما: إظهار الإعراض عنهم كأنهم غير حاضرين لأنهم لا يستحقون الخطاب به من الله تعالى.

ثانيهما: تلقينه ﷺ الجواب عنه بما ترى من العبارة البليغة التأثير، والمعنى: وإذا تتلى على أولئك القوم آياتنا المنزلة حالة كونها بارزة في أعلى معارض البيان، وأظهر مقدمات الوحي والبرهان: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾، وهم من تقدم ذكرهم: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا ﴾، والأظهر في سبب قولهم هذا أنه ﷺ بلَّغهم أن هذا القرآن من عند الله، أوحاه إليه لينذرهم به وتحداهم بالإتيان بمثله أو بسورة من مثله فعجزوا، وكانوا في ريب من كونه وحيًا من الله لبشر مثلهم، وفي ريب من كونه من عند محمد ﷺ وهو لم يكن يفوقهم في الفصاحة والبلاغة ولا في شيء من العلم، بل كانوا يرونه دون كبار فصحائهم من بلغاء الشعراء ومصاقع الخطباء، فأرادوا أن يمتحنوه بمطالبته بالإتيان بقرآن غيره في جملة ما بلغهم من سوره في أسلوبها ونظمها ودعوتها، أو بالتصرف فيه بالتغيير والتبديل لما يكرهونه منه كتحقير آلهتهم وتكفير آبائهم؛ حتى إذا فعل هذا أو ذاك كانت دعواه أنه كلام الله أوحاه إليه منقوضة من أساسها، وكان قصارى أمره أنه امتاز عليهم بهذا النوع من البيان بقوة نفسية فيه كانت خفية عنهم، كأسباب السحر لا بوحي الله إليه، وهو ما يزعمه بعض الإفرنج ومقلدتهم في عصرنا[1].

ولما كان لاقتراحهم معنى صريح، وهو الإتيان بقرآن آخر أو تبديل آياته، ومعنًى التزامي كنائي وهو: أنه غير منزل من عند الله، وأن الذي جاء به غير مرسل من الله، كان الجواب عن قولهم جوابين:

أحدهما: ما لقَّنه الله بقوله: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ (يونس: ١٥)، وهو جواب عن صريح اقتراحهم.

وثانيهما: ما لقَّنه بقوله: ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (يونس: ١٦)، وهو جواب عن لازم كلامهم.

وقد جاء الجواب عن اقتراحهم كلامًا جامعًا قضاءً لحق الإيجاز البديع، وتعويلًا على أن السؤال يبيِّن المراد من الجواب، فأحسوا بامتناع تبديل القرآن من جهة الرسول ﷺ وهذا جواب كاف؛ لأن التبديل يشمل الإتيان بغيره وتبديل بعض تراكيبه، على أنه إذا كان التبديل - الذي هو تغيير كلمات منه وأغراض - ممتنعًا، كان إبطال جميعه والإتيان بغيره أجدر بالامتناع.

وقد جاء الجواب بأبلغ صيغ النفي: ﴿مَا يَكُونُ لِي

---

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١١، ص٣١٩.

أَنْ أُبَدِّلَهُۥ ﴾، أي: ما يكون التبديل مِلكًا بيدي.

ومعنى ﴿مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ﴾، أي: من جهة نفسي، وجملة: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ تعليلٌ لجملة ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ ﴾، أي: ما أتبع إلا الوحي وليس لي تصرف بتغيير، واتباع الوحي: تبليغ الحاصل به، وهو الموصى به.

وجملة: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى ﴾ في موضع تعليل لجملة: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾، أي: إن عصيت ربي بالإتيان بقرآن آخر غير هذا، بمعنى: إبطال هذا القرآن وتعويضه بغيره، أو تبديله، بمعنى: تغيير معاني وحقائق ما اشتمل عليه ممتنع، ولذلك لم يُلقن الرسول ﷺ أن يقول هنا: إلا ما شاء الله أو نحو ذلك[1].

والمقصود: أي قل لهم أيها الرسول: إنه ليس من شأني ولا مما تتيحه لي رسالتي أن أبدله من تلقاء نفسي، أي بمحض رأيي واجتهادي، فما أتبع فيه إلا تبليغ ما يوحى إليَّ والاهتداء به، فإن بدّل الله تعالى منه شيئًا بنسخه بلّغتُه عنه، وما عليّ إلا البلاغ المحض، إني أخاف إن عصيت ربي أي عصيان كان، عذاب يوم عظيم الشأن وهو يوم القيامة، فكيف إذا عصيته بتبديل كلامه اتباعًا لاهوائكم؟! وهو جواب عن الشق الثاني من اقتراحهم[2].

ثم لقنه الجواب عن الشق الأول مفصولًا لأهميته بقوله: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾، أي: لو شاء الله تعالى ألا أتلو عليكم هذا القرآن ما تلوته عليكم، فإنما أتلوه بأمره؛ تنفيذًا لمشيئته، ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾، أي: ولو شاء الله أن لا يدريكم ويعلمكم به بإرسالي إليكم لما أرسلني ولما أدراكم به، ولكنه شاء أن يَمُنَّ عليكم بهذا العلم الأعلى لتدروه؛ فتهتدوا به، كما قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ (النساء: ١٦٦)، وقال: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (الأعراف)، فهو قد أنزله عالمًا بأن فيه كل ما يحتاجون إليه من الهداية وأسباب السعادة، وأمرني بتبليغه إليكم ولم يكن لي علم بشيء من ذلك قبله، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾، أي: فقد مكثت فيما بين ظهرانيكم عمرًا طويلًا من قبله ـ وهو أربعون سنة ـ لم أتل عليكم فيه سورة من مثله، ولا آية تشبه آياته؛ لا في العلم والعرفان، ولا في البلاغة وروعة البيان ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن من عاش أربعين سنة لم يقرأ فيها كتابًا، ولم يُلقَّن من أحد علمًا، ولم يتقلد دينًا، ولم يعرف تشريعًا، ولم يمارس البيان في أفانين الكلام من شعر ونثر، ولا خطابة وفخر ولا علم وحكم ـ لا يمكنه أن يأتي من تلقاء نفسه بمثل هذا القرآن المعجز لكم؛ بل هو يعجز جميع الخلق حتى الدارسين لكتب الأديان والحكمة والتاريخ أن يأتوا بمثله، فكيف تقترحون عليَّ إذًا أن آتي بقرآن غيره[3]؟

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١١، ص١١٧: ١١٩ بتصرف.

٢. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١١، ص٣١٩.

٣. المرجع السابق، ص٣٢٠ بتصرف.

وهذه حجة عقلية شاهدة على بطلان شبهتهم الداحضة، التي بنوا عليها مطالبة محمد ﷺ بقرآن غير هذا القرآن، وقد ظهر لعلماء هذا العصر ما أيد دلالتها العلمية، فإنهم بما حذقوا من علم النفس وأخلاق البشر وطباعهم، وما عرفوا من درجات استعدادهم العلمي والعقلي باستقراء تاريخهم، قد حققوا أن استعداد الإنسان العقلي للعلوم، واستعداده النفسي للنهوض بالأعمال القومية أو العالمية يظهر كل من الاستعدادين فيه من أوائل نشأته، ويكون في منتهى القوة والظهور بالفعل عند استكمال نموه في العقدين الثاني والثالث من عمره، فإذا بلغ الخامسة والثلاثين ولم يظهر نبوغه في علم من العلوم التي سبق اشتغاله بها، ولا النهوض بعمل من الأعمال العامة التي كان استشرف لها، فإن من المحال أن يظهر منه شيء من هذا أو ذاك من بعدها جديدًا، ويكون فيه ناجحًا نابغًا.

وقد جاء القرآن مشتملًا على تمحيص الحقائق في جميع العلوم والمعارف الدينية والتشريعية التي يتوقف عليها صلاح جميع البشر، وأن الرسول ﷺ الذي أنزله الله عليه قام بتنفيذ هذا الإصلاح بما غيَّر وجه الأرض، وقلب أحوال أكثر أممها إلى خير منها، وأن ذلك كله بعد أربعين سنة قضاها في الأمية، فهذا العلم الجديد الذي أيَّد حجة القرآن العقلية في هذا العصر له في علوم القرآن نظائر[1].

وفي هذا الجواب استدلال على أنه مرسل من الله تعالى، وأنه لم يختلق القرآن من عنده بدليل يتضمن عدة أدلة، وقد نظم فيه الدليل بانتفاء نقيض المطلوب على إثبات المطلوب، إذ قوله: ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ﴾، تقديره: لو شاء الله ألَّا أتلوه عليكم ما تلوته، فإن فعل المشيئة يكثر حذف مفعوله في جملة الشرط لدلالة الجزاء عليه، وإنما بني الاستدلال على عدم مشيئة الله نفي تلاوته؛ لأن ذلك مدَّعي الكفار لزعمهم أنه ليس من عند الله، فكان الاستدلال إبطالًا لدعواهم ابتداءً، وإثباتًا لدعواه مآلًا، وهذا الجمع بين الأمرين من بديع الاستدلال، أي: لو شاء الله ألا آتيكم بهذا القرآن لما أرسلني به، ولبقيت على الحالة التي كنت عليها من أول عمري.

والدليل الثاني مطوي: هو مقتضى جواب (لو) فإن جواب (لو) يقتضي استدراكًا مطردًا في المعنى بأن يثبت نقيض الجواب، فقد يستغنى عن ذكره وقد يذكر... فتقديره هنا: لو شاء الله ما تلوته لكنني تلوته عليكم، وتلاوته هي دليل الرسالة؛ لأن تلاوته تتضمن إعجازه علميًّا؛ إذ جاء به من لم يكن من أهل العلم والحكمة، وإعجازًا بلاغيًّا؛ إذ جاء كلامًا أعجز أهل اللغة كلهم مع تضافرهم في بلاغتهم وتفاوت مراتبهم، وليس من شأن أحد من الخلق أن يكون فائقًا على جميعهم، ولا من شأن كلامه أن لا يستطيع مثله أحد منهم.

ولذلك فُرِّعت على الاستدلال جملةُ: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (يونس)، تذكيرًا لهم بقديم حاله المعروفة بينهم وهي حال الأمية، أي: قد كنت بين ظهرانيكم مدة طويلة، وهي أربعون سنة تشاهدون أطوار نشأتي فلا ترون فيها حالة تشبه حالة العظمة والكمال المتناهي الذي صار إليه لما أوحى الله إليه بالرسالة، ولا بلاغة قول واشتهارًا بمقاولة أهل

1. المرجع السابق، ص٣٢١، ٣٢٢ بتصرف.

البلاغة والخطابة والشعر تشبه بلاغة القول الذي نطق به عن وحي القرآن... فدل الحال الأخير على أنه رباني محض، وإن هذا الكلام موحى إليه من عند الله ليس له بذاته عمل فيه... فهذا بيان انتظام هذا الدليل من هذه الآية.

وقد آل الدليل بهذا الوجه إلى الاستدلال عليهم بمعجزة القرآن والأمية... ولكلمة ﴿تَلَوْتُهُۥ﴾ هنا من الواقع ما ليس لغيرها لأنها تتضمن تاليًا كلامًا، ومتلوًّا، وباعثًا بذلك المتلو.

فبالأول تشير إلى معجزة المقدرة على تلاوة الكتاب مع تحقق الأمية؛ لأن أسلوب الكتب الدينية غير الأسلوب الذي عرفه العرب من شعرائهم وخطبائهم.

وبالثاني تشير إلى القرآن الذي هو معجزة دالة على صدق الآتي به؛ لما فيه من الحقائق والإرشاد الديني، الذي هو من شأن أنبياء الأديان وعلمائها، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (العنكبوت).

وبالثالث تشير إلى أنه كلام من عند الله تعالى، فانتظمت بهذا الاستدلال دلالة صدق النبي ﷺ في رسالته عن الله ﷻ.

فلما أقام الحجة عليهم بأن ذلك من عند الله، وأنه ما يكون له أن يأتي به من تلقاء نفسه فُرع عليه: أن المفتري على الله كذبًا، والمكذبين بآياته كلاهما أظلم الناس لا أحد أظلم منهما، وذلك من مجاراة الخصم ليعثر، يخيل إليه من الكلام أنه إنصاف بينهما، فإذا حصحص المعنى وُجد انصبابه على الخصم وحده، قال ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ (يونس)[1].

وهذه تتمة الرد على اقتراح المشركين؛ فقد ردَّ القرآن عليهم:

أولًا: ببيان حقيقة الأمر الواقع، وهو أن تبديل القرآن ليس من شأن الرسول ﷺ في نفسه، ولا مما أذن الله له به، بل يعاقبه عليه أشد العقاب في الآخرة إن فرض وقوعه؛ لأنه كلامه الخاص به.

وثانيًا: بإقامة الحجة العقلية على أنه كلام الله وحده وأنه ليس في استطاعته الإتيان بمثله، ثم عزَّز هاتين الحجتين بثالثة أدبية، وهي: أن شر أنواع الظلم في البشر شيئان:

أحدهما: افتراء الكذب على الله، وهو ما اقترحوه عليه بجحودهم.

والآخر: التكذيب بآيات الله، وهو ما اجترحوه بإجرامهم، وقد بيَّن هذا بصيغة الاستفهام الإنكاري، أي: لا أحد أظلم عند الله وأجدر بغضبه وعقابه من هذين الفريقين من الظالمين، وإني أنعي عليكم الثاني منهما فكيف أرضى لنفسي بالأول وهو شر منه؟ وأي فائدة لي من هذا الإجرام العظيم وأنا أريد الإصلاح وأدعو إليه، وأحتمل المشاق في سبيله، وأعلم أنه ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: لا يفوزون بمطلوبهم الذي يتوسلون إليه بالكذب والزور[2].

ثم يقدِّم القرآن دليلًا ظاهرًا ومحسوسًا لهؤلاء

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١١، ص١٢٠: ١٢٣ بتصرف.

٢. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١١، ص٣٢٢، ٣٢٣.

المشركين وهو أن رسول الله ﷺ قد عاش بينهم أميًّا، لا يقرأ ولا يكتب ولا يخطّ سطرًا واحدًا بيده، فكيف يكون قد تعلم هذا من كتب قبله؟ وهذا من أوضح الأدلة على أن القرآن من عند الله، قال ﷻ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (العنكبوت).

والمعنى: لقد لبثت يا محمد في قومك من قبل أن ينزل عليك هذا القرآن عمرًا لا تقرأ كتابًا ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمّي لا تقرأ ولا تكتب، وهذه صفة النبي في الكتب المتقدمة، كما قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائمًا إلى يوم الدين لا يُحسن الكتابة ولا يخطّ سطرًا ولا حرفًا بيدٍ، بل كان له كُتّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم.

وهكذا يتتبع القرآن الكريم مواضع شبهاتهم حتى الساذج الطفولي منها، فرسول الله ﷺ عاش بينهم مدة طويلة من حياته، لا يقرأ ولا يكتب، ثم جاءهم بهذا الكتاب العجيب الذي يُعجز القارئين الكاتبين، ولربما كانت لهم شبهة لو أنه كان من قبل قارئًا كاتبًا، فما شبهتهم وهذا ماضيه بينهم؟

وحتى على فرض أن رسول الله ﷺ كان قارئًا كاتبًا، ما جاز لهم أن يرتابوا، فهذا القرآن يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر، فهو أكبر جدًّا من طاقة البشر ومعرفة البشر، وآفاق البشر، والحق الذي فيه ذو طبيعة مطلقة كالحق الذي في هذا الكون، وكل وقفة أمام نصوصه توحي للقلب بأن وراءه قوة، وبأن في عباراته سلطانًا، لا يصدران عن بشر[1].

وهذا استدلال بصفة الأميّة المعروف بها رسول الله ﷺ، ودلالتها على أنه موحى إليه من الله أعظم دلالة، وقد ورد الاستدلال بها في القرآن الكريم في مواضع كقوله تعالى: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ (الشورى: ٥٢)، وقوله تعالى: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ (يونس: ١٦)[2]. وقوله ﷻ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (العنكبوت).

فهو دلائل واضحة في صدور الذين وهبهم الله العلم، لا لبس فيها ولا غموض، ولا شبهة فيها ولا ارتياب، دلائل يجدونها بينة في صدورهم، تطمئن إليها قلوبهم فلا تطلب عليها دليلًا وهي الدليل، والعلم الذي يستحق هذا الاسم، هو الذي تجده الصدور في قرارتها، مستقرًا فيها، منبعثا منها، يكشف لها الطريق ويصلها بالخيط الواصل هناك ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الذين لا يعدلون في تقرير الحقائق وتقويم الأمور، والذين يتجاوزون الحق والصراط المستقيم[3] ®.

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٢٧٤٦.
٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٠، ج٢١، ص١٠.
٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٢٧٤٦.
® في "أمية النبي ﷺ" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

ثانيًا. المشركون لا يستندون إلى برهان في دعواهم:

وقد بين القرآن أن هؤلاء المشركين لا يعتمدون على دليل في دعواهم؛ بل الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)﴾ (يونس).

فبعدما أقام البرهان على أن القرآن من عند الله وأن محمدًا ﷺ - عاجز كغيره - عن الإتيان بمثله في هدايته وفي علمه ولغته... بيّن حالهم في اتباع أكثرهم لأدنى الظن وأضعفه في عقائدهم وتكذيبهم، ثم عاد إلى تفنيد رأيهم الأفين في الطعن على القرآن بمقتضى الظن الضعيف من الأكثرين، والجحود العنادي من الأقلين كالزعماء والمستكبرين[(١)].

وذلك بعدما انتهى من إبطال تعجب المشركين من الإيحاء بالقرآن إلى النبي ﷺ، وتبيين عدم اهتدائهم إلى آياته البينات الدالة على أنه من عند الله، وكيف لم ينظروا في أحوال الرسول ﷺ الدالة على أن ما جاء به وحي من الله، وكيف سألوه مع ذلك أن يأتي بقرآن غيره أو يبدله بما يوافق أهواءهم. لا جرم عاد الكلام إلى قولهم في القرآن بإبطال رأيهم الذي هو من الظن الباطل أيضًا بقياسهم أحوال النبوة والوحي بمقياس عاداتهم... فقارعتهم الآية بذكر صفات القرآن في ذاته الدالة على أنه حق من الله وتحدتهم بالإعجاز عن الإتيان بمثله.

فبين ﷻ أنهم يتبعون الظن في شئون النبوة وكذا الشئون الإلهية، قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (يونس: ٣٧)، وهذا الكلام مسوق للتحدي بإعجاز القرآن، وهي مفيدة المبالغة في نفي أن يكون مفترى من غير الله، أي منسوبًا إلى الله كذبًا وهو آتٍ من غيره، أي وجوده منافٍ لافترائه، فدلالة ذاته كافية في أنه غير مفترى، أي لو تأمل المتأمل الفطن تأملًا صادقًا في سور القرآن لعلم أنه من عند الله، وأنه لا يجوز أن يكون من وضع البشر[(٢)].

أي: وما كان هذا القرآن العظيم في علو شأنه المجلي له في أسلوبه ونظمه وعلومه العالية، وحكمته السامية، وتشريعه العادل، وآدابه المثلى، وتمحيصه للحقائق الإلهية والاجتماعية، وإنبائه بالغيوب الماضية والآتية، وجعل المقصد من إصلاحه اتباع الهدى والحق، واجتناب الضلال باتباع الهوى، والاعتماد فيه على العلم الصحيح، ما كان وما صح ولا يعقل أن يفتريه أحد على الله من دونه ويسنده إليه؛ إذ لا يقدر غيره ﷻ عليه، فإن فرض أن بشرًا يستطيع الإتيان بمثله فلن يكون إلا بشرًا أرقى وأكمل من جميع الحكماء والأنبياء، وكذا الملائكة، ومثله لن يفتري على الله، بل قال أشد الكفار عنادًا وعداوة لمحمد ﷺ وهو أبو جهل

---

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١١، ص٣٦٧.

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١١، ص١٦٧، ١٦٨ بتصرف.

- لعنه الله: إن محمدًا لم يكذب على بشر قط أفيكذب على الله تعالى؟

﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (يونس: ٣٧)؛ أي: ولكن كان تصديق الذي سبقه من الوحي لرسل الله تعالى بالإجمال؛ كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى - صلوات الله وسلامه عليهم - بدعوته إلى أصول دين الإسلام التي دعوا إليها، من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، بعد أن نسي بعض ذلك بقايا أتباعهم وضلوا عن بعض، وشوهوه بالتقاليد المبتدعة مما لم يكن يعلمه محمد الأمي ﷺ، أو تصديق ذلك بكونه جاء وفاقًا لما دعا إليه إبراهيم لأهل حرم الله، ولما بشر به موسى وعيسى والنبيون، ويجوز الجمع بين المعنيين.

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (يونس: ٣٧) الإلهي، أي: جنسه؛ وهو ما شرعه الله ﷻ ليكتب ويهتدي به جميع البشر من العقائد والشرائع والعبر والمواعظ وشئون الاجتماع وسنن الله في خلقه: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (يونس: ٣٧). ليس فيه مثار للشك، ولا موضع للريب؛ لأنه الحق والهدى ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (يونس: ٣٧) من وحيه لا يقدر عليه غيره ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (النساء)[1].

وبعد أن يتحداهم القرآن أن يأتوا بسورة من مثله في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يونس)، يضرب السياق عن المضي في الجدل بعد هذا التحدي، ليقرر أنهم لا يتبعون إلا الظن، فهم يحكمون على ما لم يعلموه، والحكم يجب أن يسبقه العلم، وألا يعتمد على مجرد الهوى أو مجرد الظن، والذي حكموا عليه هنا هو الوحي بالقرآن وصدق ما فيه من الوعد والوعيد، لقد كذبوا بهذا وليس لديهم من علم يقوم عليه التكذيب، ولما يأتهم تأويله الواقعي بوقوعه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ (يونس: ٣٩).

شأنهم في هذا التكذيب شأن المكذبين قبلهم، الظالمين المشركين بربهم، فليتأمل المتأمل كيف كان مصير الأولين ليعرف حقيقة مصير الآخرين: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (يونس)[2].

والمعنى: أنهم سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه، وإنما يكون مثل هذا التكذيب عن مكابرة وعداوة لا عن اعتقاد كونه مكذوبًا، ثم إن عدم الإحاطة بعلمه متفاوت، فمنه عدم بحث وهو حال الدهماء، ومنه عدم في الجملة، وهو ما يكون بضرب من الشبهة والتردد، أو يكون مع رجحان صدقه ولكن لا يحيط بما يؤدي إليه التكذيب من شديد العقاب، ونظير هذه الآية في سورة النمل قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (النمل).

وجملة: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ معطوفة على الصلة، أي: كذبوا بما لما يأتهم تأويله، وهذا ارتقاء في وصفهم بقلة الأناة والتثبت، أي: لو انتظروا حتى يأتيهم تأويل

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١١، ص٢٣٩٨ وما بعدها.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٣، ص١٧٩٤.

القرآن، أي ما يحتاج منه إلى التأويل بل هم صمموا على التكذيب قبل ظهور التأويل.

والتأويل المقصود في هذه الآية يحتمل أن يكون تفسير ما خفي عليهم من القرآن، أو ظهور ما أنذرهم به من العذاب، ولعل كليهما مراد، أي: لما يأتهم تأويل ما يدَّعون أنهم لم يفهموه من معاني القرآن لعدم اعتيادهم بمعرفة أمثالها؛ مثل حكمة التشريع، ووقوع البعث، وتفضيل ضعفاء المؤمنين على صناديد الكافرين، وتنزيل القرآن الكريم منجمًا، ونحو ذلك، فهم كانوا يعتبرون الأمور بما ألفوه في المحسوسات، وكانوا يقيسون الغائب على الشاهد، فكذبوا بذلك وأمثاله قبل أن يأتيهم تأويله، ولو آمنوا ولازموا النبي لعلموها واحدة بعد واحدة، وأيضًا لما يأتهم تأويل ما حسبوا عدم التعجيل به دليلًا على الكذب، كما قالوا: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الأنفال)، ظنًّا منهم أنهم إن استغضبوا الله عجَّل لهم بالعذاب، فظنوا تأخر حصول ذلك دليلًا على أن القرآن الكريم ليس حقًّا من عنده، وكذلك كانوا يسألون آيات من الخوارق؛ كقولهم: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾ (الإسراء).

ولو سلَّموا ولازموا النبي ﷺ لعلموا أن الله لا يعبأ باقتراح الضلال، والمقصود بتشبيه تكذيبهم بتكذيب الذين من قبلهم من الأمم المكذبين رسلهم في قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (الأنعام: ١٤٨)، أمور هي:

- أن هذه عادة المعاندين؛ ليعلم المشركون أنهم مماثلون للأمم التي كذبت فيعتبروا بذلك.
- التعريض بالنذارة لهم بحلول العذاب بهم، كما حل بأولئك الأمم التي عرف السامعون مصيرها وشاهدوا ديارها.
- تسلية النبي ﷺ بأنه ما لقي من قومه إلا مثل ما لقي الرسل السابقون من أقوامهم؛ ولذلك فرع على جملة التشبيه خطاب النبي ﷺ بقوله: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (يونس)؛ أي: عاقبة الأمم التي ظلمت بتكذيب الرسل كما كذَّب هؤلاء[1].

ثالثًا. عجزهم أمام تحدي القرآن:

لقد تحدى القرآن الكريم هؤلاء المشركين المفترين في مزاعمهم وادعاءاتهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور من مثله مفتريات، أو بسورة منه، قال ﷻ: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء).

وقال ﷻ: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (هود)، وقال أيضًا: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يونس).

فإن عجزتم عن الإتيان بسورة من مثله تساوي سورة في هدايتها، وتضارعها في بلاغتها، وأنتم فرسان البلاغة، وعصركم أرقى عصور الفصاحة، وقد اشتهر كثير منكم بالسبق في هذا الميدان، ولم يكن محمد ﷺ من

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١١، ص١٧٢، ١٧٣ بتصرف.

يسابقكم من قبل في هذا الرهان؛ لأنه لم يؤت هذا الاستعداد بنفسه ولم يتمرّن عليه أو يتكلفه لمباراة أهله، وقد كان أميًّا، فعند ظهور عجزكم عن ذلك فاعلموا أن ما جاء به بعد أربعين سنة فأعجزكم بعد سبقكم لم يكن إلا بوحي إلهي وإمداد سماوي، لم يسم عقله إلى علمه، ولا بيانه إلى أسلوبه ونظمه.

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ (يونس: ٣٨) انتقال من بيان كونه أجلّ وأعلى من أن يفتري لعجز الخلق عن الإتيان بمثله، إلى حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعاندين أن محمدًا افتراه، والاستفهام للإنكار والتعجب أو التمهيد به إلى الرد عليه بتحدي التعجيز وهو: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ (يونس: ٣٨) في أسلوبه ونظمه وتأثيره وهدايته وعلمه، مفتراة في موضوعها، لا تلتزمون أن تكون حقًّا في إخبارها: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾ (يونس)، واطلبوا للمظاهرة لكم والإعانة على ذلك من استطعتم دعاءهم من دون الله، فإن جميع الخلق يعجزون عن ذلك مثلكم، فهذا مثل قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ (الإسراء). وهذه الآية الكريمة في سورة الإسراء، وقد نزلت قبل سورة يونس: ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في زعمكم أني افتريته...

ومن المعلوم بالبداهة أنه ما كان لعاقل مثله ﷺ أن يتحداهم هذا التحدي لو لم يكن عالمًا موقنًا بأنه لا يستطيع الإنس والجن الإتيان بمثل هذا القرآن في جملته ولا بسورة مثله، لا أفراد العلماء والبلغاء ولا جماعاتهم ولا جملتهم إن فرض إمكان اجتماعهم وتعاونهم ومظاهرة بعضهم لبعض، فلو كان هو الذي ألّفه وأنشأه لمصلحة الناس برأيه - كما ارتأى بعض المعجبين بعقله وذكائه وعلو أفكاره من الفلاسفة المتقدمين، وعلماء الماديين المتأخرين - لكان عقله وذكاؤه وعلو فكره مانعات له من الجزم بعجز عقلاء الخلق من العوالم الظاهرة - الإنس - والخفية - الجن - عن الإتيان بسورة مثل ما أتى هو به، فإن كل عاقل متوسط الذكاء والفكر يعلم أن كل ما أمكنه من الأمر فهو يمكن لغيره، بل لا يأمن أن يوجد من هو أقدر عليه منه، فهذه آية بينة للعقل على أن النبي ﷺ كان موقنًا بأنه من عند الله تعالى، وأنه هو كغيره لا يقدر على الإتيان بسورة مثله، وهي إحدى حجج الذين قالوا: إنه لا يُعقل أن يكون كاذبًا مفتريًا له.

فإن قيل: إنه يمكن أن يعتقد عجز نفسه وغيره في حال كونه وحيًا من ربه.

قلنا: أولًا: إن دعوى الوحي النفسي باطلة بأدلة كثيرة®. وثانيًا: إن عجز غيره ممن كانوا أفصح منه دليل على عجزه بطريق الأولى[1].

وهذا في الحقيقة هو عين التحدي المعجز؛ ولذا قال الله ﷻ في آية أخرى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ (البقرة: ٢٤)، وهكذا يتحداهم بمثل هذه الآيات الصادعة

® في "بطلان فكرة الوحي النفسي" طالع: الوجه السادس، من الشبهة العشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). والشبهة الثالثة، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١١، ص٣٦٨: ٣٧٠ بتصرف.

التي تثير النخوة وتهيج الغيرة مع عُلُوِّ كعبهم في البلاغة، ورسوخ أقدامهم في أساليبها وفنونها في عصر ارتقت فيه دولة الكلام ارتقاءً لم تعرف مثله الأيام، حتى كانوا يتبارون فيه ويتنافسون ويعقدون لذلك المجامع ويقيمون الأسواق، ويطيرون بأخبارها في الآفاق، ومع هذا لم يتصد منهم أحد للمعارضة، ولم ينهض بليغ منهم إلى المناهضة.

بل يتحداهم الحق ﷻ أن يأتوا بكتاب من عند الله أهدى من القرآن أو التوراة، قال ﷻ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (القصص)، والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء القائلين بأن الكتب المنزلة من عند الله سحرٌ - سواء قصدوا التوراة والقرآن، أو التوراة والإنجيل، أو الإنجيل والقرآن - قل لهم: ائتوا بكتاب من عند الله أحسن هداية منهما ألزمه وأتبعه إن كنتم صادقين في وصفكم للكتب بأنها سحر وأن الحق في غيرها.

رابعًا. جزاء المفتري المتقول على الله:

ومن ردود القرآن ما أكده من أن النبي ﷺ لو تقوَّل على الله ما لم ينزل لعاجله بالعقوبة، قال ﷻ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (الحاقة).

وهذه الآيات استدلال على أن القرآن مُنزَّل من عند الله ﷻ على طريقة المذهب الكلامي، وهو استدلال بما هو مقرر في الأذهان من أن الله واسع القدرة والعلم، فلا يقدر أحد على أن يقول عنه كلامًا لم يقله، فلو ادَّعى محمد ﷺ القرآن من عند نفسه لما أقررناه على ذلك ولعجَّلنا بإهلاكه، فعدم هلاكه دال على أنه لم يتقوله، فإن "لو" تقتضي انتفاء مضمون شرطها لانتفاء مضمون جوابها فحصل من هذا الكلام غرضان مهمان:

أحدهما: يعود إلى ما تقدم؛ أي: زيادة إبطال لمزاعم المشركين أن القرآن شعر أو كهانة إبطالًا جامعًا لإبطال النوعين؛ أي ويوضح مخالفة القرآن بهذين النوعين من الكلام أن الآتي به ينسبه إلى وحي الله، وما علمتم شاعرًا ولا كاهنًا يزعم أن كلامه من عند الله.

وثانيهما: إبطال زعم لهم لم يسبق التصريح بإبطاله هنا، وهو قول فريق منهم: ﴿افْتَرَاهُ﴾؛ أي: نسبه إلى الله افتراءً، وتقوَّله على الله، قال ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الطور)، فبين لهم أنه لو افترى على الله لما أقرَّه على ذلك، ثم إن هذا الغرض يستتبع غرضًا آخر وهو تأييسهم من أن يأتي بقرآن لا يخالف دينهم، ولا يسفه أحلامهم وأصنامهم، قال الله ﷻ: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ (يونس: ١٥).

ومعنى ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾: لأخذناه بقوة؛ أي: دون إمهال، فالباء للسببية. وقوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وهو عِرْق مُعلَّق به القلب ويُسمَّى "النياط"، وقَطْع الوتين من أحوال الجزور[1] ونحرها، فشبَّه عقاب من يُفرض في تقوُّله على الله بجزور تُنحَر فيقطع وتينها.

وأما موقع تفريع قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ

١. الجزور: الجمل.

حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ (الحاقة) فهو شديد الاتصال بما استتبعه فرض التقوّل من تأييسهم من أن يتقوّل على الله كلامًا لا يسوؤهم، ففي تلك الحالة من أحوال التقول ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الحاقة)، لا يستطيع أحد منكم أو من غيركم أن يحجز عنه ذلك العقاب(١).

"ذلك التهديد الرهيب لمن يفتري على الله في شأن العقيدة وهي الجد الذي لا هوادة فيه، يجيء لتقرير الاحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره وهو صدق الرسول ﷺ وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه، بشهادة أن الله لم يأخذه أخذًا شديدًا كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ.... وأنه لو تقوّل بعض الأقاويل التي لم يوح إليه بها لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات ولما كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق.

كما يشير التعبير في الآيات إلى جدية هذا الأمر الذي لا يحتمل تسامحًا ولا مجاملة لأحد كائنًا من كان، ولو كان هو محمد الكريم عند الله الأثير الحبيب"(٢).

الخلاصة:

- القرآن منزل من عند الله تعالى ﷻ والنبي ﷺ كغيره عاجز عن الإتيان بمثله وليس ذلك من إمكاناته؛ لأنه مجرد مبلغ عن الله ﷻ.
- لقد عاش النبي ﷺ بين أظهرهم عمرًا طويلًا ولم يعرف إلا أنه رجل أمي، فمن أين جاء بهذا القرآن المحكم في بلاغته وتشريعاته وأحكامه إلا أن يكون وصيًا من الله تعالى؟!
- لو كان النبي ﷺ يقرأ كتابًا أو يكتب بنفسه لربما كان يسوغ ادعاؤهم بأن القرآن من عند محمد ﷺ، مع أن القرآن يدل بنفسه على كونه من عند الله تعالى فهو ليس في مقدور البشر ولا في طاقة البشر.
- لقد تحدَّاهم القرآن الكريم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله فعجزوا.
- المتقوِّل على الله جزاؤه الهلاك، ولا يستطيع أحد أن يدفع عنه شيئًا حتى لو كان النبي ﷺ، مما يدل على إقرار الله تعالى له فيما بلَّغه عنه تعالى.

الشبهة الرابعة والعشرون

دعوى أن محمدًا ﷺ تعلَّم القرآن من رجل أعجمي(*) ®

مضمون الشبهة:

زعم المشركون أن محمدًا ﷺ أخذ القرآن الذي يتلوه من بشر، ويشيرون إلى غلام أعجمي رومي كان عبدًا بمكة لرجل من قريش، وكان رسول الله ﷺ يقف عليه يدعوه إلى الإسلام، فقالوا: إن محمدًا يتعلم منه، وكان هذا العبد يقول: إنما يقف عليّ يعلمني الإسلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ (النحل: ١٠٣).

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مج١٤، ج٢٩، ص١٤٤: ١٤٧ بتصرف.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٦٨٩.

® في "تهافت القول بأخذ النبي القرآن عن غلام رومي" طالع: الوجه السادس، من الشبهة السابعة والثلاثين، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

وجه إبطال الشبهة:

سبب الشبهة الافتراء ومنشؤها الجهل؛ إذ كيف يتعلم محمد ﷺ القرآن العربي الفصيح من غلام أعجمي؟!

التفصيل:

هل تعلَّم النبي ﷺ القرآن من صَبِيٍّ أعجميٍّ؟!

هذه شبهة سببها الجهل والافتراء، وقد كذَّبهم الله في قولهم هذا، فقال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (النحل).

والمعنى: ألا تعلمون كذب ما تقولون، فإن لسان الذي تلحدون إليه؛ أي تميلون إليه بأنه يعلِّم محمدًا أعجمي؟ وذلك أنهم كانوا يزعمون أن الذي يعلم محمدًا هذا القرآن الكريم عبدٌ رومي كان يصنع السيوف بمكة قيل: إنه كان يختلف إليه يدعوه إلى الإسلام، وقد كشف القرآن هذا اللبس بأوضح كشف؛ إذ قال قولًا فصلًا دون طول جدال، قال ﷻ: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾، وهذا خير رد على افترائهم وزعمهم؛ إذ كيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي من أكمل معاني كل كتاب نزل على نبي أُرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول بهذا من له أدنى مسكة من عقل، وبخاصة أن هؤلاء المشركين كانوا أهل اللسان العربي، ورجالَ الفصاحة وقادةَ البلاغة والبيان، وقد عجزوا عن معارضة سورة من القرآن، فكيف يتعلم محمد من هذا الغلام الأعجمي، وهكذا يكشف القرآن ذلك اللبس بأوضح كشف وبقول فصل دون جدال طويل، فكيف يعلِّمه هذا العبد وهو أعجمي لا يكاد يبين، وهذا القرآن فصيح عربي معجز!

وبعد هذا الجواب الحاسم عقَّب القرآن على ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (النحل)، فهؤلاء عُرفوا بشدة العداوة للنبي ﷺ وبالتصلب في التصدي لصرف الناس عنه، بحيث بلغوا من الكفر غاية ما وراءها غاية، فحقت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون...[1]، وإن هؤلاء الذين لا يؤمنون هم الكاذبون حقًّا الذين يفترون على الله الكذب ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (النحل). فردّ عليهم بصيغة تقصرهم على الافتراء المتكرر المتجدد؛ إذ المضارع يدل على التجدد.

وقد ردّ الله ﷻ عليهم في موضع آخر، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (الأنعام)، والمعنى: وكذلك نصرّف الآيات على أنواع شتى ليهتدي بها المستعدون للإيمان على اختلاف العقول والأفهام، وليقول هؤلاء المشركون الجاحدون المعاندون: قد درست يا محمد وتعلمت من قبل، وليس هذا بوحي منزل كما زعمت، وقد قالوا مثل ذلك إفكًا وزورًا، كما ورد آنفًا في سورة النحل، ثم قال ﷻ: ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾؛ أي: نوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه والباطل

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ص٢٨٨ وما بعدها.

فيجتنبونه، فلله الحكمة البالغة في إضلال هؤلاء وبيان الحق لهؤلاء... ثم يصدر الأمر العلوي للنبي الكريم، وقد صرف الله الآيات، فافترق الناس في مواجهتها فريقين.. يصدر الأمر للنبي ﷺ أن يتبع ما أوحي إليه وأن يعرض عن المشركين، فلا يحفلهم، ولا يحفل ما يقولون من قول متهافت، ولا يشغل باله بتكذيبهم وعنادهم ولجاجهم، فإنما سبيله أن يتبع ما أوحي إليه من ربه، فيصوغ حياته كلها على أساسه، ويصوغ نفوس أتباعه كذلك، ولا عليه من المشركين فإنما هو يتبع وحي الله الذي لا إله إلا هو، فماذا عليه من العبيد؟! ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ (الأنعام)[1].

الخلاصة:

لقد حسم القرآن الأمر في جملتين كشف بهما زيغ المشركين وضلالهم في اتباع أهوائهم، وردّ بهما الشبهة ودحضها، وهما:

- ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ (النحل: ١٠٣).
- ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (النحل).

فكيف يتعلم النبي ﷺ القرآن الكريم الذي أعجزكم جميعًا أيها البلغاء والفصحاء - مع تعاونكم وتظاهركم ضده - من رجل أعجمي، لا علاقة له بالفصاحة والبيان؟!

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٢، ص١١٦٨.

الشبهة الخامسة والعشرون

دعوى اليهود أنه يكفيهم الإيمان بما أنزل عليهم، ولا يضرهم الكفر بغيره(*)

مضمون الشبهة:

يرفض اليهود وأمثالهم من أهل الكتاب الإيمان بما نُزِّل على محمد ﷺ، متعلِّلين بأن الإيمان بما أنزل عليهم فيه الكفاية، وأنه لايلزمهم إلا الإيمان بكتابهم، ولا يضرهم الكفر بغيره قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ (البقرة: ٩١).

وجوه إبطال الشبهة:

١) ادعاؤهم الإيمان بما أنزل عليهم هو باللسان فقط؛ لأنهم يخالفون ما تأمرهم به كتبهم.

٢) كتمان أهل الكتاب الحق، وكفرهم بما أنزل على محمد ﷺ هو حسد لغيرهم وجحود ونكران لما تنطق به كتبهم.

٣) إنكار قتلهم الأنبياء مع حرمة ذلك في التوراة التي يدَّعون اتباعها.

التفصيل:

أولا. كذب اليهود ومخالفتهم لكتبهم:

يعتذر بعض اليهود في عصر التنزيل عن عدم الإيمان بما جاء به محمد ﷺ بأن ما عندهم من التوراة يكفيهم، وكذلك أمثالهم من أهل الكتاب، وهم لا

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (البقرة/ ٩١).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ٩١، البقرة/ ١٤٦، الأعراف/ ١٥٧، الأنعام/ ٢٠).

يقرُّون إلا بذلك، ويقولون: ﴿ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ﴾ (البقرة: ٩١).

ولقد كانت حجة بني إسرائيل في إعراضهم عن الإسلام، وإبائهم الدخول فيه أن عندهم الكفاية من تعاليم أنبيائهم، وأنهم ماضون على شريعتهم ووصاياهم، فهنا يفضحهم القرآن ويكشف عن حقيقة موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ووصاياهم، ويثبت أنهم هُمْ هُمْ كلما واجهوا الحق الذي لا يخضع لأهوائهم.

وفيما تقدم واجههم بالكثير من مواقفهم مع نبيهم موسى عليه السلام، وقد آتاه الله الكتاب. ويزيد هنا أن رسلهم توالت تترى، يقفو بعضهم بعضًا، وكان آخرهم عيسى ابن مريم، وقد آتاه الله المعجزات البينات، وأيده بروح القدس جبريل عليه السلام فكيف كان استقبالهم لذلك الحشد من الرسل ولآخرهم عيسى؟ كان هذا الذي يستنكره عليهم؛ والذي لا يملكون هم إنكاره، وكتبهم ذاتها تقرره وتشهد به: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (البقرة).

ومحاولة إخضاع الهداة والشرائع للهوى الطارئ والنزوة المتقلبة ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة، وانطمست فيها عدالة المنطق الإنساني ذاته. المنطق الذي يقتضي أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت - غير المصدر الإنساني المتقلب - مصدر لا يميل مع الهوى، ولا تغلبه النزوة. وأن يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الرضا والغضب، والصحة والمرض، والنزوة والهوى، لا أن يخضعوا الميزان ذاته للنزوة والهوى[1]!

وقد رد الله عليهم حجتهم هذه مُصرِّحًا بحقيقة أمرهم، وهي أنهم يدّعون هذا الإيمان بألسنتهم ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ (البقرة: ٩١) من مدلول ولازمٍ لا ينفك عنه؛ كالبشارة برسول من بني إخوتهم؛ أي: ولد إسماعيل عليه السلام، وكون ما تثبت به نبوة محمد ﷺ بمساواته لما تثبت به نبوة موسى عليه السلام يستلزم وجوب اتباع محمد ﷺ كما اتبع موسى عليه السلام؛ لأن المدلول يتبع دليله في كل زمن وفي كل موضوع، فهم يكفرون بما وراء المنزل عليهم، وهو الحق الثابت في نفسه بالدليل حال كونه مصدقًا لما معهم، فهو مؤيَّد عندهم بالعقل والنقل، فالحُجة قائمة عليهم.

ثانيًا. كتمان اليهود للحق حسدًا وجحودًا:

يبيِّن القرآن الكريم أن أهل الكتاب لا يؤمنون بالحق الذي نزل على الرسول محمد ﷺ حسدًا من عند أنفسهم؛ إذ هم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق الذي يجدونه في التوراة والإنجيل، قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ (البقرة)، وقال عز وجل أيضًا: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، فهم ليسوا صادقين في قولهم السابق؛ لأن الله عز وجل أخذ عليهم فيما أنزل عليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ.

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٨٨، ٨٩.

وبهذا يجبههم جبهًا شديدًا بما قالوا وما فعلوا؛ ويجردهم من كل حججهم ومعاذيرهم التي يسترون بها استكبارهم عن الحق، وأثرتهم البغيضة، وعزلتهم النافرة، وكراهتهم لأن ينال غيرهم الخير، وحسدهم أن يؤتي الله أحدًا من فضله جزاء موقفهم الجحودي المنكر من الإسلام ورسوله الكريم.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (البقرة). قالوا: إن قلوبنا مغلفة لا تنفذ إليها دعوة جديدة، ولا تستمع إلى داعية جديد! قالوها تيئيسًا لمحمد ﷺ وللمسلمين من دعوتهم إلى هذا الدين؛ أو تعليلًا لعدم استجابتهم لدعوة الرسول، ويقول الله تعالى ردًّا على قولتهم: ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾؛ أي: طردهم وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم، فهم قد كفروا ابتداء فجازاهم الله على الكفر بالطرد وبالحيلولة بينهم وبين الانتفاع بالهدى، ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾؛ أي: قليلًا ما يقع منهم الإيمان بسبب هذا الطرد الذي حق عليهم جزاء كفرهم السابق، وضلالهم القديم، أو أن هذه حالهم: أنهم كفروا، فقلما يقع منهم الإيمان، حالة لاصقة بهم يذكرها تقريرًا لحقيقتهم.. وكلا المعنيين يتفق مع المناسبة والموضوع.

وقد كان كفرهم قبيحًا؛ لأنهم كفروا بالنبي الذي ارتقبوه.. واستفتحوا به على الكافرين، أي ارتقبوا أن ينصروا به على من سواهم، وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ (البقرة: ٨٩).

وهو تصرف يستحق الطرد والغضب لقبحه وشناعته.. ومن ثم يصب عليهم اللعنة ويصمهم بالكفر: ﴿ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (البقرة).

ويفضح السبب الخفي لهذا الموقف الشائن الذي وقفوه؛ بعد أن يقرر خسارة الصفقة التي اختاروها، فقال ﷻ: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ (البقرة).

﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ ﴾، لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما يكثر أو يقل. أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ولكن هذا هو الواقع. وإن بدا تمثيلًا وتصويرًا لقد خسروا أنفسهم في الدنيا، فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز، ولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين. وبماذا خرجوا في النهاية؟ خرجوا بالكفر، هو وحده الذي كسبوه وأخذوه!

وكان الذي حملهم على هذا كله هو حسدهم لرسول الله ﷺ أن يختاره الله للرسالة التي انتظروها فيهم، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده. وكان هذا بغيًا منهم وظلمًا، فعادوا من هذا الظلم بغضب على غضب؛ وهناك ينتظرهم عذاب مهين جزاء الاستكبار والحسد والبغي الذميم[1].

---

١. المرجع السابق، ص٨٩، ٩٠.

ثالثًا. قتل اليهود للأنبياء:

ونظرًا لعنادهم ومكابرتهم لم يبق إلا إلزامهم بالحجة بما اقترفوا من فحش المخالفة لما أنزل عليهم؛ ليُعْلَم أنهم يَتَّبعون أهواءهم، ويحكِّمون شهواتهم، ولذلك قال ﷻ مفحمًا إياهم: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ (البقرة)؛ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم فلم قتلتم الأنبياء الذين جاءوكم بتصديق التوراة التي بين أيديكم والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم؟

فكيف قتلتم الأنبياء وقد نُهِيتم عن ذلك؟ فليس في التوراة أمرٌ بقتلهم، والخطاب هنا لمن حضر محمدًا ﷺ، والمراد أسلافهم، وإنما عُوتب بنو إسرائيل الموجودون على عهد النبي ﷺ؛ لأنهم أقروا قتل الأنبياء، وتولَّوا أولئك الذين قتلوهم، ولم يستنكروا أفعالهم، قال تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (المائدة)، ومعلومٌ أيضًا أن هؤلاء الموجودين من اليهود على عهد رسول الله ﷺ قد حاولوا قتله، فهؤلاء المخاطبون لما تولَّوا أسلافهم كانوا بمنزلتهم؛ لأنهم رضوا فعلهم فنُسب إليهم.

وهذا الخطاب توبيخٌ لهم وتقريعٌ وتعييرٌ من الله ﷻ؛ إذ كيف يقتلون أنبياء الله، وقد حرَّم الله عليهم في الكتاب الذي أنزل عليهم قتلهم، بل أمرهم باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم، فما كان منهم إلا أن قتلوهم عنادًا واستكبارًا على رسل الله.

يقول صاحب "الظلال": "والقرآن يعجب من موقفهم هذا، ومن كفرهم بما وراء الذي معهم ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ (البقرة: ٩١)، ومالهم وللحق؟ ومالهم أن يكون مصدقًا لما معهم ما داموا لم يستأثروا هم به؟! إنهم يعبدون أنفسهم، ويتعبدون لعصبيتهم. لا، بل إنهم ليعبدون هواهم، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياؤهم به.. ويلقن الله تعالى نبيه ﷺ أن يجيبهم بهذه الحقيقة، كشفًا لمواقفهم وفضحًا لدعواهم: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ (البقرة)، لم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم حقًّا تؤمنون بما أنزل إليكم؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاءوكم بما تدعون أنكم تؤمنون به؟

لا، بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى ؑ: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (البقرة). فهل اتخاذكم العجل من بعد ما جاءكم موسى ؑ بالبينات، وفي حياة موسى ؑ نفسه، كان من وحي الإيمان؟ وهل يتفق هذا مع دعواكم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم؟

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة، بل كان هنالك الميثاق تحت الصخرة، وكان هناك التمرد والمعصية: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ (البقرة: ٩٣).

والسياق هنا يلتفت من الخطاب إلى الحكاية. يخاطب بني إسرائيل بما كان منهم، ويلتفت إلى المؤمنين

ـ وإلى الناس جميعًا ـ فيطلعهم على ما كان منهم.. ثم يلقن الرسول أن يجبههم بالترذيل والتبشيع لهذا اللون من الإيمان العجيب الذي يدعونه إن كان يأمرهم بكل هذا الكفر الصريح: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ (البقرة)"[1].

ويقول صاحب "التحرير والتنوير": قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ (البقرة) فصله عما قبله؛ لأنه اعتراض في أثناء ذكر أحوالهم قصد الرد عليهم في معذرتهم هذه؛ لإظهار أن معاداة الأنبياء دأب لهم، وأن قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ كذب؛ إذ لو كان حقًّا لما قتل أسلافهم الأنبياء الذين هم من قومهم ودعوهم إلى تأييد التوراة والأمر بالعمل بها، ولكنهم يعرضون عن كل ما لا يوافق أهواءهم. وهذا إلزام للحاضرين بما فعله أسلافهم؛ لأنهم يرونهم على حق فيما فعلوا من قتل للأنبياء.. والإتيان بالمضارع في قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ مع أن القتل قد مضى؛ لقصد استحضار الحالة الفظيعة وقرينة ذلك قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (البقرة)، عطف على قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٩١)، والقصد منه تعليم الانتقال في المجادلة معهم إلى ما يزيد إبطال دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم خاصة، وذلك أنه بعد أن أكذبهم في ذلك بقوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ كما بينا ترقَّى إلى ذكر أحوالهم في مقابلتهم دعوة موسى عليه السلام الذي يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بما جاءهم به، فإنهم مع ذلك قد قابلوا دعوته بالعصيان قولًا وفعلًا، فإذا كانوا أعرضوا عن الدعوة المحمدية بمعذرة أنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل عليهم، فلماذا قابلوا دعوة أنبيائهم بعد موسى عليه السلام بالقتل؟ ولماذا قابلوا دعوة موسى بما قابلوا؟ فهذا وجه ذكر هذه الآيات هنا وإن كان قد تقدم نظائرها فيما مضى فإن ذكرها هنا في محاجة أخرى وغرض جديد[2].

الخلاصة:

دعوى اليهود أن إيمانهم بما في كتبهم يكفيهم ولا يحتاجون إلى الإيمان بأي كتب أخرى دعوى باطلة ردها القرآن من الوجوه الآتية:

- ادعاؤهم الإيمان بما أنزل عليهم ادّعاء كاذب؛ لأنهم يخالفون ما تأمرهم به هذه الكتب.
- دعواهم تلك ناشئة عن حسد وحقد على غيرهم أن يؤتيهم الله من فضله ما يشاء.
- أنهم يكتمون الحق الذي بشرت به كتبهم من الرسالة الخاتمة ونبي آخر الزمان.
- إنكار قتلهم الأنبياء مع حرمة ذلك في التوراة التي يدَّعون اتباعها.

---

١. المرجع السابق، ص٩١.

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٦٠٨، ٦٠٩ بتصرف.

الشبهة السادسة والعشرون

الزعم أن كتابَ أهل الكتاب خيرُ الكتب، ونبيَّهم خيرُ الأنبياء(*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم أهل الكتاب أن كتابهم خير الكتب، ونبيهم خير الأنبياء، ويفتخرون على المسلمين بأن نبيهم كان قبل نبينا، وكتابهم قبل كتابنا، وينتهون من هذا التخاصم إلى أنهم أولى بالله من المسلمين.

وجوه إبطال الشبهة:

١) قيام حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الكتاب.

٢) الدين ليس بالتَّمنِّي ولا بالغرور ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، وليس كل من ادعى شيئًا يحصل له بمجرد الدعوى.

٣) لا يقبل العمل الصالح إلا مع الإيمان.

٤) ليس هناك أحسن دينًا ممن أخلص لله في العبادة واتبع ملَّة إبراهيم حنيفًا.

التفصيل:

أولا. قيام الحجة للمسلمين:

في هذه يتخاصم أهل الأديان، فاليهود يقولون للمسلمين: نحن خير منكم، ديننا قبل دينكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن على دين إبراهيم، ولن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًّا، ولن تمسنا النار إلا أيامًا معدودات، ولن يعذبنا الله فنحن أبناؤه وأحباؤه، وقالت النصارى مثل ذلك، فقال المسلمون: كتابنا بعد كتابكم وهو قاضٍ عليه ونبينا بعد نبيكم، وديننا بعد دينكم، وقد أُمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم، فنحن خير منكم، نحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام، ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا، فلا دين إلا الإسلام.

فهنا تخاصم أهل الكتاب والمسلمون، وافتخر أهل الكتاب عليهم، وقد أفلح الله تعالى حجةَ المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان؛ لأن القرآن نسخ كل كتاب، وكان رسول الله ﷺ خاتم النبيين، وقد أُمر أهل الكتاب أن يؤمنوا به وبكتابه، وأن يعملوا بمقتضاه.

ثانيًا. الدين ليس بالتمنِّي، ولكنه بالإيمان والعمل الصالح:

لقد قضى الله ﷻ بين أهل الأديان في ذلك، فقال: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ (النساء)، والمعنى في هذه الآية: أن الدين ليس بالتمنِّي ولا بالغرور، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، وليس كل من ادعى شيئًا حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنه هو على الحق سُمِع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان، فليس لأحد النجاة بمجرد التمنِّي، بل العبرة بطاعة الله ﷻ واتِّباع ما شرعه الله تعالى على ألسنة الرسل الكرام، ولهذا قال ﷻ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، وهذا

(*) الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (النساء/ ١٢٣: ١٢٥، آل عمران/ ٦٧، ٦٨، الزمر/ ٦٥).

® في "هل الهدى في اتباع اليهودية؟" طالع: الشبهة الثانية، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

كقوله ﷻ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ (الزلزلة).

وقد قيل: إن الخطاب في قوله: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ﴾ للمسلمين، وقيل: للمشركين، ولعل الصواب هو الثاني؛ لأن المسلمين لم يجر لأمانيهم ذكر فيما مضى من الآيات قبل هذه الآية، وقد وعد الله المؤمنين أن يكفِّر عنهم سيئاتهم، ولم يَعِدْ أولئك المشركين، قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (العنكبوت).

ثالثًا. الإيمان شرط في قبول العمل الصالح:

بيّن الله ﷻ أن الأعمال الصالحة لا تقبل إلا مع الإيمان، وإلا فالشرك يحبطها كما قال ﷻ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (الزمر: ٦٥)، وذلك أن المشركين كانوا في افتخارهم يفخرون بخدمة الكعبة وإطعام الحجيج وسقايتهم، وكان اليهود والنصارى يفخرون بسبقهم، فقال ﷻ: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ (النساء).

رابعًا. الإسلام هو دين الحق:

من ردود القرآن بعد ذلك أيضًا أنه خيَّر بين الأديان فقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (النساء: ١٢٥)، فلا أحد أحسن دينا ممن أخلص العمل لربه ﷻ فعمل إيمانًا واحتسابًا، وهو متبع في عمله ما شرعه الله له واتَّبع ملة إبراهيم حنيفًا، وهؤلاء هم محمد ﷺ وأتباعه إلى يوم القيامة، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (آل عمران: ٦٨)[1].

الخلاصة:

- لقد قضى الله تعالى بين أهل الأديان حين اختلفوا في أيهم على حق، ورد الجميع إلى ميزان واحد وجعله معيار القبول عند الله تعالى؛ وهو الإيمان بالله مع العمل الصالح، وأنه لا قيمة عند الله لعمل لا يصدر عن الإيمان.
- الدين هو الإسلام ملة إبراهيم ؈ وأحسن العمل هو الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.
- الدين ليس بالتمني ولا بالغرور، لكن بما وقر في القلب وصدقه العمل، وكان خالصًا لله ومنطويًا تحت ملة إبراهيم حنيفًا.

الشبهة السابعة والعشرون

دعوى استطاعة الإتيان بمثل القرآن(*)

مضمون الشبهة:

ادّعى نفَرٌ من اليهود - أَتَوْا إلى رسول الله ﷺ - أنهم

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٥، ص٢٠٨. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٢، ص٧٦٢.

(*) الآيتان اللتان وردت فيهما الشبهة: (الأنعام/ ٩٣، الأنفال/ ٣١).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (الإسراء/ ٨٨، الرعد/ ٣١، هود/ ١٣، يونس/ ٣٨).

يستطيعون أن يأتوا بمثل القرآن، وقالوا له: إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (الأنعام: ٩٣)، وقيل: إنّ الحوار كان مع المشركين في مكة، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ (الأنفال: ٣١).

وجوه إبطال الشبهة:

١) لا تَثْبت الدّعوى إلا بدليلها.

٢) هذه الدّعوى من تمويهات المشركين على عامة العرب.

٣) كفر المشركين بالقرآن راجع إلى كبرهم.

٤) القرآن معجز لا يستطيعه الإنس والجن ولو اجتمعوا له.

التفصيل:

أولا. الدعوى لا تثبت إلا بدليلها:

ادعاء نفر من اليهود أنهم يستطيعون أن يأتوا بمثل القرآن دعوى بلا دليل، كان منشؤها العناد للحق والعجز عن التحدي، وقد قالها من المشركين: النضر بن الحارث، الذي كان يختلف إلى فارسَ تاجرًا فيمرّ بالعباد وهم يقرءون الإنجيل، فجاء مكة فوجد محمدًا ﷺ قد أُنزِلَ عليه، فقال: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، وكان يقول: هذا أساجيع أهل الحيرة، وقال أيضًا: هذا أساطير الأولين، وقال ذلك أيضًا: عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وقد كان يكتب للنبي ﷺ الوحي، وكان يقول: إنْ كان محمد يُوحَى إليه فقد أُوحِي إليّ، وإنْ كان الله ينزّله، فقد أنزلتُ مثل ما أنزل الله، وقيل: إن من قال ذلك هو مُسَيلِمَة الكذاب، وقيل: الأسود العَنسِي وسَجَاح زوجة مسيلمة، وكل من تنبّأ وزعم أن الله قد أوحَى إليه، وقيل: نزلت في كل من ادّعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي.

ثانيًا. دعوة باطلة للتمويه والصدِّ عن الإسلام:

هذه الفِرية من تمويهات أهل الشرك، وقد كانوا لا يتهمون رسول الله ﷺ بالكذب، وقد قال ﷻ في ذلك: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ (الأنعام)، بل كانوا يُوهمون عامة العرب أنه اكتتبها وجمعها كي يحفظها، وكلهم كانوا يعلمون أنه أُمِّيٌّ لم يتعلم شيئًا، فتشاوروا في شيء يقولونه؛ ليصدُّوا به العرب عن القرآن الكريم، فكان هذا القول المزعوم، وقد كذّبهم الله ﷻ فما استطاعوا له إثباتًا، قال ﷻ: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾ (يونس)، وقال الله تعالى أيضًا: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ (هود: ١٣).

فدلّ ذلك على أنّ هذا القول منهم كان قولًا بلا فعل، وإلا فقد تحدَّاهم الله غير مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلًا، وإنما هذا القول منهم يُغْرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم، ولذا نبَّه الله ﷻ على شرف هذا القرآن، وأخبر أنه لو اجتمع الإنس والجن، واتفقوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم، وتعاونوا وتضافروا فيما بينهم ما أطاقوا ذلك وما استطاعوه، فإنّ هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق جل وعلا، الذي لا نظير له ولا مثال، وهذا التَّحدِّي تكذيب من الله ﷻ لهم؛

إذ لو كانوا صادقين في دعواهم لأتوا بما يؤيدها من الأدلة.

والدَّعاوَى ما لم تُقِيمُوا عليها
بيِّناتٍ أبناؤها أدْعِياءُ

ثالثًا. عناد المشركين وكِبْرهم:

بعد أن ذكر القرآن مقولتهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ (الأنفال: ٣١)، يمضي السياق يصف العجب العجاب من عناد المشركين في وجه الحق الذي يغالبهم فيغلبهم، فإذا الكبرياء تصدهم عن الاستسلام له والإذعان لسلطانه، وإذا بهم يتمنون على الله - إن كان هذا هو الحق من عنده - أن يمطر عليهم حجارة من السماء، أو أن يأتيهم بعذاب أليم بدلًا من أن يسألوا الله أن يرزقهم اتباع الحق والوقوف في صفه: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنفال)، وهو دعاء غريب يصور حالة العناد الجامح الذي يؤثر الهلاك على الإذعان للحق، حتى ولو كان حقًّا، إن الفطرة السليمة حين تشك تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق، وأن يهديها إليه، دون أن تجد في هذا غضاضة، ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة تأخذها العزة بالإثم، حتى لتؤثر الهلاك والعذاب على أن تخضع للحق عندما يكشف لها واضحًا لا ريب فيه.. وبمثل هذا العناد كان المشركون في مكة يواجهون دعوة رسول الله ﷺ، ولكن هذه الدعوة هي التي انتصرت في النهاية في وجه هذا العناد الجامح[1].

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٣، ص١٥٠٥.

رابعًا. إعجاز القرآن لهم:

ومن ردود القرآن على هذه الفرية أيضًا قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (الرعد: ٣١)، فلو كان في الكتب الماضية كتاب تسيَّر به الجبال عن أماكنها، أو تقطَّع به الأرض وتنشق، أو تكلَّم به الموتى في قبورهم لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأَوْلَى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم - إذا اجتمعوا - أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور منه، ولا بسورة من مثله، ومع ذلك لا يؤمن به هؤلاء المشركون جحودًا واستكبارًا[2].

الخلاصة:

- هذه الدعوى من مزاعم المتصدين للطعن على رسول الله ﷺ ومحاجته والتشغيب عليه، فتحداهم الرسول ﷺ بمعارضة سورة من القرآن فعجزوا عن ذلك.
- هذه الدعوى منشؤها العناد والاستكبار عن قبول الحق بدليل أنهم سألوا الله إن كان هذا القرآن الكريم هو الحق من عند الله أن يمطر عليهم حجارة من السماء أو يأتيهم بعذاب أليم؛ بدلًا من أن يسألوه الهداية للحق.

---

٢. المرجع السابق، ص١٥٠٢: ١٥٠٥. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٥، ج٩، ص٣٢٩ وما بعدها.

- هذه الدعوى كان هدفها التشويش على الناس والتمويه على العامة من أجل التأثير على القلوب المائلة نحو القرآن.
- بطلان هذه الدعوى يبرهن عليه الواقع؛ إذ إنهم لم يستطيعوا أن يقولوا مثله - كما زعموا - فاتضح كذبهم.

الشبهة الثامنة والعشرون

دعوى أن القرآن لو كان خيرًا ما سبق إلى الإيمان به العبيد والإماء والمستضعفون(*) ®

مضمون الشبهة:

ادَّعى الكافرون أن القرآن ليس هو الحق؛ إذ لو كان هذا القرآن خيرًا حقًّا ما سبقهم إلى الإيمان به المستضعفون من العبيد والإماء وأشباههم: يعنون بذلك خبَّابًا وبلالا وصهيبًا وعمَّارًا رضي الله عنهم، لأن هؤلاء المشركين - عند أنفسهم - يعتقدون أن لهم وجاهة عند الله وله بهم عناية، فكيف إذًا يهتدي هؤلاء المستضعفون دون أهل الوجاهة والشرف؟ وكيف يستوون معًا؟ قال ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ (الأحقاف: ١١).

وجوه إبطال الشبهة:

١) الله يمُنّ على من يشاء امتحانًا منه للناس بعضهم ببعض.

٢) ليس عيبًا في الدعوة أنْ يسبق إليها الضعفاء، بل إن الله في ذلك حكمة.

٣) هذه الشبهة هي مقولة كثير من المكذِّبين السابقين.

٤) هذه المقولة منشؤها الغرور والاستكبار.

٥) الرزق في الدنيا مترتب على أسباب قدَّرها الله.

٦) ليسَ كل مَنْ كثر ماله كان دينه حقًّا.

التفصيل:

أولا. الله يمنّ على من يشاءُ اختبارًا:

إذا كان مشركو مكة وقريش يرون لأنفسهم الوجاهة والرياسة والشرف، وأن لهم عند الله مزيد عناية واهتمام، وبناءً على ذلك يعتقدون أنّ هذا القرآن - وما يدعو إليه محمد ﷺ - لو كان خيرًا ما سبقهم إليه هؤلاء العبيد والمستضعفون، إذا كان الأمر كذلك، فإن القرآن يبيّن لهم أنّهم قد غلطوا في ذلك الفهم غلطًا شديدًا، وأخطئوا في معتقدهم هذا خطأً بيِّنًا، فإن الله تعالى يمنُّ على من يشاء من عباده، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، قال ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (الأنعام).

ثانيًا. الضعفاء لا يعيبون الدعوة:

ليس عيبًا في دعوة محمد ﷺ أن يسبق إليها ويهتدي

(*) الآيتان اللتان وردت فيهما الشبهة: (الأحقاف/ ١١، الأنعام/ ٥٣).

الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (مريم/ ٧٤، الأنعام/ ٥٣، الأحقاف/ ١١).

® في "الحكمة من استجابة الضعفاء لدعوة الأنبياء" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي١).

إليها المستضعفون أمثال بلال، وصهيب، وخبَّاب، وعمَّار، وسُميَّة، وإنما الله ﷻ قد جعل ذلك فتنة للناس بعضهم ببعض، والله أعلم بالشاكر منهم والمهتدي والموفَّق، وهو المطَّلع على أقوالهم وأفعالهم وضمائرهم وأحوالهم فيهديهم إلى طريق مستقيم؛ فهو ضمان لإيمان بلا غرض دنيوي أو مادِّي من وراء الإيمان برسالة الرسل، فلا وجه إذًا لعجب المشركين وسخريتهم بضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء.

ثالثًا. طبيعة الأمم المعوجَّة:

فهذه الشبهة أثارها كثير من الأمم المكذبة لرسلهم، فقوم نوح عليه السلام يقولون: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾(الشعراء)، ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾(هود: ٢٧)، وكذلك رسول الله ﷺ لم يتَّبعه من أشراف الناس إلا قليل وآمن به كثير من الضعفاء، ولذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان - قبل إسلامه - عن بعض المسائل وقال له: فأشراف الناس يتبعونه - أي الرسول ﷺ - أم ضعفاؤهم؟، فقال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

رابعًا. الغرور والاستكبار من أهم أسباب الضلال:

هذه الشبهة في حد ذاتها خطأ من أخطاء هؤلاء المشركين وحجة من حججهم الداحضة الباطلة، وهذا الخطأ منشؤه الإعجاب بالنفس والغرور بالذات، فكيف يستدلون على أن لا خير في الإسلام والقرآن الكريم بأن الذين ابتدروا الأخذ به ضعفاء القوم، وهم يعدّونهم منحطِّين عنهم في الدرجة والمقام؟! ولذا أبان الله أن مزاعمهم هذه كلها ناشئة عن الكفر والاستكبار؛ ولذا قال ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (الأحقاف: ١١)، وقال: ﴿ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾(الأحقاف: ١٠)، وقال: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ (الأحقاف)، أي: إذا لم تحصل هدايتهم بالقرآن فسيستمرون على قولهم إنه إفك قديم، فلا مطمع في إقلاعهم عن ضلالهم في المستقبل نظرًا لاستكبارهم وعنادهم وضلالهم وكبريائهم.

خامسًا. أسباب الرزق مقدَّرة ولا علاقة لها بالكفر والإيمان:

فقوله ﷻ عقب هذه الشبهة: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾(الأنعام) ردٌّ على هذه الشبهة التي خلطت بين شيئين متفارقين في الأسباب، فاشتبه على هؤلاء المشركين الجزاءُ على الإيمان وما أعدّ الله لأهله من النعيم الخالد في الآخرة، المترتِّب عليه ترتُّب المسبب على السبب المجعول عن حكمة الله ﷻ، بالرزق في الدنيا المترتب على أسباب دنيوية؛ كالتجارة والغزو والإرث والهبات، فالرزق الدنيوي لا تسبّب بينه وبين الأحوال القلبية، ولكنه من مسببات الأحوال المادية، فالله أعلم بشكر الشاكرين، وقد أعدّ لهم جزاء شكرهم، وأعلم بأسباب رزق المرزوقين، فالتخليط بين المقامين من ضعف الفكر الناشئ عن سوء النظر وترك التأمل في الحقائق والعلل ومعلولاتها.

سادسًا. كثرة المال لا تدل على رضا الرب:

ويبطل الله هذه الشبهة في مواضع أخرى، فيبيّن للمشركين أن هذه الحجة ليست بشيء، فليس كل مَنْ

كثُر ماله كان دينُه حقًا، ولا من كان أقلَّ نفرًا كان دينه باطلًا، وكأن هؤلاء لم يروا في الكفار فقيرًا ولا في المؤمنين غنيًا، فإن كثيرًا من القرون الخوالي من أهل الكفر كانوا أحسن أثاثًا وأرفع منازل وأجمل صورًا ومناظر وأرغد عيشًا، فأهلكهم الله وأفنى أموالهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾ (مريم)، ثم قال تعالى لهم: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾ (مريم)، فهذا جواب قولهم السابق، فلقَّن الله رسوله ﷺ كشف مغالطتهم وشبهتهم، فأعلمهم بأن ما هم فيه من نعمة الدنيا إنما هو إمهال من الله لهم؛ لأن ملاذ الكافر استدراج[1] ®.

الخلاصة:

- ليس عيبًا في الدعوة أن يسبق إليها الضعفاء، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده؛ امتحانًا منه لعباده بعضهم ببعض، والإيمان من أكبر عطايا الله للعبد.
- هذا الاعتقاد منشؤه الغرور والاستكبار والخطأ العقيم، فهؤلاء المتقولون يرون أنفسهم طبقة مميزة عن غيرهم، وليس هذا فحسب، بل حكموا على القرآن من هذا المنطلق، فجاء حكمهم خطأً كبيرًا.
- إذا كان هؤلاء يفتخرون بالمال وكثرة العرض، فما كان المال أو العرض مقياسًا لقبول العمل أو للإيمان بديانة دون غيرها، وإنما المقياس هو التقوى والعمل الصالح.

---

١. للمزيد انظر: التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٨، ج١٦، ص١٥٣: ١٥٥ بتصرف. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٧، ص٤٣٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٢، ص١١٠٢، ج٦، ص٣٢٥٨.

® في **"إبطال القرآن دلالة رغد العيش على رضا الله وصحة العقيدة"** طالع: الشبهة الثالثة والأربعين، من هذا الجزء.

المحور الثَّالث

شبهات تتعلق بالتشريعات و الأوامر

أولا. شبهات تتعلّق بالاعتراض على تشريعات الله ﷻ

الشبهة التاسعة والعشرون

دعوى أن البيع مثل الربا(*)

مضمون الشبهة:

يعترض المشركون على أحكام الله ﷻ، في قوله: ﷻ ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٥). ويستحلون الربا ويعتبرونه نوعًا من أنواع البيوع، قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٥).

وجوه إبطال الشبهة:

١) البيع يختلف في أصله عن الربا، فالبيع معاوضة بين شيئين، والربا زيادة دون مقابل، وكل معاوضة صحيحة خالية من أكل أموال الناس بالباطل فهي بيع حلال، وكل زيادة لا مقابل لها فهي ظلم وأكل لأموال الناس بالباطل؛ ولذا حرمها المولى ﷻ.

٢) مساوئ الربا ومفاسد النظام الربوي من علل تحريمه.

٣) جزاء من يتعامل بالربا محق بركة ماله في الدنيا، وتخبطه من المس والعذاب الأليم في الآخرة؛ وذلك لأنه بأكله الربا يعلن الحرب على الله ورسوله ﷺ.

٤) الربا لا يحل مشكلة المعسر إنما حل مشكلته في إنظاره إلى ميسرة كما بيَّن القرآن وهذا هو العلاج الناجع الشافي.

التفصيل:

أولا. البيع يختلف عن الربا:

يحتجُّ المشركون على صحة شبهتهم بأن البيع مثل الربا، يعنون أن الزيادة عند حلول الأجل آخرًا كمثل أصل الثمن في أول العقد؛ وذلك أن العرب كانت لا تعرف ربا إلا ذلك، فكان أهل الجاهلية إذا حلّ مال أحدهم على غريمه يقول الغريم لصاحب الحق: زدني في الأجل وأزيدك في المال، فكان يقال لهما إذا فعلا ذلك: هذا ربا لا يحل، فإذا قيل لهما ذلك قالا: سواء علينا زدنا في أول البيع أو عند مَحِلّ المال! فحرّم الله ﷻ ذلك، ورد عليهم قولهم بقوله الحق: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٥)، وأوضح الله أن الأَجل إذا حلّ ولم يكن عنده ما يؤدِّي أُنظر إلى الميسرة[١].

وقوله ﷻ: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، معناه: أنه أحلّ الأرباح في التجارة والشراء والبيع وحرّم الربا، وهو الزيادة التي يزاد رب المال بسبب زيادته غريمه في الأجل وتأخيره دينه عليه، فأعلمهم الله أنه ليست الزيادتان اللتان إحداهما من وجه البيع، والأخرى من وجه تأخير المال والزيادة في الأجل سواءً، وذلك أنّي حرمت إحدى الزيادتين، وهي التي من وجه تأخير

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (البقرة/ ٢٧٥).
الآية التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ٢٧٥).

١. للمزيد انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٣، ص٩٦، ج٧، ص٤٣٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٢، ص١١٠٢، ج٦، ص٣٢٥٨.

المال والزيادة في الأجل، وأحللت الأخرى منهما، وهي التي من وجه الزيادة على رأس المال الذي ابتاع به البائع سلعته التي يبيعها، فيستفضل فضلها، فنبه الله أنه: ليست الزيادة من وجه البيع نظير الزيادة من وجه الربا؛ لأني أحللت البيع وحرمت الربا، والأمر أمري والخلق خلقي، أقضي فيهم ما أشاء، وأستعبدهم بما أريد، ليس لأحد منهم أن يعترض في حكمي ولا أن يخالف أمري، وإنما عليهم طاعتي والتسليم لحكمي.

ويُفهم من ردّ القرآن مغالطة هؤلاء المشركين حين استحلوا الربا وجعلوه كالبيع، وما هو كالبيع، فإن البيع معاوضة بين شيئين، وأما الربا الذي كانوا يأكلونه فهو زيادة عن دَينهم يزيدونها عند تأخير الأجل لا يقابلها شيء، وما يؤخذ من غير مقابل فهو باطل؛ لذلك حرم الله الربا دون البيع، ولو كانا متساويين لما اختلف حكمهما عند أحكم الحاكمين، فكل ما فيه معاوضة صحيحة خالية من أكل أموال الناس بالباطل الذي لا يقابله عوض فهو بيع حلال، وإنما تحرم الزيادة التي يأخذها صاحب المال لأجل التأخير في الأجل، وهي لا معاوضة فيها ولا مقابل لها، فهي ظلم[1].

يذكر صاحب "التحرير والتنوير" أن مبنى شبهة القائلين: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ (البقرة: ٢٧٥) أن التجارة فيها زيادة على ثمن المبيعات؛ لقصد انتفاع التاجر في مقابلة جلب السلع وإرصادها للطالبين في البيع الناض، ثم لأجل انتظار الثمن في البيع المؤجل، فكذلك إذا أسلف عشرة دراهم مثلًا على أنه يرجعها له أحد عشر درهمًا، فهو قد أعطاه هذا الدرهم الزائد لأجل إعداد ماله لمن يستسلفه؛ لأن المقرض تصدى لإقراضه وأعد ماله لأجله، ثم لأجل انتظار ذلك بعد محل أجله.

وكشف هاته الشبهة قد تصدى له وبينه علماء المسلمين، فقال بعضهم: من باع ثوبًا يساوي عشرة بعشرين فقد جعل ذات الثوب مقابلًا بالعشرين، فلما حصل التراضي على هذا التقابل صارت العشرون عوضًا للثوب في المالية، فلم يأخذ المقرض العشرة الزائدة من المشتري شيئًا بدون عوض، أما إذا أقرضه عشرة بعشرين فقد أخذ المقرض العشرة الزائدة من غير عوض، ولا يقال: إن الزائد عوض عن الإمهال؛ لأن الإمهال ليس مالًا أو شيئًا يشار إليه حتى يجعله عوضًا عن العشرة الزائدة، ومرجع هذه التفرقة إلى أنها مجرد اصطلاح اعتباري فهي تفرقة قاصرة.

وأشار بعضهم في أثناء تقرير حكمة تحريم الربا إلى تفرقة أخرى حاصلها أن الذي يبيع الشيء المساوي عشرة بأحد عشر يكون قد مكَّن المشتري من الانتفاع بالمبيع إما بذاته وإما بالتجارة به، فذلك الزائد لأجل تلك المنفعة وهي مسيس الحاجة أو توقع الرواج والربح، وأما الذي دفع درهمًا لأجل السلف فإنه لم يحصل منفعة أكثر من مقدار المال الذي أخذه، ولا يقال: إنه يستطيع أن يتَّجر به فيربح؛ لأن هذه منفعة موهومة غير محققة الحصول، مع أن أخذ الزائد أمر محقق على كل تقدير.

وهذه التفرقة أقرب من التفرقة الأولى، لكنها يرد عليها أن انتفاع المقترض بالمال فيه سدُّ حاجاته فهو كانتفاع المشتري بالسلعة، وأما تصديه للمتاجرة بمال

---

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٣، ص٩٦، ٩٧ بتصرف.

القرض، أو بالسلعة المشتراة فأمر نادر فيها.

فالوجه عندي - والحديث لابن عاشور - في التفرقة بين البيع والربا أن مرجعها إلى التعليل بالمظنة مراعاة للفرق بين حالي المقترض والمشتري، فقد كان الاقتراض لدفع حاجة المقترض للإنفاق على نفسه وأهله لأنهم كانوا يعدون التداين همًّا وكربًا، وقد استعاذ منه النبي ﷺ، وحال التاجر حال التفضّل. وكذلك اختلاف حالي المُسَلِّف والبائع، فحال باذل ماله للمحتاجين لينتفع بما يدفعونه من الربا فيزيدهم ضيقًا؛ لأن المتسلِّف مظنة الحاجة، ألا تراه ليس بيده مال، وحال بائع السلعة تجارة حال من تجشَّم مشقة لجَلْب ما يحتاجه المتفضلون وإعداده لهم عند دعاء حاجتهم إليه مع بذلهم له ما بيدهم من المال. فالتجارة معاملة بين غنيين، ألا ترى أن كليهما باذل لما لا يحتاج إليه وآخذ ما يحتاج إليه، فالمتسلف مظنَّة الفقر والمشتري مظنة الغنى؛ فلذلك حرم الربا؛ لأنه استغلال لحاجة الفقير، وأحل البيع؛ لإنه إعانة لطالب الحاجات. فتبين أن الإقراض من نوع المواساة والمعروف، وأنها مؤكدة التعين على المواسي وجوبًا أو ندبًا، وأيًّا ما كان فلا يحل للمقرض أن يأخذ أجرًا على عمل المعروف، فأما الذي يستقرض مالًا ليتجر به أو ليوسع تجارته فليس مظنة الحاجة، فلم يكن مس أهل استحقاق مواساة المسلمين، فلذلك لا يجب على الغني إقراضه بحال فإذا أقرضه فقد تطوَّع بمعروف، وكفى بهذا تفرقة بين الحالين[1].

والمقصود أن الشبهة التي ركنوا إليها في قولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، هي أن البيع يحقق فائدة وربحا، كما أن الربا يحقق فائدة وربحا، وهي شبهة واهية، فالعمليات التجارية قابلة للربح وللخسارة، والمهارة الشخصية، والجهد الشخصي، والظروف الطبيعية الجارية في الحياة هي التي تتحكم في الربح والخسارة، أما العمليات الربوية فهي محددة الربح في كل حالة، وهذا هو الفارق الرئيسي وهذا هو مناط التحريم والتحليل.

إن كل عملية يضمن فيها الربح على أي وضع هي عملية ربوية محرَّمة بسبب ضمان الربح وتحديده، ولا مجال للمماطلة في هذا ولا للمداورة! ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ (البقرة: ٢٧٥). لانتفاء هذا العنصر من البيع، ولأسباب أخرى كثيرة تجعل عمليات التجارة في أصلها نافعة للحياة البشرية، وعمليات الربا في أصلها مفسدة للحياة البشرية[2].

ولهذا نظَّم القرآن أهم أصول حفظ مال الأمة في هذه الآيات، فبعد أن ابتدأ بأعظم تلك الأصول، وهو تأسيس مال للأمة به قوام أمرها، يؤخذ من أهل الأموال أخذًا عدلًا مما كان فضلًا عن الغني ففرضه على الناس، يؤخذ من أغنيائهم فيرد على فقرائهم، سواء في ذلك ما كان مفروضًا وهو الزكاة أو تطوعًا وهو الصدقة، فأطنب في الحث عليه، والترغيب في ثوابه، والتحذير من إمساكه، ما كان فيه موعظة لمن اتَّعظ. عَطَفَ الكلام إلى إبطال وسيلة كانت من أسباب ابتزاز الأغنياء أموال المحتاجين إليهم، وهي المعاملة بالربا الذي لقبه النبي ﷺ ربا الجاهلية، وهو أن يعطي المدين

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٣، ص٨٤، ٨٥.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٣٢٧.

مالًا لدائنه زائدا على قدر الدين لأجل الانتظار. فإذا حل الأجل ولم يدفع زاد في الدين، يقولون: إما أن تقضي وإما أن تربي، وقد كان ذلك شائعا في الجاهلية كذا قال الفقهاء. والظاهر أنهم كانوا يأخذون الربا على المدين من وقت إسلافه وكلما طلب النظرة أعطى ربا آخر، وربما تسامح بعضهم في ذلك، وكان العباس بن عبد المطلب مشتهرًا بالمراباة في الجاهلية، وجاء في خطبة حجة الوداع: "وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب"[١] [٢].

ولقد أثبت الفقهاء ثلاثة أنواع للربا في اصطلاح الشرع، وهي:

١. **ربا الجاهلية**: وهو زيادة على الدين لأجل التأخير.

٢. **ربا الفضل**: وهو زيادة في أحد العوضين في بيع الصنف بصنفه.

٣. **ربا النسيئة**: وهو بيع شيء من الأصناف الواردة في حديث أبي سعيد الخدري حيث قال: قال رسول الله ﷺ: "الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبُر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلًا بمثل، يدًا بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أَرْبَى، الآخذ والمعطي فيه سواء"[٣]. وزاد المالكية نوعًا رابعًا: وهو ما يئول إلى واحد من الأصناف بتهمة التحيل على الربا، وترجمه في المدوَّنة ببيوع الآجال، ودليل مالك فيه حديث العالية. ومن العلماء من زعم أن لفظ الربا يشمل كل بيع فاسد أخذًا من حديث عائشة في تحريم تجارة الخمر، وإليه مال ابن العربي.

وفي تحريم الربا يقول ﷺ: "لعن الله الربا آكله وموكله وشاهديه"[٤]. وقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ (البقرة: ٢٧٥) من كلام الله تعالى جواب لهم وللمسلمين، فهو إعراض عن مجادلتهم إذ لا جدوى فيها؛ لأنهم قالوا ذلك كفرا ونفاقا فليسوا ممن تشملهم أحكام الإسلام، وهو إقناع للمسلمين بأن ما قاله الكفار هو شبهة محضة، وأن الله العليم قد حرم هذا وأباح ذلك، وما ذلك إلا لحكمة وفروق معتبرة لوتدبرها أهل التدبر لأدركوا الفرق بين البيع والربا، وليس في هذا الجواب كشف للشبهة، فهو مما وكله الله تعالى لمعرفة أهل العلم من المؤمنين، مع أن ذكر تحريم الربا عقب التحريض على الصدقات يومئ إلى كشف الشبهة [٥].

ثانيًا. علل تحريم الربا:

لم يبلغ من تفظيع أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا، ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا - في هذه الآيات وفي غيرها في مواضع أخرى - ولله الحكمة

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (٣٠٠٩).

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٣، ص٧٨، ٧٩.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقدًا (٤١٤٨).

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﷺ (٣٧٢٥)، وأبو يعلى في مسنده (٨/ ٣٩٦) برقم (٤٩٨١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٨٩).

٥. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٣، ص٨٤.

البالغة. فلقد كانت للربا في الجاهلية مفاسده وشروره، ولكن الجوانب الشائهة القبيحة من وجهه الكالح ما كانت كلها بادية في مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم وتكشفت في عالمنا الحاضر، ولا كانت البثور والدمامل في ذلك الوجه الدميم مكشوفة كلها كما كشفت اليوم في مجتمعنا الحديث. فهذه الحملة المفزعة البادية في هذه الآيات على ذلك النظام المقيت، تتكشف اليوم حكمتها في ضوء الواقع الفاجع في حياة البشرية، أشد مما كانت متكشفة في الجاهلية الأولى، ويدرك من يريد أن يتدبر حكمة الله وعظمة هذا الدين، وكمال هذا المنهج ودقة هذا النظام، اليوم من هذا كله ما لم يكن يدركه الذين واجهوا هذه النصوص أول مرة.

وأمامه اليوم من واقع العالم ما يصدق كل كلمة تصديقا حيًّا مباشرًا واقعًا. والبشرية الضالة التي تأكل الربا وتوكله تنصبُّ عليها البلايا الماحقة الساحقة من جراء هذا النظام الربوي في أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها، وتتلقى ـ حقًّا ـ حربًا من الله تصب عليها النقمة والعذاب.. أفرادًا وجماعات، وأممًا وشعوبًا، وهي لا تعتبر ولا تفيق!

وحينما كان السياق ـ من سورة البقرة ـ يعرض في الدرس السابق دستور الصدقة، كان يعرض قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي يريد الله تعالى للمجتمع المسلم أن يقوم عليه، ويحب للبشرية أن تستمتع بما فيه من رحمة في مقابل ذلك النظام الآخر الذي يقوم على الأساس الربوي الشرير القاسي اللئيم.

إنهما نظامان متقابلان: النظام الإسلامي، والنظام الربوي! وهما لا يلتقيان في تصور، ولا يتفقان في أساس، ولا يتوافقان في نتيجة. إن كلا منهما يقوم على تصور للحياة والأهداف والغايات يناقض الآخر تمام المناقضة، وينتهي إلى ثمرة في حياة الناس تختلف عن الأخرى كل الاختلاف، ومن ثم كانت هذه الحملة المفزعة، وكان هذا التهديد الرعيب!

إن الإسلام يقيم نظامه الاقتصادي ـ ونظام الحياة كلها ـ على تصور معين يمثل الحق الواقع في هذا الوجود يقيمه على أساس أن الله ﷻ هو خالق هذا الكون، فهو خالق هذه الأرض، وهو خالق هذا الإنسان.. هو الذي وهب كل موجود وجوده.

وأن الله ﷻ وهو مالك كل موجود بما أنه هو موجده قد استخلف الجنس الإنساني في هذه الأرض، ومكنه مما ادخر له فيها من أرزاق وأقوات ومن قوى وطاقات على عهد منه وشرط، ولم يترك له هذا الملك العريض فوضى يصنع فيه ما يشاء كيف شاء، وإنما استخلفه فيه في إطار من الحدود الواضحة، استخلفه فيه على شرط أن يقوم في الخلافة وفق منهج الله، وحسب شريعته، فما وقع منه من عقود وأعمال ومعاملات وأخلاق وعبادات وفق التعاقد فهو صحيح نافذ، وما وقع منه مخالفًا لشروط التعاقد فهو باطل موقوف. فإذا أنفذه قوة وقسرًا فهو إذن ظلم واعتداء لا يقره الله ولا يقره المؤمنون بالله، فالحاكمية في الأرض ـ كما هي في الكون كله ـ لله وحده. والناس ـ حاكمهم ومحكومهم ـ إنما يستمدون سلطانهم من تنفيذهم لشريعة الله ومنهجه، وليس لهم ـ في جملتهم ـ أن يخرجوا عنها؛ لأنهم إنما هم وكلاء مستخلفون في الأرض بشرط وعهد، وليسوا ملاكًا خالقين لما في أيديهم من أرزاق.

من بين بنود هذا العهد أن يقوم التكافل بين المؤمنين بالله، فيكون بعضهم أولياء بعض، وأن ينتفعوا برزق الله الذي أعطاهم على أساس هذا التكافل، لا على قاعدة الشيوع المطلق كما تقول الماركسية، ولكن على أساس الملكية الفردية المقيدة، فمن وهبه الله منهم سعة أفاض من سعته على من قُدِر عليه رزقه، مع تكليف الجميع بالعمل كلٌّ حسب طاقته واستعداده، وفيما يسَّره الله له، فلا يكون أحدهم كلًّا على أخيه أو على الجماعة وهو قادر، وجعل الزكاة فريضة في المال محددة، والصدقة تطوعًا غير محدد.

وقد شرط عليهم كذلك أن يلتزموا جانب القصد والاعتدال، ويتجنبوا السرف والشطط فيما ينفقون من رزق الله الذي أعطاهم، وفيما يستمتعون به من الطيبات التي أحلَّها لهم، ومن ثم تظل حاجتهم الاستهلاكية للمال والطيبات محدودة بحدود الاعتدال، وتظل فضلة من الرزق معرضة لفريضة الزكاة وتطوع الصدقة، وبخاصة أن المؤمن مطالب بتثمير ماله وتكثيره.

وشرط عليهم أن يلتزموا في تنمية أموالهم وسائل لا ينشأ عنها الأذى للآخرين، ولا يكون من جرائها تعويق أو تعطيل لجريان الأرزاق بين العباد، ودوران المال في الأيدي على أوسع نطاق: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ (الحشر: ٧).

وكتب عليهم الطهارة في النية والعمل، والنظافة في الوسيلة والغاية، وفرض عليهم قيودًا في تنمية المال لا تجعلهم يسلكون إليها سبلًا تؤذي ضمير الفرد وخلقه، أو تؤذي حياة الجماعة وكيانها.

وأقام هذا كله على أساس التصور الممثل لحقيقة الواقع في هذا الوجود، وعلى أساس عهد الاستخلاف الذي يحكم كل تصرفات الإنسان المستخلف في هذا الملك العريض.

ومن ثم فالربا عملية تصطدم ابتداء مع قواعد التصور الإيماني إطلاقًا، ونظام يقوم على تصور آخر، تصور لا نظر فيه لله ﷻ. ومن ثم لا رعاية فيه للمبادئ والغايات والأخلاق التي يريد الله للبشر أن تقوم حياتهم عليها.

إنه يقوم ابتداء على أساس أن لا علاقة بين إرادة الله وحياة البشر، فالإنسان هو سيد هذه الأرض ابتداء، وهوغير مقيد بعهد من الله، وغير ملزم باتباع أوامر الله تعالى!

ثم إن الفرد حر في وسائل حصوله على المال، وفي طرق تنميته، كما هو حر في التمتع به. غير ملتزم في شيء من هذا بعهد من الله أو شرط، وغير مقيد كذلك بمصلحة الآخرين، ومن ثم فلا اعتبار لأن يتأذى الملايين إذا هو أضاف إلى خزانته ورصيده ما يستطيع إضافته، وقد تتدخل القوانين الوضعية أحيانًا في الحد من حريته هذه جزئيًا في تحديد سعر الفائدة مثلًا؛ وفي منع أنواع من الاحتيال والنصب والغصب والنهب والغش والضرر.

ولكن هذا التدخل يعود إلى ما يتواضع عليه الناس أنفسهم، وما تقودهم إليه أهواؤهم؛ لا إلى مبدأ ثابت مفروض من سلطة إلهية!

كذلك يقوم على أساس تصور خاطئ فاسد، هو أن غاية الغايات للوجود الإنساني هي تحصيله للمال - بأية وسيلة - واستمتاعه به على النحو الذي يهوى! ومن ثم يتكالب على جمع المال وعلى المتاع به، ويدوس في

الطريق كل مبدأ وكل صالح للآخرين!

ثم يُنشئ في النهاية نظامًا يسحق البشرية سحقًا، ويشقيها في حياتها أفرادًا وجماعات ودولًا وشعوبًا، لمصلحة حفنة من المرابين؛ ويحطها أخلاقيًّا ونفسيًّا وعصبيًّا؛ ويحدث الخلل في دورة المال ونمو الاقتصاد البشري نموًّا سويًّا وينتهي ـ كما انتهى في العصر الحديث ـ إلى تركيز السلطة الحقيقية والنفوذ العملي على البشرية كلها في أيدي زمرة من أحط خلق الله وأشدهم شرًّا؛ وشرذمة ممن لا يرعون في البشرية إلًّا ولا ذِمَّة، ولا يراقبون فيها عهدًا ولا حرمة.. وهؤلاء هم الذين يداينون الناس أفرادًا، كما يداينون الحكومات والشعوب ـ في داخل بلادهم وفي خارجها ـ وترجع إليهم الحصيلة الحقيقية لجهد البشرية كلها، وكد الآدميين وعرقهم ودمائهم في صورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم فيها جهدًا!

وهم لا يملكون المال وحده، إنما يملكون النفوذ.. ولما لم تكن لهم مبادئ ولا أخلاق ولا تصور ديني أو أخلاقي على الإطلاق؛ بل لما كانوا يسخرون من حكاية الأديان والأخلاق والمثل والمبادئ؛ فإنهم بطبيعة الحال يستخدمون هذا النفوذ الهائل الذي يملكونه في إنشاء الأوضاع والأفكار والمشروعات التي تمكنهم من زيادة الاستغلال، ولا تقف في طريق جشعهم وخسة أهدافهم.. وأقرب الوسائل هي تحطيم أخلاق البشرية وإسقاطها في مستنقع آسن من اللذائذ والشهوات التي يدفع فيها الكثيرون آخر فلس يملكونه، حيث تسقط الفلوس في المصائد والشباك المنصوبة! وذلك مع التحكم في جريان الاقتصاد العالمي وفق مصالحهم المحدودة، مهما أدى هذا إلى الأزمات الدورية المعروفة في عالم الاقتصاد؛ وإلى انحراف الإنتاج الصناعي والاقتصادي كله عما فيه مصلحة المجموعة البشرية إلى مصلحة الممولين المرابين الذين تتجمع في أيديهم خيوط الثروة العالمية!

والكارثة التي تمت في العصر الحديث ـ ولم تكن بهذه الصورة البشعة في الجاهلية ـ هي أن هؤلاء المرابين الذين كانوا يتمثلون في الزمن الماضي في صورة أفراد أو بيوت مالية كما يتمثلون الآن في صورة مؤسسي المصارف العصرية ـ قد استطاعوا بما لديهم من سلطة هائلة مخيفة داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها، وبما يملكون من وسائل التوجيه والإعلام في الأرض كلها.. سواء في ذلك الصحف والكتب والجامعات والأساتذة ومحطات الإرسال ودور السينما وغيرها.. أن ينشئوا عقلية عامة بين جماهير البشر المساكين الذين يأكل أولئك المرابون عظامهم ولحومهم، ويشربون عرقهم ودماءهم في ظل النظام الربوي. هذه العقلية العامة خاضعة للإيحاء الخبيث المسموم؛ بأن الربا هو النظام الطبيعي المعقول، والأساس الصحيح الذي لا أساس غيره للنمو الاقتصادي؛ وأنه من بركات هذا النظام وحسناته كان هذا التقدم الحضاري في الغرب. وأن الذين يريدون إبطاله جماعة من الخياليين ـ غير العمليين ـ وأنهم إنما يعتمدون في نظرتهم هذه على مجرد نظريات أخلاقية ومثل خيالية لا رصيد لها من الواقع؛ وهي كفيلة بإفساد النظام الاقتصادي كله لو سمح لها أن تتدخل فيه! حتى ليتعرض الذين ينتقدون النظام الربوي من هذا الجانب للسخرية من البشر الذين هم في حقيقة الأمر ضحايا بائسة لهذا النظام ذاته! ضحايا شأنهم شأن الاقتصاد العالمي نفس، الذي تضطره

عصابات المرابين العالمية لأن يجري جريانًا غير طبيعي ولا سَوِيٍّ. ويتعرض للهزات الدورية المنظمة! وينحرف عن أن يكون نافعًا للبشرية كلها، إلى أن يكون وقفًا على حفنة من الذئاب قليلة!

إن النظام الربوي نظام مَعِيب من الوجهة الاقتصادية البحتة، وقد بلغ من سوئه أن تنبه لعيوبه بعض أساتذة الاقتصاد الغربيين أنفسهم؛ وهم قد نشئوا في ظله، وأشربت عقولهم وثقافتهم تلك السموم التي تبثها عصابات المال في كل فروع الثقافة والتصور والأخلاق.

وفي مقدمة هؤلاء الأساتذة الذين يعيبون هذا النظام من الناحية الاقتصادية البحتة "دكتور شاخت" الألماني ومدير بنك الرايخ الألماني سابقًا. وقد كان مما قاله في محاضرة له بدمشق عام ١٩٥٣ أنه بعملية رياضية (غير متناهية) يتضح أن جميع المال في الأرض صائر إلى عدد قليل جدا من المرابين. ذلك أن الدائن المرابي يربح دائما في كل عملية؛ بينما المدين معرض للربح والخسارة. ومن ثم فإن المال كله في النهاية لا بد ـ بالحساب الرياضي ـ أن يصير إلى الذي يربح دائمًا! وأن هذه النظرية في طريقها للتحقق الكامل، فإن معظم مال الأرض الآن يملكه ـ ملكًا حقيقيًا ـ بضعة ألوف! أما جميع الملاك وأصحاب المصانع الذين يستدينون من البنوك، والعمال، وغيرهم، فهم ليسوا سوى أجراء يعملون لحساب أصحاب المال، ويجني ثمرة كدهم أولئك الألوف!

وليس هذا وحده هو كل ما للربا من جريرة. فإن قيام النظام الاقتصادي على الأساس الربوي يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين في التجارة والصناعة علاقة مقامرة ومشاكسة مستمرة. فإن المرابي يجتهد في الحصول على أكبر فائدة، ومن ثم يمسك المال حتى يزيد اضطرار التجارة والصناعة إليه فيرتفع سعر الفائدة؛ ويظل يرفع السعر حتى يجد العاملون في التجارة والصناعة أنه لا فائدة لهم من استخدام هذا المال، لأنه لا يدر عليهم ما يوفون به الفائدة ويفضل لهم منه شيء.. عندئذ ينكمش حجم المال المستخدم في هذه المجالات التي تشتغل فيها الملايين؛ وتضيق المصانع دائرة إنتاجها، ويتعطل العمال، فتقل القدرة على الشراء، وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد، ويجد المرابون أن الطلب على المال قد نقص أو توقف، يعودون إلى خفض سعر الفائدة اضطرارًا. فيقبل عليه العاملون في الصناعة والتجارة من جديد، وتعود دورة الحياة إلى الرخاء.. وهكذا دواليك تقع الأزمات الاقتصادية الدورية العالمية. ويظل البشر هكذا يدورون فيها كالسائمة!

ثم إن جميع المستهلكين يؤدون ضريبة غير مباشرة للمرابين، فإن أصحاب الصناعات والتجار لا يدفعون فائدة الأموال التي يقترضونها بالربا إلا من جيوب المستهلكين، فهم يزيدونها في أثمان السلع الاستهلاكية فيتوزع عبؤها على أهل الأرض لتدخل في جيوب المرابين في النهاية. أما الديون التي تقترضها الحكومات من بيوت المال لتقوم بالإصلاحات والمشروعات العمرانية فإن رعاياها هم الذين يؤدون فائدتها للبيوت الربوية كذلك. إذ إن هذه الحكومات تضطر إلى زيادة الضرائب المختلفة لتسدد منها هذه الديون وفوائدها، وبذلك يشترك كل فرد في دفع هذه الجزية للمرابين في نهاية المطاف.. وقلما ينتهي الأمر عند هذا الحد، ولا

يكون الاستعمار هو نهاية الديون.. ثم تكون الحروب بسبب الاستعمار!

ونحن هنا لا نستقصي كل عيوب النظام الربوي، فهذا مجاله بحث مستقل، فنكتفي بهذا القدر لنخلص منه إلى تنبيه من يريدون أن يكونوا مسلمين إلى جملة حقائق أساسية بصدد كراهية الإسلام للنظام الربوي المقيت:

الحقيقة الأولى: التي يجب أن تكون مستيقنة في نفوسهم - أنه لا إسلام مع قيام نظام ربوي في مكان.

وكل ما يمكن أن يقوله أصحاب الفتاوى من رجال الدين أو غيرهم سوى هذا، دجل وخداع، فأساس التصور الإسلامي - كما بينا - يصطدم اصطدامًا مباشرًا بالنظام الربوي، ونتائجه العملية في حياة الناس وتصوراتهم وأخلاقهم.

الحقيقة الثانية: أن النظام الربوي بلاء على الإنسانية - لا في إيمانها وأخلاقها وتصورها للحياة فحسب - بل كذلك في صميم حياتها الاقتصادية والعملية، وأنه أبشع نظام يَمْحَق سعادة البشرية مَحْقًا، ويعطل نموها الإنساني المتوازن، على الرغم من الطلاء الظاهري الخدّاع الذي يبدو كأنه مساعدة من هذا النظام للنمو الاقتصادي العام!

الحقيقة الثالثة: أن النظام الأخلاقي والنظام العملي في الإسلام مترابطان تمامًا، وأن الإنسان في كل تصرفاته مرتبط بعهد الاستخلاف وشرطه، وأنه مختبر ومبتلى وممتحن في كل نشاط يقوم به في حياته، ومحاسب عليه في آخرته، فليس هناك نظام أخلاقي وحده، ونظام عملي وحده، وإنما هما معا يؤلفان نشاط الإنسان، وكلاهما عبادة يؤجر عليها إن أحسن، وإثم يؤاخذ عليه إن أساء. وأن الاقتصاد الإسلامي الناجح لا يقوم بغير أخلاق، وأن الأخلاق ليست نافلة يمكن الاستغناء عنها ثم تنجح حياة الناس العملية.

الحقيقة الرابعة: أن التعامل الربوي لا يمكن إلا أن يفسد ضمير الفرد وخلقه، وشعوره تجاه أخيه في الجماعة؛ وإلا أن يفسد حياة الجماعة البشرية وتضامنها بما يبثه من روح الشره والطمع والأثرة والمخاتلة والمقامرة بصفة عامة، أما في العصر الحديث فإنه يعد الدافع الأول لتوجيه رأس المال إلى أحط وجوه الاستثمار، كي يستطيع رأس المال المستدان بالربا أن يربح ربحًا مضمونًا، فيؤدي الفائدة الربوية ويفضل منه شيء للمستدين. ومن ثم فهو الدافع المباشر لاستثمار المال في الأفلام القذرة والصحافة القذرة والمراقص والملاهي والرقيق الأبيض وسائر الحرف والاتجاهات التي تحطم أخلاق البشرية تحطيمًا.. والمال المستدان بالربا ليس همه أن ينشئ أنفع المشروعات للبشرية؛ بل همه أن ينشئ أكثرها ربحًا. ولو كان الربح إنما يجيء من استثارة أحط الغرائز وأقذر الميول.. وهذا هو المشاهد اليوم في أنحاء الأرض. وسببه الأول هو التعامل الربوي!

الحقيقة الخامسة: أن الإسلام نظام متكامل، فهو حين يحرم التعامل الربوي يقيم نظمه كلها على أساس الاستغناء عن الحاجة إليه؛ وينظم جوانب الحياة الاجتماعية بحيث تنتفي منها الحاجة إلى هذا النوع من التعامل، بدون مساس بالنمو الاقتصادي والاجتماعي والإنساني المطرد.

الحقيقة السادسة: أن الإسلام - حين يتاح له أن

ينظم الحياة وفق تصوره ومنهجه الخاص - لن يحتاج عند إلغاء التعامل الربوي، إلى إلغاء المؤسسات والأجهزة اللازمة لنمو الحياة الاقتصادية العصرية نموها الطبيعي السليم.

ولكنه فقط سيطهرها من لوثة الربا ودنسه، ثم يتركها تعمل وفق قواعد أخرى سليمة. وفي أول هذه المؤسسات والأجهزة: المصارف والشركات وما إليها من مؤسسات الاقتصاد الحديث.

الحقيقة السابعة: - وهي الأهم - ضرورة اعتقاد من يريد أن يكون مسلمًا، بأن هناك استحالة اعتقادية في أن يحرم الله أمرًا لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه! كما أن هناك استحالة اعتقادية كذلك في أن يكون هناك أمر خبيث ويكون في الوقت ذاته حتميا لقيام الحياة وتقدمها.. فالله سبحانه هو خالق هذه الحياة، وهو مستخلف الإنسان فيها؛ وهو الآمر بتنميتها وترقيتها؛ وهو المريد لهذا كله الموفق إليه. فهناك استحالة إذن في تصور المسلم أن يكون فيما حرمه الله شيء لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه. وأن يكون هناك شيء خبيث هو حتمي لقيام الحياة ورقيها، وإنما هو سوء التصور، وسوء الفهم والدعاية المسمومة الخبيثة الطاغية التي دأبت أجيالًا على بث فكرة: أن الربا ضرورة للنمو الاقتصادي والعمراني، وأن النظام الربوي هو النظام الطبيعي. وبث هذا التصور الخادع في مناهل الثقافة العامة، ومنابع المعرفة الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم قيام الحياة الحديثة على هذا الأساس فعلًا بسعي بيوت المال والمرابين، وصعوبة تصور قيامها على أساس آخر، وهي صعوبة تنشأ أولًا من عدم الإيمان، كما تنشأ ثانيًا من ضعف التفكير وعجزه عن التحرر من ذلك الوهم الذي اجتهد المرابون في بثه وتمكينه لما لهم من قدرة على التوجيه، وملكية للنفوذ داخل الحكومات العالمية، وملكية لأدوات الإعلام العامة والخاصة.

الحقيقة الثامنة: أن استحالة قيام الاقتصاد العالمي اليوم وغدًا على أساس غير الأساس الربوي.. ليست سوى خرافة، أو هي أكذوبة ضخمة تعيش؛ لأن الأجهزة التي يستخدمها أصحاب المصلحة في بقائها أجهزة ضخمة فعلًا! وأنه حين تصح النية، وتعزم البشرية - أو تعزم الأمة المسلمة - أن تسترد حريتها من قبضة العصابات الربوية العالمية، وتريد لنفسها الخير والسعادة والبركة مع نظافة الخلق وطهارة المجتمع، فإن المجال مفتوح لإقامة النظام الآخر الرشيد، الذي أراده الله تعالى للبشرية، والذي طبق فعلًا، ونمت الحياة في ظله فعلًا؛ وما تزال قابلة للنمو تحت إشرافه وفي ظلاله لو عقل الناس ورشدوا[1] ®!

ثالثًا. جزاء من يتعامل بالربا في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

وأريد بالذين يأكلون الربا هنا من كان على دين الجاهلية؛ لأن هذا الوعيد والتشنيع لا يناسب إلَّا

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٣١٨: ٣٢٣.

® في **"المقاصد الشرعية لتحريم الربا"** طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

التوجُّه إليهم؛ لأنَّ ذلك من جملة أحوال كفرهم وهم لا يَرْعَوُون عنها ما داموا على كفرهم، أما المسلمون فسبق لهم تشريع بتحريم الربا بقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ (آل عمران: ١٣٠)، وهم لا يقولون: ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، فجعل الله هذا الوعيد من جملة أصناف العذاب خاصًّا للكافرين لأجل ما تفرّع عن كفرهم من وضع الربا.

وتقدم ذلك كلّه إنكارُ القرآن على أهل الجاهلية إعطاءهم الربا، وهو من أول ما نعاه القرآن عليهم في مكة، فقد جاء في سورة الروم: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الروم) وهو خطاب للمشركين لأنّ السورة مكية ولأنَّ بعد الآية قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الروم).

ومن عادات القرآن الكريم أن يذكر أحوال الكفّار إغلاظًا عليهم، وتعريضًا بتخويف المسلمين، ليكرِّه إليهم أحوال أهل الكفر. وقد قال ابن عباس: كلُّ ما جاء في القرآن من ذمِّ أحوال الكفار فمراد منه أيضًا تحذير المسلمين من مثله في الإسلام، ولذلك قال ﷻ: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ (البقرة)، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ (البقرة).

ثم عطف إلى خطاب المسلمين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ (البقرة:٢٧٨) الآيات، ولعلّ بعض المسلمين لم ينكفّ عن تعاطي الربا أو لعلّ بعضهم فتن بقول الكفار: إنّما البيع مثل الربا. فكانت آية سورة آل عمران مبدأ التحريم، وكانت هذه الآية إغلاق باب المعذرة في أكل الربا وبيانًا لكيفية تدارك ما سلف منه.

والربا يقع على وجهين:

أحدهما: السلف بزيادة على ما يعطيه المسلف.

والثاني: السلف بدون زيادة إلى أجل، يعني فإذا لم يوف المستسلف أداء الدين عند الأجل كان عليه أن يزيد فيه زيادة يتّفقان عليها عند حلول كل أجل.

وقوله: ﴿ لَا يَقُومُونَ ﴾ (البقرة: ٢٧٥) معناه: لا يقومون يوم يقوم الناس لرب العالمين إلّا كما يقوم الذي يتخبَّطه الشيطان؛ أي: إلّا قيامًا كقيام الذي يتخبَّطه الشيطان، أو معناه: أنّ حرصهم ونشاطهم في معاملات الربا كقيام المجنون تشنيعًا لجشعهم... ويجوز على هذا أن يكون المعنى تشبيه ما يعجب الناس من استقامة حالهم، ووفرة مالهم، وقوة تجارتهم، بما يظهر من حال الذي يتخبّطه الشيطان حتى تخاله قويًّا سريع الحركة، مع أنّه لا يملك لنفسه شيئًا. فالآية على المعنى الأول وعيد لهم بابتداء تعذيبهم من وقت القيام للحساب إلى أن يدخلوا النار، وهذا هو الظاهر وهو المناسب لقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، وهي على المعنى الثاني تشنيع، أو توعّد بسوء الحال في الدنيا ولُقِيِّ المتاعب ومرارة الحياة تحت صورة يخالها الرائي مستقيمة.

والذي يتخبّطه الشيطان هو المجنون الذي أصابه الصرع، فيضطرب به اضطرابات، ويسقط على الأرض

إذا أراد القيام، فلما شبهت الهيأة بالهيأة جيء في لفظ الهيأة المشبه بها[1].

ثم قال تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، أي: فمن بلغه تحريم الله تعالى للربا، ونهيه عنه فترك الربا فورًا، بلا تراخٍ ولا تردُّد، انتهاء عما نهى الله عنه، فله ما كان أخذه فيما سلف من الربا لا يكلف رده إلى من أخذه منهم، بل يكتفي منه بأن لا يضاعف عليهم بعد البلاغ شيئًا: ﴿وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٧٥) يحكم فيه بعدله، ومن العدل أن لا يؤاخذ بما يأكل من الربا قبل التحريم وبلوغه الموعظة من ربه، ولكن العبارة تشعر بأن إباحة أكل ما سلف رخصة للضرورة، وترمي إلى أن رد ما أخذه من قبل النهي إلى أربابه الذين أخذ منهم من أقل العزائم، ألم تر أنه عبر عن إباحة ما سلف باللام ولم يقل كما قال بعد ذكر كفارة صيد المحرم ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ (المائدة: ٩٥)، وأنه عقب هذه الإباحة بإبهام الجزاء وجعله إلى الله تعالى، والمعهود في أسلوبه أن يصل مثل ذلك بذكر المغفرة والرحمة، كما قال في آخر آية محرمات النساء: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾ (النساء)، أباح أكل ما سلف قبل التحريم وأبهم جزاء آكله لعله يغص بأكل ما في يده منه فيرده إلى صاحبه، ولكنه صرح بأشد الوعيد على من أكل شيئًا بعد النهي، فقال: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾ (البقرة)؛ أي: ومن عاد إلى ما كان من الربا المحرم بعد تحريمه فأولئك البعداء عن الاتعاظ بموعظة ربهم الذي لا ينهاهم إلا عما يضر بهم في أفرادهم أو جميعهم أهل النار الذين يلازمونها كما يلازم الصاحب صاحبه فيكون خالدين فيها.

ثم بيَّن الله تعالى الفرق بين الربا والصدقة، إذ جاء الكلام عنه بعد الكلام عنها وبيان أثرها فقال: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ (البقرة: ٢٧٦)، فسَّروا مَحْق الله الربا بإذهاب بركته وإهلاكه، أو هلاك المال الذي يدخل فيه، وقد اشتهر هذا حتى عرفه العامة، فهم يذكرون دائمًا ما يحفظون من أخبار آكلي الربا الذين ذهبت أموالهم وخربت بيوتهم، وفي حديث ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل"[2].

وقال الضحاك إن هذا المحق في الآخرة، أن يبطل ما يكون منه مما يتوقع نفعه، فلا يبقى لأهله منه شيء، وقال الأستاذ الإمام: ليس المراد بهذا المحق محق الزيادة في المال فإن هذا مكابرة للمشاهدة والأخبار، وإنما المراد ما يلاقي المرابي من عداوة الناس، وما يصاب به في نفسه من الوساوس وغيرها، أما عداوة الناس فمن حيث هو عدو المحتاجين وبغيض المعوزين، وقد تقضي العداوة والبغضاء إلى مفاسد ومضرات، واعتداء على الأموال والأنفس والثمرات، وقد ظهر أثر ذلك في الأمم التي فشا فيها الربا، إذ قام الفقراء فيها يعادون

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٣، ص٨٢ بتصرف.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﷺ (٣٧٥٤)، وأبو يعلى في مسنده (٨/ ٤٥٦) برقم (٥٠٤٢)، وصححه الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

الأغنياء، ويتألب العمال عليهم حتى صارت هذه المسألة أعقد المسائل عندهم، وأما ما يصاب به في نفسه من الوساوس والأوهام فهو ما لا يعرفه إلا من راقب هؤلاء العابدين للمال وبلا أخبارهم، ولا أذكر عنه مثالًا على ذلك وما الأمثال فيه بقليلة؛ فمنهم من يشغله المال عن طعامه وشرابه وعن أهله وولده حتى يقصِّر في حق نفسه وحقوقهم تقصيرا يُفْضِي إلى الخسر أو المهانة والذل، ومنهم من يركب لذلك الصعب ويقتحم الخطر حتى يكون من الهالكين.

والمراد بمحق الربا محو ما يطلب الناس بزيادة المال من اللذة وبسطة العيش والجاه والمكانة وزيادة الربا تذهب بذلك لاشتغال المرابي غالبا عن اللذة وخفض المعيشة بولهه في ماله، ولمقت الناس إياه وكراهتهم له، وأما إرباء الصدقات فهو زيادة فائدتها وثمرتها في الدنيا وأجرها في الآخرة ومضاعفة الله إياها "فمعنى" يمحق الله الربا ويربي الصدقات أن سنته قضت في عابد المال الذي لا يرحم معوزًا ولا ينظر معسرًا إلا بمال يأخذه ربا بدون مقابل أن يكون محرومًا من الثمرة الشريفة للثروة وهي كون صاحبها ناعمًا عزيزًا شريفًا عندالناس، لكونه مصدرًا لخيرهم والتفضل عليهم وإعانتهم على زمنهم، كما يكون محرومًا في الآخرة من ثواب المال فهو في عدم انتفاعه بماله هذا الضرب من الانتفاع كمن محق ماله وهلك، وقضت سُنَّته في المتصدق أن يكون انتفاعه بماله أكبر من ماله، وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "من تصدق بعَدْل تَمْرَة[1] من كَسْب طيِّب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله تعالى يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّه[2]، حتى تكون مثل الجبل"[3].

والحديث من باب التمثيل كما هو ظاهر، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ (البقرة)، قالوا: لا يحب: لا يرضى، والكَفَّار: المستحل للربا، والأثيم: المقيم على الإثم، وإن حب الله للعبد شأن من شئونه يعرف باستعمال العبد إتمام حكم الله في صلاح عباده ونفي هذا الحب يعرف بضد ذلك.

والكَفَّار هنا هو المتمادي على كفر أنعام الله عليه بالمال؛ إذ لا ينفق منه في سبيله، ولا يواسي به المحتاجين من عباده، والأثيم هو الذي جعل المال آلة لجذب ما في أيدي الناس إلى يده، فافترض إعسارهم لاستغلال اضطرارهم[4].

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ (البقرة).

ويُعلِّق الأستاذ سيد قطب صاحب "الظلال" على هذه الآية قائلًا: "إن النص يعلق إيمان الذين آمنوا على ترك ما بقي من الربا، فأما الذي سلف فأمره إلى الله،

1. عَدْل تَمْرَة: أي بمقدار قيمتها.

2. الفَلُوُّ: هو المُهْر أول ما يُولد.

3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب (١٣٤٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (٢٣٨٩)، واللفظ للبخاري.

4. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٣، ص٩٧: ١٠١ بتصرف.

وبذلك تجنب الإسلام إحداث هزة اقتصادية واجتماعية ضخمة لو جعل لتشريعة أثرًا رجعيًّا، فهذه صفة الترغيب وإلى جوارها صفة الترهيب، الترهيب الذي يزلزل القلوب، ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (البقرة: ٢٧٩) حرب من الله ورسوله تواجهها النفس البشرية، حرب رهيبة معروفة المصير، مقررة العاقبة، فأين الإنسان الضعيف من تلك القوة الساحقة الماحقة؟! ولقد أمر رسول الله ﷺ عامله على مكة بعد نزول هذه الآيات التي نزلت متأخرة أن يحارب آل المغيرة هناك إذا لم يكفوا عن التعامل الربوي، وقد أمر ﷺ في خطبته يوم فتح مكة بوضع كل ربا في الجاهلية - وأوله ربا عمه العباس - عن كاهل المدينين الذي ظلوا يحملونه إلى ما بعد الإسلام بفترة طويلة حتى نضج المجتمع المسلم، واستقرت قواعده، وحان أن ينتقل نظامه الاقتصادي كله من قاعدة الربا الوبيئة، وقال النبي ﷺ في هذه الخطبة: "وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب.." [1]. ولم يأمرهم بردِّ الزيادات التي سبق لهم أخذها في حالة الجاهلية.

فالإمام مكلَّف - حين يقوم المجتمع الإسلامي - أن يحارب الذين يصرون على قاعدة النظام الربوي، ويعتون عن أمر الله تعالى، ولو أعلنوا أنهم مسلمون. كما حارب أبو بكر الصديق رضي الله عنه مانعي الزكاة، مع شهادتهم أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقامتهم للصلاة، فليس مسلمًا من يأبى طاعة شريعة الله، ولا ينفذها في واقع الحياة!

على أن الإيذان بالحرب من الله ورسوله أعم من القتال بالسيف والمدفع من الإمام. فهذه الحرب معلنة - كما قال أصدق القائلين - على كل مجتمع يجعل الربا قاعدة نظامه الاقتصادي والاجتماعي. هذه الحرب معلنة في صورتها الشاملة الداهمة الغامرة، وهي حرب على الأعصاب والقلوب، وحرب على البركة والرخاء، وحرب على السعادة والطمأنينة. حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض. حرب المطاردة والمشاكسة. حرب الغبن والظلم. حرب القلق والخوف.. وأخيرًا حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول. الحرب الساحقة الماحقة التي تقوم وتنشأ من جراء النظام الربوي المقيت. فالمرابون أصحاب رءوس الأموال العالمية هم الذين يوقدون هذه الحروب مباشرة أو عن طريق غير مباشر. وهم يلقون شباكهم فتقع فيها الشركات والصناعات. ثم تقع فيها الشعوب والحكومات. ثم يتزاحمون على الفرائس فتقوم الحرب! أو يزحفون وراء أموالهم بقوة حكوماتهم وجيوشها فتقوم الحرب! أو يثقل عبء الضرائب والتكاليف لسداد فوائد ديونهم، فيعم الفقر والسخط بين الكادحين والمنتجين، فيفتحون قلوبهم للدعوات الهدامة فتقوم الحرب! وأيسر ما يقع - إن لم يقع هذا كله - هو خراب النفوس، وانهيار الأخلاق، وانطلاق سعار الشهوات، وتحطم الكيان البشري من أساسه، وتدميره بما لا تبلغه أفظع الحروب الذَّرِّية المُرْعِبة!

إنها الحرب المشبوبة دائمًا، وقد أعلنها الله على المتعاملين بالربا.. وهي مسعرة الآن؛ تأكل الأخضر

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (٣٠٠٩).

واليابس في حياة البشرية الضالة؛ وهي غافلة تحسب أنها تكسب وتتقدم كلما رأت تلال الإنتاج المادي الذي تخرجه المصانع.. وكانت هذه التلال حرِيَّة بأن تسعد البشر لو أنها نشأت من منبت زكي طاهر؛ ولكنها - وهي تخرج من منبع الربا الملوث - لا تمثل سوى ركام يخنق أنفاس البشرية، ويسحقها سحقًا؛ في حين تجلس فوقه شرذمة المرابين العالميين، لا تحس آلام البشرية المسحوقة تحت هذا الركام الملعون!

لقد دعا الإسلام الجماعة المسلمة الأولى - ولا يزال يدعو البشرية كلها - إلى المَشْرع الطاهر النظيف، وإلى التوبة من الإثم والخطيئة والمنهج الوبيء، فقال تعالى: ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ (البقرة).

فهي التوبة عن خطيئة، إنها خطيئة الجاهلية، الجاهلية التي لا تتعلق بزمان دون زمان، ولا نظام دون نظام.. إنما هي الانحراف عن شريعة الله تبارك وتعالى ومنهجه متى كان وحيث كان.. خطيئة تنشئ آثارها في مشاعر الأفراد وفي أخلاقهم وفي تصورهم للحياة، وتنشئ آثارها في حياة الجماعة وارتباطاتها العامة. وتنشئ آثارها في الحياة البشرية كلها، وفي نموها الاقتصادي ذاته، ولو حسب المخدوعون بدعاية المرابين، إنها وحدها الأساس الصالح للنمو الاقتصادي!

واسترداد رأس المال مجرَّدًا عدالة لا يظلم فيها دائن ولا مدين.. فأما تنمية المال فلها وسائلها الأخرى البريئة النظيفة. لها وسيلة الجهد الفردي، ووسيلة المشاركة على طريقة المضاربة وهي إعطاء المال لمن يعمل فيه، ومقاسمته الربح والخسارة، ووسيلة الشركات التي تطرح أسهمها مباشرة في السوق - بدون سندات تأسيس تستأثر بمعظم الربح - وتناول الأرباح الحلال من هذا الوجه، ووسيلة إيداعها في المصارف بدون فائدة - على أن تساهم بها المصارف في الشركات والصناعات والأعمال التجارية مباشرة أو غير مباشرة - ولا تعطيها بالفائدة الثابتة - ثم مقاسمة المودعين الربح على نظام معين أو الخسارة إذا فرض ووقعت.. وللمصارف أن تتناول قدرًا معينًا من الأجر في نظير إدارتها لهذه الأموال.. ووسائل أخرى كثيرة ليس هنا مجال تفصيلها.. وهي ممكنة وميسرة حين تؤمن القلوب، وتصح النيات على ورود المورد النظيف الطاهر، وتجنب المورد العفن النتن الآسن[1]!

رابعًا. علاج الإعسار في الإنظار إلى ميسرة وليس في الربا الذي يزيد تفاقم المشكلة:

ويكمل السياق الأحكام المتعلقة بالدين في حالة الإعسار.. فليس السبيل هو ربا النسيئة: بالتأجيل مقابل الزيادة.. ولكنه هو الإنظار إلى ميسرة. والتحبيب في التصدق به لمن يريد مزيدًا من الخير أوفى وأعلى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾ (البقرة).

إنها السماحة الندية التي يحملها الإسلام للبشرية. إنه الظل الظليل الذي تأوي إليه البشرية المتعبة في هجير الأثرة والشح والطمع والتكالب والسعار، إنها الرحمة للدائن والمدين وللمجتمع الذي يظل الجميع!

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٣٣٠: ٣٣٢.

ونحن نعرف أن هذه الكلمات لا تؤدي مفهومًا معقولًا في عقول المناكيد الناشئين في هجير الجاهلية المادية الحاضرة! وأن مذاقها الحلو لا طعم له في حسهم المتحجر البليد! ـ وبخاصة وحوش المرابين سواء كانوا أفرادًا قابعين في زوايا الأرض يتلمظون للفرائس من المحاويج والمنكوبين الذين تحل بهم المصائب فيحتاجون للمال والطعام والكساء والدواء أو لدفن موتاهم في بعض الأحيان، فلا يجدون في هذا العالم المادي الكز الضنين الشحيح من يمد لهم يد المعونة البيضاء؛ فيلجئون مرغمين إلى أوكار الوحوش، فرائس سهلة تسعى إلى الفخاخ بأقدامها، تدفعها الحاجة وتزجيها الضرورة! سواء كانوا أفرادا هكذا أو كانوا في صورة بيوت مالية ومصارف ربوية. فكلهم سواء. غير أن هؤلاء يجلسون في المكاتب الفخمة على المقاعد المريحة؛ ووراءهم ركام من النظريات الاقتصادية، والمؤلفات العلمية، والأساتذة والمعاهد والجامعات، والتشريعات والقوانين، والشرطة والمحاكم والجيوش.. كلها قائمة لتبرير جريمتهم وحمايتها، وأخذ من يجرؤ على التلكؤ في رد الفائدة الربوية إلى خزائنهم باسم القانون!!

نحن نعرف أن هذه الكلمات لا تصل إلى تلك القلوب.. ولكنا نعرف أنها الحق، ونثق أن سعادة البشرية مرهونة بالاستماع إليها والأخذ بها: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ (البقرة).

إن المعسر ـ في الإسلام ـ لا يطارد من صاحب الدين، أو من القانون والمحاكم، إنما ينظر حتى يوسر.. ثم إن المجتمع المسلم لا يترك هذا المعسر وعليه دين، فالله يدعو صاحب الدين أن يتصدق بدينه ـ إن تطوع بهذا الخير. وهو خير لنفسه كما هو خير للمدين، وهو خير للجماعة كلها ولحياتها المتكافلة، لو كان يعلم ما يعلمه الله من سريرة هذا الأمر!

ذلك أن إبطال الربا يفقد شطرًا كبيرًا من حكمته إذا كان الدائن سيروح يضايق المدين، ويضيق عليه الخناق. وهو معسر لا يملك السداد، فهنا كان الأمر ـ في صورة شرط وجواب ـ بالانتظار حتى يوسر ويقدر على الوفاء، وكان بجانبه التحبيب في التصدق بالدين كله أو بعضه عند الإعسار.

على أن النصوص الأخرى تجعل لهذا المدين المعسر حظًّا من مصارف الزكاة، ليؤدي دينه، وييسر حياته، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ (التوبة)، وهم أصحاب الديون الذين لم ينفقوا ديونهم على شهواتهم وعلى لذائذهم، إنما أنفقوها في الطيب النظيف، ثم قعدت بهم الظروف عن سدادها!

ثم يجيء التعقيب العميق الإيحاء الذي ترجف منه النفس المؤمنة، وتتمنى لو تنزل عن الدين كله، ثم تمضي ناجية من الله يوم الحساب، قال ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ (البقرة).

واليوم الذي يرجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت يوم عسير، له في القلب المؤمن وقع؛ ومشهده

حاضر في ضمير المؤمن، وله في ضمير المؤمن هول، والوقوف بين يدي الله في هذا اليوم خاطر يزلزل الكيان!

وهو تعقيب يتناسق مع جو المعاملات. جو الأخذ والعطاء، جو الكسب والجزاء.. إنه التصفية الكبرى للماضي جميعه بكل ما فيه. والقضاء الأخير في الماضي بين كل من فيه، فما أجدر القلب المؤمن أن يخشاه وأن يتوقاه.

إن التقوى هي الحارس القابع في أعماق الضمير؛ يقيمه الإسلام هناك لا يملك القلب فرارًا منه لأنه في الأعماق هناك!

إنه الإسلام.. النظام القوي.. الحلم الندي الممثل في واقع أرضي.. رحمة الله بالبشر. وتكريم الله للإنسان. والخير الذي تشرد عنه البشرية؛ ويصدها عنه أعداء الله وأعداء الإنسان[1]!

الخلاصة:

- البيع مبادلة مال بمال على سبيل التراضي، أو نقل مال بعوض على الوجه المأذون فيه بألا يكون منهيًّا عنه، والربا: الزيادة على رأس المال قلت أو كثرت، سواء أكانت في القرض أو في البيع.
- الربا محرم في جميع الأديان السماوية (الإسلام، اليهودية، النصرانية) ومن علة تحريمه: أنه يسبب العداوة بين الأفراد، ويقضي على روح التعاون والتكامل بينهم، كما أنه يؤدي إلى خلق طبقة مترفة بين المجتمع تنمو على حساب غيرها بلا جهد منها، ويرجع إليها الحصيلة الحقيقية من جهد البشرية.
- وقد ذُكر لحكمة تحريم الربا أسباب كثيرة؛ منها على سبيل المثال:
  - أن فيه أخذ مال الغير بغير عوض، وأورد عليه ما تقدم في الفرق بينه وبين البيع، وهو فرق غير وجيه.
  - أن في تعاطي الربا ما يمنع الناس من اقتحام مشاق الاشتغال في الاكتساب؛ لأنه إذا تعود صاحب المال أخذ الربا خف عنه اكتساب المعيشة، فإذا فشا في الناس أفضى إلى انقطاع منافع الخلق؛ لأن مصلحة العالم لا تنتظم إلا بالتجارة، والصناعة، والعمارة.
  - أنه يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس بالقرض.
  - أن الغالب في المقرض أن يكون غنيًّا، وفي المستقرض أن يكون فقيرًا، فلو أبيح الربا لتمكن الغني من أخذ مال الضعيف.

---

١. المرجع السابق، ص٣٣٢، ٣٣٣.

الشبهة الثلاثون

دعوى اليهود استحالة وقوع النسخ عقلا ونقلا وإنكارهم لجوازه(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض اليهود استحالة وقوع النسخ عقلا ونقلا؛ ولذا فإنهم أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ، وكانوا يقولون: إن محمدًا يأمر أصحابه اليوم بأمر، ثم ينهاهم عنه غدًا!

وجوه إبطال الشبهة:

١) ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ، فالله هو المتصرف في خلقه، ويختبر عباده بالنسخ.

٢) في النسخ مراعاة مصالح الناس، وله حِكَمٌ جليلة.

٣) النسخ والبداء مختلفان.

٤) وجود النسخ في التوراة يرد على اليهود ادعاءهم امتناع وقوعه وجوازه.

التفصيل:

أولا. لا مانع عقلا من وقوع النسخ، والمولى سبحانه يختبر عباده به:

يتفق معظم المسلمين على جواز النسخ في أحكام الله عز وجل؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وقد أجمع السلف على وقوعه في الشريعة وجوازه، وأنكرت ذلك طوائف من المتأخرين، ومن هؤلاء: أبو مسلم الأصبهاني المفسِّر؛ حيث قال: لم يقع شيء من ذلك في القرآن، وهو قول ضعيف مرذول مردود محجوج بإجماع السلف السابق على وقوعه في الشريعة، وقد أنكرت ذلك أيضًا طوائف من اليهود، وإنما الذي حملهم على البحث في مسألة النسخ هو الكفر والعناد؛ فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله عز وجل؛ لأنه يحكم ما يشاء، كما أنه يفعل ما يريد؛ ولذا قال عز وجل: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾ (البقرة).

فيرشد الله عز وجل عباده بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر، فكما خلقهم كما يشاء، ويُسعد من يشاء، ويُشقي من يشاء، ويُمرض من يشاء، ويُوفِّق من يشاء، ويَخْذُل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحلّ ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد، لا مُعقِّب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يُسألون، وهو سبحانه يختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها عز وجل، ثم ينهى عنه لما يعلمه عز وجل، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا وامتثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا، فالله عز وجل قادر على أن يأتي بالآية المحكمة قبل الآية المنسوخة، ولكنه يؤخر هذه ويبدِّل هذه بتلك، وهو عالم بالأول والآخر، ويعلم ما يصلح الناس في وقت، وما يصلحهم في الوقت الآخر، ويعلم

(*) الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ١٠٦، ١٠٧، آل عمران/ ٩٣).

® في "وقوع النسخ في القرآن" طالع: الشبهة السابعة عشرة، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

أن الأَلْيَق بالناس والأنسب لهم في وقت ما أن يعملوا بكذا، وفي الوقت الآخر أن يعملوا بكذا، ألا ترى إلى الطبيب يذهب إليه المريض اليوم فيقول له الطبيب: لا تأكل اللحم ولا السمك ولا تشرب اللبن، وبعد يوم يأتيه المريض فيقول له الطبيب: كل اللحم واشرب اللبن ولا تأكل السمك، وبعد مدَّة يرخص له في الأكل من كل ذلك، والمريض يُسلِّم ولا يعترض أدنى اعتراض، وخاصة إذا كان يعلم أن الطبيب ماهر حاذق ثقة، فيفعل ما يؤمر به دون تردد وبنفس هادئة مطمئنة، ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

وفي هذا المقام ردّ عظيم بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم - لعنهم الله - في دعوى استحالة النسخ، إما عقلًا كما زعمه بعضهم جهلًا وكفرًا، وإما نقلًا كما تَخرَّصه آخرون منهم افتراء وإفكًا.

والآيات السابقة وإن كانت خبرًا وخطابًا من الله تعالى لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، ففيها تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد - عليهما الصلاة السلام - لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيّر ما غير الله من حكم التوراة، فأخبرهم الله أن له ملك السماوات والأرض وسلطانها، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء.

ثانيًا. في النسخ مراعاة مصالح الناس وله حكم جليلة:

التعديل الجزئي وفق مقتضيات الأحوال - في فترة الرسالة - هو لصالح البشرية، ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها، والله خالق الناس، ومرسل الرسل، ومنزل الآيات هو الذي يقدر هذا، فإذا نسخ آية ألقاها في عالم النسيان - سواء كانت آية مقروءة تشتمل حكمًا من الأحكام، أو آية بمعنى علامة وخارقة تجيء لمناسبة حاضرة وتطوى؛ كالمعجزات المادية التي جاء بها الرسل - فإنه يأتي بخير منها أو مثلها! ولا يعجزه شيء، وهو مالك كل شيء، وصاحب الأمر كله في السماوات وفي الأرض.. ومن ثم تجيء هذه التعقيبات: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ (البقرة).

والخطاب هنا للمؤمنين يحمل رائحة التحذير، ورائحة التذكير بأن الله هو وليهم وناصرهم وليس لهم من دونه ولي ولا نصير.. ولعل هذا كان بسبب انخداع بعضهم بحملة اليهود التضليلية؛ وبلبلة أفكارهم بحججهم الخادعة؛ وإقدامهم على توجيه أسئلة للرسول ﷺ لا تتفق مع الثقة واليقين. يدل على هذا ما جاء في الآية التالية من صريح التحذير والاستنكار: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ (البقرة).

فهو استنكار لتشبه بعض المؤمنين بقوم موسى في تعنتهم وطلبهم للبراهين والخوارق وإعناتهم لرسولهم كلما أمرهم بأمر أو أبلغهم بتكليف، على نحو ما حكى السياق عنهم في مواضع كثيرة.

وهو تحذير لهم من نهاية هذا الطريق، وهي الضلال، واستبدال الكفر بالإيمان، وهي النهاية التي صار إليها بنو إسرائيل، كما أنها هي النهاية التي يتمنى اليهود لو قادوا إليها المسلمين[١]!

وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦) جواب الشرط، وجعله جوابًا مشعر بأن هذين الحالين وهما النسخ والإنساء - أو النسء - لا يفارقان حالين، وهما الإتيان في وقت النسخ ووقت الإنساء بشيء هو خير من المنسوخ أو مثله أو خير من المنسي أو المنسوء أو مثله.

وقد أجملت جهة الخيرية والمثلية لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن فتجده مرادًا، إذ الخيرية تكون من حيث الاشتمال على ما يناسب مصلحة الناس، أوما يدفع عنهم مضرة، أو ما فيه جلب عواقب حميدة، أو ما فيه ثواب جزيل، أوما فيه رفق بالمكلفين ورحمة بهم في مواضع الشدة وإن كان حملهم على الشدة قد يكون أكثر مصلحة، وليس المراد أن كل صورة من الصور المفروضة في حالات النسخ والإنساء أو النسء هي مشتملة على الخير والمثل معا، وإنما المراد أن كل صورة منها لا تخلو من الاشتمال على الخير منها أو المثل لها فلذلك جيء "أو" في قوله: ﴿بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ فهي مفيدة لأحد الشيئين مع جواز الجمع.

وتحقيق هاته الصور بأيديكم، ولنضرب لذلك أمثالًا ترشد إلى المقصود وتغني عن البقية:

- نسخ شريعة مع الإتيان بخير منها كنسخ التوراة والإنجيل بالإسلام.
- نسخ شريعة مع الإتيان بمثلها كنسخ شريعة هود بشريعة صالح، فإن لكل فائدة مماثلة للأخرى في تحديد أحوال أمتين متقاربتي العوائد والأخلاق، فهود نهاهم أن يبنوا بكل ريع آية يعبثون، وصالح لم ينه عن ذلك ونهى عن التعرض للناقة بسوء.
- نسخ حكم في شريعة بخير منه مثل نسخ كراهة الخمر الثابتة بقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ (البقرة: ٢١٩) بتحريمها بتاتًا فهذه الناسخة خير من جهة المصلحة دون الرفق وقد يكون الناسخ خيرًا في الرفق، كنسخ تحريم الأكل والشرب وقربان النساء في ليل رمضان بعد وقت الإفطار عند الغروب إذا نام الصائم قبل أن يتعشَّى بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ﴾ (البقرة: ١٨٧)، قال في الحديث: "ففرحوا بها فرحًا شديدًا"[٢].
- نسخ حكم في الشريعة بحكم مثله؛ كنسخ الوصية للوالدين والأقربين بتعيين الفرائض والكل نافع للكل في إعطائه مالًا، وكنسخ فرض خمسين صلاة بخمس صلوات مع جعل ثواب الخمسين للخمس، فقد تماثلتا من جهة الثواب، وكنسخ آية ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: ١٨٤) بقوله تعالى:

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص١٠٢.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب قول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧) (١٨١٦).

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ (البقرة: ١٨٤)، وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ (البقرة: ١٨٥)، فأثبت كون الصوم خيرًا من الفدية.

- إنساء بمعنى التأخير لشريعة مع مجيء خير منها، تأخير ظهور دين الإسلام في حين الإتيان بشرائع سبقته كل واحدة منها هي خير بالنسبة للأمة التي شرعت لها والعصر الذي شرعت فيه فإن الشرائع تأتي للناس بما يناسب أحوالهم حتى يتهيأ البشر كلهم لقبول الشريعة الخاتمة التي هي الدين عند الله فالخيرية هنا ببعض معانيها وهي نسبية.

- إنساء شريعة بمعنى تأخير مجيئها مع إرادة الله تعالى وقوعه بعد حين ومع الإتيان بمثلها كتأخير شريعة عيسى ﷺ في وقت الإتيان بشريعة موسى ﷺ، وهي خير منها من حيث الاشتمال على معظم المصالح وما تحتاج إليه الأمة.

- إنساء بمعنى تأخير الحكم المراد مع الإتيان بخير منه، كتأخير تحريم الخمر وهو مراد، مع الإتيان بكراهته أو تحريمه في أوقات الصلوات فقط، فإن المأتي به خير من التحريم من حيث الرفق بالناس في حملهم على مفارقة شيء افتتنوا بمحبته.

- إنساء شريعة بمعنى بقائها غير منسوخة إلى أمد معلوم مع الإتيان بخير منها؛ أي: أوسع وأعم مصلحة وأكثر ثوابًا لكن في أمة أخرى، أو بمثلها كذلك.

- إنساء آية من القرآن بمعنى بقائها غير منسوخة إلى أمد معلوم مع الإتيان بخير منها في باب آخر؛ أي أعم مصلحة، أو بمثلها في باب آخر؛ أي مثلها مصلحة أو ثوابًا، مثل تحريم الخمر في وقت الصلوات وينزل في تلك المدة تحريم البيع في وقت صلاة الجمعة.

- نسيان شريعة بمعنى اضمحلالها؛ كشريعة آدم ونوح مع مجيء شريعة موسى، وهي أفضل وأوسع، وشريعة إدريس مثلًا وهي مثل شريعة نوح.

- نسيان حكم شريعة مع مجيء خير منه أو مثله، كان فيما نزل عشر رضعات معلومات يحرمن، فنسخن بخمس معلومات ثم نسيا معًا، وجاءت آية ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ (النساء: ٢٣) على الإطلاق، والكل متماثل في إثبات الرضاعة، ولا مشقة على المكلفين في رضعة أوعشر لقرب المقدار.

وقيل: المراد من النسيان الترك، وهو حينئذ يرجع معناه وصوره إلى معنى وصور الإنساء بمعنى التأخير.

والمقصد من قوله تعالى: ﴿نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦) إظهار منتهى الحكمة، والرد عليهم بأنهم لا يهمهم أن تنسخ شريعة بشريعة أو حكم في شريعة بحكم آخر، ولا يقدح ذلك في علم الله تعالى ولا في حكمته ولا ربوبيته؛ لأنه ما نسخ شرعًا أو حكمًا ولا تركه إلا وهو قد عوض الناس ما هو أنفع لهم منه حينئذ، أو ما هو مثله من حيث الوقت والحال، وما أخر حكمًا في زمن ثم أظهره بعد ذلك إلا وقد عوض الناس في إبان تأخيره ما يسد مسده بحسب أحوالهم، وذلك مظهر الربوبية، فإنه يربي الخلق ويحملهم على مصالحهم مع الرفق بهم والرحمة، ومراد الله تعالى في تلك الأزمنة والأحوال كلها واحد وهو حفظ نظام العالم وضبط تصرف الناس فيه على وجه يعصم أحوالهم من الاختلال بحسب العصور والأمم والأحوال إلى أن جاء بالشريعة الخاتمة وهي مراد الله تعالى من الناس،

ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران:١٩)، وقال أيضًا: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ (الشورى: ١٣)[1] ®.

ثالثًا. النسخ والبداء مختلفان:

وليس ما سبق من قبيل البَداء، بل هو من نقْل العباد من عبادة إلى عبادة، وحكم إلى حكم لضرب من المصلحة إظهارًا لحكمته وكمال مملكته، ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قُصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية، وإنما كان يلزم البداء لو لم يكن عالمًا بمآل الأمور، وأما العالم بذلك فإنما تتبدَّل خطاباته بحسب تبدّل المصالح، كالطبيب المراعي أحوال العليل، فراعى ذلك في خليقته بمشيئته وإرادته، فخطابه يبدّل، وعلمه وإدارته لا تتبدل، ولا تتغير، فإن ذلك مُحال في جهة الله ﷻ.

ومن جهل اليهود أنهم جعلوا النسخ والبداء شيئًا واحدًا، ولذلك لم يُجوِّزوا النسخ فضلُّوا، والفرق بين النسخ والبداء أن النسخ: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه، مع علم الله السابق بأن الحكم المرفوع مؤقت، وأنه تعالى قد وضعه لمدة معينة وسبق في علمه الأزلي أنه سينسخه؛ مثل تحويل العبادة من شيء إلى شيء قد كان حلالًا فيحرَّم، أو كان حرامًا فيحلل، وأما البداء: فهو ظهور حكمة جديدة كانت خاصة، وهذا محال على الله تعالى فهو خالق الأشياء كلها، وهو العليم بأسرارها ومكنونها ما ظهر منها وما خفي، ولا يخفى عليه شيء، والبداء يحدث للإنسان، فهو يعزم على أمر ثم يتضح له شيء متعلقٌ بهذا الأمر كان خافيًا عنه، فيعدل عن عزمه الأول؛ كقولك: امضِ إلى فلان اليوم، ثم تقول: لا تمض إليه، فيبدو لك العدول عن القول الأول، وهذا يلحق البشر لنقصانهم ®.

واليهود إنما يدعون عدم النسخ في آيات الله ﷻ توصُّلًا بذلك منهم إلى إنكار آيات القرآن؛ حتى يؤكدوا أن الأحكام الواردة في التوراة باقية إلى الأبد لم يتطرَّق إليها نسخ، فقالوا أثناء ذلك: إن محمدًا يأمر أصحابه اليوم بأمر ثم ينهاهم عنه غدًا، واشتد طعنهم لَّما تحولت القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، فجاء قوله ﷻ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦)، والمعنى: ما نبدّل من آية بغيرها أو نُزِل حكمها نأتِ بخير منها أو مثلها، ولأهل العلم في قوله ﷻ: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قولان:

القول الأول: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ من النسيان الذي هو بمعنى الترك، فيكون المعنى: ما ننسخ من آية أو نتركها بلا نسخ نأت بخير منها أو مثلها، وقد قدَّر العلماء هنا محذوفًا تقديره كلمة "حُكْم"، فالمعنى: ما ننسخ من حكم آية أو نترك حكمها نأتِ بخير منها أو مثلها.

فإذا قال قائل: كيف تكون الآية باقية ـ أي متروكة لم تنسخ ـ ويقال: نأت بخير منها أو مثلها؟

---

1. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٦٥٩: ٦٦١.

® في **"حِكَم النسخ ومقاصده"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السابعة عشرة. والوجه الثاني، من الشبهة الحادية والعشرين؛ من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

® في **"حقيقة النسخ وأنه ليس من البَداء"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة عشرة، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

وللإجابة على ذلك قال العلماء: إن المراد بـ ﴿نُنسِهَا﴾: نثبت لفظها ونترك حكمها.

القول الثاني: أن المراد بقوله ﷻ ﴿نُنسِهَا﴾ أي: نرفع لفظها، فلا يستقر منها في القلوب والأذهان شيء، وهو من النسيان المعهود لدى الناس، ومثال ذلك ما صحَّ عن أنس بن مالك ﷺ أن الذين قُتِلوا ببئر مَعُونة أنزل الله ﷻ فيهم قرآنًا يُتلى: (أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا)[1]، ثم نُسخ ذلك بَعْدُ.

ومن أوجه الردِّ على اليهود أيضًا في دعواهم عدم وقوع النسخ: أن التوراة التي بين أيديهم ناسخة لأحكام قد تقدمتها.

ووجه الخيرية في الآيات الناسخة قد يكون من عدة جهات منها:

- أن الآيات الناسخة تكون في بعض الأحيان واضعة للآصار والأغلال التي كانت على الأمم قبلنا.
- أن الآيات الناسخة، وإن كانت في بعض الأحيان أشق في العمل بها من الآيات المنسوخة، لكن ثواب العمل بها أعظم من الآيات المنسوخة.
- أن الآيات الناسخة قد تكون سهلة لينة في حفظها على الناس.

فعلى هذا تكون الخيريَّة في الآيات الناسخة عاجلًا أو آجلًا، عاجلًا في كون بعضها يسيرًا يخفف الله ﷻ به الأحكام، وآجلا في كون ثواب العمل بها أعظم.

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من ينكب في سبيل الله ﷻ (٢٦٤٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلا أو كراثًا أو نحوها عن حضور المسجد (١٥٧٧).

رابعًا. وجود النسخ في التوراة يرد على اليهود ادعاءهم امتناع وقوعه في القرآن:

ومن ردود القرآن الكريم على اليهود في إنكارهم وقوع النسخ وجوازه، أنه نص في كتابهم - التوراة - أن نوحًا ﷺ لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، وبعد هذا، فإن إسرائيل حرَّم على نفسه لحوم الإبل وألبانها فاتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وهذا هو النسخ بعينه، وقد حكى القرآن الكريم ذلك في قوله ﷻ: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ (آل عمران).

ولا وجه لليهود في اعتراضهم على وقوع النسخ وجوازه، فقد وقع ذلك في الكتب المتقدِّمة والشرائع الماضية، كما أحلَّ الله لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرم ذلك، وكما أحلَّ لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حل بعضها، وكان نكاح الأختين مباحًا لإسرائيل وبنيه وقد حرّم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، وأمر إبراهيم ﷺ بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم كيلا يستأصلهم القتل، واليهود يعترفون بكل ذلك، ولكنهم يصدفون عنه عنادًا وكفرًا؛ لأن هذا كله منصوص عليه عندهم في التوراة، وهذا هو النسخ بعينه، فأمرهم الله بالرجوع إلى التوراة فإنها ناطقة بما نقول.

ولذا يقول تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن

رَبِّكُمْ ﴾ (البقرة: ١٠٥). يقول تعالى للمؤمنين: هؤلاء الذين علمتم شأنهم مع أنبيائهم حسدة، لا يلتفت إلى تكذيبهم ولا يبالى بعدوانهم، ولا يضركم كفرهم وعنادهم، فهم لحسدهم لا يودون أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم، والقرآن أعظم الخيرات، لأنه النظام الكامل، والفضل الشامل، والهداية العظمى، والآية الكبرى، جمع به شملكم، ووصل به حبلكم، ووحد به شعوبكم وقبائلكم، وطهر به عقولكم من نزعات الوثنية، وزكى به نفوسكم من أدران الجاهلية، وأقامكم به على سنن الفطرة، وشرع لكم الحنيفية السمحة، فكيف لا يحرق الحسد عليه أكبادهم، ويخرج أضغانهم عليكم وأحقادهم. والمعنى ما يحب الذين كفروا من اليهود والنصارى ولا من المشركين أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم. أما أهل الكتاب ولا سيما اليهود فلحسدهم للعرب أن يكون فيهم الكتاب والنبوة وهو ما كانوا يحتكرونه لأنفسهم، وأما المشركون فلأن في التنزيل المرة بعد المرة من قوة الإسلام ورسوخه وانتشاره ما خيب آمالهم في تربصهم الدوائر بالنبي وانتهاء أمره.

ثم إن الله تعالى رد عليهم بما بيّن جهلهم وجهل جميع الحاسدين، فقال: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (البقرة)، أي أن الحاسد - لغباوته وفساد طَوِيَّته - يكون ساخطًا على الله تعالى ومعترضًا عليه أن أنعم على المحسود بما أنعم، ولا يضر الله تعالى سخط الساخطين، ولا يحوِّل مجاري نعمه حسد الحاسدين، فالله يختص برحمته من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم، أسند كلاًّ من هذين الأمرين إلى اسم الذات الأعظم؛ لبيان أنهما حقه لذاته، فليس لأحد من عبيدة أدنى تأثير في منحهما ولا في منعهما[1].

وقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ (البقرة: ١٠٩)، وذلك ما يفعله الحقد اللئيم بالنفوس.. الرغبة في سلب الخير الذي يهتدي إليه الآخرون.. لماذا؟ لا لأن هذه النفوس الشريرة لا تعلم، ولكنها لأنها تعلم!

﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾، والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الإسلام والمسلمين، وما زالت تفيض، وهو الذي انبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلها وما تزال، وهو الذي يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه، ويعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهود اليهود لزعزعة العقيدة في نفوسهم؛ وردهم بعد ذلك إلى الكفر الذي كانوا فيه، والذي أنقذهم الله منه بالإيمان، وخصهم بهذا بأعظم الفضل وأجل النعمة التي تحسدهم عليها يهود!

وهنا - في اللحظة التي تتجلى فيها هذه الحقيقة، وتتكشف فيها النية السيئة والحسد اللئيم - هنا يدعو القرآن المؤمنين إلى الارتفاع عن مقابلة الحقد بالحقد، والشر بالشر، ويدعوهم إلى الصفح والعفو حتى يأتي الله بأمره وقتما يريد.

---

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١، ص٤١٢، ٤١٣.

الخلاصة:

- النسخ هو: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه، وهو جائز عقلًا ولا يترتب على وقوعه محال؛ لأن مصالح العباد تختلف باختلاف الزمان والمكان، كما أنه فعل من أفعال الله تعالى، وهو ﷻ يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، وقد أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ (البقرة).
- وجود النسخ في الكتب السابقة يرد على اليهود في دعواهم بامتناع وقوع النسخ أو جوازه، فضلًا عن خلطهم بين النسخ بمعناه السابق، والبداء بمعنى ظهور ما كان خافيا، وهو محال في حق الله تعالى.
- النسخ متفق مع قواعد العقل والمنطق، والله ﷻ أعلم بما يصلح حال عباده في كل زمان ومكان، وفي مختلف أحوالهم.

الشبهة الحادية والثلاثون

استنكار تحويل القبلة(*) ®

مضمون الشبهة:

استنكر السفهاء من الناس - اليهود والمنافقون ومشركو العرب - تحويل قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى البيت الحرام، وتعجبوا قائلين: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ (البقرة: ١٤٢) ألا يثبتون على قِبلة واحدة؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) المشرق والمغرب مِلك لله، وله ﷻ التصرف فيهما كيف شاء.

٢) في تحويل القبلة اختبار وامتحان ليظهر المؤمن من المنافق.

٣) مقولة اليهود ناشئة عن الحسد وكتمان الحق.

٤) لكل أهل مِلَّة قبلتهم التي يتجهون إليها.

٥) الإخبار بقول السفهاء قبل أن يقولوه دليل على نبوة محمد ﷺ.

٦) جوهر الدين في طاعة الله وامتثال أوامره.

التفصيل:

أولا. المشرق والمغرب ملك لله:

من المعلوم أن رسول الله ﷺ قد صلَّى نحو قبلة بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يحب أن يُوجَّه نحو الكعبة، وكانت اليهود قد فرحت بتوجهه نحو بيت المقدس، فلما أنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٤٤)، ارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ (البقرة: ١٤٢)، وقد وقع لأهل النفاق والريبة شك وزيغ وتخبيط، فأنزل الله جوابًا عليهم قوله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ (البقرة).

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (البقرة/ ١٤٢).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ١٤٢: ١٤٨).
® في "تحويل القِبلة" طالع: الشبهة السادسة والثلاثين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). والشبهة الرابعة، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

فالاتجاهات كلها لله، وملك المشرق والمغرب وما بينهما لله سبحانه، فالحكم والتصرُّف والأمر كله لله وحده، وليست العبرة بالاتجاه إلى المشرق والمغرب، وإنما العبرة بطاعة الله ﷻ وامتثال أمره، كما قال ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (البقرة: ١٧٧)، فحيثما وجَّهنا توجَّهنا، فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة فنحن عبيده وفي تصرفه، وخدّامه حيثما وجهنا وتوجهنا، فله أن يكلِّف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء، وله سبحانه الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك، فالجهات كلها لله، لا فضل لجهة منها على جهة بذاتها، وإن لله أن يخصص منها ما شاء فيجعله قبلة لمن يشاء: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ (البقرة: ١٤٢)، كما أراد الله ﷻ أن ينبِّه أن له ﷻ بعبده ورسوله محمد ﷺ وأمته عناية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجههم إلى الكعبة التي هي بناء إبراهيم الخليل ﷵ، ولهذا قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٤٢﴾ (البقرة).

ثانيًا. امتحان الناس واختبارهم:

من ردود القرآن على هؤلاء اليهود والمنافقين والمشركين أيضًا أن يوضح أن أمر تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فيه امتحان واختبار وفتنة من الله ﷻ ليظهر المنافق المرتاب من المؤمن المُوقن، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ (البقرة: ١٤٣)، فقد قال أهل النفاق لمَّا حُوِّلت القبلة: ما بالُ محمد يحوِّلنا مرة إلى ها هنا ومرة إلى ها هنا، وقال بعض المسلمين: كيف بإخواننا الذين ماتوا وقتلوا وكانوا يصلون إلى بيت المقدس؟! وقال أهل الشرك: كما رجع محمد إلى قبلتنا فسيرجع إلى ديننا، أما أهل الإيمان الكامل واليقين الصادق فعلموا أن كل ذلك حق، وأنه من عند الله ﷻ وسمعوا له وأطاعوا، ورضوا به وقرَّت أعينهم.

وإذًا فتحويل القبلة شرعه الله لحكم عظيمة؛ منها أن يظهر حال من يتَّبع الرسول ويطيعه ويستقبل معه حيثما توجه، ممَّن يرتد عن دينه، وإن كان ذلك الأمر كبيرًا وعظيمًا في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال ﷻ: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى﴾ (البقرة: ١٤٣).

أما الذين في قلوبهم مرض فإنه كلما حدث أمر أصابهم شك، أما المؤمنون فيحصل لهم اليقين والتصديق، ويزدادون إيمانًا مع إيمانهم، كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ (التوبة)، وقال ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ (فصلت: ٤٤)، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ (الإسراء)، وأما من مات وقد صلَّى نحو بيت المقدس فقد وضح الله أن

ثواب صلاته لم يذهب هباء، ولا يظلم ربك أحدًا، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (البقرة)(®).

ثالثًا. كتمان اليهود للحق حسدًا وعنادًا:

من ردود القرآن أيضًا على اليهود أنه أبان حسدهم وكتمانهم الحقَّ ـ وذلك شأنهم وعادتهم ـ عنادًا وكفرًا، فهم يعلمون بما في كتبهم عن أنبيائهم أن الله سيوجّه نبيَّه إلى قبلة البيت الحرام، ولهذا تهددهم الله عز وجل فقال: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (البقرة).

فهؤلاء اليهود يعلمون صحة ما جاء به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، لكنهم كاتمون للحق، لذلك قال عز وجل في الردِّ عليهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (البقرة).

ومن ردِّ القرآن عليهم أيضًا أنه بيَّن أن هؤلاء لو أُقيم عليهم كلُّ دليل على صحة ما جاء به رسول الله ﷺ ولو أتى لهم بكل آية ما اتبعوه ولا اتبعوا قبلته، فهذه الآيات لا تنفع من ختم الله على قلبه؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٖ قِبْلَةَ بَعْضٖ ﴾ (البقرة: ١٤٥).

وهذا كما قال عز وجل أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (يونس)، وقال أيضًا: ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٖ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (يونس)، فهؤلاء قوم لا تقنعهم الدلائل ولا تصرفهم الحجج عن عنادهم، بل هم معاندون متعصِّبون مقلِّدون لا نظر لهم ولا استدلال.

رابعًا. لكل أهل ملة قبلتهم:

بيَّن الله عز وجل أن لكل أهل ملة وأهل دين وجهة وقبلة يتجهون إليها، فلليهودي قبلة يتجه إليها، وللنصراني قبلة يتجه إليها، ولكم أيها المسلمون قبلتكم الحق التي تتجهون إليها، قال عز وجل: ﴿ وَلِكُلّٖ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ (البقرة: ١٤٨)، وهذا كقوله عز وجل: ﴿ لِكُلّٖ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةٗ وَمِنْهَاجٗا ﴾ (المائدة: ٤٨)، وقوله عز وجل: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ (الحج: ٦٧)، وقوله أيضًا: ﴿ قُلْ كُلّٞ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ (الإسراء: ٨٤)، فإذ كان الأمر كذلك، وكان لكل قوم قبلتهم، فأي شبهة من العقل لهؤلاء المشاغبين الطاعنين في النبوة والتشريع!

خامسًا. دليل نبوة محمد ﷺ:

من ردود القرآن القاطعة، والتي هي أكبر دليل على نبوَّة محمد ﷺ فيما يخص مسألة تحويل القبلة، أن الله عز وجل أخبر نبيه ﷺ بقول السفهاء قبل أن يقولوه، وقد وقع الأمر كما أخبر عز وجل نبيَّه، وكما أخبر نبيُّه الناسَ.

وهذا دليل من دلائل نبوته ﷺ ونوع إعجاز للإخبار بالغيب، وكان بإمكان اليهود والمنافقين والمشركين أن يبدِّلوا كلام الله ويمتنعوا عن قولهم الذي

(®) في "الحكمة من تحويل القبلة" طالع: الوجه الثاني من الشبهة الرابعة، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية). والوجه الأول من الشبهة السادسة والثلاثين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

قالوه، ويُكذِّبوا بذلك القرآن فيما أخبر، لكنهم لم يستطيعوا؛ لأنه ليس لهم من الأمر شيء، وهذا قدر الله، والملك ملكه، وهذا كما حدث مع أبي لهب، حيث أنزل الله فيه قرآنًا يُتْلَى وأنه سوف يصلى نارًا ذات لهب، ومع ذلك لم يأتِ أبو لهب يومًا ليقول - ولو زعمًا وادعاءً -: إنه أسلم وأنه بذلك يكذب ما جاء به محمد.

ولعل من فوائد الإخبار بقول السفهاء قبل وقوعه بالإضافة إلى ما سبق، توطين النفس وتأهيلها لاستقبال ما سيقوله هؤلاء السفهاء وتهوين صدمة القول وتخفيف روعته، والإشارة إلى سفاهة القائل وجهله قبل أن يتكلم بالكلام.

سادسًا. جوهر الدين في طاعة الله:

ويبين الله في آيات أخرى - استكمالًا لهذا الرد - أن مُخَّ الدين وجوهره ليس أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب لذاته، ولكن البر هو المسارعة في الخيرات والإيمان بالله واتباع أوامره وامتثال طاعته، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (البقرة: ١٧٧)، والمعنى: أن الحكمة في هذه المسألة هي طاعة الله ﷻ وامتثال أمره والتوجه حيثما وجّه واتباع ما شرّع، وليس في لزوم التوجه إلى جهة المشرق والمغرب بِرٌّ ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، كما قال ﷻ في الأضاحي والهدايا: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ (الحج: ٣٧).

الخلاصة:

- الكون كله ملك لله بما فيه المشرق والمغرب، وله سبحانه المشيئة في أن يوجه من يشاء إلى ما يشاء من مشرق الأرض أو مغربها.
- في تحويل القبلة ابتلاء من الله ليظهر المنافق المرتاب من المؤمن الموقن.
- مقولة اليهود ناشئة عن الحسد للمسلمين وكتمان الحق من الاعتراف بنبوة محمد ﷺ التي بشرت بها التوارة.
- لكل أهل ملة قبلتهم التي يوجهون إليها، فلماذا ينكرون على المسلمين أن تكون لهم قبلتهم الخاصة بهم.
- الإخبار بقول السفهاء قبل أن يقولوه دليل على نبوة محمد ﷺ.
- الحكمة النهائية من وراء الأحكام والأوامر والنواهي هي اتباع الشرع وامتثال الأمر، وهذا هو جوهر الدين.

الشبهة الثانية والثلاثون

الاحتجاج بفتنة النساء للقعود عن الجهاد(*)

مضمون الشبهة:

احتجَّ الجدّ بن قيس أخو بني سلمة في التخلُّف عن جهاد الروم بسبب خوفه من الفتنة بنسائهم والإعجاب بجواريهم إذا هو جاهد مع الرسول، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ (التوبة: ٤٩)، وروي أن غيره - من المنافقين - قال لمّا دعاهم النبي ﷺ

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (التوبة/ ٤٩).
الآية التي ورد فيها الرد على الشبهة: (التوبة/ ٤٩).

إلى غزو تبوك: إنه ليفتنكم بالنساء.

وجه إبطال الشبهة:

هذه المقولة أراد أصحابها التخلف عن الجهاد مع الرسول ﷺ، وهؤلاء بما قالوا سقطوا في الفتنة الحقيقية.

التفصيل:

هذه المقولة أراد بها أصحابها التخلف عن الجهاد مع الرسول:

هذه شبهة داحضة ما أراد بها قائلُها إلا التخلف عن الجهاد والقعود عن الغزو فرارًا وهروبًا وجبنًا، ومثل هذا المنافق في نفاقه لا يخشى على نفسه إثم الافتتان بالنساء؛ إذ لا يجد من دينه مانعًا من التمتع بهن وهو يُحبهن، بل شأن ذلك أن يكون مُرغبًا في هذه الغزوة.

لقد ردَّ الله تعالى شبهته وشبهة من وافقه عليها وردّدوا معناها بقوله ﷻ: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ (التوبة: ٤٩). فبدأ بأداة الافتتاح ﴿أَلَا﴾ التي تفيد التنبيه والتأمل فيما بعدها، ولتحقيق مضمونه إن كان خبرًا لتوجيه السمع والقلب له، وعبر عن افتتانهم بالسقوط في الفتنة للمبالغة، وقدم الظرف ﴿فِي ٱلْفِتْنَةِ﴾ على عامله ﴿سَقَطُوا۟﴾ للدلالة على الحصر، والمعنى: ألا فليعلموا أنهم سقطوا وتردّوا بهذا القول في هاوية الفتنة بأوسع معناها، لا في شيء آخر من شبهاتها أو مشابهاتها، من حيث يزعمون اتقاء التعرض لشبهة نوع من أنواعها، وهو الإثم بالنظر إلى جمال نساء الروم واشتغال القلب بجمالهن، فتردّوا بذلك في شر مما اعتذروا به، فعذرهم أقبح من الذنب.

يقول الشيخ ابن عاشور: "والإتيان بأداة الاستفتاح في جملة ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ للتنبيه على ما بعدها من عجيب حالهم؛ إذ عاملهم الله بنقيض مقصودهم فهم احترزوا عن فتنة فوقعوا في الفتنة. فالتعريف في الفتنة ليس تعريف العهد إذ لا معهود هنا، ولكنّه تعريف الجنس المؤذن بكمال المعرّف في جنسه، أي في الفتنة العظيمة سقطوا، فأي وجه فرض في المراد من الفتنة حين قال قائلهم ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ كان ما وقَع فيه أشدَّ ممَّا تَفَصَّى[1] منه، فإن أراد فتنة الدين فهو واقع في أعظم الفتنة بالشرك والنفاق، وإن أراد فتنة سوء السمعة بالتخلّف فقد وقع في أعظم منها بافتضاح أمر نفاقهم، وإنْ أراد فتنة النكد بفراق الأهل والمال فقد وقع في أعظم نكد بكونه ملعونًا مبغوضًا للناس. وتقدّم بيان ﴿ٱلْفِتْنَةِ﴾ قريبًا.

والسقوط مستعمل مجازًا في الكَوْن فجأة على وجه الاستعارة: شُبّه ذلك الكَوْن بالسقوط في عدم التهيّؤ له وفي المفاجأة باعتبار أنّهم حصلوا في الفتنة في حال أمنهم من الوقوع فيها، فهم كالساقط في هُوّة على حينِ ظَنّ أنّه ماش في طريق سهل"[2].

ثم توعدهم الله تعالى على الفتنة التي تردّوا فيها بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾ (التوبة)، والتعبير يرسم مشهدًا كأن الفتنة فيه هاوية يسقط فيها المفتونون؛ وكأن جهنم من ورائهم تحيط بهم، وتأخذ عليهم المنافذ والمتجهات فلا يفلتون، كناية عن مقارفتهم للخطيئة كاملة وعن انتظار العقاب عليها

١. تَفَصَّى: تخلّص أو تهرّب.
٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١٠، ص٢٢١.

حتمًا، جزاء الكذب والتخلف والهبوط إلى هذا المستوى المنحط من المعاذير، وتقريرًا لكفرهم وإن كانوا يتظاهرون بالإسلام وهم فيه منافقون[1].

الخلاصة:

إن الفتنة الحقيقية في القعود عن الجهاد والتخلف عن مسير رسول الله ﷺ وليست في الخروج للغزو ولا في جمال بنات الأصفر، إنما هي اعتذارات واهية، فهؤلاء قد سقطوا في الفتنة بالفعل حينما تخلفوا عن رسول الله ﷺ.

الشبهة الثالثة والثلاثون

استنكار النهي عن التطفيف أو البخس لأن الأموال ملك الأفراد يفعلون فيها ما يشاءون(*)

مضمون الشبهة:

استنكر قوم شعيب على نبيهم حين نهاهم عن التّطفيف في الميزان قائلين: إنّما هي أموالنا نفعل فيها ما نشاء، ونحن راضون فيما بيننا وبين بعضنا بالبخس، فلمَ تمنعنا منه؟! قال ﷻ حكاية عنهم: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ (هود).

وجوه إبطال الشبهة:

١) تحقيق العدل في الوزن والكيل فيه مصلحة الناس جميعًا.

٢) بخْس الناس حقوقَهم فساد في الأرض.

٣) العقل يفرض على هؤلاء أن يأخذوا ما يدعو إليه النبي على فرض احتمال صدقه.

التفصيل:

يثير أهل مدين هذه الحجة الواهية ردًّا على نبي الله شعيب حين نهاهم عن نقصان المكيال والميزان والتطفيف فيه، وحين نهاهم عن بخس الناس أشياءهم، ويقولون له: إذا وقع التراضي بيننا بالبخس في الأشياء، ورضي بذلك كل من البائع والمشتري فلا وجه إذًا لما تأمرنا به من منعه.

وقيل: إن مما نهاهم عنه شعيب عليه السلام هو قطع الدراهم وكسرها وحذفها فهذا قولهم: ﴿أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟﴾ أي: إنما هي أموالنا ودراهمنا ودنانيرنا نفعل فيها ما نشاء، إن شئنا قطعناها وإن شئنا حذفناها، وإن شئنا طرحناها، وقد كانوا يقرضون من أطراف الصحاح من الدراهم والدنانير لتفضل لهم القراضة، وكانوا يتعاملون على الصحاح عدًّا وعلى المقروضة وزنًا، وكانوا يبخسون في الوزن.

فجاء القرآن ليصحح لهم تلك التصورات الفاسدة على النحو الآتي:

أولا. تحقيق العدل في الوزن والكيل فيه مصلحة للناس، وهي قضية أمانة وعدالة جاءت بإقرارها الشريعة:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٣، ص١٦٦٤.

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (هود/ ٨٧).

الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (هود/ ٨٤: ٨٨، الشعراء/ ١٨١: ١٨٤).

إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ (هود).

والقضية هنا هي قضية الأمانة والعدالة بعد قضية العقيدة والدينونة، أو هي قضية الشريعة والمعاملات التي تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة، فقد كان أهل مدين - وبلادهم تقع في الطريق من الحجاز إلى الشام - ينقصون المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم، أي ينقصونهم قيمة أشيائهم في المعاملات، وهي رذيلة تمس نظافة القلب واليد كما تمس المروءة والشرف، كما كانوا - بحكم موقع بلادهم - يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة الآيبة بين شمال الجزيرة وجنوبها، ويتحكموا في طرق القوافل ويفرضوا ما يشاءون من المعاملات الجائرة التي وصفها الله في هذه السورة.

ومن ثَمَّ تبدو علاقة عقيدة التوحيد والدينونة لله وحده بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء، ومكافحة السرقة الخفية سواء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول، فهي بذلك ضمانة لحياة إنسانية أفضل، وضمانة للعدل والسلام في الأرض بين الناس، وهي الضمانة الوحيدة التي تستند إلى الخوف من الله وطلب رضاه، فتستند إلى أصل ثابت، لا يتأرجح مع المصالح والأهواء.

إن المعاملات والأخلاق لا بد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلِّبة. هذه هي نظرة الإسلام، وهي تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التي ترتكن إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم.

وهي حين تستند إلى ذلك الأصل الثابت ينعدم تأثرها بالمصالح المادية القريبة؛ كما ينعدم تأثرها بالبيئة والعوامل السائدة فيها.

فلا يكون المتحكم في أخلاق الناس وقواعد تعاملهم من الناحية الأخلاقية هو كونهم يعيشون على الزراعة أو يعيشون على الرعي أو يعيشون على الصناعة.. إن هذه العوامل المتغيرة تفقد تأثيرها في التصور الأخلاقي وفي قواعد المعاملات الأخلاقية، حين يصبح مصدر التشريع للحياة كلها هو شريعة الله، وحين تصبح قاعدة الأخلاق هي إرضاء الله وانتظار ثوابه وتوقِّي عقابه، وكل ما يدَّعيه أصحاب المذاهب الوضعية من تبعية الأخلاق للعلاقات الاقتصادية وللطور الاجتماعي للأمة يصبح لغوًا في ظل النظرة الأخلاقية الإسلامية: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾.

فقد رزقكم الله رزقًا حسنًا، فلستم في حاجة إلى هذه الدناءة لتزدادوا غنًى، ولن يفقركم أو يضركم أن لا تنقصوا المكيال والميزان، بل إن هذا الخير ليهدده ما أنتم عليه من غش في المعاملة، أو غصب في الأخذ والعطاء.

﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾، إما في الآخرة عند الله، وإما في هذه الأرض حين يؤتي هذا الغش والغصب ثمارهما المرة في حالة المجتمع وفي حركة التجارة، وحين يذوق الناس بعضهم بأس بعض، في كل حركة من الحركات اليومية وفي كل

تعامل وفي كل احتكاك.

ومرة أخرى يكرر شعيب عليه السلام نصحه في صورة إيجابية بعد صورة النهي السلبية: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾. وإيفاء الكيل والميزان أقوى من عدم نقصهما؛ لأنه أقرب إلى جانب الزيادة.

وللعبارات ظل في الحس، وظل الإيفاء غير ظل عدم النقص، فهو أكثر سماحة ووفاء.

ثانيًا. بخس الناس حقوقهم فساد في الأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾. وهذه أعم من المكيلات والموزونات، فهو يشمل حسن تقويم أشياء الناس من كل نوع: تقويمها كيلًا أو وزنًا أو سعرًا أو تقديرًا، وتقويمها ماديًّا أو معنويًّا. وقد تدخل في ذلك الأعمال والصفات؛ لأن كلمة "شيء" تطلق أحيانًا ويراد بها غير المحسوسات.

وبخس الناس أشياءهم فوق أنه ظلم يشيع في نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم أو الحقد، أو اليأس من العدل والخير و حسن التقدير، وكلها مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية والنفوس والضمائر، ولا تُبقي على شيء صالح في الحياة.

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (هود)، والعثو هو الإفساد، فلا تفسدوا متعمدين الإفساد، قاصدين إلى تحقيقه، ثم يوقظ وجدانهم إلى خير أبقى من ذلك الكسب الدنس الذي يحصلون عليه بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم في التقدير: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (هود: ٨٦).

فما عند الله أبقى وأفضل، وقد دعاهم في أول حديثه إلى عبادة الله وحده أي: الدينونة له بلا شريك، فهو يذكرهم بها هنا، مع ذكر الخير الباقي لهم عند الله إن آمنوا كما دعاهم، واتبعوا نصيحته في المعاملات وهي فرع عن ذلك الإيمان.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، ثم يخلّي بينهم وبين الله الذي دعاهم إليه، ويبين لهم أنه لا يملك لهم شيئًا، كما أنه ليس موكَّلًا بحفظهم من الشر والعذاب، وليس موكَّلًا كذلك بحفظهم من الضلال ولا مسئولًا عنهم إن هم ضلُّوا، إنما عليه البلاغ وقد أداه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾﴾. ومثل هذا الأسلوب يُشعِر المخاطبين بخطورة الأمر، وبثقل التبعة، ويوقفهم وجهًا لوجه أمام العاقبة بلا وسيط ولا حفيظ.

ولكن القوم كانوا قد عتوا ومَرَدُوا على الانحراف والفساد وسوء الاستغلال، فقالوا له: ﴿يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ (هود).

وهو رد واضح التهكم، بيّن السخرية في كل مقطع من مقاطعه، وإن كانت سخرية الجاهل المطموس، والمعاند بلا معرفة ولا فقه: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ﴾.

فهم لا يدركون أو لا يريدون أن يدركوا أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة، ومن صور العبودية والدينونة، وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله، ونبذ ما يعبدون من دونه هم وآباؤهم، كما أنها لا تقوم إلا

بتنفيذ شرائع الله في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل شأن من شئون الحياة والتعامل. فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة[1].

ثالثًا. العقل يفرض على هؤلاء أن يأخذوا بما دعاهم إليه نبيهم:

وقد ردَّ نبي الله شعيب عليهم بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ (هود).

والمعنى: إن كنتُ على بينة من ربي فماذا يسعكم في تكذيبي؟ أو ماذا ينجيكم من عاقبة تكذيبي؟ وهو تحذير لهم على فرض احتمال أن يكون صادقًا، فالحزم أن تأخذوا بهذا الاحتمال، والحزم أيضًا أن تنظروا في كُنه ما نهيتكم عنه لتعلموا أنه لصلاحكم وفائدتكم ونفعكم، وفيه سداد أمركم وجلب الخير والسعادة لكم، فإن ما نهيتكم عنه هو العدل والقسط بأن توفُّوا الناس حقوقهم مما يكال أو يوزن على ما وجب لهم من التمام بغير بخس ولا نقص، وما أنا برقيب عليكم، ولكن الله عليكم رقيب وحفيظ في معاملاتكم وسائر أحوالكم، ثم بيّن لهم أيضًا تعليل نهيه بأنه يراهم بخير وسعة ونعمة، وثروة واسعة في الرزق، فلا تغيِّروا نعمة الله عليكم بمعصيته والإضرار بعباده، ففي هذه النعمة ما يغنيكم عن أخذ أموال الناس بغير حق، ثم ذكر بعد هذه العِلة علَّة أخرى، وهي التذكير لهم بعذاب الآخرة، كما أن العلة الأولى فيها التذكير لهم بنعمة الدنيا، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ۝٨٤ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٨٥﴾ (هود).

والمراد بالإيفاء في الكيل والميزان هو الإتمام والعدل، وهو عدم الزيادة والنقص، وهذا يؤدي إلى أن يأخذ كل واحد حقه دون تعد ولا ظلم، وهذا مما تواطأت عليه العقول الرشيدة، وتوافقت عليه الفِطَرُ السليمة.

وفي قوله عليه السلام لهم: ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ (هود: ٨٨) إشارة إلى تعريفهم ما جهلوه، وتنبيههم إلى ما غفلوا عنه، وهو أن الله عز وجل هو الرازق، وما أموالهم التي ادّعوا إضافتها لهم على وجه التملُّك الخاص ما هي إلا رزق الله، فالمال مال الله على الحقيقة، وهم مستخلفون عليه، فأبان بذلك مُغالطتهم وخطأهم في قولهم: ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ (هود: ٨٧)، ولذلك قال لهم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ۝٨٦﴾ (هود)؛ إذ الله هو الحفيظ عليهم والمراقب لهم في أفعالهم وتصرفاتهم في أموالهم، فما ينبغي لهم أن يتصرفوا فيها إلا بالحقِّ وبما يوافق مراد الله الذي وهبهم إياها.

الخلاصة:

- تحقيق العدل في الوزن والكيل يؤدي إلى أن يأخذ كل إنسان حقه دون تعد أو ظلم، أما بخس الناس حقوقهم فهو فساد في الأرض.

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص١٩١٨، ١٩١٩.

- العقل والمنطق يفرضان على هؤلاء أن يعقلوا ما أمرهم به نبيهم لاحتمال الصحة فيه، فإن ظهر الصلاح والفائدة والنفع لم يسؤهم ذلك، وإن ظهر الفساد عادوا إلى اعتقادهم.
- الله هو الرازق، والمال أمانة مستودعة عند الإنسان، ومن ثَمَّ يعاقب عليه إن أنفقه في غير موضعه، ويثاب عليه إن أنفقه في موضعه.

ثانيًا. شبهات تتعلّق بالاعتراض على أوامر الله ﷻ

الشبهة الرابعة والثلاثون

دعوى أن خيريَّة إبليس على آدم في الخلق تمنعه من السجود له(*)

مضمون الشبهة:

اعترض إبليس على السجود لآدم بحجّة مؤدَّاها أنه لا يسجد الفاضل للمفضول، وهو يرى أنه أفضل من آدم؛ لأنه مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والنار أشرف من الطين في أصل العنصر، فكيف يسجد له؟! قال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝١٢﴾ (الأعراف).

وجها إبطال الشبهة:

1) مقولة إبليس عذر أقبح من ذنب، ومنشؤها الحسد والاستكبار، وجوابه مليء بالجهل والغباوة، لأنه لا يمكن لأحد أن يعترض على الله، فلله الحجة البالغة.

2) قياس إبليس قياس فاسد، ولا نسلم بأن النار خير من الطين، بل العكس هو الصحيح.

التفصيل:

أولا. عذر أقبح من ذنب:

مقولة إبليس ـ لعنه الله ـ هي من العُذْر الذي هو أقبح وأكبر من الذنب، فقد امتنع من الطاعة؛ لأنه يرى نفسه فاضلًا وآدم مفضولًا، فكأنه قال: أنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له، والفاضل لا يؤمر بالسجود للمفضول؟!

ثم ذكر إبليس ـ لعنه الله ـ حجته في الاستنكاف عن السجود لآدم، وهي أنه خير منه لأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خُلق منه آدم عليه السلام وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله ﷻ خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس الملعون قياسًا فاسدًا في مقابلة النص: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ (ص)، فأخطأ، فقبَّحه الله في قياسه الفاسد.

وجواب إبليس السابق يتضمن ضروبًا من الجهل الفاضح، وما أوقعه في ذلك ـ لعنه الله ـ إلا حسده وكبره؛ فإنهما يعميان البصائر، ويتمثل ذلك فيما يلي:

١. الاعتراض على ربه وخالقه كما تضمنه جوابه، ومثله في هذا كل من يعترض على كلام الله ﷻ فيما لا يوافق هواه، وهذا كفرٌ لا يقع مثله من مؤمن بالله وبكتابه، فإن المؤمن إذا خفيت عليه حقيقة أو حكمة لله في شيء من كلامه بحث عنها بالتفكر والبحث وسؤال

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (الأعراف/ ١٢، الحجر/ ٣٣، ص/ ٧٦، الإسراء/ ٦١، ٦٢).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (الأعراف/ ١٣، الحجر/ ٣٤، ص/ ٧٥، البقرة/ ٣٤).

العلماء، وصبر إلى أن يهتدي إلى ما يطمئنُّ به قلبه، مكتفيًا قبل ذلك بأن الله ﷻ يعلم ما لا يعلم من حقائق خلقه، وحكم شرعه، وفوائد أمره ونهيه، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (الملك)، فهو ﷻ لا يعترض عليه ذو عقل بعقله، ولا يسأله مخلوق عن علة فعله.

٢. **الاحتجاج على ربه بما يؤيد به اعتراضه**، والمؤمن المذعن لا يحتجُّ على ربه، بل يعلم أنَّ لله الحجة البالغة: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ (الأنعام: ١٤٩).

٣. **جعل امتثال أمر الرب ﷻ مشروطًا باستحسان العبد له، وموافقته لرأيه وهواه**، وهو رفضٌ لطاعة الرب، وترفُّع عن مرتبة العبد، وتعالٍ منه إلى وضع نفسه موضع الند، وهو في حكم الدين كفر، وفي العقل حماقة وجهل، فإن الرئيس لأية حكومة أو جيش أو جمعية أو شركة إذا كان لا يطيعه المرءوسون له إلا فيما يوافق أهواءهم وآراءهم، لا يلبث أمرهم أن يفسد بأن تختل الحكومة وتسقط، وينكسر الجيش ويهلك، وتنحل الشركة وتُفلس، فإذا كان الصلاح والنظام في كل أمر يتوقف على طاعة الرئيس، وهو ليس ربًّا تجب طاعته لذاته ولا لنعمه، ولا معصومًا من الخطأ فيما يأمر به، فما القول في وجوب طاعة رب العالمين على عبيده؟! ولذا قال الحسن: قاس إبليس، وهو أول من قاس، يعني قوله: ﴿خَيْرٌ مِنْهُ﴾ (الأعراف: ١٢).

ثانيًا. استدلال فاسد:

إن استدلال إبليس على الخيرية بالمادة التي كان منها التكوين استدلال فاسد من عدة وجوه:

١. أن خيرية المواد بعضها على بعض ليس من الحقائق التي يمكن إثباتها بالبرهان، وإنما هي أمور اعتبارية تختلف فيها الآراء والأهواء، وأصول المخلوقات المختلفة التركيب عناصر بسيطة قليلة يرجح أنها متحولة عن أصل واحد.

٢. أن بعض الأشياء النفيسة أصلها خسيس، فالمسك من الدم، وجوهر الألماس من الكربون الذي هو أصل الفحم، وكذلك قد يكون الخسيس أصله نفيس؛ مثل الأقذار التي تبقى من مادة الطعام الذي يُشتهى ويُحبُّ.

٣. أن الملائكة خلقوا من النور، وإبليس خُلق من مارج من النار، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ (الكهف: ٥٠)، وقال أيضًا: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾﴾ (الرحمن)، والمارج من النار هو اللهب المختلط بالدخان، فما فوقه دخان، وما تحته لهب صاف، فإن مادة المرج معناها الخلط والاضطراب، ولا شك في أن النور خير من النار، والنار الصافية خير من اللهب المختلط بالدخان، وقد سجد الملائكة المخلوقون من النور امتثالًا لأمر الله ﷻ، فكان أولى به أن يسجد هو، بل كان أولى بأن يقال له: أولى لك فأولى.

٤. إذا سلمنا جدلًا أن خيرية الشيء ليست في ذاته وصفاته الخاصة التي تفصلها عن غيرها من مقومات نوعه ومشخصات نفسه وصفاته التي يمتاز بها عن غيره، وإنما هي تابعة للمادة التي هي أصل جنسه، فلا نُسلِّم أن النار خير من الطين.

فإن جميع الأحياء النباتية والحيوانية في هذه الأرض مخلوقة من الطين بالذات أو بالواسطة، وهي خير ما

فيها بكل نوع من أنواع الاعتبارات التي تعرفها العقول، وليس للنار أو لمارجها مثل هذه المزايا ولا ما يقرب منها، ثم إن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبُّت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليسَ عنصرُهُ، ونفع آدمَ عنصرُه بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله ﷻ، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

٥. أن اللعين غَفَل عن التشريف العظيم والتكريم الذي خصَّ الله به آدم من خَلْقِه بيده، والنفخ فيه من روحه، وجعل استعداده العلمي والعملي فوق استعداد غيره من خلقه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له.

فهذه كلها أصول الجهل والغباوة التي أوقع إبليسَ فيها حسدُه لآدم واستكباره عن طاعة الله بالسجود له، فكان بَدء الذنوب الكِبْر، قال ﷻ: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (البقرة)، وقال تعالى له: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ (الأعراف: ١٣)[1]. فكان جزاؤه اللعنة والطرد من رحمة الله تعالى، قال ﷻ: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ (ص).

الخلاصة:

- امتناع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام لأنه يرى نفسه فاضلًا وآدم مفضولًا، وقاس ذلك على أصل الخلق لكليهما، وهو قياس فاسد، لأنه يرى مادة خلقه خيرًا من مادة خلق آدم، وغاب عنه تشريف الله تعالى لآدم حين خلقه بيديه، وأمر الملائكة بالسجود له تشريفًا وتعظيمًا.
- الحسد والاستكبار هما اللذان دفعا إبليس أن يرد على المولى ﷻ بأنه خير من آدم، ولا يصح السجود له، وفي هذا الرد من الجهل والغباوة الكثير، فضلًا عن الاعتراض على أمر المولى ﷻ وتوهم أن الطاعة لله لا تكون إلا فيما يوافق الهوى.

الشبهة الخامسة والثلاثون

استنكار الإنفاق على الفقراء لأن الله لو شاء لأطعمهم(*)

مضمون الشبهة:

استنكر المشركون المعاندون الإنفاق - مما رزقهم الله ﷻ - على المحتاجين والفقراء من المسلمين محتجين بأن الله لو شاء لأغنى هؤلاء المحتاجين ولأطعمهم من رزقه، ويقولون: نحن نوافق مشيئة الله ﷻ فيهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ

---

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٨، ص٣٣٠: ٣٣٢.

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (يس/ ٤٧).
الآية التي ورد فيها الرد على الشبهة: (يس/ ٤٧).

كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ ﴾ (يس: ٤٧).

وجها إبطال الشبهة:

١) هذه مقولة ضلال يُقصد بها الاستهزاء، ولا حجة فيها لأن المؤمن لا يعترض على مشيئة الله.

٢) مقولتهم تدل على بخلهم وتمسُّكهم بالدنيا، فإن الغنى والفقر ابتلاء من الله للناس ببعضهم.

التفصيل:

أولا. هذه مقولة ضلال، لا حجة فيها:

يبيّن الله ﷻ أن اعتراض الكافرين على المؤمنين حين يأمرونهم بالإنفاق على الفقراء والمحاويج اعتراض باطل، وحُجَّةٌ داحضة حين قالوا: أيفقرهم الله ونطعمهم نحن، لو شاء الله لأغناهم كما أغنانا، وما هذه المقالة منهم إلا ضلال ظاهر، كما قال ﷻ: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٤٧﴾ (يس)، وهذا على قول من قال من أهل التأويل: إن هذه الجملة السابقة من قول الله لهم ردًا على مقالتهم، أو حكاية قول المؤمنين لهم، وقد كان هؤلاء الكافرون يسمعون من المؤمنين أنهم يعلّقون أفعال الله ﷻ بمشيئته فيقولون: لو شاء الله لأغنى فلانًا، ولو شاء لأعز فلانًا، ولو شاء لكان كذا وكذا، فأخرج الكفار ذلك الجواب السابق مخرج الاستهزاء بالمؤمنين، وكأنهم يقولون لهم: إذا كان الله رزقنا فهو قادر على أن يرزق هؤلاء الفقراء فلم تلتمسون الرزق مِنّا[1]؟ وهذا في الحقيقة احتجاج باطل؛ لأن الله ﷻ إذا ملّك عبدًا مالًا ثم أوجب عليه فيه حقًّا فكأنه انتزع ذلك القدر منه فلا معنى للاعتراض، وقد صدقوا في قولهم: لو شاء الله أطعمهم، ولكن كذبوا في الاحتجاج؛ لأن هذا غلط منهم ومكابرة ومجادلة بالباطل، فكلامهم وإن كان صحيحًا في نفسه، لكنهم لّما قصدوا به الإنكار لقدرة الله، أو إنكار جواز الأمر بالإنفاق مع قدرة الله، كان احتجاجهم من هذه الحيثيَّة باطلًا؛ لأن لله إرادة كونية، وإرادة شرعية، ولا يصح الاحتجاج بالإرادة الكونية على الإرادة الشرعية، وهو عين ما قاله الذين كفروا، فالأمر بالإطعام أمر شرعي، وقولهم: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ (يس: ٤٧) إشارة إلى المشيئة الكونية.

فلو كانوا يؤمنون بمشيئة الله التي يحتجون بها لأنفقوا مما رزقهم الله؛ فالمؤمن يسير وفق أمر الله ولا يعترض على مشيئته وقدره، ويدرك سنن الله في حياة العباد، فالله هو مطعم الجميع وهو رازق الجميع، وكل ما في الأرض من أرزاق ينالها العباد هي من خلقه، فلم يخلقوا هم لأنفسهم منها شيئًا، وما هم بقادرين على خلقه أصلًا[2]. وهذا مثل قوله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ (الأنعام: ١٤٨).

ثانيًا. مقولة بخل:

في هذه الآية الكريمة أكبر زجر عن اقتصاص ما يحكى عن البخلاء في اعتذارهم بمثل ما ضلل به المشركون ومجاراتهم فيه فإن ذلك من اللؤم وشح

١. الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ج٣، ص٣٢٥ بتصرف. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٣، ص٣٢.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٢٩٧٠، ٢٩٧١.

النفس وخبث الطبع[١].

فمقالة هؤلاء المشركين خطأ؛ لأن الله ﷻ أغنى بعض الخلق وأفقر بعضًا ليبلو الغني بالفقير فيما فرض له من الزكاة، والمؤمن لا يعترض على المشيئة، وإنما يوافق الأمر، أما مقالة هؤلاء: نحن نوافق مشيئة الله، فلا نطعم من لم يطعمه الله، فهذا مِمَّا يتمسَّك به البخلاء، وهو زعم باطل، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ (الإسراء)؛ فإن المال أعطاه الله قومًا وحرمه آخرين؛ ابتلاءً منه سبحانه للناس بعضهم ببعض فلا اعتراض لأحد على مشيئة الله ﷻ وحكمه في خلقه[٢]، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ (الأنعام).

الخلاصة:

- دعوى المشركين أنهم لا يعطون الفقراء من أموالهم لأن الله لو شاء لأغناهم - دعوى ضلال بيِّن عن إدراك طبيعة سنن الله وإدراك حركة الحياة وضخامتها وعظمة الغاية التي تتنوع من أجلها المواهب، وتتوزع بسببها الأموال والأرزاق.
- هذه دعوى تشي بعدم إدراكهم لسنن الله في حياة العباد؛ فالله هو مطعم الجميع وهو الرازق، ولو شاء لمنعهم رزقهم فماذا كانوا سيقولون حينئذ؟!

١. محاسن التأويل، القاسمي، مرجع سابق، ج٨، ص٦٨.

٢. الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ج٣، ص٣٢٥. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٣، ص٣٢.

- هذه الدعوى تنضح بلؤم دخائلهم، وخبث طباعهم، وشح نفوسهم وتطاولهم على من يدعونهم إلى البر والإنفاق.

ثالثًا. مزاعم جاهليَّة باطلة

الشبهة السادسة والثلاثون

دعوى أن الأولاد يجلبون الفقر والإملاق على آبائهم (*)

مضمون الشبهة:

ادّعى أهل الجاهلية أن الأولاد هم سبب الفقر والإملاق الذي يعيش فيه الآباء، مما يدفعهم إلى التخلص من هؤلاء الأولاد إما بالقتل المباشر للذكور، أو الوَأْد للبنات[٣] في التراب حتى الموت، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ (الأنعام)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ (الإسراء: ٣١).

وجها إبطال الشبهة:

١) المولى ﷻ هو المتكفِّل بالرزق لجميع خلقه، ومسبِّب الأسباب التي بمجرد الأخذ بها يتحصَّل

(*) الآيتان اللتان وردت فيهما الشبهة: (الإسراء/ ٣١، الأنعام/ ١٥١).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (الإسراء/ ٣١، الأنعام/ ١٣٧، ١٤٠، ١٥١، التكوير/ ٨، ٩).

٣. وَأْد البنات: دفنهنَّ أحياءً.

الرزق، فلا مجال إذن لجعل الفقر أو حتى خشيته ذريعة لقتل الأولاد.

٢) السبب الحقيقي لقتل هؤلاء الجاهليين أولادهم هو تزيين الشيطان لهم ذلك؛ خشية الفقر فضلًا عن سفه هؤلاء وقصور عقولهم.

التفصيل:

أولا. الرازق هو الله وهو مسبِّب الأسباب ليتكسَّب بها الخلق في حياتهم:

كان المشركون يقتلون أولادهم كما سوَّلت لهم الشياطين، فكانوا يئدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الفقر وخوف الإملاق كما حكى عنهم القرآن؛ لئلَّا تكثر عيلتهم، فنهاهم الله ﷻ عن ذلك، وفي هذا الصنيع يقول الشاعر:

إِذَا تَذَكَّرتُ بِنْتِي حِينَ تَنْدُبُنِي
فَاضَتْ لعَبْرَة بنْتِي عَبْرَتِي بِدَمِ
أُحَاذِرُ الفَقْر يَوْمًا أَنْ يُلِمَّ بها
فَيَكْشِفُ السِّتْرَ عن لَحْمٍ عَلَى وَضَمِ
تَهْوَى حَيَاتِي وَأَهْوى مَوْتَها شَفَقًا
والمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَّالٍ عَلَى الحُرَمِ

وقد ردّ الله ﷻ عليهم وأبطل معذرتهم؛ لأنهم جعلوا الفقر عذرًا لقتل الأولاد، ومع كون الفقر لا يصلح أن يكون داعيًا لقتل النفس، فقد بيَّن الله أنه لما خلق الأولاد، قد قدّر رزقهم، فمن الحماقة أن يظن الأب أن عجزه عن رزقهم يُحوِّل له قتلهم، وكان الأجدر به أن يكتسب لهم؛ ولذا قال الله ﷻ: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ (الإسراء: ٣١)، وقال: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (الأنعام: ١٥١).

فذكر الله رزقهم في آية الإسراء مع رزق آبائهم، وفي آية الأنعام قدّم رزق الآباء للإشارة إلى أنه كما رزق الآباء فلم يموتوا جوعًا كذلك يرزق الأبناء، والله ﷻ هو الرزاق ولستم ترزقون أنفسكم أو ترزقون أبناءكم، فرزقكم ورزقهم على الله.

وبين آية الأنعام وآية الإسراء فرقٌ في النظم، رغم ما بين الآيتين من تشابه، وهذا يتضح من وجهين هما:

١. أنه تعالى قال في آية الإسراء: ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ (الإسراء: ٣١)، وقال في آية الأنعام: ﴿ مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ (الأنعام: ١٥١)، ويقتضي ذلك أن الذين كانوا يئدون أولادهم أو بناتهم كانوا يئدونهم لغرضين: إما لأنهم فقراء لا يستطيعون الإنفاق عليهم، وربما لا يرجون من البنت إن كبرت إعانة على الكسب فهم يئدونها لذلك، فذلك مورد قوله ﷻ في سورة الأنعام: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾، فإن (مِنْ) التعليلية تقتضي أن الإملاق سبب قتلهن، فيقتضي أن الإملاق موجود حين القتل.

وإما أن يكون الحامل على القتل ليس فقر الأب، ولكن خشية عروض الفقر له، أو عروض الفقر للبنت بموت أبيها، إذ كانوا في جاهليتهم لا يورِّثون البنات، فيكون الدافع للوأد هو توقع الإملاق، فذلك مورد قوله ﷻ في سورة الإسراء ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾.

٢. من أجل الاعتبار في الفرق للوجه الأول قيل هنالك: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾، بتقديم ضمير الآباء على ضمير الأولاد؛ لأن الإملاق الدافع للوأد المحكي به في آية الأنعام هو إملاق الآباء، فقدَّم الإخبار

بأن الله ﷻ هو رازقهم وكمل بأنه رازق أولادهم، وأما الإملاق المحكي في سورة الإسراء فهو الإملاق المخشي وقوعه، فلذلك قدّم الإعلام بأن الله رازق الأولاد وكمل بأنه رازق آبائهم، وهذه من نكت القرآن في تقديم الأهمّ في كل موضع بحسبه[1].

ثانيًا. السبب الحقيقي لقتل هؤلاء الجاهليين أولادهم هو تزيين الشياطين لهم مع قصور عقولهم:

من ردود القرآن عليهم أنه بيّن لهم أن السبب الذي جعلهم يقتلون أولادهم يرجع إلى ثلاثة أمور هي:

١. تزيين الشيطان لهم، ذلك بدعوى خشية الفقر والعيلة، قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ (الأنعام).

فشركاؤهم من الشياطين هم الذين زيّنوا لهم ذلك، وليردوهم فيهلكوهم، ليلبسوا عليهم دينهم؛ أي: يخلطوه عليهم.

٢. اتقاء العار، وهو خاص بوأد البنات خشية أن يكنَّ سببًا للعار إذا كبرن، فهم يصورون البنت لوالدها الجبار العاتي ترتكب الفاحشة، أو تقترن بزوج دونه في الشرف والكرامة فتلحقه الخِسَّة، أو تُسبَى في القتال.

٣. التدين بنَحْر الأولاد للآلهة تقربًا إليها بنذر أو بغير نذر، وكان الرجل ينذر في الجاهلية لئن ولد له كذا غلامًا لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب، وخبره معروف يذكر في قصص السيرة النبوية. ولولا الشرك الذي يفسد العقول لما راجت هذه الوسوسة عندهم[2].

ومن ردود القرآن عليهم تعنيفه إياهم وإلقاء العيب عليهم وتهديدهم، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ (التكوير)، فإن الموءودة تُسأل يوم القيامة على أي ذنب قتلوها، وفي هذا تهديد لقاتلها وبيان أنه غير معذور في قتلها، وفي هذا ما فيه من إلقاء الرعب في نفس الوائد.

فهذه كانت نظرة الجاهلية إلى المرأة على كل حال، حتى جاء الإسلام يشنع بهذه العادات ويقبحها، وينهى عن الوأد ويغلظ فعلته، ويجعلها موضوعًا من موضوعات الحساب يوم القيامة. يذكره في سياق هذا الهول الهائج المائج - سياق سورة التكوير - كأنه حدث كوني من هذه الأحداث العظام. ويقول: إن الموءودة ستُسأل عن وأدها. فكيف بوائدها؟!

وما كان يمكن أن تنبت كرامة المرأة من البيئة الجاهلية أبدًا؛ لولا أن تتنزل بها شريعة الله ونهجه في كرامة البشرية كلها، وفي تكريم الإنسان: الذكر والأنثى؛ وفي رفعه إلى المكان اللائق بكائن يحمل نفخة من روح الله العلي الأعلى، فمن هذا المصدر انبثقت كرامة المرأة التي جاء بها الإسلام، لا من أي عامل من عوامل البيئة.

وحين تحقق ميلاد الإنسان الجديد باستمداد القيم التي يتعامل بها من السماء لا من الأرض، تحققت للمرأة الكرامة، فلم يعد لضعفها وتكاليف حياتها المادية على أهلها وزن في تقويمها وتقديرها؛ لأن هذه

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٥، ص٨٧، ٨٨.

٢. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٨، ص١٢٤، ١٢٥.

ليست من قيم السماء ولا وزن لها في ميزانها، إنما الوزن للروح الإنساني الكريم المتصل بالله، وفي هذا يتساوى الذكر والأنثى[1].

الخلاصة:

- كان المشركون يقتلون أولادهم من الفقر أو خشية الفقر، بيد أن المولى ﷻ وضح لهم أنه رازقهم ورازق أولادهم، ومن ثم فلا عبرة بحجتهم الواهية التي تدعوهم لقتل أولادهم.
- لقد بيّن القرآن الكريم أن السبب الحقيقي وراء قتل هؤلاء المشركين أولادهم ليس هو الفقر أو الخوف منه، إنما يرجع فعلهم هذا إلى تزيين الشياطين لهم، أو اتقاء العار بوأد البنات، أو التقرب إلى آلهتهم بنحر أولادهم بنذر أو بغيره.

الشبهة السابعة والثلاثون

ادّعاء أن ما في بطون الأنعام خالص للذكور ومحرم على الإناث(*) ®

مضمون الشبهة:

توهم الجاهليون العرب أن ما تحمله الأنعام في بطونها من الأجنة فيه شؤم على المرأة، فإذا خرجت هذه الأجنة حيّة أحل للذكور أكلها، وحرّم على الأزواج وقيل مطلق النساء، وإذا خرجت هذه الأجنة ميتة فقدت حينئذ شؤمها وأحل للذكور والإناث أكلها قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ (الأنعام: ١٣٩).

وجه إبطال الشبهة:

التحريم والتحليل من خصوصيات المشرِّع ﷻ ولا يختص به أحد من البشر، والمولى ﷻ لم يحرم من هذه الأنعام شيئًا كما يتوهم هؤلاء الجاهليون.

التفصيل:

التحريم والتحليل من خصوصيات المشرِّع ﷻ ولا يختص به أحد من البشر:

هذا ضرب من أحكام العرب الجاهليين السخيفة في التحريم والتحليل، وهو خاص بما في بطون بعض الأنعام من اللبن والأجنة، ورُوي أن المراد بالأنعام هنا البحائر وحدها، أو هي والسوائب، كانوا يجعلون لبنها للذكور ويحرمونه على الإناث، وكانت إذا ولدت ذكرًا حيًّا جعلوه خالصًا للذكور لا تأكل منه الإناث، وإذا كان ميتًا اشترك فيه الذكور والإناث، وإذا ولدت أنثى تركوها لأجل النتاج، وبعض مفسري السلف لم يقيدوا هذه الأنعام بالبحائر والسوائب، فيمكن حمل المُطْلَق[2] على المُقيَّد[3]، يحتمل أنهم كانوا يقولون ذلك في أنعام

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٨٤٠.

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (الأنعام/ ١٣٩).

الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (الأنعام/ ١٤٠: ١٤٣).

® في "تفرُّد الله بالتشريع في التصوُّر الإسلامي" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة والعشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

٢. المُطْلَق: ما دلَّ على الماهية من غير أن يكون له دلالة على شيء من قيودها.

٣. المُقيَّد: ما فيه صفة أو شرط أو استثناء، فهو نقيض المُطْلَق.

أخرى يعينونها بغير وصف البحيرة أي مشقوقة الأذن، والسائبة التي تسيب، وتترك للآلهة فلا يتعرض لها أحد[1].

وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ (الأنعام)، والمعنى: سيجزيهم الله بمقتضى حكمته في الخلق وعلمه بشئونهم وأعمالها ومناشئها من صفاتهم، بأن يجعل عقابهم عين ما يقتضيه وصفهم ونعتهم الروحي.

ومن ردّ القرآن عليهم ما بيّنه من جهلهم في تحريمهم بعضها دون بعض بلا مُخصِّص، وجعلها أجزاء وأنواعًا: بَحيرةً وسائبةً ووصيلةً وحاميًا.. وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار، فبين ﷻ أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشًا، ثم بين أصناف الأنعام إلى غنمٍ، وهي بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز، ذكره وأنثاه، وإلى إبلٍ ذكورها وإناثها، وبقرٍ كذلك، وذكر أنه لم يحرم شيئًا من ذلك ولا شيئًا من أولادها، بل كلها مخلوقة لبني آدم أكلًا وركوبة وحمولة وحلبًا وغير ذلك من وجوه المنافع.

قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ (الزمر: ٦)، وقال ﷻ في الرد عليهم: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ (الأنعام)، وهذا رد عليهم في قولهم: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ (الأنعام).

والردّ هنا فيه تبكيت وتجهيل لهم، فهو يقول لهم: أحرّم الله الذكرين من كل واحد من الزوجين وحدهما أم الأنثيين وحدهما، أم الأجنّة التي اشتملت عليها أرحام إناث الزوجين كليهما، سواء كانت ذكورًا أو إناثًا؟ والاستفهام هنا إنكاري، فالله لم يحرم شيئًا من هذه الثلاث، وبهذا السؤال التفصيلي يظهر للمتفكر فيه منهم أنه لا وجه لهم يعقل لقولهم؛ لأن ترتيب الحكم على الوصف بالذكورة أو الأنوثة أو الحمل يكون لغوًا أو جهالة فاضحة إذا لم يكن تعليلًا، والتعليل بهذه الأوصاف لا وجه له ويلزمه ما لا يقولون به، وبعدمه يلزمهم التحكم في أحكام الله، وكون الافتراء عليه بغير أدنى علم ولا عقل؛ ولذا قال: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ (الأنعام)، أي: أخبروني بعلم أو يقين يُؤْثَر عن أحد رسل الله أو بيّنة متلبسة بعلم يركن

---

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٨، ص١٢٨.

إليه العقل، كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه، وإلا كان تخصيص ما حرمتم دون أمثاله جهلا محضا كما أنه افتراء كذب.

ثم بعد حصول التعجيز عن الإتيان بعلم يؤثر عن أحد من رسل الله بتحريم ما زعموا، ألزمهم الله ادعاء تحريم الله إياه عليهم بوصية سمعوها منه، فقال ﷻ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (الأنعام)، فالعلم عن الله، إما أن يكون برواية رسول له يخبر بوصية عنه، أو بتلقي ذلك منه ﷻ بغير واسطة رسول، فهل شاهدتم ربكم فوصاكم بهذا التحريم مباشرة بغير واسطة؟!

وهم لا يدعون هذا ولا ذاك، وإنما يفترون على الله الكذب بدعوى التحريم افتراء مجردًا من كل علم، ويقلد بعضهم بعضًا خلفًا عن سلف في قولهم: إن الله أمرهم بتحريم ما حرموا واقتراف ما اقترفوا، كما قال ﷻ فيهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأعراف)، والاستفهام في الآية للتهكم بهم، ثم إنه إذا كان الأمر كذلك، وقامت عليكم الحجة به، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا بتحريم ما لم يشرعه، وتحليل ما لم يشرعه، ليضل الناس به بحملهم على اتِّباعه فيه مع نسبته إلى الله ﷻ بغير علم ما يكون حجة له فيه[1].

الخلاصة:

- استطرد المشركون في أوهامهم وتصوراتهم الفاسدة والنابعة من الشرك والوثنية إلى أن أمر التشريع بالحل والحرمة عائد إلى كبارهم، فقالوا عن الأجنة التي في بطون بعض الأنعام: إنها خالصة للذكور منهم حين تنتج، محرَّمة على الإناث إلَّا أن تكون ميتة، فيشارك فيها الإناث الذكور، وذلك بلا سبب ولا دليل ولا تعليل إلَّا أهواء الرجال التي يصوغون منها دينًا غامضًا متلبسًا في الأفهام.
- ردّ المولى ﷻ على هؤلاء الجاهليين ردًّا فيه تبكيت وتجهيل لهم قائلا: أحرّم الله الذكرين من كل واحد من الزوجين وحدهما أم الأنثيين وحدهما، أم الأجنة التي اشتملت عليها أرحام إناث الزوجين كليهما سواء كانت ذكورًا أو إناثًا. والاستفهام إنكاري يبطل معتقداتهم ويسخر من عقولهم.

---

1. المرجع السابق، ص١٤٤.

المحور الرَّابع

شبهات تتعلّق بقضية الإيمان والكفر

الشبهة الثامنة والثلاثون

دعوى المنافقين أن المؤمنين بالرَّسول ﷺ سُفهاء (*)

مضمون الشبهة:

زعم المنافقون أن السبب في عدم إيمانهم بما جاء به الرسول ﷺ، وعدم امتثالهم لأوامره هو أن المؤمنين به سفهاء، ويقولون: كيف نصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء؟! قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ (البقرة: ١٣).

وجها إبطال الشبهة:

١) هذه المقولة سببها تزيين الشيطان لقائليها.

٢) ما عليه المنافقون هو السفه نفسه، ولكنهم لا يعلمون سفههم للرَّيْن[1] الذي على قلوبهم.

التفصيل:

أولا. غرور المنافقين وتزيين الشيطان لهم:

ما عليه المنافقون من الغرور قد سوَّل لهم الباطل وزين لهم سوء أعمالهم فرأوه حسنًا، بل غرورهم وعنادهم قد شوَّه في نظرهم كل حق لم يأت على ألسنة رؤسائهم ومقلِّديهم، فعندئذ يرونه قبيحًا، ومن قصص غرورهم وتُرَّهات حكاياتهم وغرورهم ما حكاه القرآن الكريم عنهم حين طُولبوا بالإيمان بما جاء به النبي ﷺ وأن يؤمنوا كما آمن الناس من أتباع النبي ﷺ، فكان جوابهم: ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ (البقرة: ١٣)، فرموهم بالسَّفَه والطَّيش، وخِفَّة العقل وضعف الرأي وسوء التصرف.

ثانيًا. السفه سمة المنافقين:

لقد ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (البقرة).

فهم وحدهم السفهاء دون من عرَّضوا بهم، فأي الفريقين أحق بلقب السفيه وأجدر به؟! ما عليه هؤلاء المنافقون من سوء العقيدة، وقُبْح العمل وعدم الثبات على الرأي، أم ما عليه المؤمنون من العقيدة الصحيحة، وصلاح العمل واطمئنان القلب بالإيمان؟!

إن اتهام المنافقين للمؤمنين بتهمة السفه والفساد ونقصان العقل، ووصفهم بهذا الوصف أمرٌ لا يضرّ كل مؤمن إلى يوم القيامة، كما أنه لم يضر أصحاب رسول الله ﷺ.

ومقولة أهل النفاق هذه كانوا يقولونها في الخفاء استهزاءً بالمؤمنين، فأطلع الله نبيَّه وأتباعه على ذلك، وأخبر أن السَّفه وفساد البصائر وقلة العقول هو وصف مقصور على أهل النفاق، والدليل على ذلك أفعالهم التي يمارسونها، ولكنهم لا يعلمون للرّان الذي على قلوبهم[2].

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (البقرة/ ١٣).
الآية التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ١٣).

١. الرَّيْن: الصَّدَأ الذي يَعْلُو على الشيء الجَلِيِّ، والمراد: غطَّى على قلوبهم ما كانوا يقترفونه من الذنوب.

٢. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١، ص١٥٩، ١٦٠ بتصرف.

الخلاصة:

تزيين الشيطان للمنافقين هو الذي دفعهم إلى اتهام المسلمين بالسَّفه والجهل؛ ولكن الحقيقة أن المنافقين هم السفهاء ولكنهم لا يعلمون لما ألقاه الله على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم من الدنس والغشاوة وسوء الطبع.

الشبهة التاسعة والثلاثون

دعوى كفار مكة أن الإيمان بمحمد ﷺ يَتْبَعُه عدمُ الأمان(*)

مضمون الشبهة:

ادّعى بعض المشركين في مكة أن اتباع الهدى الذي جاء به محمد ﷺ ومخالفتهم من حولهم من أحياء العرب المشركين يعرضهم إلى أن يتخطفهم العرب من أرضهم وأن يقصدوهم بالأذى والمحاربة، ولا طاقة لأهل مكة بذلك؛ وهذا ما صرفهم عن اتّباع محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (القصص).

وجوه إبطال الشبهة:

١) رغم أن هذه المقولة تَعَلُّلٌ باطلٌ وزعمٌ لا دليلَ عليه، إلا أنها اعتراف منهم بأن دعوة محمد ﷺ حق.

٢) الله أمَّنهم وهم يشركون به فكيف يُتَخطفون وهم مؤمنون به!

٣) عِلَّة الهلاك الحقيقية في البَطَر وكُفْر النعمة وتكذيب الرسل.

٤) حتى لو تخطفهم الناس - إن آمنوا - فما عند الله خير وأبقى لهم.

التفصيل:

أولا. رغم بطلان زعمهم إلا أنه اعتراف بأن محمد ﷺ على حق:

إن قولتهم التي قالوها للرسول ﷺ معتذرين عن اتباعه مخافة أن يفقدوا سلطانهم على قبائل العرب المجاورة التي تعظم الكعبة، وتدين لسدنتها، وتعظم أصنامها، فتتخطفهم تلك القبائل.

هذه الشبهة من تعلُّلات أهل مكة من المشركين، وهو تعلُّلٌ باطل وعذر عاطل، حيث يزعمون أنهم إن دخلوا في دين محمد ﷺ فسوف يتخطَّفهم العرب من أرضهم، ولا طاقة لأهل مكة بهم.

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ فهم لا ينكرون أنه الهدى، ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس. وهم ينسون الله، وينسون أنه وحده الحافظ، وأنه وحده الحامي؛ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم في حمى الله؛ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله. ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم، ولو خالطهم لتبدلت نظرتهم للقوي، ولاختلف تقديرهم للأمور، ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا في جوار الله، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هداه. وأن هذا الهدى موصول بالقوة

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (القصص/ ٥٧).
الآيتان اللتان ورد فيهما الرد على الشبهة: (القصص/ ٥٧، ٥٨).

موصول بالعزة؛ وأن هذا ليس وهمًا وليس قولًا يقال لطمأنة القلوب. إنما هو حقيقة عميقة منشؤها أن اتباع هدى الله معناه الاصطلاح مع ناموس الكون وقواه، والاستعانة بها وتسخيرها في الحياة. فالله خالق هذا الكون ومدبره وفق الناموس الذي ارتضاهَ له، والذي يتبع هدى الله يستمد مما في هذا الكون من قوى غير محدودة، ويأوي إلى ركن شديد في واقع الحياة[١].

إن هدى الله منهج حياة صحيحة. حياة واقعة في هذه الأرض. وحين يتحقق هذا المنهج تكون له السيادة الأرضية إلى جانب السعادة الأخروية. وميزته أنه لا انفصال فيه بين طريق الدنيا وطريق الآخرة؛ ولا يقتضي إلغاء هذه الحياة الدنيا أو تعطيلها ليحقق أهداف الحياة الآخرة. إنما هو يربطهما معًا برباط واحد: صلاح القلب وصلاح المجتمع وصلاح الحياة في هذه الأرض. ومن ثم يكون الطريق إلى الآخرة، فالدنيا مزرعة الآخرة، وعمارة جنة هذه الأرض وسيادتها وسيلة إلى عمارة جنة الآخرة والخلود فيها، بشرط اتباع هدى الله. والتوجه إليه بالعمل والتطلع إلى رضاه.

وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة. أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة.

وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه، يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية! وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ (القصص: ٥٧)، فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان[٢].

ثانيًا. كيف يُتَخطفون وهم مؤمنون وقد أمَّنهم الله وهم مشركون؟!

وقد ردّ الله على المشركين ردًّا مصدَّرًا باستفهام التوبيخ والتقريع، فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ (القصص: ٥٧).

والمعنى: فقد جعلنا لهم حرمًا ذا أمن وطمأنينة، وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يُغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضًا، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم، فأجاب الله عن العلة التي اعتلُّوا بها بأنه قد أمّنهم بحرمة البيت، ومنع عنهم عدوَّهم فلا يخافون أن تستحلَّ العرب حرمةً في قتالهم، وكأنه يقول لهم: كنتم آمنين في حرمي تأكلون رزقي وتعبدون غيري أفتخافون إذا عبدتموني وآمنتم بي أن يتخطفكم الناس؟!

كما أخبرهم الله ﷻ أن هذا الحرم الآمن تجبى إليه الثمرات المختلفة على اختلاف أنواعها من الأراضي المختلفة وتحمل إليه، ولكنهم غافلون عن الاستدلال الصحيح، وأنَّ مَن رزقهم وأمَّنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا وآمنوا، ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم، فمقالتهم هذه ناشئة عن فرط جهلهم ومزيد غفلتهم وقلة علمهم وعدم تفكُّرهم في أمر

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٢٧٠٣.

٢. المرجع السابق، ص٢٧٠٤.

معادهم ورشادهم؛ ولذا قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (القصص).

وبهذا رد الله عليهم في وقتها بما يُكذِّب هذا العذر الموهوم. فمن الذي وهبهم الأمن؟ ومن الذي جعل لهم البيت الحرام؟ ومن الذي جعل القلوب تهوي إليهم تحمل من ثمرات الأرض جميعًا؟ تتجمع في الحرم من كل أرض، وقد تفرَّقت في مواطنها ومواسمها الكثيرة: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ (القصص: ٥٧).

فما بالهم يخافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله، والله هو الذي مكَّن لهم هذا الحرم الآمن منذ أيام أبيهم إبراهيم؟ أفمن أمَّنهم وهم عصاة، يدع الناس يتخطفونهم وهم تقاة؟! ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (القصص)، لا يعلمون أين يكون الأمن وأين تكون المخافة. ولا يعلمون أن مرد الأمر كله لله[1].

ثالثًا. علة الهلاك الحقيقية في البطر وكفر النعمة وتكذيب الرسل:

وإذا كانت مقولة المشركين تدل على أنهم معترفون بالحق في الظاهر، وأن النبي ﷺ يدعو إلى الهدى، لذا أعقب الله هذه الآية السابقة بتخويفهم بعذاب الأمم الخالية التي استكبرت وبطرت النِّعم الإلهية، فأكلوا رزق الله وعبدوا غيره، فقال ﷻ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ (القصص).

فأما إن أرادوا أن يتقوا المهالك وأن يأمنوا التخطف حقًّا، فها هي ذي علة الهلاك فليتقوها: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ (القصص).

إن بطر النعمة وعدم الشكر عليها هو سبب هلاك القرى، وقد أوتوا من نعمة الله ذلك الحرم الآمن؛ فليحذروا إذن أن يبطروا، وألا يشكروا، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي يرونها ويعرفونها، ويرون مساكن أهلها الداثرين خاوية خالية ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها، وتروى قصة البطر بالنعمة، وقد فني أهلها فلم يعقبوا أحدًا، ولم يرثها بعدهم أحد ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ (القصص).

على أن الله لم يهلك تلك القرى المتبطرة إلا وقد أرسل في أمها رسولًا، فتلك هي سنته التي كتبها على نفسه رحمة بعباده: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (القصص).

وحكمة إرسال الرسول ﷺ في أم القرى أي كبراها أو عاصمتها أن تكون مركزًا تبلغ منه الرسالة إلى الأطراف فلا تبقى حجة ولا عذر فيها لأحد. وقد أرسل النبي في مكة أم القرى العربية، فهو ينذرهم عاقبة المكذبين قبلهم بعد ما جاءهم النذير. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (القصص). يكذبون بالآيات عن معرفة وعن يقين!

1. المرجع السابق، ص٢٧٠٤.

رابعًا. لو تخطفهم الناس إن آمنوا، فما عند الله خير وأبقى لهم:

على أن متاع الحياة الدنيا بكامله، وعرض الحياة الدنيا جميعه، وما مكنهم الله فيه من الأرض، وما وهبهم إياه من الثمرات، وما يتسنى للبشر كلهم طوال هذه الحياة، إن هو إلا شيء ضئيل زهيد، إذا قيس بما عند الله: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (القصص).

وهذا هو التقويم الأخير لا لما يخشون فوته من الأمن والأرض والمتاع وحده، ولا لما يمنُّ به الله عليهم من التمكين والثمار والأمان وحده؛ ولا لما وهبه الله للقُرى ثم أهلكها بالتبطر فيه وحده؛ إنما هو التقويم الأخير لكل ما في هذه الحياة الدنيا حتى لو ساغ، وحتى لو دام، فلم يعقبه الهلاك والدمار، إنه كله ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (القصص) خير في طبيعته وأبقى في مدته.

والمفاضلة بين هذا وذاك تحتاج إلى عقل يدرك طبيعة هذا وذاك، ومن ثم يجيء التعقيب في هذه الصيغة للتنبيه لإعمال العقل في الاختيار!

وفي نهاية هذه الجولة يعرض عليهم صفحتي الدنيا والآخرة، ولمن شاء أن يختار: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ (القصص).

فهذه صفحة من وعده الله وعدًا حسنًا فوجده في الآخرة حقًّا وهو لا بد لاقيه، وهذه صفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد، ثم ها هو ذا في الآخرة محضرًا إحضارًا للحساب. والتعبير يوحي بالإكراه ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ الذين يجاء بهم مكرهين خائفين يودون أن لم يكونوا محضرين؛ لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتاع القصير الزهيد!

وتلك نهاية المطاف في الرد على مقالتهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ (القصص)، فحتى لو كان ذلك كذلك فهو خير من أن يكونوا في الآخرة من المحضرين! فكيف واتباع هدى الله معه الأمن في الدنيا والتمكين ومعه العطاء في الآخرة والأمان؟ ألا إنه لا يترك هدى الله إذن إلا الغافلون الذين لا يدركون حقيقة القوي في هذا الكون. ولا يعرفون أين تكون المخافة وأين يكون الأمن. وإلا الخاسرون الذين لا يحسنون الاختيار لأنفسهم ولا يتقون البوار[1].

الخلاصة:

- دعوى هؤلاء المشركين من أهل مكة أنهم إن آمنوا تخطفهم الناس من حولهم دعوى باطلة وتعلل لا دليل عليه.
- هذه الدعوى على ما تحمله من مغالطة، فإنها تحمل الاعتراف بأن ما جاء به النبي محمد ﷺ هو الهدى والحق.
- إذا كان الله أمَّنهم وهم كفار حينما كانت الجزيرة حولهم في حروب متطاحنة لا تكاد تنقطع، فهل يتركهم للناس يتخطفونهم وهم مؤمنون؟!

---

١. المرجع السابق، ص٢٧٠٥.

الشبهة الأربعون

دعوى أن الهُدَى في اتِّباع ما عليه اليهود والنصارى(*) ®

مضمون الشبهة:

ادَّعى اليهود والنصارى أنهم على حق؛ فقالت اليهود للنبي ﷺ: ما الهُدَى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتدِ، وقالت النصارى مثل ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ (البقرة: ١٣٥).

وجه إبطال الشبهة:

دعوة اليهود والنصارى إلى اتِّباع ملَّة إبراهيم عليه السلام لإجماعهم على إمامته وهديه.

التفصيل:

دعوة اليهود والنصارى إلى اتِّباع ملّة إبراهيم عليه السلام لإجماعهم على إمامته وهديه:

من المعلوم أن اليهود والنصارى كليهما مُقِرٌّ بنبوَّة إبراهيم الخليل عليه السلام؛ لذلك لما قالوا للمسلمين: كونوا يهودًا أو نصارى تهتدوا وتدخلوا الجنة، كانت الإجابة عليهم من نفس الجانب الذي أقرّوا به فكأنه قيل لهم: بل تعالوا نتَّبع ملة إبراهيم التي أجمعنا نحن وأنتم على الشهادة لها بأنها دين الله عز وجل الذي ارتضاه واجتباه وأمر به، ونحن وأنتم مجمعون على أن إبراهيم عليه السلام كان إمام الهدى والمهتدين، وهذا من تلقين الله لنبيه البرهان الأقوى في المحاجة، قال الطبري ـ رحمه الله ـ احتج الله لنبيِّه محمد ﷺ أبلغ حجة وأوجزها وأكملها، وعلَّمها محمدًا نبيَّه ﷺ، فقال: قل يا محمد للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ (البقرة: ١٣٥) قل لهم: بل تعالوا نتبع ملة إبراهيم التي يُجمع جميعنا على الشهادة لها بأنها دين الله الذي ارتضاه وأمر به، فإن دينه كان الحنيفية المسلمة، وندع سائر الملل التي نختلف فيها، فينكرها بعضنا ويقرّ بها بعضنا، فإن ذلك على اختلافه لا سبيل لنا على الاجتماع عليه، كما لنا السبيل إلى الاجتماع على ملة إبراهيم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ بيان لعقيدة الفريقين في التفريق في الدين، والضمير في ﴿وَقَالُوا﴾ لأهل الكتاب و﴿أَوْ﴾ للتوزيع أو التنويع، أي أن اليهود يدعون إلى اليهودية التي هم عليها ويحصرون الهداية فيها والنصارى يدعون إلى النصرانية التي هم عليها ويحصرون الهداية فيها ـ وهذا الأسلوب معهود في اللغة ـ ولو صدق أي واحد منهما لما كان إبراهيم مهتديًا؛ لأنه لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا وكيف وهم متفقون على كونه إمام الهدى والمهتدين؟ لذلك قال تعالى ملقنًا لنبيه البرهان الأقوى في محاجتهم: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)﴾ (البقرة)؛ أي: بل نتبع أو اتبعوا ملة إبراهيم الذي لا نزاع في هداه ولا في هديه، فهي الملة الحنيفية القائمة على الجادة بلا انحراف ولا زيغ، العريقة في التوحيد والإخلاص بلا وثنية ولا شرك[1].

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (البقرة/ ١٣٥).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ١٣٥: ١٣٨).
® في "هل الهدى في اتباع اليهودية؟" طالع: الشبهة الثانية، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١، ص٤٨٠.

ثم خاطب الله المؤمنين وأمرهم أن يقولوا لليهود والنصارى القائلين: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ فقال لهم: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ (البقرة).

أمر الله النبي بأن يدعو إلى اتباع ملة إبراهيم ، ثم أمر المؤمنين بمثل ذلك فقال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ (البقرة: ١٣٦)، أي: لا تكن دعوتكم إلى شيء خاص بكم يفصل بينكم وبين سائر أهل الأديان السماوية، بل انظروا إلى جهة الجمع والاتفاق، وادعوا إلى أصل الدين وروحه الذي لا خلاف فيه ولا نزاع، وهو التسليم بنبوة جميع الأنبياء والمرسلين[١].

وقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (البقرة).

بدل من جملة ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ﴾ (البقرة: ١٣٥) لتفصيل كيفية هذه الملة بعد أن أجمل ذلك في قوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾.

والأمر بالقول أمر بما يتضمنه؛ إذ لا اعتداد بالقول إلا لأنه يطابق الاعتقاد، إذ النسبة إنما وضعت للصدق لا للكذب، والمقصود من الأمر بهذا القول الإعلان به والدعوة إليه، لما يشتمل عليه من الفضيلة الظاهرة بحصول فضيلة سائر الأديان لأهل هذه الملة، ولما فيه من الإنصاف وسلامة الطَّوِيَّة؛ ليرغب في ذلك الراغبون ويكمد عند سماعه المعاندون، وليكون هذا كالاحتراس بعد قوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾.

أي: نحن لا نطعن في شريعة موسى وشريعة عيسى وما أوتي النبيون ولا نكذبهم، ولكنا مسلمون لله بدين الإسلام الذي بقي على أساس ملة إبراهيم، وكان تفصيلًا لها وكمالًا لمراد الله منها حين أراد الله إكمالها، فكانت الشرائع التي جاءت بعد إبراهيم كمنعرجات الطريق، سلك بالأمم فيها لمصالح ناسبت أحوالهم وعصورهم بعد إبراهيم، كما يسلك بمن أتعبه المسير طريق منعرج ليهدأ من ركز السيارة في المحجة، فيحط رحله وينام، ثم يرجع به بعد حين إلى الجادة، ومن مناسبات هذا المعنى أن ابتُدئ بقوله: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ﴾، واختتم بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، ووُسِّط ذكر ما أنزل على النبيئين بين ذلك.

وجمع الضمير ليشمل النبي ﷺ والمسلمين، فهم مأمورون بأن يقولوا ذلك، وجعله بدلًا يدل على أن المراد من الأمر في قوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ﴾ النبي وأمته.

وأفرد الضمير في الكلامين اللذين للنبي فيهما لمزيد اختصاص بمباشرة الرد على اليهود والنصارى؛ لأنه مبعوث لإرشادهم وزجرهم وذلك في قوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إلخ، وقوله الآتي: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٣٨)، وجمع الضمير في الكلام الذي للأمة فيه مزيد اختصاص بمضمون المأمور به في سياق التعليم،

---

١. المرجع السابق، ص٤٨٢.

أعني قوله: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ﴾ (البقرة: ١٣٧)؛ أي: فإن صدق اليهود والنصارى بالله، وما أنزل إليكم، وما أنزل إلى إبراهيم وهؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - فقد وفّقوا ورشدوا ولزموا طريق الحق واهتدوا.

الخلاصة:

- الهدى في ملة إبراهيم عليه السلام حنيفًا لا في اليهودية ولا النصرانية ولا وثنية العرب، ولا اهتداء إلا باتباع ملة إبراهيم عليه السلام التي جاء بها الإسلام، فأبطل ما كان قبله من الأديان.
- لو كان اليهود والنصارى حقًّا يريدون الهدى لآمنوا بمحمد ﷺ؛ لأنه على ملة إبراهيم عليه السلام التي يدّعون الإيمان بها.

الشبهة الحادية والأربعون

ادعاء اليهود أن الكافرين أهدى سبيلا من المؤمنين(*)

مضمون الشبهة:

ادّعى اليهود أن الكفار - على ما هم فيه من الجهل والكفر - أفضل وأهدى سبيلا من الذين آمنوا، وأن دينهم خير من دين محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ (النساء).

وجها إبطال الشبهة:

١) بخل اليهود وأثرتهم وشحهم وحبهم لأنفسهم فقط هو الذي جعلهم يقفون مع الباطل ضد الحق؛ ومن ثم فقد لعنهم الله.

٢) اليهود يعلمون من كتابهم أن محمدًا ﷺ ومن معه على حق، ولكنهم يكتمون ذلك حسدًا وعصبية أن يكون النبي من العرب.

التفصيل:

أولا. شح اليهود جعلهم يقفون مع الباطل ضد الحق:

نقض اليهود عهدهم مع النبي ﷺ واتحدوا مع المشركين على استئصال المسلمين، وذلك هو تفضيلهم للمشركين على المؤمنين، وهذا من ضلالهم وجهلهم، وكفرهم بكتاب الله الذي بين أيديهم، فهم يقولون للكفار إنكم أولى بالحق من المؤمنين وإن دينكم أعدل وأصوب من دين المؤمنين، ولهذه الآية سبب نزول، وهو ما رواه الطبري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش: أنت حبر أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السّدانة[2] وأهل السّقاية؟ قال: أنتم خير منه. فأنزل قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٧٣٨.

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (النساء/ ٥١).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ١٠٩، النساء/ ٥٢: ٥٤، الإسراء/ ١٠٠، الكوثر/ ٣).

٢. السّدانة: خِدمة الكعبة.

هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ (الكوثر)، وأنزل تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ (النساء: ٥١).

وبيّن الله ﷻ منذ زمن بعيد أن هؤلاء - عليهم لعنة الله - بعيدون عن رحمته وعنايته، وسوف يكون الانكسار والخذلان حليفهم فلن ينصرهم أحد من دون الله، وهذه سنة الله ﷻ في خلقه، ولا سبيل لأحد في تغيير سنته ﷻ، قال ﷻ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ (النساء).

ثم بعد أن وبّخهم الله على إيمانهم بالجبت والطاغوت، وتفضيلهم المشركين على المؤمنين يوبخهم الله على بخلهم وشحهم وأثرتهم، قال ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ (النساء)، والمعنى: أنهم ليس لهم نصيب من الملك كما لهم نصيب من الكتاب، بل فقدوا الملك كله بظلمهم وطغيانهم، ثم لو كان لهم نصيب من الملك لسلكوا فيه طريق البخل والأثرة بحصر منافعه ومرافقه في أنفسهم فلا يعطون الناس نقيرًا منه، أي: ولو كان شيئًا حقيرًا تافهًا صغيرًا، وهذا كقوله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ (الإسراء: ١٠٠)، فهؤلاء اليهود أصحاب أثرة شديدة وشح مطاع يشق عليهم جدًّا أن ينتفع منهم أحد من غير أنفسهم، فإذا صار لهم مُلك حرصوا على منع الناس أدنى النفع وأحقره، فكيف لا يشق عليهم أن يظهر نبي من العرب ويكون لأصحابه ملك يخضع لهم فيه بنو إسرائيل؟ وهذه الصفة لازمة لهؤلاء اليهود.

ثانيًا. علم اليهود أن محمدًا ﷺ وأصحابه على حق، بيد أنه الحسد وكتمان الحق:

ثم بيّن الله حقيقة مقولتهم السابقة وتفضيلهم المشركين على المؤمنين مع أنهم يعلمون من كتبهم أن محمدًا ومن معه على الحق، وأوضح الله أن قولهم هذا ناشئ عن داعية الحسد والغرور بأنفسهم، فقد كانوا يطمعون أن يكون النبي ﷺ من بني إسرائيل وليس من العرب، قال ﷻ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (النساء: ٥٤)، والحاصل أن حال اليهود يومئذ كان لا يعدو هذه الأمور الثلاثة:

- إما غرور خادع يظنون معه أن فضل الله محصور فيهم ورحمته تضيق عن غير شعب إسرائيل من خلقه.
- وإما حسبان أن ملك الكون في أيديهم فهم لا يسمحون لأحد بشيء منه، ولو كان حقيرًا كالنقير.
- وإما حسد العرب على ما أعطاهم الله من الكتاب والحكمة والملك الذي ظهرت مبادئ عظمته.

وهذا الحسد من سماتهم التي أكّدها القرآن في غير ما موضع، قال ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ (البقرة: ١٠٩).

وهذا الحسد من عند أنفسهم، فلم يأمرهم الله أن يحسدوا الناس على الإيمان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ (البقرة: ١٤٦)، ذكر في الآية السابقة الذين أوتوا الكتاب يعلمون أن ما جاء به النبي هو الحق من ربهم، ولكنهم ينكرون ويمكرون، وذكر في هذه ما هو الأصل والعلة في ذلك العلم، وذلك الإنكار وهو أنهم يعرفون النبي ﷺ بما في كتبهم

من البشارة به، ومن نعوته، وصفاته التي لا تنطبق على غيره وبما ظهر من آياته وآثار هدايته، كما يعرفون أبناءهم الذين يتولون تربيتهم وحياطهم حتى لا يفوتهم من أمرهم شيء.

قال عبد الله بن سلام ﷺ وكان من علماء اليهود: أنا أعلم به مِنِّي بابني، فقال له عمر بن الخطاب ﷺ: لِمَ؟ قال: لأني لستُ أشكُّ في محمد أنه نبي، فأما ولدي فلعل والدته خانت، فقد اعترف من هداه الله من أحبارهم كهذا العالم الجليل، وتميم الداري من علماء النصارى أنهم عرفوه ﷺ معرفة لا يتطرَّق إليها الشك: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ (البقرة)، إنه الحق الذي لا مرية فيه، فماذا يرجى منهم بعد هذا؟ وقد أُسند هذا الكتمان إلى فريق منهم إذ لم يكونوا كلهم كذلك، فإن منهم من اعترف بالحق وآمن واهتدى به، ومنهم من كان يجحده عن جهل ولو علم به لجاز أن يقبله، وهذا من دقة حكم القرآن على الأمم بالعدل[1].

بل إن اليهود كانوا يخبرون أهل المدينة ببعثة النبي ﷺ - قبل مبعثه - أن هذا مكان وهذا زمان بعثته وهذه أوصافه، ثم لما كان الرسول من العرب كفروا به تعصبًا أنه لم يكن من اليهود، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ (البقرة).

1. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٢، ص٢٠.

الخلاصة:

- تفضيل اليهود للكفار على المسلمين مردّهُ إلى أنهما - اليهود والكفار - اتحدا على استئصال شَأْفَة المسلمين، لعلمهما أن دعوة محمد ﷺ حق سوف يقضي على ما هم فيه من العزة والسلطان.
- العصبية والبخل والأثرة من أهم صفات اليهود، وهي التي دفعتهم إلى هذا الموقف من المسلمين ورسولهم، فضلًا عن حسدهم للعرب على ما أعطاهم الله من الكتاب والحكمة والملك الذي بدت مبادئ عظمته في الظهور.

الشبهة الثانية والأربعون

دعوى أن اتباع الأرذلين للرسل يعوق إيمانَ الناس بهم(*) ®

مضمون الشبهة:

ادّعى المشركون أن عدم إيمانهم بالأنبياء والرسل هو أن أتباع الرسل ليسوا من أشراف الناس وسادتهم

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (الأنعام/ ٥٣، ١٢٣، الأعراف/ ٧٥، ٧٦، هود/ ٢٧، الإسراء/ ١٦، الشعراء/ ١١١، سبأ/ ٣٤، الزخرف/ ٢٣).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (هود/ ٢٩، ٣٠، الكهف/ ٢٨، الشعراء/ ١١٢: ١١٥).
® في "الحكمة من استجابة الضعفاء لدعوة الأنبياء" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي١).

وكبرائهم من أولي النعمة والثروة والرياسة والرأي، إنما هم من الفقراء، والضعفاء الذين لا رأي لهم، فقد اتبعوا الرسل دون تروٍّ ولا فكر. قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ (هود: ٢٧).

وجوه إبطال الشبهة:

١) هذه الشبهة أثارها كثير من الأمم المكذِّبة لرسلها ليخرجوا عن محلِّ النزاع، وعن لُبِّ القضية؛ فالرسول - أيُّ رسولٍ - ليس مسئولًا عن التنقيب عن أحوال من يدعوهم، إنما هو مبعوث لكل الناس؛ فقراء وأغنياء، رجال ونساء.

٢) الواقع يشهد بأن أتباع الرسل - في الغالب - هم الفقراء، والمعاندون هم الأغنياء غالبًا، وليس بعارٍ على الحق ضعف من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح.

٣) إيمان بعض الفقراء وكفر بعض الأشراف اختبارٌ من الله للناس بعضهم ببعض، والله يمنُّ على من يشاء بالإيمان، ويوم القيامة يسأل كل فرد عما كان يعمل في الدنيا.

التفصيل:

أولا. دعوى المشركين تلك خروج عن محل النزاع:

هذه الشبهة الباطلة أثارها كثير من الأمم المكذّبة لرسلهم، ومنشأ هذه الشبهة هو الغرور والكبرياء والعناد؛ حيث يبرِّر المشركون والكفار كفرهم، وعدم إيمانهم بما جاء به الرسل بأن أتباع الرسل هم الضعفاء، والفقراء، وأرذل الناس، فخرجوا بهذه الشبهة عن محل النزاع في قضية ما جاء به الرسول، وما يدعوا إليه، وهي حجة واهية أثارها كل من أُرسل إليهم، فقوم نوح يقولون: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ (الشعراء)، ويقولون: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ (هود: ٢٧).

وقد أرشد الله الرسل أن يردّوا على هؤلاء الأقوام شبهتهم، وأن يبيّنوا لهم أنه لا يلزم الرسولَ التنقيب عن أحوال من يدعوهم ولا البحث عن مناصبهم ومنازلهم، إنما عليه أن يقبل منهم تصديقهم وأن يَكِلَ أمور باطنهم وسرائرهم إلى الله تعالى؛ لأن الله بعث الرسول نذيرًا فمن أطاعه واتَّبعه وصدَّقه كان منه والرسول منه، سواء كان شريفًا أو وضيعًا، جليلًا أو حقيرًا؛ ولذا قال نوحٌ عليه السلام: ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ (الشعراء)، أي: حسابهم وأعمالهم على الله عز وجل لو كنتم تشعرون، ولكنكم جاهلون لغروركم وإعجابكم بالباطل الذي أنتم عليه.

ولما سأل هؤلاء الأقوام الرسلَ أن يبعدوا هؤلاء الفقراء المستضعفين عنهم أبى الرسلُ ذلك، وقالوا لهم كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾﴾ (الشعراء).

أي: ما أرسلني الله نذيرًا لذوي الغنى دون الفقراء، وإنما أنا رسولٌ أبلغكم ما أُرسلت به، فمن أطاعني فهو السعيد، ولو كان فقيرًا.

وكذلك سأل أشراف مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد عنه جماعة من الضعفاء والموالي والفقراء من أمثال بلال وعمار وصُهيب وخبّاب وابن مسعود رضي الله عنهم

ويجلس معهم مجلسًا خاصًا على حدة، فأمره الله أن يصبر نفسه مع هؤلاء الضعفاء، فقال ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ (الكهف).

ثانيًا. أتباعُ الحقِّ هم الأشراف ولو كانوا فقراء:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ (الأنعام).

فاعتراض الكافرين على ضعف أتباع الرسل، وفقرهم هو من سوء جهلهم وقلّة علمهم ونقص عقولهم؛ فإنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتّبعه، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل إن الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبَونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء، كما أن الواقع يشهد غالبًا أن من يتبع الحقَّ هم ضعفاءُ الناس، والغالب على الأشراف والأغنياء والمترفين، والكبراء مُخالفتهُ، كما قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الزخرف)، وقال أيضًا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (سبأ)، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ (الإسراء: ١٦).

ولذا سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن صفات النبي ﷺ فقال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ فقال له: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

ثالثًا. الله يمن على من يشاء بالإيمان اختبارًا للناس:

يبيّن الله في موضع آخر أن إيمان بعض الفقراء وكفر بعض الأشراف إن هو إلا فتنة واختبار للناس بعضهم ببعض، فقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (الأنعام).

فالله يمنّ على من يشاء وهو أعلم بالشاكرين وضمائرهم وأفعالهم فيهديهم إلى الطريق المستقيم، فليس عيبًا في دعوة الرسل أن يهتدي إليها المستضعفون، وإنما منشأ الشبهة عند هؤلاء المعاندين حقًّا راجعٌ إلى استكبارهم وعنادهم، وغرورهم، وإلا فلا وجهَ لهم في تبريرهم عدم الإيمان بما جاء به الرسول باتباع أراذل الناس له، فهذا فهم خاطئ، وَغَلَطٌ شديد، وخروج عن محل النزاع وهو حقيقة ما جاء به الرسول هل هو حقٌّ أو لا، بصَرْف النظر عمّن اتبعه من الناس أشرافًا كانوا أو فقراء مستضعفين، ولذا ختم نوح ﵇ محاورته مع قومه في هذه المسألة بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (هود). أي: هؤلاء الذين تسألونني إقصاءهم صائرون إلى الله، وهو سائلهم عما كانوا يعملون في هذه الدنيا، لا عن شرفهم وحسبهم، ولكني أراكم أيها القوم تجهلون الواجب عليكم من حق الله، ومن جهلكم

أنكم سألتموني أن أطرد الذين آمنوا بالله، فمن يمنعني من الله وعقابه إن طردتهم، أفلا تتفكرون فيما تقولون فتعلموا خطأه فتنتهوا عنه[1]؟!

الخلاصة:

- الإيمان بالأنبياء والرسل - عليهم السلام - ليس مرتبطًا بنوعية أتباعهم، إذ ما العلاقة بين صدق الرسالة ونوعية الأتباع؟ ومن ثم فتعليق الإيمان على نوعية أتباع الرسول خروج بالقضية عن محل النزاع والخلاف.
- كل رسول أرسل إلى أمة أو قوم هو مرسل إلى فقرائهم وأغنيائهم، ومكلَّف بالتبليغ بما أرسل به للغني والفقير، فمن أطاع رسوله فهو السعيد وإن كان فقيرًا، ومن عصا رسوله فهو الشقي وإن كان غنيًّا.
- لا يُذمُّ الحق لضعف أتباعه، طالما أن الحق في نفسه صحيح، ووقائع التاريخ تثبت أن الفقراء هم أكثر أتباع الأنبياء، والمعاندون أكثرهم من الأغنياء.
- الإيمان عطاء ومنٌّ من الله على من يشاء، وفي ذات الوقت اختبار للأشراف بإيمان الضعفاء، ويوم القيامة الكل مسئول عما قدمت يداه.

1. انظر: التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١٢، ص٤٥: ٥٦. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٧١: ١٨٧٤.

الشبهة الثالثة والأربعون

دعوى أن رَغَد العيش وسَعَة المنازل دليلٌ على صحَّة الدين والمعتقد ورضا الرب ﷻ(*)

مضمون الشبهة:

يحتجّ المشركون على صحة ما هم عليه من الدين - من وجهة نظرهم - بأنهم أحسن مقامًا من الذين آمنوا وأجمل منازل وأرفع دُورًا وأحسن نديًّا وأكثر واردًا وطارقًا وأعظم أثاثًا وأحسن صورًا، ويقولون: كيف نكون بهذه المثابة وتلك المنزلة الرفيعة ثم يكون ديننا باطلا؟! إن رفعتنا على المؤمنين في هذه الأمور لأكبر دليلٍ على صحة ما نحن عليه من ديننا ومعتقداتنا، وعن رضا الرب ﷻ عنا. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (سبأ).

وجوه إبطال الشبهة:

١) قياس صحة الإيمان بكثرة الأموال قياس باطل، فليس كل من كثر ماله كان دينه حقًّا.

٢) القرب من الله ليس بكثرة الأموال والأولاد، إنما بالتقوى والعمل الصالح، فقد أهلك الله كثيرًا من الأمم التي كانت أغنى من مشركي العرب، أهلكهم بذنوبهم ولم ينظر إلى أموالهم وأولادهم.

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (مريم/ ٧٣، المؤمنون/ ٥٥، ٥٦، القصص/ ٧٨، سبأ/ ٣٥، الزمر/ ٤٩، فصلت/ ٥٠، الأحقاف/ ١١، الفجر/ ١٥، ١٦).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (آل عمران/ ١٧٨، ١٩٦، ١٩٧، الأنعام/ ٥٣، ١١٠، التوبة/ ٥٥، ٨٥، مريم/ ٧٣، ٧٤، المؤمنون/ ٥٦، القصص/ ٧٨، سبأ/ ٣٦، ٣٧، ٣٩، الزمر/ ٥، ٥٢، الأحقاف/ ١١، المدثر/ ١١: ١٧، الفجر/ ١٧).

٣) الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر امتحانًا واختبارًا، فضلا عن أنه قد تكون سعة المال استدراجًا من الله لهؤلاء المستكبرين، كما حدث مع كثيرين وعلى رأسهم قارون عليه لعنة الله.

التفصيل:

أولا. قياس صحة الإيمان بكثرة الأموال والأولاد قياس باطل، فليس كل من كثر ماله كان دينه حقًّا:

اغترَّ المشركون من أهل مكة من السادة والكبراء، والأشراف بكثرة أموالهم وأولادهم وما أُعطوا من التَّرف وسَعة العيش، واتخذوا ذلك دليلًا لصحة ما هم عليه من باطل، وبطلان ما عليه المسلمون من الإسلام، فقاسوا صحة الدين والمعتقد على كثرة الأموال والأولاد، وهو قياس باطل وزعم مردود، كما استدلُّوا بالغنى وكثرة الأموال والأولاد التي تقربهم إلى الله - بزعمهم - على انتفاء العذاب عنهم، فحصروا بذلك وسائل القرب من الله في وفرة الأموال وكثرة الأولاد.

وهذا ليس شأنهم وحدهم، بل هو شأن كثير من الأمم المكذبة بما جاء به الرسل، وحال كثير من المترفين والأغنياء والكبراء، والسادة المعاندين لدعوة الأنبياء، فقوم نوح عليه السلام كما حكى عنهم القرآن الكريم اعترضوا على الإيمان به بقولهم له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ (الشعراء)، وقالوا أيضًا: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ (هود: ٢٧)، وقوم صالح من المستكبرين يعترضون على دعوته كما حكى القرآن الكريم عنهم قائلين: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ (الأعراف)، فليس في هذا جديد بل هذه سنة الرسل في أقوامهم أن يكذبهم المترفون ويتبعهم الضعفاء، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الزخرف)، وقال أيضًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (سبأ).

ويحاول هؤلاء المشركون المترفون إبطال حقيقة الإسلام بدليل سوفسطائي مردود؛ حيث يجعلون كثرة أموالهم وأولادهم حجة على أنهم أهل حظ عند الله عز وجل ومظنة عناية عنده، وأن ما هم عليه هو الحق، وهذا تعريض منهم بعكس حال المسلمين وما هم عليه من ضعف وقلة عدد وشظف عيش ليستدلوا على أنهم غير محظوظين عند الله، وهذا من تمويه الحقائق؛ حيث لم يتفطنوا إلى أن أحوال الدنيا مسبَّبة على أسباب دنيوية لا علاقة لها بأحوال الأولاد، وهذا مبدأ سوفسطائي وهمي خطير يقول به أهل العقائد الضالة، ومرجعه قياس الغائب على الشاهد، وهو قياس يصادف الصواب تارة، ويُخطِئه تارات أخرى.

وقد ردّ الله عز وجل عليهم شبهتهم هذه بعدة ردود مقنعة لكل ذي عقل ولب سليم، فمن ذلك أنه بيّن لهم أن الله هو الذي يبسط الرزق ويوسعه أو يقدره ويضيقه ولا ارتباط لهذا التوسيع والتضييق بمسألة الهداية والضلال، فربما وسَّع الله الرزق على العاصي وضيقه على المطيع، وربما عكس، فلا يغرنكم هذا ولا ذاك فإنكم لا تعلمون، ولذا قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ

ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (سبا)، فأكثر الناس تلتبس عليهم الأمور فيخلطون بينها ولا يضعونها في مواضعها، وهذا الإبطال لدعواهم هذه يسمى في علم المناظرة نقضًا إجماليًا.

ثانيًا. القرب من الله ليس بكثرة الأموال والأولاد وإنما بالتقوى والعمل الصالح:

أما ما توهموه من أن بسط الرزق علامة على القرب عند الله ﷻ، وضد ذلك علامة على ضده، فليس هذا بصحيح، وبهذا أخطأ أحمد بن الراوندي في قوله:

كَمْ عاقلٍ عاقلٍ أَعْيَتْ مَذاهِبُهُ
وجاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقاهُ مَرْزُوقَا
هذا الذي تَرَكَ الأَوْهامَ حائِرَةً
وصَيَّرَ العالِمَ النِّحْرِيرَ زِنْدِيقَا

ولو كان عالمًا نحريرًا حقًّا لما تحيّر فهمه وما تزندق، ولكن أدّاه إلى ذلك ضيق أفقه وعطن فكره.

فأبطل الله تعالى مقالتهم هذه، وأوضح أنه لا يقرِّب إلى الله إلا الإيمانُ والعمل الصالح، فإن الله يعطي المال والدنيا من يحب ومن لا يحب، لكنه لا يعطي الآخرة إلا من أحب، قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (سبا).

وهذا ارتقاء في الردّ من إبطال الملازمة التي توهموها إلى الاستدلال على أنهم ليسوا بمحل الرضا عند الله تعالى، وهذا ما يسمى في علم المناظرة نقضًا تفصيليًّا لإبطال دعوى الخصم.

ثم بعد أن أبطل الله مزاعم المشركين في أن تكون الأموال والأولاد بذاتها وسيلة قرب لدى الله ﷻ أبان لهم أن المال إن استعمل في طلب مرضاة الرب بالإنفاق فيما أذن فيه الشرع فإن الانتفاع به ثابت بما يجلبه من الثواب وما يدخره الله ﷻ للمنفق، فقال ﷻ عقب الآيات السابقة: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (سبا).

ثالثًا. الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده امتحانًا واختبارًا فضلا عن كونه استدراجًا للمستكبرين كما حدث مع قارون:

ومن اللَّفَتات الطيبة التي نبَّه عليها الحق ﷻ في كتابه بشأن هذه المسألة في موطن آخر ما أرشد إليه القرآن من أن إعطاء الأموال والأولاد لهؤلاء المغرورين ليس لكرامتهم على الله ولا معزَّتهم لديه، فليس الأمر كما يزعمون ويتوهمون، لقد خاب رجاؤهم وضل مسعاهم، فإنما يفعل بهم ذلك استدراجًا وإنظارًا وإملاءً، قال ﷻ: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (المؤمنون)، وقال تعالى أيضًا: ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ ﴾ (آل عمران:٧٨)، وقال: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾ (المدثر)، وقال: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ (آل عمران)، وقال: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ

نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ (لقمان)، وقال أيضًا: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (الحجر)، وقال: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (التوبة).

وأوضح مثال على ذلك ما حدث مع قارون؛ فقد زعم أنه أوتى المال بمهارته وذكائه وليس من فضل الله وتوفيقه، فقد قال مقولة يقولها كلُّ من قلّ علمه إذا رأى من وسَّع الله عليه حيث يقول: لولا أنه يستحق ذلك لما أُعطي ما أعطي، ولولا أنه عند الله خصيص وذو حظوةٍ ما خوّله هذا، ولولا رضا الله عنه ومعرفته بفضله ما أعطاه هذا المال، كما قال الله ﷻ مخبرًا عن شأن الإنسان في حال جحوده: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ (الزمر: ٤٩)، وتلك مقولة كثير ممن سلف من الأمم ودعوى يدعيها كلُّ جاحد، قال ﷻ: ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الزمر).

وقد ردّ الله عليه هو وأمثاله ادعاءهم هذا، وأبطل زعمهم أنهم أوتوا ذلك بسبب علمهم وفطنتهم وتدبيرهم، وبيّن لهم أنّ هذا من باب الفتنة فليس ما أنتم فيه من خير نتيجة لمساعيكم، بل ما أوتيتم من نعمة إنما آتاكم الله إياها ليظهر للأمم مقدار شكركم وهو فتنة تختبرون بها، قال ﷻ: ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الزمر).

فإن سعة الرزق قد تكون استدراجًا ومكرًا، وتقتيره قد يكون رفعة وإعظامًا، وفي هذا عبرة لمن يعتبر من المؤمنين المتفكرين، قال ﷻ: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (الزمر).

ومن ردود القرآن في مواضع أخرى ما أنكره الله على الإنسان في اعتقاده إذا وسَّع الله ﷻ عليه في الرزق فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له، وليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان، كما قال ﷻ: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (المؤمنون)، وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيَّق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له، ولذا قال ﷻ عقب ذلك: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ (الفجر).

أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا، فإن الله ﷻ يُعطي المال من يُحب ومن لا يُحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المَدار في كل من الحالين على طاعة الله، إذا كان الإنسان غنيًّا بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيرًا بأن يصبر.

ومن هنا يُبيّن القرآن أن الرزق قد جعل الله له أسبابًا وسُننًا في هذه الحياة الدنيا، ولذا قال لمن ادعوا أنهم أُوتوا المال على علم: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ (الزمر: ٥٢)، فمن ادعى أن الإعطاء دليل الكرامة والاستحقاق والقرب إلى الله فزعمه باطل مردود، وتأويله فاسد مُدْحَض، ولذا قال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ (سبأ: ٣٧)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ

﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ (الكهف).

فرُبَّ رجل في نعمةٍ في الدنيا هو مسخوط عليه، ورب أشعث أغبر مطرود بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه، فمناط الردع جعل الإنعام علامة على إرادة الله إكرام المنعَم عليه وجعل التقتير علامة على إرادة الإهانة، وليس مناطه وقوع الكرامة ووقوع الإهانة؛ لأن الله ﷻ أهان الكافر بعذاب الآخرة، ولو شاء إهانته في الدنيا لأجل الكفر لأهان جميع الكفرة بتقتير الرزق.

وهكذا شأن الله في معاملته للناس في هذا العالم، له أسرار لا يُحاط بها، وأهل الجهالة بمعزل عن إدراك سِرّها بأقيسة وهمية، والأَوْلى لهم أن يطلبوا الحقائق من دلائلها العقلية، وأن يعرفوا مراد الله من وحيه إلى رسله، وأن يحذروا من أن يحيدوا بالأدلة عن مدلولها، وأن يستنتجوا الفروع من غير أصولها، أما العلماء فهم يضعون الأشياء في مواضعها ولا يخلطون ولا يخبطون، ولذا أعقب الله الردّ على من ادّعوا أنهم أوتوا المال بسبب علمهم وذكائهم وحِيلهم فقال: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (الزمر)، وقال لقارون: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ (القصص: ٧٨)، والمعنى: أو لم يعلم قارون حين زعم أنه أوتي الكنوز لفضل علمٍ عنده فاستحق بذلك أن يؤتى ما أوتي من الكنوز، أن الله قد أهلك من قبله من الأمم من هو أشد منه بطشًا، وأكثر جمعًا للأموال، ولو كان الله يؤتى الأموال من يؤتيه لفضل فيه وخير عنده ولرضاه عنه لم يكن يُهلك من أهلك من أرباب الأموال الذين كانوا أكثر منه مالًا؛ لأن من كان الله راضيًا عنه فمحالٌ أن يهلكه الله وهو عنه راض، وإنما يهلك من كان عليه ساخطًا.

الخلاصة:

- غرض هؤلاء المشركين من هذه الشبهة إدخال الشك على المستضعفين من المؤمنين، وإيهامهم أن من كَثُر ماله دل ذلك على أنه المحقّ في دينه، ومن قل ماله دل على أن ما هو عليه من دين باطل، وكأنهم لم يروا في الكفار فقيرًا ولا في المؤمنين غنيًّا، ولم يعلموا أن الله نحَّى أولياءه عن الاغترار بالدنيا وفَرْطِ الميل إليها.
- هذه الشبهة طالما أثارتها كثير من الأمم الضالة المكذبة لرسلها، فقوم نوح يقولون له: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ (الشعراء) وقوم صالح من المترفين يقولون للمستضعفين منهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ (الأعراف: ٧٥)، ويقولون أيضا له: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ (الأعراف)، وأهل مكة يقولون: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ (الأحقاف: ١١). يقصدون بذلك المستضعفين من المؤمنين أمثال بلال، وصُهيب، وعمّار، وخبّاب، ونحوهم ﭫ وقد أبطل الله زعمهم وأبان أنه أهلك قرونًا كثيرة كانوا أرفه من مشركي العرب متاعًا، وأجمل منهم منظرًا وأحسن أثاثًا، وأجمل صورًا ومناظر، فأهلكناهم وغيّرنا صورهم، وبدّلنا النعمة والبهجة التي كانوا فيها

لكفرهم واستكبارهم، فقال ﷻ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾ (مريم).

- وقد ردّ الله على هؤلاء شبهتهم في مواضع كثيرة من كتابه وأبان أنها قائمة على حجة موهومة ودليل سوفسطائي مزعوم؛ إذ لم يفطنوا إلى أن أحوال الدنيا في الغنى والفقر مسبّبة على أسباب قدّرها الله ولا علاقة لها بصحة الدين أو بطلان المعتقد، وقد يرزق الله الإنسان رغدًا في العيش وسعة في الرزق استدراجًا وإملاء، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ (آل عمران: ١٧٨)، وقال: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ (الأنعام)، وعلى هذا فمقولتهم تلك ناشئة عن غَلَطٍ في الفهم وفساد في الفكر وخطأ في القياس.

الشبهة الرابعة والأربعون

دعوى أن النِّفاق والمداراة بين المؤمنين والكافرين هو عيْن الإصلاح(*)

مضمون الشبهة:

يدّعي المنافقون أن الكفر والعمل بالمعصية صلاح وهدى، وأن الحالة التي هم عليها من النفاق والمُداراة بين الفريقين - المؤمنين والكافرين - هي عين الصلاح، قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (البقرة).

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (البقرة/ ١١).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ١٢، فاطر/ ٨، النمل/ ٢٤، الكهف/ ١٠٤).

وجها إبطال الشبهة:

١) تزيين الشيطان للمنافقين جعلهم يظنون أنهم مصلحون، فضلًا عن أن سوء الغفلة التي يعيش فيها هؤلاء جعلهم لا يشعرون بفسادهم في الأرض.

٢) سياسة المدارة التي يتبعها المنافقون مع المسلمين والكافرين هي عين الفساد، وقد ألزمهم الله التصديق بما جاء به رسول الله كالذي ألزم به المؤمنين.

التفصيل:

أولا. تزيين الشيطان وسوء الغفلة جعلا المنافقين لا يشعرون بفسادهم في الأرض:

يظهر المنافقون الإيمان ويبطنون الكفر خوفَ القتل، وقد ظهر المنافقون بالمدينة وكثروا نظرًا لكثرة المسلمين وقوة شوكتهم، وتلك بؤرة النفاق التي يحيا فيها، وكان المنافقون يوالون الكافرين، ويصدون الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، ويعمدون إلى إلقاء الشبه والوشايات بين الناس، وإيقاع الشر بينهم عن طريق النميمة وغير ذلك، وهذا هو إفسادهم الذي حكاه الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (البقرة) فهم لسوء أعمالهم وغفلتهم لا يشعرون أن ما يفعلونه فساد في فساد، وهذا من تزيين الشيطان لهم، قال ﷻ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (فاطر: ٨)، وقال أيضًا: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ (الكهف)، وقال ﷻ: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (النمل).

والقائل لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بعض من وقف على حالهم من المؤمنين الذين لهم اطلاع على شؤونهم لقرابة أو صحبة، فيخلصون لهم النصيحة والموعظة رجاء إيمانهم ويسترون عليهم خشية عليهم من العقوبة وعلمًا بأن النبي ﷺ يغضي عن زلاتهم كما أشار إليه ابن عطية.

وفي جوابهم بقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ما يفيد أن الذين قالوا لهم ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ كانوا جازمين بأنهم مفسدون؛ لأن ذلك مقتضى حرف إنما، ويدل لذلك بناء فعل ﴿قِيلَ﴾ للمجهول بحسب ما يأتي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ (البقرة: ١٤).

ولا يصح أن يكون القائل لهم الله والرسول ﷺ؛ إذ لو نزل الوحي وبلغ إلى معينين منهم لعلم كفرهم، ولو نزل مجملًا كما تنزل مواعظ القرآن لم يستقم جوابهم بقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ⑪﴾ (البقرة).

وبيان إيقاعهم الفساد أنه مراتب:

١. إفسادهم أنفسهم، وذلك بالإصرار على تلك الأدواء القلبية، وما يترتب عليها من المذام ويتولد من المفاسد.

٢. إفسادهم الناس ببث تلك الصفات والدعوة إليها، وإفسادُهم أبناءهم وعيالهم في اقتدائهم بهم في مساوئهم كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ⑳﴾ (نوح).

٣. إفسادهم بالأفعال التي ينشأ عنها فساد المجتمع، كإلقاء النميمة والعداوة وتسعير الفِتَن وتأليب الأحزاب على المسلمين وإحداث العقبات في طريق المصلحين[١].

وهكذا شأن كل مفسد في الأرض يدعي أنه مصلح في نفس إفساده، فإن كان على بينة من إفساده عارفًا أنه مضِلّ - وإنما يكون كذلك إذا كان إفساده لغيره لعداوة منه له - فإنما يدّعي ذلك لتبرئة نفسه من وصمة الإفساد بالتمويه والمواربة، وإن كان مسوقًا إلى الإفساد بسوء التقليد الأعمى الذي لا ميزان فيه لمعرفة الإصلاح من الإفساد إلا الثقة بالرؤساء المقلَّدين، فهو يدّعيه عن اعتقاد ولا يريد أن يفهم غير ما تلقاه عنهم، وإن كان أثر تقليدهم والسير على طريقتهم مفسدًا للأمة في الواقع ونفس الأمر؛ لأن الوجود والحقيقة الواقعة لا قيمة لها ولا اعتبارَ في نظر المقلدين، بل هم لا يعرفون مناشئ المفاسد ومصادر الخلل ولا مزالق الزلل؛ لأنهم عطلوا نظرهم الذي يميز ذلك، وأرادوا أن يوقعوا غيرهم بهذه المهالك بصدّهم عن سبيل الإسلام الداعي إلى الوحدة والالتئام، فكان ذلك منهم دعوة إلى الفرقة والاختصام، وأي إفساد في الأرض أعظم من التنفير عن اتباع الحق، والاعتصام بدين فيه سعادة الدارين، والأرض إنما تفسد وتصلح بأهلها، ولذا فإنك ترى هؤلاء المفسدين في كل عصر ومصر يفسدون في الأرض[٢]، ويزعمون أنهم أهل الإصلاح والبناء والتعمير، ويصفون أهل الإيمان الفساد، فها هو فرعون

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٢٨٤.

٢. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١، ص١٥٧.

يقول لقومه: ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (غافر)، ثم يقول عن نبي الله موسى الذي جاء بكل صلاح له ولقومه: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (غافر).

ثانيًا. سياسة المدارة التي يتبعها المنافقون مع المسلمين والكافرين هي عين الفساد:

لقد تنبَّه أعداء الإسلام إلى أن هذا الدين القوي الحق لا يمكن أن يتأثر بطعنات الكفر، بل يواجهها ويتغلب عليها، فما قامت معركة بين حق وباطل إلا انتصر الحق، ولقد حاول أعداء الإسلام أن يواجهوه سنوات طويلة، ولكنهم عجزوا، ثم تنبهوا إلى أن هذا الدين لا يمكن أن يهزم إلّا من داخله، وأن استخدام المنافقين في الإفساد هو الطريقة الحقيقية لتفريق المسلمين، فانطلقوا على المسلمين اسمًا ليتخذوا منهم الحربة التي يوجهونها ضد الإسلام، وظهرت مذاهب واختلافات وما أسموه العلمانية واليسارية وغير ذلك، كل هذا قام به المنافقون في الإسلام وغلفوه بغلاف إسلامي؛ ليفسدوا في الأرض ويحاربوا منهج الله، وإذا لفت المؤمنون نظرهم إلى أنهم يفسدون في الأرض، وطلبوا منهم أن يمتنعوا عن الإفساد ادعوا أنهم لا يفسدون ولكنهم يصلحون[1].

ولذا ردّ الله ﷻ على هؤلاء المنافقين الزاعمين لأنفسهم الصلاح فقال: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (البقرة) فهم أهل الفساد لتركهم الحق واتباعهم للباطل ولفعلهم المعاصي، ولكنهم لا يشعرون أن ذلك فسادٌ، ولا يعلمون أن محاولة مداراتهم الفريقين من المؤمنين والكافرين هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادًا؛ لأن الله قد فرض عليهم عداوة اليهود لحربهم المسلمين، وألزمهم التصديق بما جاء به رسول الله ﷺ كالذي ألزم من ذلك المؤمنين به، وقد قطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين بقوله تعالى: ﴿ لَّا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (النساء: ١٤٤).

الخلاصة:

- يعيش المنافقون دائمًا على الوشايات والفتن، وهذا دأبهم وديدنهم، وظهر ذلك جليًّا في المدينة حينما هاجر إليها النبي ﷺ والمسلمون بينهم يعلمون ذلك، وعندما نصحوا المنافقين ردّ عليهم المنافقون بأنهم مصلحون وقد تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض.
- يعتقد المنافقون للمرض الذي ملأ عقولهم وقلوبهم أن سياسة المداراة التي يتبعونها مع المسلمين والكافرين هي عين الإصلاح، رغم أن الله ﷻ ألزمهم عداوة اليهود المحاربين والكفار كما ألزم المسلمين، وألزمهم التصديق بكل ما أنزل على سيدنا محمد ﷺ، شأنهم في ذلك شأن المؤمنين حتى ينقطع دابر النفاق.
- حرَّم الإسلام ونهى عن موالاة غير المسلمين من دون المسلمين.

---

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١، ص١٥٤، ١٥٥.

الشبهة الخامسة والأربعون

دعوى الاكتفاء بما كان عليه الآباء والأسلاف من معتقدات وعبادة ولا حاجة لمعتقدات أو شعائر جديدة(*) ®

مضمون الشبهة:

ادَّعى الضالون والكفرة من المشركين أن ما عليه آباؤهم من عبادة الأصنام والأوثان هو المعتقد الصحيح الذي هم به مؤمنون وله متبعون، وعلى آثاره مقتفون، ومن ثم فهم ليسوا في حاجة إلى أية معتقدات جديدة يأتي بها الإسلام ورسوله. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ (البقرة: ١٧٠)، وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢)﴾ (الزخرف).

وجها إبطال الشبهة:

١) التقليد على إطلاقه مذموم، فما بالنا إذا كان تقليدًا في الجهل والسفه والضلال، فلا شك أن يكون أشد ذمًّا.

٢) القرآن الكريم دائم الدعوة إلى النظر والتأمل والتعقل في المقارنة بين دعوة الرسل وما فيها من الصدق والحق وما كان عليه الآباء من ضلال وعِيٍّ.

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (البقرة/ ١٧٠، المائدة/ ١٠٤، الأنبياء/ ٥٣، المؤمنون/ ٢٤، القصص/ ٣٦، لقمان/ ٢١، سبأ/ ٤٣، الزخرف/ ٢٢، ٢٣).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ١٧٠، المائدة/ ١٠٤، الأنبياء/ ٥٤، ٥٦، لقمان/ ٢١، الزخرف/ ٢٣، ٢٤).
® في "حقيقة الإيمان ومنافاتها للتقليد" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

التفصيل:

أولا. التقليد مذموم، ويكون أشد ذمًّا في تقليد الجهل والسفه والضلال:

هذه شبهة واهية تعلَّق بها هؤلاء المشركون عندما أُمِروا باتباع ما أنزل إليهم من ربهم وعدم اتِّباع أولياء من دونه، فقالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك والعقائد والمذاهب، وحسبنا ما تقلدناه من ساداتنا وكبرائنا وشيوخ علمائنا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ (لقمان: ٢١).

وقد ردّ الله تعالى عليهم مقولتهم هذه وأبان عن فساد مذهبهم بقوله ﷻ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ (البقرة)، وقوله أيضا: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)﴾ (المائدة)، والمعنى: أيتبعون ما ألفوا عليه آباءهم في كل حال وفي كل شيء، ولو كان آباؤهم لا يفهمون شيئًا ولا يعقلون شيئًا من عقائد الدين ولا يهتدون إليه فكيف يتبعونهم والحال هذه، لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضلُّ سبيلًا.

وكأن القرآن بذلك أنزلهم منزلة من لا يفهم الخطاب ولا يعقل الحُجج والدلائل، ولو كان لهؤلاء المقلدين قلوب يفقهون بها لكانت هذه الحكاية كافية لتنفيرهم من التقليد الأعمى للآباء والكبراء، فإنهم في كل مِلَّة، وجيل يرغبون عن اتباع ما أنزل الله استئناسًا بما ألفوه مما وجدوا آباءهم عليه، كما حكى القرآن عن قوم إبراهيم في عبادتهم للأصنام من دون الله: ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم

﴿مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الزخرف)، وكقول قوم موسى لما جاءهم الحق: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (القصص)، ومثل ذلك قول قوم نوح لما أمرهم بعبادة الله تعالى وحده: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (المؤمنون).

وحسبُك بهذا القول شناعة، إذ العاقل لا يؤثر على ما أنزل الله تقليد أحد من الناس، وإن كبُر عقله وحسُن سيرُه، فما من عاقل إلا وهو عُرضة للخطأ في فكره، وما من مهتدٍ إلا ويحتمل أن يضل في بعض سيره، فلا ثقة في الدين إلا بما أنزل الله، ولا معصوم إلا من عصم الله، فكيف يرغب العاقل عما أنزل الله إلى اتباع الآباء مع دعواه الإيمان بالتنزيل، على أنه لو لم يكن مؤمنًا بالوحي لوجب أن ينفره عن التقليد قوله ﷻ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (البقرة)، فإن هذا حجة عقلية لا تنقض.

ولذلك وجدنا القرآن الكريم يسفّه أحلامهم ويضلل آباءهم حينما ذكروا أنه لا حجة لهم سوى صنيع آبائهم، فقال لهم كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه مقيمًا الحجة عليهم: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ (الأنبياء).

أي أن الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم، ولهذا قال ﷻ أيضًا: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ (لقمان).

وهذه الحجة الباطلة شنشنة أهل الضلال من السابقين واللاحقين قد استووا فيه كما استووا في مثاره وهو النظر القاصر المخطئ، قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الزخرف)، كأنهم قد أوصى بعضهم بعضًا بهذه المقولة، كما قال الله في موضع آخر: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ (الذاريات)؛ أي: بل قد اشتركوا في سببه الباعث عليه وهو الطغيان.

ثانيًا. دعوة القرآن لأهل الشرك أن يعمنوا النظر فيما يعتقد آباؤهم وما جاء به النبي ﷺ:

من ردود القرآن الكريم عليهم أيضًا أن دعاهم إلى النظر والتعقل فيما اتبعوا فيه آباءهم، لعل ما دعاهم إليه الرسول أهدى منهم، إذ كان عليهم أن يقارنوا بين ما جاءهم به الرسول وبين ما تلقوه من آبائهم، فإن شأن العاقل أن يميز ما يلقى إليه من الاختلاف ويعرضه على معيار الحق، وشأن المقلد أن يغترّ بأحوال من سبقوه فلا يتأمل في مصادفة أحوالهم للحق، وفي ذلك يقول الحق تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الزخرف).

وهذا فيه من نقض حجتهم الواهية ما فيه؟ إذ لو كانوا عقلاء حقًّا لأقاموا الموازنة بين الأمرين، لكنهم لعنادهم وضلالهم وضعف حجتهم ثبتوا على دين آبائهم لا ينفكون عنه، وإن كان ما جاء به الرسول أرشد وأهدى، وما ذاك إلا بسبب التقليد المذموم.

ولذا يعقب السياق القرآني على موقفهم ذاك تعقيبًا

فيه من التعجب والتأنيب ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ (المائدة)، وليس معنى هذا الاستنكار لاتباعهم لآبائهم ولو كانوا لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون أن لو كان يعلمون شيئًا لجاز لهم اتباعهم وترك ما أنزل الله وترك بيان الرسول! إنما هذا تقرير لواقعهم وواقع آبائهم أو ما شرعوه لأنفسهم، ولا يركن أحد إلى شرع نفسه أو شرع أبيه وبين يديه شرع الله وسنة رسوله، إلّا وهو لا يعلم شيئًا ولا يهتدي!

وليقل عن نفسه أو ليقل عن غيره ما يشاء: إنه يعلم وإنه يهتدي فالله سبحانه أصدق، وواقع الأمر يشهد أنه لا يعدل عن شرع الله إلى شرع الناس إلا ضال جهول، فوق أنه مفتر كفور[١].

الخلاصة:

- الإسلام رسالة التحرر الفكري، لا تقر التقليد المزري، ولا تقر محاكاة الآباء والأجداد اعتزازًا بالإثم والهوى. فلا بد من سند، ولابد من حجة، ولابد من تدبر وتفكير، ثم اختيار مبنيٌّ على الإدراك واليقين.
- دعا الإسلام هؤلاء المقلدين إلى النظر والعبرة فيما جاء النبي به ﷺ وما يقولونه عن الآباء، فإن شأن العاقل أن يميز بين الغث والسمين - إن كان يريد الصواب - وسوف يجدون أن ما يدَّعونه باطل لا أساس له.

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٢، ص٩٩١.

الشبهة السادسة والأربعون

ادِّعاء اليهود أن عدم إيمانهم برسالة محمد ﷺ، سببه نزول جبريل عليه السلام بها(*)

مضمون الشبهة:

يزعم اليهود أن جبريل عدوٌّ لهم وأن ميكائيل ولي لهم، والسَّبب في ذلك أنهم سألوا الرسول ﷺ عن الملَك الذي يأتيه فأخبرهم بأنه جبريل فقالوا له: لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقَطْر والنبات لصدقناك، أمَّا جبريل فينزل بالحرب والقتال والعذاب، فهو عدو لنا؛ فلا نؤمن بوحي جاء به. قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ (البقرة).

وجوه إبطال الشبهة:

١) سبب عداوة اليهود لجبريل عليه السلام ظَنُّهم أنه ينزل بالحرب والعذاب، وهو ظنٌّ باطل وفاسد؛ لأن جبريل هو الروح الأمين الذي ينزل على جميع رسل الله، وهو ملك الوحي.

٢) من عادى رسولا عادى جميع الرسل؛ لأنهم جميعًا يتنزلون بأمر الله، فلا وجه للتفرقة بين عداوة جبريل وميكائيل.

٣) العاقل ينظر في كنه ما ينزل وحقيقة ما يُقال على لسان الأنبياء إذا رغب في تقبل الهداية والحق، أما من يتعلل بأن الأمر نزل به ملك دون آخر ويعلق تصديقه وإيمانه على ذلك، فهذا محض غباء وضيق أفق.

(*) الآيتان اللتان ورد فيهما الرد على الشبهة: (البقرة/ ٩٧، ٩٨).

التفصيل:

أولا. سبب عداوة اليهود لجبريل عليه السلام ظنهم أنه ينزل بالحرب والعذاب:

سبب مقولة اليهود السابقة هو المناظرة التي جرت بينهم وبين النبي ﷺ في أمر نُبُوَّته، حيث سألوه عن أسئلة لا يعلمها إلا نبي، ومن هذه الأسئلة أنهم سألوه عن وليه من الملائكة، فقال: إن وليي جبريل ولم يبعث الله نبيًّا قط إلا وهو وليه، فعند ذلك قالوا: نفارقك، ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك، وصدقناك. وفي رواية أنهم قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقَطْر والنبات لكان، فقال لهم: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (البقرة).

فيؤخذ مما سبق أن اليهود في عهد النبي ﷺ كانوا يجاهرون بعداوتهم لجبريل عليه السلام، وأن هذه المجاهرة قد تكررت منهم في مواقف متعددة بينهم وبين النبي ﷺ، وأن الذي حملهم على ذلك هو حسدهم له وغيظهم منه؛ لأنه ينزل بالوحي عليه. قال ابن عاشور: "ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من عند الله، ومع ذلك يبغضونه، وهذا أحط درجات الانحطاط في العقل والعقيدة، ولا شك أن الاضطراب في العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة؛ لأنه ينبئ عن تضافر آرائهم على الخطأ والأوهام"[1].

ثانيًا. من عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل؛ لأنهم جميعًا يتنزلون بأمر الله، فلا وجه للتفرقة بين عداوة جبريل وميكائيل عليهما السلام:

يردُّ الله عز وجل على هؤلاء اليهود مقالتهم الحاقدة، وعداوتهم لجبريل عليه السلام ويقيم الحجج الواضحة على حماقتهم وسخفهم وفساد علتهم في دعوى عداوة جبريل، مؤكدًا أن مَنْ عادى جبريل، فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلب النبي من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله من الملائكة، ومن عادى رسولًا فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، كما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ (النساء)، فحكم الله عليهم بالكفر المحقق إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم، وقال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ (الفرقان: ٣٧)، وإنما أُرسل إليهم نوح فقط، وقال عز وجل أيضًا: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (الشعراء)، وإنما أُرسل إليهم هود فقط، وقال عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ (الشعراء)، وقال عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ ﴾ (القمر).

فمن كفر برسول وكذبه فقد كفر بالرسل جميعًا وكذبهم، وكذلك من عادى جبريل عليه السلام فإنه عدوّ لله؛

---

١. التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، مطبعة الرسالة، القاهرة، ط٣، ١٩٨٧م، ج١، ص٢٨٣.

لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه وإنما ينزل بأمر ربه كما قال ﷻ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ (مريم: ٦٤)، وقال ﷻ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ (النحل: ١٠٢)، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ (الشعراء).

ثم بين ﷻ حقيقة الأمر فيمن يعادي جبريل وأن عداوته عداوة الله ﷻ فإنه أمين وحيه إلى رسله، ليس له في ذلك شيء إلا أن يبلغ ما أمر به فقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ (البقرة). والمعنى: أن عداوة جبريل عداوة لله، وأن عداوة محمد عداوة لله ـ أيضًا ـ فالإيمان بالله وملائكته ورسله وحدة لا تتجزأ فمن كفر بواحد منهم فهو كافر بالجميع.

ومعنى عداوة العبد لله: كفره به ومخالفته لأوامره ونواهيه، ومعنى عداوته لملائكته: إنكار فضلهم ووصفهم بما ينافي عصمتهم ورفعة منزلتهم، ومعنى عداوته لرسله: تكذيبه لهم وتعمُّده إلحاق الأذى بهم، ومعنى عداوة الله لعبده: غضبه ﷻ عليه، ومجازاته له على كفره، وصدَّر ﷻ الكلام باسمه الجليل؛ تفخيمًا لشأن ملائكته ورسله وإشعارًا بأن عداوتهم إنما هي عداوة له ﷻ.

وأفرد ﷻ جبريل وميكال بالذكر، مع اندراجهما تحت عموم ملائكته، لتصريح اليهود بعداوة جبريل وتعظيم ميكائيل، فأفردهما بالذكر للتنبيه على أن المعاداة لأحدهما معاداة للجميع، وأن الكفر بأحدهما كفر بالآخر.

قال ابن جرير: "فإن قال قائل: أو ليس جبريل وميكائيل من الملائكة؟ قيل بلى، فإن قال: فما معنى تكرير ذكرهما بأسمائهما في الآية في جملة أسماء الملائكة؟ قيل: معنى إفراد ذكرهما بأسمائهما أن اليهود لما قالت جبريل عدونا وميكائيل ولينا، وزعمت أنها كفرت بمحمد ﷺ من أجل أن جبريل صاحبه، أعلمهم الله ﷻ أن من كان لجبريل عدوًا فإن الله عدو له وأنه من الكافرين، فنص عليه باسمه وعلى ميكائيل باسمه، لئلا يقول منهم قائل: إنما قال الله: من كان عدوًا لله وملائكته ورسله، ولسنا لله ولا لملائكته، ولا لرسله أعداء، لأن الملائكة اسم عام محتمل خاصًا، وجبريل وميكائيل غير داخلين فيه، وكذلك قوله ورسله فلست يا محمد داخلا فيهم، فنص الله ﷻ على أسماء من زعموا أنهم أعداؤه بأعيانهم ليقلع بذلك تلبيسهم على أهل الضعف منهم، ويحسم تمويهم أمورهم على ضعاف الإيمان".

وقال ﷻ في ختام الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ (البقرة)، ولم يقل: فإن الله عدو له أو لهم؛ ليدل على أن عداوة كل واحد ممن اشتملت الآية الكريمة على ذكرهم كفر وجحود، وليكون اندراجهم تحت هذا الحكم العام من باب إثبات الحكم بالدليل، وللإشعار بأن عداوة الله لهم سببها كفرهم، فإن الله لن يعادي قومًا لذواتهم ولا لأنسابهم، وإنما يكره لهم الكفر ويعاقبهم عليه معاقبة العدو للعدو.

قال صاحب المنار: "فهذه الآية الكريمة وعيد لهم بعد بيان فساد العلة التي جاءوا بها، فهم لم يدعوا عداوة

لهؤلاء كلهم، لكنهم كذلك في نفس الأمر، فأراد أن يبين حقيقة حالهم في الواقع، وهي أنهم أعداء الحق وأعداء كل من يمثله ويدعو إليه، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكائيل الذي يزعمون أنهم يحبونه. وأنهم كانوا يؤمنون بالنبي ﷺ لو كان هو الذي ينزل بالوحي عليه، ومعاداة القرآن الكريم كمعاداة سائر الكتب الإلهية لأن المقصود من الجميع واحد، فقولهم السابق وحالهم يدلان على معاداة كل من ذكر، وهذا من ضروب إعجاز القرآن التي انفرد بها"[1].

ثالثًا. العاقل يتفحص طبيعة ما يُقال على لسان الأنبياء إذا رغب في تقبل الهداية، أما التعلل بملَكٍ دون الآخر للإيمان من عدمه فهو محض غباء:

مقولة اليهود هذه هي من اعتذاراتهم عن الإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ وهي تَعِلَّة غريبة، ومرادهم منها أن يقولوا: إن جبريل ينزل بالوحي على النبي ﷺ، ولما كان هو عدوّهم فهم إذًا لن يؤمنوا بوحي يجيء به، وهذا في الحقيقة من غبائهم وشدة جهلهم، فإن العاقل لا يرفض الهداية التي تأتيه وتنقذه من الضلال الذي هو فيه، فإن دعوى عداوة جبريل لا يصح أن تكون مانعة من الإيمان بكتاب أنزله الله، فمن كان عدوًا لجبريل فإنه عدوّ الحق، وعدوّ كل من يمثله وينقله ويدعو إليه، فالتصريح بعداوة جبريل هو تصريح بعداوة ميكائيل، ومعاداة القرآن كمعاداة سائر الكتب، ومعاداة محمد ﷺ كمعاداة سائر رسل الله، فوظيفتهم جميعًا واحدة، وهذا من ضروب إعجاز القرآن التي انفرد بها، وهكذا أبان لهم فساد العلة التي جاءوا بها.

الخلاصة:

- سمع اليهود أن جبريل عليه السلام ينزل بالوحي على سيدنا محمد ﷺ، ولما كان عداؤهم لرسولنا قد بلغ مرتبة الحقد والحنق فقد لج بهم الضغن أن يخترعوا قصة واهية وحجة فارغة، فزعموا أن جبريل عدوهم، لأنه ينزل بالهلاك والدمار والعذاب؛ وأن هذا هو الذي يمنعهم من الإيمان بمحمد ﷺ، ولو كان الذي ينزل إليه بالوحي هو ميكائيل لآمنوا، فميكائيل يتنزل بالرخاء والمطر والخصب.
- مسألة الإيمان ليست مجزأة، ولكنها قضية واحدة، فمن كان عدوًّا للملائكة وجبريل وميكائيل ورسل الله؛ فهو أولًا عدوٌّ لله؛ لأنه لا انقسام بينهم فكلهم دائرون حول الحق، والحق الواحد لا عدوان فيه، وإنما العدوان ينشأ من تصادم الأهواء والشهوات، وهذا ما حدث مع اليهود في موقفهم من دعوة النبي.

الشبهة السابعة والأربعون

ادّعاء أن سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام أفضلُ من الإيمان بالله والجهاد في سبيله(*)

مضمون الشبهة:

يزعم المشركون أن عمارة المسجد الحرام والقيام على سقاية الحجيج خير ممن آمن وجاهد في سبيل الله تعالى

---

1. المرجع السابق، ص٢٨٥، ٢٨٦.

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (التوبة/ ١٩).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (التوبة/ ٢٠: ٢٢، المؤمنون/ ٦٦، ٦٧).

وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون من أجل أنهم أهله وعُمَّارُه، قال تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ١٩).

وجها إبطال الشبهة:

١) لا تتساوى كفة سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام مع كفة الإيمان بالله واليوم الآخر، فقد قضى الله تعالى ألا يقبل عملا بغير الإيمان به وباليوم الآخر.

٢) هؤلاء المشركون لم يكونوا يعمرون البيت الحرام كما زعموا؛ لأن عمارة البيت تكون بعبادة الله وحده، لا بالاستكبار والفساد في الأرض.

التفصيل:

أولا. لا يقبل الله ﷻ عملا بلا إيمان:

لقد كان مشركو مكة مع كفرهم يفتخرون بسقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام، وكان منهم العباس عم رسول الله ﷺ حين تحدث إليه بعض الصحابة يدعونه للإسلام والجهاد في سبيل الله - حين أُسر يوم بدر - فقال: إننا نسقي الحجيج ونرعى البيت، ونفك العاني، ونقوم بعمارة البيت الحرام "، قال العباس ذلك ولم يكن قد أسلم بعد، وما قاله العباس هو موجز رأي أهل الشرك من قريش، الذين جعلوا هذه المسائل مقابل الإيمان بالله والجهاد في سبيله...

وقد ردّ الله على هؤلاء مقولتهم وبيّن لهم أن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام مع البقاء على الشرك لا تعدل الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله تعالى، فهما أمران لا يستويان أبدًا عند الله ﷻ، وما زعمتم من أنكم عُمَّار البيت وسدنته وأهله فإن هذه العمارة والسقاية لا تُغني عنكم شيئًا بشركم، وإن كنتم تجعلون هذا في مقابل الإسلام، فذلك لا يصلح أبدًا مقابلًا للإيمان، ولا تتساوى كفة الإيمان بالله واليوم الآخر أبدًا مع كفة سقاية الحجيج، وعمارة المسجد الحرام، ومن يقدِّر ذلك هو الله ﷻ، وله مطلق المشيئة في أن يتقبل العمل أو لا يتقبله، والمؤمن المجاهد في سبيل الله إنما يطلب الجزاء من الله، أما من يسقي الحجاج، ويعمر بيت الله دون أن يعترف بوحدانية الله كالمشركين - قبل الإسلام - فهو يطلب الجزاء ممن عمل من أجلهم، ولأنه ﷻ هو معطي الجزاء فهو ﷻ يوضح لنا أن هذين العملين لا يستويان عنده؛ أي: لا يساوي أحدهما الآخر في الجزاء[1].

وعليه فإن الله لا يقبل بغير الإيمان به وباليوم الآخر عملًا، والله لا يوفق لصالح الأعمال من كان به كافرًا ولتوحيده جاحدًا ولليوم الآخر مُنكرًا، قال ﷻ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ (التوبة).

ثم حكم الله بقضائه في هذا الحكم بين الفريقين اللذين افتخر أحدهم بالسِّقاية والعِمارة، والآخر بالإيمان بالله والجهاد في سبيله، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٨، ص٤٩٦٣، ٤٩٦٤ بتصرف.

﴿فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾ (التوبة).

ثانيًا. المشركون لم يكونوا يعمرون البيت الحرام كما زعموا، وإنما كانوا يستكبرون به ويفسدون في الأرض:

ومن ردِّ الله عليهم أيضًا أنه ذكر لهم استكبارهم وإعراضهم؛ حيث كانوا يستكبرون من أجل أنهم أهل الحرم وعمّاره، وكانوا يسمرون ويهجرون القرآن الكريم والنبي ﷺ ويهجرون البيت ولا يعمرونه، فقال ﷻ موبِّخًا لهم: ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ٦٧﴾ (المؤمنون).

والضمير في "به" في قوله تعالى: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ﴾ وإن لم يسبق له ذكر في الآيات التي قبل هذه الآية؛ لأن اشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنهم قوامه وسدنته وعمّاره أغنى عن سبق ذكره، وكانت العرب تدين لهم بذلك لامتيازهم عليهم به وبسقاية حجاجه، وكذا ضيافتهم وإن لم تكن عامة كالسقاية؛ لأن الحاجة إليها لم تكن عامة إذ من المعلوم أن الحجاج كانوا وما زالوا أحوج إلى الماء في الحرم من الزاد؛ لأن كل حاج كان يمكنه أن يحمل من الزاد ما يكفيه مدة سفره إلى الحرم وعودته بعد أداء المناسك، ولا سيما العربي القنوع القليل الأكل، ولكن لا يمكنه أن يحمل من الماء ما يكفيه كل هذه المدة ولا نصفها، ولذلك كان أول شروط استطاعة الحج الزاد لإمكانه مع كفالة أولي الأمر في الحرم لتوفير الماء فيه.

وإن فضيلة البيت الحقيقية التي بُني لأجلها هي عبادة الله وحده فيه بما شرعه كما يحب ويرضى، وقد جنى عليه المشركون ودنسوه بعبادة غيره فيه، ثم بصد المؤمنين الموحدين له عنه، كما قال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ (الفتح: ٢٥)، ثم إخراجهم إياهم من جواره لإيمانهم بربوبيته وألوهيته تعالى وحده دون ما أشركوه معه، كما قال للمؤمنين: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ (الممتحنة: ١)، وقال فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ (الحج: ٤٠)، فأي مَزِيَّة تبقى مع هذه الجرائم لخدمة حجارته واحتكار مفتاحه وسقاية المشركين من حُجَّاجه؟ وأي ظلم أشد من هذا الظلم في موضوعه[1]؟

الخلاصة:

- لقد ردَّ الله ﷻ على مشركي مكة الذين زعموا أن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام مع الشرك أفضل من الإيمان بالله والجهاد في سبيله؛ بأن هذين الأمرين لا يستويان أبدًا، فهذه السقاية والعمارة لا تساوي مع الشرك عند الله شيئًا، فالله لا يقبل عملًا بغير الإيمان بالله واليوم الآخر.
- ما كان يفعله هؤلاء المشركون لم يكن عمارة للمسجد الحرام كما زعموا، وإنما كانوا يستكبرون على الناس بذلك لكونهم أهل الحرم وعمّاره، فلا فضل لهم؛ لأن فضيلة البيت الحقيقية هي عبادة الله وحده، لا خدمة أحجاره واحتكار مفتاحه وسقاية المشركين من حجاجه.

---

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١٠، ص٢١٨، ٢١٩.

الشبهة الثامنة والأربعون

دعوى تعليق الإيمان على رؤية الله علانية(*)

مضمون الشبهة:

ادَّعى بنو إسرائيل أن إيمانهم معلَّقٌ على رؤيتهم الله ﷻ علانية، وسألوا موسى عليه السلام ذلك مُعْلنين أنهم لن يؤمنوا إلا إذا تحقق لهم مرادهم قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ﴾ (البقرة).

وجها إبطال الشبهة:

١) إن تعليق هؤلاء الإيمان بالله على رؤيته علانية مَحْض تعنُّت؛ مردُّه عنادهم واستكبارهم؛ ذلك أن الناس لن ترى الله ﷻ في الدنيا، وعلى زعمهم هذا لن يؤمن الناس إلا بعد موتهم في الدار الآخرة، وهذا ما لم يقل به عاقل.

٢) ردُّ المولى ﷻ على تعنتهم في مطالبهم بأخذهم بالصاعقة وهم يشاهدونها بأعينهم.

التفصيل:

أولا. تعليق الإيمان على رؤية الله ﷻ علانية، وذلك للاستكبار والعناد:

تدل مقولة بني إسرائيل هذه على عنادهم وتعنُّتهم، وهو من سماتهم الواضحة التي توضحها أحوالهم مع نبي الله موسى عليه السلام وهم هنا يقولون له: لن نصدق بما جئت به تصديق إذعان واتباع حتى نرى الله عيانًا جَهرة فيأمرنا بالإيمان لك، وهذا من ضعف إيمانهم ومن أدلة جهلهم وكفرهم بالله ﷻ؛ لأنهم ظنوا أنه جسم محدود تُدركه الأبصار وتُحيط به أشعة الأحداق، فشبهوا ربهم بأنفسهم، ورفعوا أنفسهم إلى ما فوق مرتبتها وقدرها، ولم يقدروا الله حق قدره، وكان ينبغي عليهم أن يؤمنوا بما جاء به نبيهم لاسيما بعد الكثير من الآيات والمعجزات التي ظهرت على يديه.

والظاهر أن هذا القول وقع منهم بعد العفو عن عبادتهم العجل كما هو ظاهر من ترتيب الآيات، روى ذلك البغوي عن السدي، وقيل: إن ذلك سألوه عند مناجاته، وأن السائلين هم السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام للميقات وهم المعبر عنهم في التوراة بالكهنة وبشيوخ بني إسرائيل، وقيل: سأل ذلك جمع من عامة بني إسرائيل نحو العشرة الآلاف، وهذان القولان حكاهما في "الكشاف" وليس في التوراة ما هو صريح لترجيح أحد القولين، ولا ما هو صريح في وقوع هذا السؤال، ولكن ظاهر ما في سفر التثنية منها ما يشير إلى أن هذا الاقتراح قد صدر وأنه وقع بعد كلام الله تعالى الأول لموسى؛ لأنها لما حكت تذكير موسى في مخاطبة بني إسرائيل ذكرت ما يغاير كيفية المناجاة الأولى، إذ قال: فلما سمعتم الصوت من وسط الظلام والجبل يشتعل بالنار تقدم إلى جميع رؤساء أسباطكم وشيوخكم وقلتم هو ذا الرب إلهنا قد أرانا مجده وعظمته وسمعنا صوته من وسط النار... إننا عندما نسمع صوت الرب إلهنا أيضًا نموت... تقدم أنت واسمع كل ما يقول لك الرب إلهنا وكلمنا بكل ما

(*) الآيتان اللتان وردت فيهما الشبهة: (البقرة/ ٥٥، النساء/ ١٥٣).

الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ٥٥، الأنعام/ ١٠٣، الأعراف/ ١٤٣، ١٥٥، الفرقان/ ٢١).

يكلمك به الرب إلخ. فهذا يؤذن أن هنالك ترقبًا كان منهم لرؤية الله تعالى وأنهم أصابهم ما بلغ بهم مبلغ الموت، وبعد فالقرآن حُجَّةٌ على غيره مُصدِّق لما بين يديه ومُهَيمِن عليه. والظاهر أن ذلك كان في الشهر الثالث بعد خروجهم من مصر.

ثانيًا. رد المولى على تعنت اليهود في مطالبهم بإرسال الصاعقة عليهم وهم ينظرونها:

وقد ردَّ الله عليهم ردًّا عمليًّا بأن أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ذلك بأعينهم، قال ﷻ: ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (البقرة). وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ إشارة إلى أن العقوبة قد فاجأتهم بعد وقت قصير من مطالبهم المتعنتة؛ لأن الفاء تفيد التعقيب.

وجملة ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ تفيد أن العقوبة نزلت عليهم وهم يشاهدونها، وفي مشاهدتها رعب وخوف أخذ بمجامع قلوبهم، قبل أن يأخذ العذاب أجسادهم، وأن إصابتهم بهذه العقوبة كان في حالة إساءتهم وتمردهم وطمعهم في أن ينالوا ما ليس من حقهم.

والآية الكريمة تفيد أن بني إسرائيل طلبوا من نبيهم رؤية الله جهرة في الدنيا، وأنهم علقوا إيمانهم عليها، ولم يأبهوا للآيات الدالة على صدق موسى عليه السلام فكان ذلك محض تعنت وعناد منهم، فأخذتهم الصاعقة عقوبة لهم على ذلك، وليس على مجرد سؤالهم رؤية الله ﷻ، ومن هنا يتبين أن الآية لا تدل على استحالة الرؤية كما يقول المعتزلة.

وجملة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ (البقرة: ٥٦) هي محل النعمة والمنة، وهي معطوفة على قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ (البقرة: ٥٥) ودلَّ العطف بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ على أن بين أخذ الصاعقة والبعث زمانًا تُتصوَّر فيه المهلة والتأخير. والمراد ببعثهم: إحياؤهم من بعد موتهم، وهو معجزة لموسى عليه السلام استجابة لدعائه.

وقد اشتملت الآيتان الكريمتان على تحذير اليهود المعاصرين للعهد النبوي من محاربة الدعوة الإسلامية، حتى لا يصابوا بما أصيب به أسلافهم من الصواعق وغيرها، وفيهما أيضًا تسلية للنبي ﷺ عما لاقاه من اليهود، لأن ما فعلوه معه قد فعل ما يشبهه آباؤهم مع أنبيائهم، وفيها كذلك لون جديد من نعم الله عليهم ما أجدرهم بشكرها لو كانوا يعقلون[1].

هذا وقد اختلف العلماء في بيان السبب الحامل لهم على سؤالهم رؤية الله ﷻ فقد ذكر بعض العلماء أنهم أرادوا أن يتأكدوا أن الذي يكلمهم هو الله ﷻ، لكن لا دليل من كتاب ولا سُنَّة عن رسول الله ﷺ يوضح ذلك.

وهذا السؤال من بني إسرائيل أمرٌ عظيم وشيء كبير، قال الله ﷻ: ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ (النساء: ١٥٣)، والله ﷻ لا تدركه الأبصار، قال ﷻ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (الأنعام).

ولن يرى الناسُ ربَّهم في الدنيا، وقد قال الله ﷻ لموسى عليه السلام لما سأله الرؤية: ﴿لَن تَرَىٰنِى ﴾ (الأعراف: ١٤٣)،

---

١. التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، مرجع سابق، ج١، ص١٧٣، ١٧٤.

وقال النبي ﷺ: "لن يرى أحدٌ منكم ربه ﷻ حتى يموت"[1].

وقد عدَّ الله ﷻ من سأل رؤيته - في الدنيا - مستكبرًا عاتيًا عُتوًّا كبيرًا، قال ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الفرقان).

الخلاصة:

- تعنت بنو إسرائيل في طلبهم من نبيهم موسى عليه السلام؛ حيث قالوا له بجفاء وغلظة: لن نؤمن لك، ولن نقر بما جئتنا به حتى نرى الله عيانا وعلانية، فيأمرنا بالإيمان بك، وبما جئت به، فأخذتهم العقوبة التي صعقتهم - بسبب جهالتهم وتطاولهم - وهم يشاهدونها بعيونهم، ثم منَّ الله ﷻ عليهم بلطفه ورحمته فأحياهم لعلهم يشكرونه على نعمه.
- حذرت الآيات اليهود المعاصرين للعهد النبوي من محاربة الدعوة حتى لا يصابوا بما أصيب به أسلافهم من الصواعق وغيرها.

---

1. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد (٧٥٤٠).

المحور الخامس

شبهات تتعلق بالأنبياء والرسل

أولا. شبهات عامّة في حقِّ الأنبياء والرُّسل جميعًا

الشبهة التاسعة والأربعون

دعوى تعليق الإيمان بما جاء به النبي ﷺ حتى يُنزِّل آيات من السماء(*)

مضمون الشبهة:

يعلِّق المشركون واليهود إيمانهم بالنبي ﷺ حتى يأتيهم بالآيات والمعجزات التي تؤكِّد صدق دعوته؛ ومنها: إنزال كتابٍ من السماء يشهد بصحة ما يقوله، أو إنزال كنز من السماء، أو الإتيان بالملائكة، قال ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾ (النساء)، وقوله ﷻ: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ (الفرقان)، بل يُقسِم المشركون بالأيمان المغلظة المؤكدة أنهم إن جاءتهم آية ومعجزة خارقة فسوف يؤمنون بها، قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (الأنعام).

وجوه إبطال الشبهة:

١) المولى ﷻ وحده القادر على الآيات والمعجزات، والمتصرف فيها، يعطيها من يشاء ويمنعها من يشاء بحكمته، ولا دخل لنبي أو رسول في ذلك، أما تعليق الإيمان على ذلك فهذا شأن المكذبين وأهل الضلال في كل وقت وزمان.

٢) منع الإتيان بالآيات سببه تكذيب الأولين بها عنادًا واستكبارًا كما أن المشركين لا تقنعهم الآيات الحسية.

٣) طلب المشركين واليهود من النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء لم يكن بقصد طلب الحجة لأجل الاقتناع، ولكن كان على سبيل التعنت والتعجيز.

٤) عدم استجابة الله للمشركين فيما طلبوه من آيات هو رحمة بهم؛ لأن من سنة الله في الأمم إهلاك من يكذب بالآيات بعد نزولها.

٥) لو أنزل الله ملكًا من السماء على البشر لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدونه، ولو جعله الله في صورة بشر لزعموا أنه بشر، فكان من رحمة الله أن أرسل إلى البشر رسلا منهم.

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (النساء/ ١٥٣، الأنعام/ ٨، ٣٧، ١٠٩، ١٢٤، يونس/ ٢٠، هود/ ٢٢، ٣٢، الرعد/ ٧، ٢٧، إبراهيم/ ١٠، الحجر/ ٧، الإسراء/ ٩٠: ٩٣، طه/ ١٣٣، الأنبياء/ ٥، المؤمنون/ ٢٤، الفرقان/ ٧، ٨، العنكبوت/ ٥٠، ٥١، الشعراء/ ١٥٤، فصلت/ ١٤، الزخرف/ ٥٣، المدثر/ ٥٢).

الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (آل عمران/ ١٦٤، النساء/ ١٥٣، ١٥٤، الأنعام/ ٤، ٦، ٧، ٨، ٢٤، ٣٧، ١٠٩: ١١١، ١٢٤، يونس/ ٩٦، ٩٧، هود/ ١٢، الرعد/ ٧، ٢٧، إبراهيم/ ٩، ١١، الحجر/ ٥، ٨، ١٤، ١٥، الإسراء/ ٥٩، ٩٣، ٩٥، ٩٦، الفرقان/ ١٠، ١١، ٢٢، الجمعة/ ٢، المدثر/ ٥٣).

التفصيل:

أولا. الآيات والمعجزات عطاء الله لمن يشاء ولا دخل لنبي في ذلك، وتعليق الإيمان عليها شأن المكذبين:

هذه شبهة طالما أثارتها كثير من الأمم الضالة والمكذبة لرسلها، فقوم عاد قالوا لنبي الله هود عليه السلام: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (هود)، والذين كفروا قالوا لرسلهم: ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾﴾ (إبراهيم)، أي بخارق ومعجزة نقترحها عليكم، وقوم ثمود قالوا لنبي الله صالح عليه السلام: ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ (الشعراء)، وفرعون قال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ (الأعراف)؛ أي: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كان معك حجة أو آية فأظهرها لنراها إن كنت صادقًا فيما ادَّعيت.

وأما المشركون والكفار فقد سألوا رسول الله ﷺ مثل ذلك، فمن ذلك ما حكاه عنهم القرآن، كما في قوله ﷻ: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَا﴾ (الأنعام: ١٠٩)، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ (الأنعام: ١٢٤)، كما طالبوا الرسول بالكثير من الآيات التي لا يستطيعها بشر، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ (الإسراء).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادعُ لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك، قال: "وتفعلون"، قالوا: نعم، قال: فدعا فأتاه جبريل عليه السلام فقال: "إن ربك ﷻ يقْرأ عليك السلام، ويقول: إن شئتَ أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذَّبته عذابًا لا أُعذِّبه أحدًا من العالمين، وإن شئتَ فتحت لهم باب التوبة والرحمة"، قال: "بل باب التوبة والرحمة"[1].

ثانيًا. تكذيب الأولين بالآيات عنادًا واستكبارًا هو سبب منع الإتيان بها:

وقد ردَّ القرآن على هؤلاء المعاندين في كل عصر بالردود التالية:

١. أعلم اللهُ نبيَّه ﷺ أن الآيات عند الله، فهو وحده القادر عليها والمتصرف فيها، يعطيها من يشاء ويمنعها من يشاء بحكمته، فإن شاء جاءكم بها وإن شاء ترككم، فمردّ الآيات إلى الله، قال ﷻ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (الأنعام: ١٠٩)، وليس لرسول الله أن يأتي قومه بخارق إلا إذا أُذن له فيه، فليس ذلك إليه، بل هو إلى الله ﷻ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾﴾ (الرعد)، فكمال الأدب معه ﷻ أن يفوض إليه

---

١. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (٢١٦٦)، والحاكم في مستدركه، كتاب الإيمان (١٧٤)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

الأمر في ذلك، كما قال الرسل لقومهم: ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (إبراهيم: ١١).

٢. بيّن الله ﷻ أن هؤلاء المعاندين من المشركين مهما أتتهم الآيات الواضحات والبيِّنات الظاهرات فلن يؤمنوا، وذلك لاستكبارهم وعنادهم، وكم سبقهم من أناس في التكذيب والتضليل جاءتهم رسلهم بالبينات، فما زادهم ذلك إلا عنادًا فوق عنادهم، قال تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ (الأنعام)، أي فما يدريكم بصدقهم في هذه الأيمان التي يقسمون بها، وأن هذه الآيات إذا جاءتهم لا يؤمنون بها، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ (يونس)، وقال أيضًا: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء: ٥٩)، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ (الحجر)، وقال ﷻ أيضًا: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ (إبراهيم).

وكأن القرآن يريد أن يقرر لهؤلاء أنه إذا لم تقنعهم آيات القرآن وما اشتمل عليه من أدلة نقلية وعقلية وعلمية، فلن يقنعهم ما يرونه من الآيات الحِسِّية، بل قد يدعون أن أعينهم أصابتها آفة وخدع وتخييل، فلا ترى إلا صورًا خيالية أو تحسب ذلك سحرًا، فهم دائمًا معاندون معارضون، قال ﷻ: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ (الأنعام) وقال أيضًا: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ (الشعراء).

٣. ومن ردود القرآن الكريم عليهم أمرُ الله ﷻ لنبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)، أي: ما أنا إلا بشر رسول أُرسلت إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم، وليس لي من أمر في الإتيان بهذه الآيات، فمردها إلى الله ﷻ إن شاء جاءكم بها، وإن شاء لم يجبكم، فأمركم فيما سألتم إلى الله ﷻ.

ثالثًا. طلب اليهود والمشركين من النبي ﷺ إنزال كتاب من السماء لم يكن بقصد الحجة لأجل الاقتناع، ولكن على سبيل التعنت والتعجيز:

سؤال اليهود - وكذلك المشركون من بعدهم - هذا هو من قبيل تعنتهم وتعجيزهم وجهلهم بحقيقة الدين، وهذه عادتهم، وذلك شأنهم في كثير من مواقفهم مع موسى ﵇، ثم مع رسول الله ﷺ من اليهود المعاصرين له، وهم هنا يسألون رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا مكتوبًا من السماء كالألواح التي أُنزلت على موسى ﵇ أو أنهم أرادوا كتابًا خاصًّا بهم، أو أنهم كانوا يريدون لكل واحد منهم كتابًا مستقلًا، كما قال ﷻ: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ (المدثر)، فقد كان كل واحد من المشركين يريد أن ينزل عليه كتاب كما أُنزل على النبي ﷺ.

وهؤلاء اليهود يطلبون ذلك من رسول الله ﷺ لا

بقصد طلب الحجة لأجل الاقتناع، ولكن على سبيل التعنت والتعجيز.

ومن ردِّ القرآن عليهم أيضًا في هذا الشأن أنْ بيّن أنّ هؤلاء اليهود وأمثالهم من المشركين لن يقفوا عند حدّ في مطالبهم التعجيزية، والدليل على ذلك أنهم سألوا موسى أكبر من سؤال النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء؛ إذ سألوه أن يروا الله علانية، وكلا السؤالين يدل على جهلهم وعنادهم، أما سؤال إنزال الكتاب فهو يدل على أحد أمرين: إما أنهم لا يفهمون معنى النبوة والرسالة على كثرة ما ظهر فيهم من الأنبياء والرسل، ولا يميزون بين الآيات الصحيحة التي يؤيِّد الله بها رسله، وبين سائر الأمور المستغربة كحيل السحر والشعوذة لمخالفتها للعادة، وقد بيَّنت لهم كتُبهم أنه يقوم فيهم أنبياء مدّعون كذبة، وأن النبي يُعْرَف بدعوته إلى التوحيد والحق والخير لا بمجرد آية أو أعجوبة يعملها، وإما أنهم معاندون يقترحون ما يقترحون تعجيزًا ومراوغة، وأيًّا مّا قصدوا من هذين الأمرين فلا فائدة في إجابتهم إلى ما سألوا.

ثم بيَّن القرآن عقب ذلك أن هؤلاء جاءتهم البيِّنات والآيات الواضحات من موسى عليه السلام كاليد والعصا وفلق البحر والحجر وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى، وإنجائهم من عدوهم والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم، ورفع الطور فوقهم وبعثهم بعد موتهم وإنزال الألواح والتوراة، ورغم كل ذلك فقد اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم هذه الآيات، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ (النساء: ١٥٣)، فهؤلاء يطلبون منك لا على سبيل الاقتناع وإنّما تعنّتًا وعنادًا وتعجيزًا؛ ولذا لن يُجابوا إلى طلبهم فهم مفترون كذّابون مطبوع على قلوبهم فلا يؤمنون.

رابعًا. رحمة الله بالمشركين في عدم إجابة مطالبهم:

هذه المقالة كم قالها كثير من المكذبين لرسلهم الذين أرسلوا إليهم، وملّة الكفر واحدة تشابهت قلوبهم، ففرعون يقول عن موسى عليه السلام: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ (الزخرف: ٥٣)، وهؤلاء يقولون عن رسول الله ﷺ: ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ (الفرقان: ٨).

بل يعلِّق الكفار والمشركون إيمانهم على تحقيق الرسول لهم بعض الخوارق أو المعجزات فهم يقولون له: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾ (الإسراء).

فهذه المطالب التي أراد المشركون من الرسول تحقيقها ما أيسرها على الله، ولو شاء لفعل ولأجابهم على جميع ما سألوا قال ﷻ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾ (الفرقان)، فهو ﷻ علم أنهم لن يهتدوا، كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (يونس)، وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟

﴿لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الأنعام: ١١١).

وبيّن الله تعالى أيضًا لهم أن سُنَّة الأمم المرسَل إليهم قبلهم هي التكذيب بالآيات، وقد جرت سُنَّة الله فيهم أنه لا يؤخِّر عنهم العذاب إن كذّبوا بها بعد نزولها، كما قال تعالى عن عيسى عليه السلام والحواريين بشأن قصة المائدة: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ (المائدة)، وأخبر الله تعالى أيضًا عن ثمود حين سألوا صالحًا عليه السلام آيةً؛ فأخرج لهم الناقة من صخرة عيَّنوها، ثم ظلموا بها وكفروا بمن خلقها وعقروها، فأهلكهم الله عز وجل: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأٓيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ (الإسراء)، فشأن الأمم السابقة أنهم يطلبون الآيات، ثم إذا أُجيبوا لطلبهم كفروا بها فعذبهم الله؛ ولذا قال الله تعالى رادًّا عليهم: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء: ٥٩).

ولهذا لما طلبوا ما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله له: "إن شئتَ أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذَّبته عذابًا لا أُعذِّبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة"، قال: "بل باب التوبة والرحمة"[1].

ومن ردود القرآن الكريم عليهم أيضًا قوله عز وجل على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)، أي يتنزه ربِّي عن أن يعجز عن شيء من ذلك، وما أنا إلا بشر أتبع ما يوحى إليَّ من ربِّي ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التي ليست في قدرة البشر، فهل سمعتم أحدًا من البشر أتى بهذه الآيات؟!

ثم إنه ليس لي أن أتخيّر على ربي ولم تكن الرسل قبلي يأتون أممهم بكل ما يطلبونه، وسبيلي سبيلهم، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدّالة على صحّة نبوّتهم، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجز لقومهم أن يقترحوا غيرها، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولجاز لكل إنسان أن يقول: لا أومن حتى أُوتى بآية خلاف ما طلب غيري، وهذا يئول إلى أن يكون التدبير إلى الناس، وإنما التدبير إلى الله عز وجل، ولذا ردّ عليهم فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ (هود: ١٢)، فعليك أن تنذرهم لا أن تأتيهم بما يقترحون من الآيات.

خامسًا. الحكمة في كون الرسول من البشر:

يقترح كفار مكة أيضًا أن ينزل على الرسول ملَك من السماء يكون معه نذيرًا مؤيِّدًا له أمامهم، إذ يرونه ويسمعون كلامه، قال عز وجل: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ (الفرقان)، كما اقترحوا نزول الملائكة عليهم بالرسالة من ربهم، قال عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (الفرقان).

وبذلك جمعوا بين الاقتراحين، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد

---

١. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (٢١٦٦)، والحاكم في مستدركه، كتاب الإيمان (١٧٤)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

أخبرهم بأنه ينزل عليه الملك، وكأنهم ظنُّوا أن مساواتهم له ﷺ في البشرية تقتضي مساواته في الاستعداد لرؤية الملائكة وتلقِّي العلم عنهم، وهذه من أقوى شُبه الكفار على الوحي، فإنهم لغرورهم بأنفسهم ينكرون كل ما لا يصلون إليه بأنفسهم.

وقد ردَّ الله عليهم هذين الاقتراحين بما يلي:

١. أن الله لو أنزل ملكًا كما اقترحوا لَقُضي الأمر بإهلاكهم ثم لا يُمْهَلُون ولا يُؤَخَّرُون ليؤمنوا، بل يأخذهم العذاب عاجلًا، كما مضت به سنة الله فيمن قبلهم ممن قامت عليهم الحجة، وذلك أنهم كانوا إذا اقترحوا آية وأُعطوها ولم يؤمنوا يعذبهم الله بالهلاك والاستئصال، قال ﷻ: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ (الحجر)، وقال أيضًا: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ (الفرقان: ٢٢)، لكن الله ﷻ لا يريد أن يستأصل هذه الأمة المحمديَّة التي بعث فيها خاتم الرسل نبي الرحمة، إذ الرحمة العامة تنافي هذا العذاب العام: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء)؛ ولذا قال الله في الرد عليهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ (الأنعام).

٢. أنهم لو شاهدوا المَلَك بصورته الأصلية كما يطلبون لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون، قال ابن عباس: لو رأوا الملك على صورته لماتوا؛ إذ لا يطيقون رؤيته، وقال ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ (الإسراء).

٣. أن الله لو جعل الرسول مَلَكًا لَجَعل المَلَك متمثِّلًا في صورة بشر، حتى يتمكَّنوا من رؤيته وسماع كلامه الذي يبلِّغه عن الله ﷻ، ولو جعله ملكًا في صورة بشر لاعتقدوا أنه بشر؛ لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي تَمَثَّل بها.

وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه الذي يلبسونه على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشرًا، ولا ينفكُّون يقترحون جعله ملكًا، وقد كانوا في غنى عن هذا، وإنما شأنهم فيه شأن أكثر الناس فيما يوقعون فيه أنفسهم من المشكلات بسوء اختيارهم، وما يخترعونه من الشبهات بسوء فهمهم، ثم يحارون في أمر المخرج منها؛ ولذا قال ﷻ في الرد عليهم: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ (الأنعام).

٤. أنّ من رحمته ﷻ بخلقه أن أرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلًا منهم ليدعوا بعضهم بعضًا، وليمكِّن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٦٤). ولو كان جنس المكلَّفين في الأرض من الملائكة لأنزل الله عليهم رسولًا منهم، كما قال ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ (الإسراء).

الخلاصة:

- حكى القرآن بعض المقترحات المتعنتة التي كان يقترحها المشركون على رسول الله، وأقسموا بالله

مجتهدين في أيمانهم مؤكدين إياها بأقصى ألوان التأكيد، معلنين أنهم لئن جاءتهم آية من الآيات الكونية التي اقترحوها على سيدنا محمد ليؤمنن بها أنها من عند الله، وأنك يا محمد صادق فيما تبلغه عن ربك، بيد أن الله لقَّن رسوله ﷺ الرد المفحِم لهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (الأنعام: ١٠٩)، أي: قل لهم يا محمد ﷺ: إن هذه الآيات التي اقترحتموها تعنتًا وعنادًا مردها إلى الله، فهو وحده القادر عليها والمتصرف فيها حسب مشيئته وحكمته، إن شاء أنزلها، وإن شاء منعها، أما أنا فليس ذلك إليَّ.

- سبب منع نزول الآيات التي يطلبونها هو فساد آبائهم وعدم امتثالهم وتكذيبهم كفرًا واستكبارًا، فضلًا عن أنهم إذا لم يؤمنوا بالآيات القرآنية فلن تنفعهم آيات حسية أخرى، كما أنهم إذا لم يؤمنوا بهذه الآيات فسوف يهلكهم الله كما أهلك المكذبين قبلهم حين لم يؤمنوا بتلك الآيات الحسية التي طلبوها واستجاب الله لهم فيها، ومن ثمَّ فعدم استجابة مطالبهم هو رحمة بهم.
- طلب اليهود والمشركين من النبي ﷺ أن ينزِّل عليهم كتابًا من السماء كان من باب التَّعنُّت والتعجيز لا من باب الاقتناع؛ حيث إن اليهود نزلت عليهم آيات من قبل أنبيائهم فقتلوهم، والمشركون جاءتهم الآيات من قبل كمعجزة شق القمر، ولكنهم لم يؤمنوا.

الشبهة الخمسون

دعوى تعليق الإيمان بالرسل حتى يتحقق ما وعدوا به من العذاب وقيام الساعة(*)

مضمون الشبهة:

يتساءل المشركون والكافرون عن وقت الوعد الذي وعدهم به الرسل، ويقولون: متى هذا الوعد حتى نصدِّقكم فيما تزعمون؟! وبهذا يستعجلون العذاب ويسألون عن وقته، ويستبعدون قيام الساعة والبعث وذلك لعدم عودة آبائهم الموتى. قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنفال)، وقال ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ (يونس).

وجها إبطال الشبهة:

١) استبعاد المشركين والكافرين وقوع العذاب ومجيء يوم القيامة.

٢) الآيات والساعة والعذاب أمورٌ مردها إلى الله تبارك وتعالى فقط، وإذا أتى العذاب لا ينفع نفسًا

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (يونس/ ٤٨، النمل/ ٧١، الأعراف/ ٧٠، ٧٧، الأنفال/ ٣٢، الأحقاف/ ٢٢، هود/ ٨، ٣٢، الرعد/ ٦، الإسراء/ ٩٢، الشعراء/ ١٨٧، العنكبوت/ ٢٩، ٥٣، ٥٤، يس/ ٤٨، الأنبياء/ ٣٨، سبأ/ ٢٩، الملك/ ٢٥، المعارج/ ١، الجن/ ٢٤، ص/ ١٦).

الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (يونس/ ٤٩: ٥١، النمل/ ٧٢، الأحقاف/ ٢٣، هود/ ٨، ٣٣، الرعد/ ٦، فاطر/ ٤٥، الإسراء/ ٩٣، طه/ ١٣٤، القصص/ ٤٧، الشورى/ ١٨، الجن/ ٢٥، ٢٦، غافر/ ٨٤، ٨٥، الأنفال/ ٣٣، النحل/ ٦١).

إيمانها لم تكن آمنت من قبل، وعدم وقوع العذاب بقوم النبي ﷺ لرحمة الله تعالى بهم ولوجود رسول الله ﷺ فيهم.

التفصيل:

أولا. استبعاد المشركين والكافرين وقوع العذاب وقيام الساعة:

يستبعد المشركون والكفار يومَ القيامة، ويقولون لرسول الله ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين: متى يقع هذا الوعد الذي تعدوننا به إن كنتم صادقين في قولكم أنَّ الله ﷻ سينتقم لكم منا وينصركم علينا، وهكذا كان أقوام الرسل - عليهم السلام - من المكذبين يقولون لرسلهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ (يونس)، ويقولون كما قال قوم عاد لنبي الله هود عليه السلام: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ (الأعراف)، وكما قال قوم نوح عليه السلام له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (هود)، وكما قال قوم صالح عليه السلام له: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (الأعراف)، وكما قال أصحاب مدين لشعيب عليه السلام: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ (الشعراء)، وكما قال قوم لوط عليه السلام له: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (العنكبوت)، وقالت قريش لرسول الله ﷺ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنفال)، ومثل ذلك كثير في القرآن الكريم.

ثانيا. الآيات والساعة أمور لا يعلمها إلا الله، وعدم وقوع العذاب بقوم النبي ﷺ كرامة من الله له:

وقد لقَّن الله ﷻ نبيه ﷺ الجواب عليهم في مواطن عدة من كتابه، ومن ذلك:

1. قوله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (يونس: ٤٩)، أي: إنني بشر رسول لا أملك لنفسي - فضلًا عن غيرها - شيئًا من التصرف في الضر فأدفعه عنها ولا النفع فأجلبه لها من غير طريق الأسباب التي يقدر غيري عليها، وليس منها إنزال العذاب بالكفار المعاندين، ولا هبة النصر للمؤمنين، لكن ما شاء الله من ذلك كان متى شاء، فلا شأن لي فيه؛ لأنه خاص بالربوبية دون الرسالة التي وظيفتها التبليغ لا التكوين، وهكذا قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (هود)، أي: إنما الذي يعاقبكم ويعجل لكم العقوبة والنقمة والعذاب هو الله الذي لا يعجزه شيء.

ومثل ذلك قوله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ (الأعراف).

2. ومن ردّ القرآن أيضا على سؤالهم هذا أن بيّن أن الآيات الخارقة للعادة أمرها لله وحده، لا مما يملكه رسله، وأن لكل أمة من الأمم أجلًا لبقائها وهلاكها عَلِمه الله وقدّره لها لا يعلمه ولا يقدر عليه أحد غيره، قال ﷻ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (يونس).

٣. ثم يخبر الله ﷻ أن عذابه إذا أتاهم فسوف يأتيهم بغتة فيبهتهم، ولذا يأمر رسوله أن يقول لهم: أخبروني عن حالكم وما يمكنكم فعله إن أتاكم عذابه الذي تستعجلون به في وقت مبيتكم في الليل، أو وقت اشتغالكم بأمور معاشكم بالنهار؟! ثم أي نوع يستعجل منه المجرمون المكذبون الآن أعذاب الدنيا أم قيام الساعة؟ رأيًا ما استعجلوا فهو حماقة وجهالة، قال ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (يونس)، وقال ﷻ أيضًا: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ (هود).

٤. كما يخبر الله ﷻ أنه إذا ما وقع العذاب آمنوا به إذ لا ينفع الإيمان حينئذٍ؛ لأنه صار ضروريًّا بالمشاهدة والعيان؛ لا تصديقًا للرسول ﷺ؛ ولذا يقال لهم على سبيل التبكيت والتقريع: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (يونس)، وهذا كقوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (غافر).

٥. وأما قول كفار قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنفال)، فهذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم وسفههم، وهذا مما عِيبوا به؛ إذ كان الأولى أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا لاتباعه، ولكنهم استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب وتقديم العقوبة، كما قال ﷻ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (العنكبوت).

وقد بيّن الله ﷻ أن هؤلاء أهل لأن يعذبهم، ولكنه لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم، قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنفال)، وقد أخبر الله ﷻ أنه قد أوقع عذابه ونقمته بالأمم الخالية التي كذبت رسلها، وكفرت بآيات الله ﷻ وجعلهم عبرة وعظة لمن يتعظ بهم، وأنه ﷻ لولا حلمه وسعة رحمته ومغفرته وصفحه وعفوه لعَاجَل هؤلاء بالعقوبة، قال ﷻ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ (الرعد: ٦)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (فاطر: ٤٥).

الخلاصة:

- لم يكتف المشركون والكافرون - كغيرهم من كفار الأمم السابقة - بالإعراض عن دعوة الحق، بل قالوا لرسولهم ﷺ الذي حذرهم من عذاب الله إذا ما استمروا في كفرهم: متى يقع علينا هذا العذاب الأليم الذي تهددنا به؟ إننا نتعجله فأت به إن كنت من

الصادقين في دعواك أن هناك عذابًا ينتظرنا، وهذا القول منهم يدل على توغلهم في الكفر والجحود وعدم اكتراثهم بما يخبرهم به الرسول ﷺ.

- لقَّن الله نبيه ﷺ الجواب على هؤلاء المشركين في مواطن عدة من كتابه؛ منها: أنه ﷺ بشر لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، والضر والنفع بيد الله ﷻ، ويوم أن تقع الساعة لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا، ويخبرهم الله تعالى أنه لا يعذبهم والرسول ﷺ بينهم؛ كرامة منه ﷻ لنبيه ﷺ.

الشبهة الحادية والخمسون

تعليق الإيمان بالرَّسول ﷺ حتى يأتي بقربانٍ تأكله النَّار(*)

مضمون الشبهة:

يزعم اليهود أن الله عَهِد إليهم في كتبهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن يأتي بقربان يتقرب به إلى الله، فتنزل نار من السماء تأكل هذا القربان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ (آل عمران: ١٨٣).

وجها إبطال الشبهة:

١) زعم اليهود باطل؛ لأن كون الإتيان بقربان تأكله النار وإن كان معجزة لبعض الرسل؛ فهذا لا يلزم أن يكون معجزة لكل رسول.

٢) لقد جاء الكثير من الأنبياء بالمعجزات والبراهين التي طلبها اليهود، وعلى الرغم من هذا لم يؤمنوا بهم، بل كذبوا بعضهم وقتلوا بعضهم الآخر.

التفصيل:

أولا. الإتيان بقربان تأكله النار وإن كان معجزة لبعض الرسل، فهذا لا يستلزم أن يكون معجزة لكل رسول:

لقد ذكر جماعة من المفسرين أن بعض اليهود منهم: كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء، وحيي بن أحطب، وغيرهم، أتوا النبي ﷺ وقالوا له هذا القول، وهو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ (آل عمران:١٨٣).

والقربان: هو ما يُتقرَّب به إلى الله من نعم أو غير ذلك، ومقصدهم من وراء هذا القول الذي حكاه القرآن عنهم أن يظهروا أمام الناس بمظهر المحافظين على عهود الله. وأنهم ما تركوا الإيمان بالنبي ﷺ حسدًا له، وإنما تركوا الإيمان به؛ لأنه لم يأتِ بالمعجزات التي أتى بها الأنبياء السابقون، فهم معذورون إذا لم يؤمنوا به؛ لأنه ليس نبيًّا صادقًا في زعمهم.

ولا شك أن قولهم هذا ظاهر البطلان، لأن الإتيان بالقربان إذا كان معجزة لرسول لا يستلزم أن يكون معجزة لكل رسول، إذ إن آيات الله في إثبات رسالات رسله متعددة النواحي، مختلفة المناهج، وكون هذا الإتيان بالقربان الذي تأكله النار معجزة لبعض الرسل لا يستدعي أن يكون معجزة لجميعهم[1].

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (آل عمران/ ١٨٣).
الآيتان اللتان ورد فيهما الرد على الشبهة: (آل عمران/ ١٨٣، ١٨٤).

١. التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٧٤، ٤٧٥ بتصرف يسير.

وقد حصل هذا في زمن موسى عليه السلام حين ذُبح أوَّل قُربان على النحو الذي شَرعه الله لبني إسرائيل، فخرجت نار من عند الرّب فأحرقتْه، إلَّا أنها معجزة لا تطَّرد لسائر الأنبياء كما زعمه اليهود؛ لأنَّ معجزات الرسل تجيء على ما يناسب تصديق الأمّة، وفي الحديث: "ما من الأنبياء نبي إلَّا أعطى ما مثله آمَن عليه البشر، وإنّما كان الذي أُوتيتُه وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعًا يوم القيامة"[1][2].

ثانيًا. إنكار القرآن عليهم قتلهم أنبياء الله عليهم السلام الذين جاءوهم بما طلبوا:

لقد رد القرآن الكريم على هؤلاء اليهود بما يبطل زعمهم هذا فقال: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾ (آل عمران).

أي: قل لهم يا محمد: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي﴾ كثير عددهم ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالحجج الواضحة، وبالمعجزات الساطعة الدالة على صدقهم ﴿وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾، أي: وجاءكم هؤلاء الرسل بالقربان الذي تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ﴾ بعد أن جاءوكم بتلك المعجزات الباهرة ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أنكم تتبعون الحق وتطيعون الرسل متى أتوكم بما يشهد بصدقهم؟

فالجملة الكريمة ترد على هؤلاء اليهود بأبلغ الوجوه التي تثبت كذبهم فيما يدعون، لأن قتلهم للأنبياء بعد أن جاءوهم بالمعجزات الواضحة الدالة على صدقهم دليل على أن هؤلاء اليهود قد بلغوا منتهى الجحود والظلم والعدوان، وأن دعواهم أن إيمانهم بمحمد ﷺ متوقف على مجيئه بالقربان الذي تأكله النار دعوة كاذبة؛ لأن من جاءهم بالقربان كان جزاؤه القتل منهم.

ويؤكد هذا قول الفخر الرازي: "وقد بيَّن الله بهذه الدلائل أنهم لا يطلبون هذه المعجزة على سبيل الاسترشاد، وإنما على سبيل التعنُّت؛ وذلك لأن أسلافهم طلبوا هذه المعجزة من الأنبياء المتقدمين؛ مثل: زكريا ويحيى وعيسى، فلما أظهروا لهم هذه المعجزة سعوا في قتلهم بعد أن قابلوهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة، وذلك يدل على أن مطالبهم كانت على سبيل التعنت، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما سعوا في قتلهم، ومتأخرو اليهود راضون بفعل متقدميهم. وهذا يقتضي كونهم متعنتين - أيضا - في مطالبهم؛ ولهذا لم يجبهم الله فيها"[3].

الخلاصة:

- لقد أراد اليهود أن يتملصوا من الإيمان بصدق محمد ﷺ بحجة أنه لم يأتهم بالمعجزات التي جاء بها الأنبياء السابقون كالإتيان بقربان تأكله النار، وقولهم هذا باطل؛ لأن الإتيان بالقربان إذا كان معجزة لرسول

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل (٤٦٩٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (٤٠٢).

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٤، ص١٨٥.

٣. التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٧٦، ٤٧٥.

لا يستلزم أن يكون معجزة لكل رسول.

- قد رد الله عليهم شبهتهم هذه بأن الرسل جاءوهم من قبلُ بالبينات والحجج والبراهين الواضحة، فلِمَ قتلوهم وقابلوهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة إن كانوا حقًّا يتبعون الحق وينقادون للرسل؟

الشبهة الثانية والخمسون

دعوى أن عدم الإتيان بالآباء الموتى دليلٌ على كذب الرُّسل(*) ®

مضمون الشبهة:

ينكر المشركون البعث والمعاد والحياة بعد الممات ويقولون: لا بعث ولا نشور ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ماتوا ولم يرجعوا، فإن كان البعث حقًّا، فليأت الرسل والأنبياء بالآباء حتى نصدقهم فيما جاءوا به. يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الجاثية).

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن البعث بعد الموت لا يكون في هذه الحياة الدنيا، إنما هو يوم القيامة، بعد انقضاء الدنيا وفراغها.

٢) إن اعتراض المشركين على البعث بعد الموت لا يقوم على حجة أصلا، بل هو مجرد سفسطة أشبه بالبهتان.

٣) الله هو المحيي وهو الذي خلق الناس من عدم، وهو القادر على البعث والإعادة بطريق الأولى.

التفصيل:

أولا. البعث والمعاد يكونان يوم القيامة لا في الدار الدنيا:

إن لهؤلاء المشركين في نَفْي الحياة بعد الموت أفانين من أقوال الجحود، وهم هنا ينفون البعث بحجة أن الأموات السابقين لم يرجع أحد منهم إلى الحياة، وهذا سفسطة منهم؛ لأن البعث الموعود به لا يحصل في الحياة الدنيا[1].

قال ابن كثير: وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في دار الدنيا، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها، يعيد العالمين خلقًا جديدًا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودًا.

ولقد أنذرهم ﷻ بأسه الذي لا يُردُّ كما حلَّ بأشباههم من المشركين بقوله ﷻ: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الدخان)[2].

أي: هم ليسوا خيرًا من قوم تُبَّع والأمم المكذِّبة بالبعث والساعة من قبل وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعًا، فلما لجّوا في طغيانهم أهلكهم الله، وإن مصير هؤلاء المشركين - إذا ما استمروا في عنادهم -

(*) الآيتان اللتان وردت فيهما الشبهة: (الدخان/ ٣٦، الجاثية/ ٢٥).
الآيتان اللتان ورد فيهما الرد على الشبهة: (الدخان/ ٣٧، الجاثية/ ٢٦).
® في "إنكار عقيدة البعث في الفكر الإلحادي" طالع: الشبهة التاسعة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٢، ج٢٥، ص٣٠٧، ٣٠٨.
٢. محاسن التأويل، القاسمي، مرجع سابق، ج٨، ص٣١١.

سيكون كمصير قوم تُبَّع[1].

ثانيًا. اعتراض المشركين على البعث مجرد سفسطة أشبه بالبهتان:

وهذا القول من المشركين والمنكرين للبعث من أضعف الحجج، بل ليس فيه حجة على الإطلاق، يقول الزمخشري: فإن قلت: لِمَ سُمِّي قولهم: "حجة"، وهو ليس بحجة؟ قلت: لأنهم أدلوا به كما يُدْلِي المحتجُّ بحجته، وساقوه مساقها، فسُمِّيت "حجة" على سبيل التَّهكُّم، أو لأنها في حسبانهم وتقديرهم حجة.

فبان مما سبق أن هذا ليس بحجة وإنما هو منهم سفسطة وشنشنة.

بل هذا تسجيل عليهم بالتلجلج عن الحجة البينة واللجوء إلى سلاح العاجز المكابر، والخروج عن دائرة البحث ومحل النزاع ولب القضية.

ثالثًا. الله تعالى هو الذي بدأ الخلق وهو القادر على إعادته:

ثم يقيم القرآن الحجة عليهم عن طريق القياس العقلي فيقول لهم: لقد كنتم أمواتًا فأحياكم الله وأخرجكم من العدم إلى الوجود، والذي قدر على البداءة يقدر على الإعادة بطريق الأولى؛ فقال ﷻ: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الجاثية)، وقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (البقرة).

وقال ﷻ أيضًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (الروم: ٢٧)، وهو إنما يجمعكم إلى يوم القيامة لا يعيدكم في الدنيا حتى تقولوا: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (الدخان).

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية من سورة الدخان أن أبا جهل قال: يا محمد إن كنت صادقًا في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما قصي بن كلاب؛ فإنه كان رجلًا صادقًا لنسأله عما يكون بعد الموت.

وهذا القول من أبي جهل من أضعف الشبهات أيضًا؛ لأن الإعادة إنما هي للجزاء لا للتكليف، فكأنه قال: إن كنت صادقًا في إعادتهم للجزاء فأعدهم للتكليف، وهو كقول من قال: إن كان ينشأ بعدنا قوم من الأبناء فلمَ لا يرجع من مضى من الآباء؟!

فلما أنكروا البعث وكذَّبوا الرسل وحسبوا أن ما قالوه قول مُبكِّت أُلْزِموا ما هم مقرُّون به من أن الله ﷻ هو الذي يحييهم ثم يميتهم وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعي الحق وهو جمعهم إلى يوم القيامة، ومن كان قادرًا على ذلك كان قادرًا على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شيء عليه.

الخلاصة:

- إنكار البعث بعد الموت بحجة عدم رجوع أحد من الأموات السابقين هو شبهة فاسدة؛ لأن البعث بعد الموت لا يكون إلا يوم القيامة بعد انقضاء الدنيا وفراغها.
- إن كلام المشركين في إنكار البعث ليس له حجة أصلًا، بل هو مجرد تعنُّت واستهزاء وسفسطة وبهتان، وإنما سمَّى الله قولهم حجة تهكمًا واستهزاء بهم.

---

١. التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، مرجع سابق، ج١٣، ص١٦٦.

• لقد رد القرآن الكريم على هؤلاء المشركين بالحجة الدامغة والبرهان العقلي، فإذا كان الله تعالى قد خلق الناس من عدم، فهو قادر على إعادة الخلق بطريق الأولى والأحرى.

الشبهة الثالثة والخمسون

ادعاء المشركين أن سبب امتناعهم عن الإيمان هو عدم مجيء رسول لهم (*)

مضمون الشبهة:

ادعى كفار قريش أن السبب في عدم إيمانهم هو عدم مجيء رسول لهم، ولذا أقسموا بالله - قبل إرسال الرسول ﷺ إليهم - أنهم إن جاءهم نذير ليكونن أهدى من جميع الأمم الذين أُرسل إليهم الرسل، قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) ﴾ (فاطر).

وجها إبطال الشبهة:

١) مقولتهم هذه تدل على أنهم كانوا على بصيرة من أمر الرسول ﷺ ويعلمون صدق رسالته.

٢) أرسل الله الرسل فكَذَّبوا من أقوامهم عنادًا واستكبارًا وحسدًا.

التفصيل:

أولا. مقولة المشركين هذه تدل على علمهم بصدق الرسول ﷺ:

هذه المقالة صدرت عن هؤلاء القوم قبل بعثة النبي ﷺ لما بلغهم أن اليهود والنصارى كذبوا الرسل، فصدرت عنهم في مجرى المحاورة والمفاخرة بينهم وبين بعض أهل الكتاب ممن يقدم عليهم بمكة أو يقدمون هم عليهم إلى يثرب، أو بلاد الشام في أسفارهم، فربما كان أهل تلك البلدان يدعون المشركين إلى اتباع اليهودية أو النصرانية، فكان المشركون لا يجرءون على تكذيبهم؛ لأنهم كانوا مرموقين عندهم؛ إذ كانوا يفضلونهم بمعرفة الديانة وبأنهم ليسوا أميين، وهم يأبون أن يتركوا دين الشرك، فكانوا يعتذرون بأن رسول القوم الذين يدعونهم إلى دينهم لم يكن مرسلًا إلى العرب، ولو جاءنا رسول لكنا أهدى منكم؛ وذلك كما قال ﷻ: ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ (الأنعام)، وهذا يشبه قوله ﷻ: ﴿ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ (المائدة: ١٩)، وكذلك قوله ﷻ: ﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) ﴾ (الصافات).

وهذه الآيات - وغيرها - تدل على أنهم كانوا يعلمون صدق الرسل؛ ولذا ردَّ الله عليهم شبهتهم هذه بإرسال الرسل إليهم لكنهم لم يزدادوا إلا نفورًا واستكبارًا وعنادًا، قال ﷻ: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (فاطر/ ٤٢، الأنعام/ ١٥٦، ١٥٧، الصافات/ ١٦٧: ١٦٩).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (فاطر/ ٤٢، ٤٣، المائدة/ ١٩، الأنعام/ ١٥٧).

إلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ (فاطر)، وقال أيضًا: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ (الأنعام: ١٥٧)، وقال أيضًا: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ (المائدة: ١٩). والمعنى: أنَّا حققنا لكم ما كنتم تقسمون عليه فهلَّا أحللتم قسمكم ووفيتم بوعدكم.

وهكذا يُسجِّل القرآن الكريم عليهم تهافتهم في القول إذ كانوا قبل أن يأتيهم محمد ﷺ بالكتاب المبين يودُّون أن يشرِّفهم الله بكتاب لهم كما شرَّف الأولين، ويرجون لو كان ذلك أن يكونوا عبادًا لله مخلصين، فلما جاءهم ما رغبوا فيه كفروا به، وذلك أفظع الكفر؛ لأنه كفر بما كانوا على بصيرة من أمره؛ إذ كانوا يتمنونه لأنفسهم ويغبطون الأمم التي أنزل عليهم مثله، فلم يكن كفرهم إذًا عن مباغتة ولا عن قلة تمكن من النظر، بل عن استكبار وعناد وتمادٍ في الخطأ وعدم رجوع للحق، وإلا فقد زال العذر عنهم بمجيء محمد ﷺ[1].

ثانيًا. سبب تكذيب هؤلاء المشركين للرسل هو الاستكبار والعناد والحسد:

ويبين الله ﷻ أيضًا أن الذي منعهم من الإيمان بما جاء به الرسل هو استكبارهم وعنادهم، حيث يعلمون الحق ولا يتبعونه، قال ﷻ: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ (فاطر:٤٣)، وقال ﷻ أيضًا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ (الأنعام:١٥٧)، وقال ﷻ: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (الصافات).

والعجيب أن هؤلاء المشركين قد أكدوا الأيمان في دعواهم تلك ووثقوها بكل ألفاظ التوكيد والتوثيق، ويكفي أنهم أقسموا بالله ﷻ جهد أيمانهم على الرغم من أنهم كانوا يحلفون بآبائهم وبأصنامهم؛ كما قال ﷻ عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ (فاطر).

وهذا التأكيد بالقسم مبني على اعتقادهم أنهم أكمل البشر فطرة، وأعلاهم استعدادًا لكل فضيلة، وكان اعتقادًا راسخًا في عقولهم متمكنًا من وجدانهم ومن أدلته ما رواه التاريخ لنا من المفاخرات بين بعض العرب والفرس، وإذا كانت قبائل العرب كلها تعتقد أن شعبهم أزكى من جميع الأعاجم فطرة وأذكى أفئدة وأعز أنفسًا وأكمل عقولًا وأفهامًا وأفصح ألسنة وأبلغ بيانًا، فما القول بقريش التي دانت لها العرب واعترفت بفضلها على غيرها منهم.

ولكن جمهور سادة قريش وكبرائها قد استكبروا بذلك وعتوا عتوًّا كبيرًا، حتى كذبوا بأعظم ما فضل الله به جيلهم وقومهم على جميع الأجيال والأقوام بالحق - وهو القرآن - وصدوا عنه وصدفوا عن آياته، فكان إقسامهم أنهم لو جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم المجاورة لهم حجة عليهم، وإن صدق على غيرهم من قريش ومن سائر العرب الذين اهتدوا بالكتاب فسادوا به جميع الأمم، وكانوا أئمة لها في دينها ودنياها ما داموا مهتدين به معتصمين بحبله، وإذا كان ذلك القسم صادرًا عن عقيدة راسخة فلا جرم أنه لو لم يأتهم النذير بهذا الكتاب المنير لاعتذروا

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٢، ص٣٣٢.

في الآخرة بهذا العذر[1].

الخلاصة:

- لقد كان مشركو العرب يتفاخرون على أهل الكتاب بأنهم لو جاءهم رسول - كما جاء أهل الكتاب - لآمنوا به ولكانوا أهدى من جميع الأمم، وقد بيّن الله تبارك وتعالى بطلان زعمهم هذا، فأرسل إليهم ما كانوا يرجون فكفروا به على بصيرة من أمره وعلى علم بصدقه.
- إن السبب الحقيقي في امتناع هؤلاء المشركين عن الإيمان هو استكبارهم وعنادهم، إذ كانوا يعلمون الحق ولا يتبعونه، كما أخبر الله عز وجل عنهم في قوله: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ (فاطر: ٤٣).

الشبهة الرابعة والخمسون

دعوى التشاؤم والتطيُّر من الرُّسل وأتباعهم ودعوتهم(*)

مضمون الشبهة:

ادَّعى المشركون والكفار على رسلهم بأنهم لم يجدوا على وجوههم ووجوه من اتبعوهم خيرًا، ويقولون لهم: إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم، ويتهكمون عليهم سخرية وافتراءً قال عز وجل: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ (الأعراف)، وقال عز وجل: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ (يس)، ولقد رمى المنافقون والمشركون النبي محمدًا ﷺ بالشؤم، وادَّعوا التطير به، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ (النساء: ٧٨).

وجها إبطال الشبهة:

١) البلاء بالشر والخير اختبار من الله، أما الشؤم والتطير فراجع إلى من يتشاءم.

٢) الإصابة بالحسنة والسيئة لا دخل للرسول فيها؛ وإنما هو قضاء الله وقدره، فضلا عن كون ذلك انعكاسًا لحالة العبد من الطاعة والمعصية.

التفصيل:

أولا. الشر والخير ابتلاء من الله، أما الشؤم والتطير فراجع إلى الإنسان المتشائم:

هذه الفرية - وهي التشاؤم من الرسل والأنبياء - قالها كثير من الأمم الضالَّة المكذِّبة لرسلهم، فقد قال قوم صالح عليه السلام له: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ (النمل: ٤٧)، وقوم موسى عليه السلام قال الله عنهم: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ (الأعراف: ١٣١)، وأصحاب القرية - وهي إنطاكية - قالوا لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ (يس: ١٨)؛ والمنافقون يقولون لرسول الله ﷺ ما أصابنا

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٨، ص٢٠٥.

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (يس/ ١٨، النمل/ ٤٧، النساء/ ٧٨، الأعراف/ ١٣١، الحج/ ١١).

الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (يس/ ١٨، ١٩، النمل/ ٤٧، الأعراف/ ١٣١، الشورى/ ٣٠، النساء/ ٧٨: ٨٠، النمل/ ٤٧، الحج/ ١١).

من سيئة فهو من عندك، قال ﷻ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ (النساء: ٧٨)، وكما قال ﷻ عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ (الحج: ١١).

فهؤلاء يسندون الشر إلى الرسل، ويتهمونهم بأن ما أصابهم من قحط وجدب وبلاء هو بسبب اتباعهم للرسل، فأرشد الله الرسل أن يردُّوا عليهم تلك الدعوى وذلك الزعم، وأن يقولوا لهم إن طائركم معكم، وطائركم عند الله، قال ﷻ: ﴿قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ (يس: ١٩)، فالشؤم إنما يقع على من يتشاءم ولا يسمع المواعظ.

ويوضح الطاهر ابن عاشور هذا الأمر قائلًا: لما غلبتهم الحجة من كل جانب وبلغ قول الرسل: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ (يس) من نفوس أصحاب القرية مبلغ الخجل والاستكانة من إخفاق الحجة والاتسام بميسم المكابرة والمنابذة للذين يبتغون نفعهم انصرفوا إلى ستر خجلهم وانفحامهم بتلفيق السبب لرفض دعوتهم بما حسبوه مقنعًا للرسل بترك دعوتهم ظنًّا منهم أن ما يدَّعونه شيء خفي لا قِبل لغير مخترعه بالمنازعة فيه، وذلك بأن زعموا أنهم تطيّروا بهم ولحقهم منهم شُؤم، ولا بد للمغلوب من بارد العذر.

والتطير في الأصل: تكلف معرفة دلالة الطير على خير أو شر من تعرض نوع الطير ومن صفة اندفاعه أو مجيئه، ثم أطلق على كل حدث يَتوهم منه أحد أنه كان سببًا في لحاق شر به فصار مرادفًا للتشاؤم.

وفي الحديث: "لا عَدوى ولا طِيَرَة..."[1]. وبهذا المعنى أطلق في هذه الآية الكريمة، أي قالوا: إنا تشاءمنا بكم.

ومعنى ﴿بِكُمْ﴾ بدعوتكم، وليسوا يريدون أن القرية حلّ بها حادث سوء يعمّ الناس كلهم من قحط أو وباء أو نحو ذلك من الضرّ العام مقارن لحلول الرسل أو لدعوتهم، وقد جوزه بعض المفسرين، وإنما معنى ذلك: أن أحدًا لا يخلو في هذه الحياة من أن يناله مكروه.

ومن عادة أصحاب الأوهام السخيفة والعقول المأفونة أن يسندوا الأحداث إلى مقارناتها دون معرفة أسبابها، ثم أن يتخيروا في تعيين مقارنات الشؤم أمورًا لا تلائم شهواتهم وما ينفرون منه، وأن يعينوا من المقارنات للتيمن ما يرغبون فيه وتقبله طباعهم، يغالطون بذلك أنفسهم شأن أهل العقول الضعيفة؛ فمرجع العلل كلها لديهم إلى أحوال نفوسهم ورغائبهم، كما حكى الله تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ (الأعراف: ١٣١)، وحكى عن مشركي مكة: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ (النساء: ٧٨).

ويجوز أن يكونوا أرادوا بالشؤم أن دعوتهم أحدثت اختلافًا بين أهل القرية، فلما تمالأت نفوس أهل القرية على أن تعليل كل حدث مكروه يصيب

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الجذام (٥٣٨٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة (٥٩٢٠).

أحدهم بأنه من جراء هؤلاء الرسل اتفقت كلمتهم على ذلك فقالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ (يس: ١٨)؛ أي: يقولها الواحد منهم أو الجمع فيوافقهم على ذلك جميع أهل القرية.

ثم انتقلوا إلى المطالبة بالانتهاء عن هذه الدعوة فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ (يس)، وبذلك ألجئوا بولس وبرنابا إلى الخروج من أنطاكية فخرجا إلى أيقونية وظهرت كرامة بولس في "أيقونية" ثم في "لسترة" ثم في "دربة"، ولم يزل اليهود في كل مدينة من هذه المدن يشاقون الرسل ويضطهدونهم ويثيرون الناس عليهم ويلحقونهم إلى كل بلد يحلّون به ليشغبوا عليهم، فمسَّهم من ذلك عذاب وضرّ، ورُجم بولس في مدينة "لسترة" حتى حسبوا أن قد مات[1].

ويقص القرآن خبر سيدنا صالح عليه السلام حين قال لقومه الذين لشقائهم كان لا يصيب أحدًا منهم سوء إلا قالوا: هذا من قِبَل صالح عليه السلام، فردَّ عليهم قائلًا: ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ (النمل: ٤٧)، أي: فالله يجازيكم على ذلك، وبمثل ذلك رد موسى عليه السلام على قومه قائلًا لهم: ﴿إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ (الأعراف: ١٣١).

ومن ردِّ الرسل على أقوامهم أيضًا أن بيَّنوا لهم أن هذا البلاء وتلك النعمة إنما هو ابتلاء من الله لهم بالطاعة والمعصية؛ ولذا قال صالح عليه السلام لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (النمل).

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٢، ص٣٦٢، ٣٦٣.

ثانيًا. الإصابة بالحسنة والسيئة لا دخل للنبي بها، وإنما مردُّها لموقف العبد من الله:

لقد كان حال المنافقين الذين دخلوا في الإسلام ظاهرًا، وهم كارهون له في الباطن، إذا أصابهم شر كمصيبة في أموالهم أو أهليهم أو أولادهم أو أبدانهم، فإنهم يقولون: أصابنا ذلك بشؤمك يا محمد وشؤم أصحابك، ويقولون: منذ أن جاءنا هذا الرجل والبلاء يحل علينا، وقد قلَّت ثمارنا وضعفت مواشينا ومات أولادنا، فيسندون الشر إلى اتّباعهم للنبي ﷺ تشاؤمًا به وبدينه وما جاء به، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ (النساء: ٧٨)، أما إن أصابتهم حسنة من خصب ورزق وثمار وزروع وأولاد وماشية ونحو ذلك أضافوا الحسنة إلى الله عز وجل: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٧٨)، فهم يضيفون الحسنة إليه عز وجل لا بشعور التوحيد الخالص، بل غرورًا بأنفسهم وزعمًا منهم أن الله أكرمهم بها عناية بهم، وهروبًا من الإقرار بأن شيئًا من ذلك أثر ما جاءهم به الرسول من الهداية، وما حاطهم به من التربية والرعاية، ولذلك كانوا ينسبون إليه السيئة، وهو ﷺ بريء من أسبابها.

وقد ردّ القرآن على هؤلاء معلّمًا إياهم أن كلا من الحسنة والسيئة من عند الله بقضائه وقدره لوقوعها في ملكه على حسب سنته في نظام الأسباب والمسببات، وقضاؤه وقدره نافذ في البر والفاجر والمؤمن والكافر، قال عز وجل: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٧٨)، فالخصب والجدب والنصر والهزيمة والشدة والرخاء كل ذلك من عند الله عز وجل، ولا دخل للرسول فيما أصابكم من

مصيبة وسوء.

ثم بيَّن الله لهم أن مقالتهم هذه قد صدرت عن شك وريبة وقلة فهم وضعف عقل وعدم فقه لحقائق الأمور، قال ﷻ: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ (النساء).

أي: ماذا أصاب هؤلاء القوم وعقولهم حال كونها بمعزل عن الغوص في أعماق الحديث وفهم مقاصده وأسراره! فهم لا يدركون حقيقة حديث يلقونه ولا يعقلون حقيقة حديث يلقى إليهم، وإنما يأخذون ما يطفو من المعنى على ظاهر اللفظ بادئ الرأي، وإنما الفقه معرفة مراد صاحب الحديث من قوله وحكمته فيه من العلة الباعثة عليه والغاية له، وعلى العاقل الرشيد أن يطلب فقه القول دون الظواهر الحرفية، فمن اعتاد الأخذ بظواهر الأقوال دون ما رسب في أعماق الكلام وما تغلغل في أنحائه يبقى جاهلًا طول حياته.

فهذه المقالة منهم دالَّة على ريبهم وجهلهم وسوء فهمهم وقلَّة علمهم، وأيضًا فقد أعلمهم الله ﷻ أن ما أصابهم من خير وخصب ونماء إنما هو من فضل الله ولطفه ورحمته، وما أصابهم من جدب وقحط وشر فهو من قِبَلهم ومن سوء أعمالهم، ومما كسبته أيديهم كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ (الشورى).

وهكذا فشؤم القوم متصل بذواتهم، ولم يجيء من قِبَل المرسلين، فالرسل ومن معهم ليسوا شؤمًا، وإنما سبب طول المضار والمصائب بهؤلاء القوم إنما هو عنادهم للرسل وتكذيبهم للأنبياء وشركهم بالله ﷻ، ولهذا قال ﷻ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ (النساء: ٧٩).

وأهل الإيمان يعلمون هذه الحقيقة بأخبار الرسل، أما المشركون وأضرابهم من المنافقين وأصحاب العقائد الضالَّة فيسندون صدور الضرر والنفع إلى أشياء تقارن حصول ضرر ونفع فيتوهمون تلك المقارنة تسببًا، وهذا الفهم أيضًا من عادة أصحاب الأوهام السخيفة والعقول المأفونة أن يسندوا الأحداث إلى مقارنتها دون معرفة أسبابها، وأن يتخيَّروا في تعيين مقارنات الشؤم أمورًا لا تلائم شهواتهم وما ينفرون منه، وأن يُعيِّنوا من المقارنات ما يرغبون فيه وتقبله طباعهم، يغالطون بذلك أنفسهم شأن أهل العقول المريضة.

الخلاصة:

- من الأشياء التي اعتادها المشركون والضالون دائمًا إسناد الشر والجدب إلى الرسل وأتباعهم، لكن الله أرشد رسله أن يردوا عليهم تلك الدعوى وذلك الزعم وأن يخبروهم أن طائرهم معهم والشؤم يقع على صاحبه.
- النعم والبلاء من أقدار المولى ﷻ ولا دخل للرسول فيهما، وإنما هما من قضاء الله وقدره، فضلًا عن كون الإصابة بالنعمة والنقمة يكون انعكاسًا لحالة العبد وقربه من الله أو بعده عنه.
- حالة الاتهام للرسل وأتباعهم دائمًا هي دين الكافرين، وكأنهم تواطئوا على ذلك.

الشبهة الخامسة و الخمسون

اتِّهام الأنبياء والرُّسل بالجنون والسِّحْر والكذب والافتراء(*)

مضمون الشبهة:

يتَّهم المشركون المكذِّبون لدعوة الرسل رسلَهم بأنهم كذابون مفترون يتكلمون بما لا معنى له، وأن الرسول مفترٍ فيما يزعمه من أن الله أرسله إليهم واختصه من بينهم بالوحي، ويرمون رسلهم بالسحر والكذب والجنون، قال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ (الذاريات).

وجوه إبطال الشبهة:

١) هذه مقولة كل الأمم المكذبة لرسلها على مرّ العصور.

٢) إنكار هذه المقولة والتعجب من التوافق عليها، ولكن الكفر ملَّة واحدة تتشابه قلوب أصحابه.

٣) المشركون يعلمون صدق الرسول وبراءته من هذه التهم لكنهم يجحدون بآيات الله، ولكن ما على الرسول إلا البلاغ.

التفصيل:

أولا. توافق كل الأمم على هذه المقولة:

تلك مقولة الأمم المكذبة لرسلها على مرِّ العصور، يتهمون رسلهم بالسحر والجنون والكذب والافتراء، فقد قال قوم نوح عليه السلام عنه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ (المؤمنون: ٢٥)، وقال الله عنهم أيضًا: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ (القمر)، وقوم عاد قالوا عن نبي الله هود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ (هود: ٥٤)، وقوم ثمود قالوا لنبي الله صالح عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ (الشعراء)، وقالوا أيضًا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ (القمر)، وقال قوم موسى عليه السلام عنه: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر: ٢٤)، وقال عنه فرعون: ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ (الذاريات)، ويقولون عنه وعن أخيه هارون: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ (طه: ٦٣)، وقوم عيسى عليه السلام يرمون ما جاء به من البينات بالسحر، قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ (الصف).

وقوم النبي ﷺ يتهمونه وما جاء به من الآيات بالسحر والجنون والشعر والكهانة كما حكى القرآن: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ (الأنبياء: ٥)، وكذلك قوله: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ (الصافات)، وقالوا عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ (المدثر)، وهذه الدعوى قالتها الأمم السابقة لرسلها، قال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ (الذاريات).

ثانيًا. التعجب من هذا التوافق؛ لكن الكفر ملَّة واحدة:

ويردّ القرآن على ذلك متعجبًا من اتفاقهم في كل عصر ومع كل نبي على هذه المقولة كأنهم تواصوا بها،

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (هود/ ٥٤، المؤمنون/ ٢٥، ٣٨، الشعراء/ ١٥٣، ١٥٨، ١٨٦، سبأ/ ٨، ص/ ٤، الذاريات/ ٣٩، ٥٢، القمر/ ٩، ٢٥، الصف/ ٦).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ١١٨، الأنعام/ ٣٣، النمل/ ١٤، الذاريات/ ٥٣).

فأوصى أولهم آخرهم بالتكذيب حتى تواطئوا عليه، قال ﷻ: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ (الذاريات: ٥٣)، والاستفهام هنا للتوبيخ والتعجب من تواطئهم على هذا القول على طريقة التشبيه البليغ، أي: كأنهم أوصى بعضهم بعضًا بأن يقولوه[١].

ثم يؤكد القرآن أنه لم يوصِ أحدٌ منهم أحدًا، ولم يوص بعضهم بعضًا بذلك، وإنما الكفر ملة واحدة، يتفق أهله في التكذيب والضلال والطغيان، فهؤلاء القوم قوم طغاة جمعهم الطغيان ومجاوزة الحد في الكفر، فتشابهت قلوبهم، وهذا أصل معهود من أمثالهم من المشركين الذين سبقوهم بالضلال، كما قال ﷻ: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (البقرة: ١١٨)، فهؤلاء قد ساوى بينهم الطغيان حتى كأنهم تواصوا بما يقولون.

قال ﷻ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ (الذاريات)، فضلالهم وطغيانهم واحد، وإن تعددت طرقه واختلفت وجوهه، وتباعدت أزمنته واختلفت أمكنته، أي: ما هو بتواصٍ، ولكنه تماثل في منشأ ذلك القول، أي: سبب تماثل المقالة تماثل التفكير والدواعي للمقالة، إذ جميعهم قوم طاغون، وأن طغيانهم وكبرياءهم يصدهم عن اتباع رسول يحسبون أنفسهم أعظم منه، وإذ لا يجدون وَصْمَة يصمونه بها اختلقوا لتنقيصه عللًا لا تدخل تحت الضبط، وهي أنه مجنون أو ساحر، فاستووا في ذلك بعلة استوائهم في أسبابه ومعاذيره[٢].

ويؤكد هذا قول الشيخ سيد قطب معلقًا على هذا الحال: "فهي طبيعة واحدة للمكذبين؛ وهو استقبال واحد للحق وللرسل يستقبلهم به المنحرفون.. كأنما تواصوا بهذا الاستقبال على مدار القرون، وما تواصوا بشيء إنما هي طبيعة الطغيان وتجاوز الحق والقصد تجمع بين الغابرين واللاحقين"[٣].

ثالثًا. رغم جحود المشركين ما على الرسول إلا البلاغ:

كما يؤكد القرآن أيضًا أن هؤلاء المشركين المعاندين لا يرون الرسول في الحقيقة كذابًا، ولا يعتقدون أنه يكذب على الله فيما جاء به، وهم لم يُجرِّبوا عليه كذبًا، ولكنهم يجحدون بالآيات الدالة على صدقه بإنكارها بألسنتهم فقط وإن استيقنتها أنفسهم، وما ذاك إلا لاستكبارهم وعلوهم وعنادهم وظلمهم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنعام)، وقال ﷻ عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤).

والنتيجة الطبيعية التي تترتب على هذا الموقف المكرور، الذي كأنما تواصى به الطاغون على مدار القرون، ألا يحفل الرسول ﷺ بتكذيب المشركين. فهو غير ملوم على ضلالهم، ولا مقصر في هدايتهم: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ (الذاريات).. إنما هو مذكر، فعليه أن يذكر، وأن يمضي في التذكير مهما أعرض المعرضون وكذب المكذبون: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الذاريات). ولا تنفع غيرهم من الجاحدين. والتذكير هو وظيفة الرسل، والهدى والضلال خارجان عن هذه الوظيفة، والأمر فيهما إلى

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٣، ج٢، ص٢٢.

٢. المرجع السابق، مج١٣، ج٢٧، ص٢٣.

٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٣٨٦.

الله تعالى وحده[1].

الخلاصة:

- اتهام الأنبياء والرسل بالجنون والسحر والكذب والافتراء أمرٌ دأبت عليه كل الأمم، فالكفر كله ملة واحدة، كأنما توحدوا بذلك على مدار القرون.
- المكذبون لم يتواصوا بشيء، إنما هي طبيعة الطغيان وتجاوز الحق تجمع بين اللاحقين والغابرين.
- وظيفة الرسول البلاغ والتذكير، أما الهدى والضلال فالأمر فيهما لله وحده.
- مشركو مكة لم يكذبوا رسول الله ﷺ وإنما أنكروا الآيات ورفضوا الإيمان بها ظلمًا وعلوًّا واستكبارًا على الحق رغم تيقنهم من كونه حقًّا، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنعام).

الشبهة السادسة والخمسون

دعوى الإيمان ببعض الأنبياء والكفر ببعضهم(*)

مضمون الشبهة:

يفرّق اليهود والنصارى بين الله ورسله في الإيمان، فيؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض بمجرد العصبية والهوى والعادة، فاليهود آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمدًا، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم محمد ﷺ، والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى ؑ، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾ (النساء).

وجها إبطال الشبهة:

١) الإيمان ببعض الأنبياء دون بعض هو تفريق بين الله ورسله، وهو كفر بالله ورسله؛ لأن:

- الإيمان واجب بكلِّ نبي أرسله الله.
- من كذَّب رسولا فقد كذَّب جميع الرسل؛ إذ كلٌّ من عند الله.

٢) المؤمنون حقًّا هم من يصدقون بجميع الرسل والكتب المنزَّلة.

التفصيل:

أولا. إيمان اليهود والنصارى ببعض الرسل دون بعض كفر بالله:

يتوعّد الله ﷻ الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى الذين فرقوا بين الله ورسله في الإيمان، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض بمجرد التشهّي والعادة، وما ألْفَوْا عليه آباءهم، لا عن دليل قادهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك إلا الهوى والعصبيّة، قال ﷻ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ (النساء).

ومن ردّ القرآن على هؤلاء أن بيّن لهم أن إيمانهم

---

١. المرجع السابق، ص٣٣٨٦.

(*) الآيتان اللتان وردت فيهما الشبهة: (النساء/ ١٥٠، الحجر/ ٩١).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (النساء/ ١٥١، ١٥٢، البقرة/ ١٣٦، ٢٨٥، آل عمران/ ٨٤، ٨٥).

ببعض الأنبياء وكفرهم ببعض إن هو إلا تفريق بين الله تعالى ورسله، فمن كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن ردّ نبوة نبي للحسد أو العصبية، أو التشهي؛ فإن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيمانًا شرعيًّا، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (النساء: ١٥٠)، فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله، ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (النساء: ١٥٠) في الإيمان؛ لأن من كذّب رسولًا فقد كذب الرسل جميعًا.

قال ﷻ: ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗ ﴾ (الفرقان: ٣٧)، وإنما أُرسل إليهم نوح عليه السلام فقط، وقوم عاد أرسل إليهم هود عليه السلام فقط، وقد أخبر الله عنهم فقال: ﴿ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (الشعراء)، وقال الله ﷻ: ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ (الشعراء)، وقال: ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (القمر)، وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ ﴾ (القمر)، فمن كفر برسول وكذّبه فقد كفر بالرُّسل جميعًا وكذبهم؛ لذا أخبر الله عن هؤلاء بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا ﴾ (النساء: ١٥١)، فكفرهم محقق لا محالة؛ لأن إيمانهم ببعض الرسل ليس شرعيًّا، إذ لو كانوا مؤمنين برسولهم لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره، وكلٌّ من عند الله.

إن الإيمان وحدة لا تتجزأ.. الإيمان بالله إيمان بوحدانيته، ووحدانيته تقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه للناس لتقوم حياتهم كلها - كوحدة - على أساسه، ويقتضي وحدة الرسل الذين جاءوا بهذا الدين من عنده - لا من عند أنفسهم ولا في معزل عن إرادته ووحيه - ووحدة الموقف تجاههم جميعًا، ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة إلا بالكفر المطلق؛ وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض! وكان جزاؤهم عند الله أن أعد لهم العذاب المهين أجمعين. قال ﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ ﴾ (النساء)[1].

ثانيًا. المؤمنون يصدقون بجميع الأنبياء والمرسلين دون تفرقة:

لقد أرشد الله عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل عليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ وما أنزل على الأنبياء المتقدمين، وألا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم جميعًا، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ ﴾ (النساء: ١٥٠)، بل أمرهم كمسلمين فقال ﷻ: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة)، وقد استجابت أُمّة محمد ﷺ لما دعاها إليه؛ ولذا مدحهم ربهم بقوله: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٢، ص٧٩٨.

فالمؤمنون يصدقون بجميع الأنبياء والرسل - عليهم السلام - والكتب المنزلة من السماء، لا يفرقون بين أحد منهم، فالجميع عندهم صادقون بارُّون راشدون هادون مهديُّون؛ لذا كان المسلمون هم الذين يشتمل تصورهم الاعتقادي على الإيمان بالله ورسله جميعًا بلا تفرقة.

فكل الرسل عندهم موضع اعتقاد واحترام، وكل الشرائع السماوية عندهم حق ما لم يقع فيها التحريف، فلا تكون عندئذ من دين الله، وإن بقي فيها جانب لم يحرَّف، إذ إن الدين وحدة، وهم يتصورون الأمر - كما هو في حقيقته - إلهًا واحدًا، ارتضى للناس دينًا واحدًا؛ ووضع لحياتهم منهجًا واحدًا، وأرسل رسله إلى الناس بهذا الدين الواحد وهذا المنهج الواحد وموكب الإيمان - في حسهم - موصول، يقوده نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا - ونسبهم هم إلى هذا الموكب الموصول عريق؛ وهم حملة هذه الأمانة الكبرى، وهم ورثة هذا الخير الموصول على طول الطريق المبارك. لا تفرقة ولا عزلة ولا انفصام، وإليهم وحدهم انتهى ميراث الدين الحق، وليس وراء ما عندهم إلا الباطل والضلال.

وهذا هو الإسلام الذي لا يقبل الله غيره من أحد، وهؤلاء هم المسلمون الذين يستحقون الأجر من الله على ما عملوا، ويستحقون منه المغفرة والرحمة فيما قصروا فيه: ﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ (النساء).

والإسلام إنما يتشدد هذا التشدد في توحيد العقيدة في الله تعالى ورسله؛ لأن هذا التوحيد هو الأساس اللائق بتصور المؤمن لإله كما أنه هو الأساس اللائق بوجود منظم غير متروك للتعدد والتصادم؛ ولأنه هو العقيدة اللائقة بإنسان يرى وحدة الناموس في هذا الوجود أينما امتد بصره، ولأنه هو التصور الكفيل بضم المؤمنين جميعًا في موكب واحد، يقف أمام صفوف الكفر، وفي حزب واحد يقف أمام أحزاب الشيطان.

ولكن هذا الصف الواحد ليس هو صف أصحاب الاعتقادات المحرفة - ولو كان لها أصل سماوي - إنما هو صف أصحاب الإيمان الصحيح والعقيدة التي لم يدخلها انحراف[1].

الخلاصة:

- إذا كان جميع الأنبياء والرسل من عند الله تعالى، فما العلّة وراء الإيمان ببعض والكفر ببعض، طالما أن مصدرهم واحد وهو الله ﷻ.
- المؤمنون حقًّا هم من يصدقون بجميع الرسل والكتب المنزلة، فمن كذّب واحدًا منهم فقد كذب جميع الرسل.
- الإيمان واجب بكل نبي أرسله الله.

١. المرجع السابق، ص٧٩٨.

الشبهة السابعة والخمسون

إنكار بشرية الرسول ﷺ والتعجب من إرسال رسول من البشر(*)

مضمون الشبهة:

أنكر مشركو قريش إرسال محمد ﷺ إليهم رسولا، وحجتهم في ذاك أنه من البشر، كما اعترض كل الأقوام قبله على الرسل والأنبياء بأنهم بشر، لا فضيلة لهم عليهم في خلق ولا رزق ولا حال، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا، فهلا بعث إلينا ملكًا! قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (يونس: ٢)، وقال ﷻ: ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠)﴾ (إبراهيم)، وقال ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤)﴾ (الإسراء).

وجها إبطال الشبهة:

١) من لطف الله بعباده أن أرسل إليهم رسلا من البشر؛ إذ لو كانت الرسل من الملائكة ما أطاق الناس رُؤيتهم ولحدثت النفرة منهم.

٢) إرسال رسول من البشر يؤدي إلى السَّكَن والأنس وتآلف الطباع، وهم وإن كانوا بشرًا، فإن الله هو الذي اصطفاهم واختصهم بذلك.

التفصيل:

أولا. من لطف الله أن يرسل الرسل من جنس البشر؛ فلو كانت الرسل من الملائكة ما أطاق الناس ذلك:

يتحدث القرآن الكريم عن المشركين من أهل مكة، ورفضهم لنبوة سيدنا محمد ﷺ بدعوى بشريته قائلًا: أبلغ الجهل وسوء التفكير بمشركي مكة ومن على شاكلتهم أن كان إيحاؤنا إلى رجل منهم يعرفهم ويعرفونه لكي يبلغهم الدين الحق أمرًا عجبا، يدعوهم إلى الدهشة والاستهزاء بالموحى إليه ﷺ حتى لكأن النبوة في زعمهم تتنافى مع البشرية.

إن الذي يدعو إلى العجب حقا هو ما تعجبوا منه، لأن الله ﷻ اقتضت حكمته أن يجعل رسله إلى الناس من البشر، لأن كل جنس يأنس لجنسه، وينفر من غيره، وهو أعلم حيث يجعل رسالته(١).

وينبِّه الله ﷻ على لطفه ورحمته بعباده أنه بعث الرسل إلى الناس من جنسهم ليفقهوا منه، وليتمكنوا من مخاطبته ومكالمته، ولذلك قال ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، وقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ (التوبة: ١٢٨)، وقال ﷻ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)﴾

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (الأنعام/ ٩١، الإسراء/ ٩٤، يونس/ ٢، إبراهيم/ ١٠، يس/ ١٥، ص/ ٤، ق/ ٢، التغابن/ ٦).

الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (الأعراف/ ٦٣، ٦٩، يوسف/ ١٠٩، النحل/ ٤٣، الإسراء/ ٩٥، ٩٦، الكهف/ ١١٠، الأنبياء/ ٧، ٨، الفرقان/ ٢٠، يس/ ١٦، ١٧).

١. التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، مرجع سابق، ج٧، ص٢٢.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ (البقرة)، وقال ﷻ أيضًا: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ (الجمعة: ٢).

فهذه الآيات وأمثالها تدل على أن إرسال الله للرسل والأنبياء من جنس البشر والناس وليس من جنس آخر مختلف - لُطفٌ من الله ورحمة بعباده ونعمة منه تستحق الشكر، فكأنه يقول لهم: لَمَّا كنتم أنتم بشرًا بعثنا فيكم رسلًا بشرًا منكم لطفًا منا ورحمة، وعلى هذا فما كان ينبغي منكم أن تتعجبوا من بعثة الرسل بشرًا أو تستبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداكم على يد بشر مثلكم.

ويبين القرآن الكريم - أيضًا - أن من الحكمة عدم إرسال رسول من جنس آخر غير المُرسَل إليهم، فلا يجوز أن يُرسَلَ رسولٌ من الملائكة للبشر؛ لأنه لو بعث الله إلى البشر رسولًا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه؛ ولذا قال ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ (الإسراء) أي أنه لو أرسل ملكًا إلى الآدميين لم يقدروا أن يروه على الهيئة التي خُلق عليها، قال ابن عباس: لو رأوا المَلَك على صورته لماتوا إذ لا يطيقون رؤيته؛ لأنه لو كان ملكًا لأدَّى اختلاف الجنس إلى تنافر الطبع، وقد ردّ القرآن على اقتراحهم هذا في قولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ (الأنعام: ٨)، فقال: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ (الأنعام).

قال الحسن وقتادة: لأُهلِكوا بعذاب الاستئصال؛ لأن الله أجرى سننه بأن من طلب آية فأُظهِرت له فلم يؤمن أهلكه الله ﷻ في الحال: ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ (الأنعام) أي لا يُمهَلون ولا يؤخَّرون، ولهذا كان لا بد من إرسال رسول من البشر، فقال ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ (الأنعام) فهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسُّم بالأجسام الكثيفة؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه، وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله ﷻ الرسولَ إلى البشر ملكًا لنفروا من مقاربته، ولما أنسوا به ولداخَلَهم من الرعب من كلامه، والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه ويمنعهم عن سؤاله فلا تعُمُّ المصلحة، ولو نقله من صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به ويسكنوا إليه لقالوا: لست ملكًا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، كما أعلمهم الله ﷻ أنه لو أنزل ملكًا في صورة رجل لوجدوا سبيلًا إلى اللبس والخلط، وقد يقولون: هذا ساحر مثلك.

ثانيًا. إرسال رسول من البشر يؤدي إلى السكن والأنس وتآلف الطباع، وهم وإن كانوا من البشر فإنَّ الله قد اصطفاهم وخصَّهم بالرسالة:

من ردود القرآن أيضًا على شبهة هؤلاء الأقوام المرسل إليهم أن هؤلاء الرسل وإن كانوا في الحقيقة بشرًا مثلَ من أُرسلوا إليهم؛ فإن الله ﷻ قد اصطفاهم دون الناس بالنبوة والتوفيق، والحكمة، والعلم، والمعرفة، والهداية، وبهذا ردَّ الرسل على أقوامهم فقالوا: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (إبراهيم: ١١)،

أي يتفضَّل عليه بالنبوة والرسالة، وهذا امتحان من الله للناس بعضهم ببعض، فقد جعل هذا نبيًّا وخصَّه بالرسالة، وهذا ملكًا وخصَّه بالدنيا، وهذا فقير وحرمه الدنيا ليختبر الفقير بصبره على ما حُرِم، والغني والملك بصبره على ما أُعطي الرسول من الكرامة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (الفرقان).

ومن ردود القرآن على المشركين أيضًا حين أنكروا رسالة النبي ﷺ لكونه رسولًا بشرًا أن الله ما أرسل إلى الأمم الماضية إلا رجالًا آدميين، ويوجههم القرآن إلى أن يسألوا أهل الذكر من مؤمني أهل الكتاب فسوف يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا من البشر، قال ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (النحل).

كما يبين القرآن أن الله لم يجعل الرسلَ قبل محمد ﷺ خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعام وشراب، وما كانوا خالدين لا يموتون، فقال ﷻ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الأنبياء)، وقال أيضًا: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان: ٢٠).

فهذا جواب الله تعالى على قول المشركين: ﴿ مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان: ٧)؛ حيث إنهم نقموا على رسول الله ﷺ أنه يأكل الطعام ويقف في الأسواق فعيَّروه بذلك؛ لأنهم أرادوا أن يكون الرسول ملكًا حيث رأوا الملوك والقياصرة والأكاسرة يترفعون عن الأسواق بينما كان ﷺ يخالطهم في أسواقهم ويأمرهم وينهاهم، فأجاب الله ﷻ عن شبهتهم هذه وأبان لحبيبه ﷺ أن ليس أكل الطعام والمشي في الأسواق عارًا على منصب الأنبياء، وليس الحاجة إلى التغذي والتكسُّب والتجارة مُنافيًا لحالهم، ولذا لَمَّا خُيِّر رسول الله ﷺ بين أن يكون نبيًّا مَلِكًا أو عبدًا رسولًا اختار أن يكون عبدًا رسولًا.

وينتهي القرآن من ذلك إلى إبطال حجة هؤلاء الأمم المكذبين؛ إذ ما من رسول إلا كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فليس محمد ﷺ بدعًا في ذلك من الرسل قبله®.

الخلاصة:

- المناسب للعقل والمنطق والفطرة أن يأتي الرسل بشرًا لا ملائكة، أما القول بحتمية كون الرسل من الملائكة فهو جمود عقلي، وانطماس نفسي يحمل أصحابه على قلب الحقائق وإيثار طريق الضلالة على طريق الهداية.
- إرسال الله للرسل من البشر يؤدي إلى السكن والأنس والتآلف فضلًا عن أنهم مصطفون من قبل المولى ﷻ، ولو كان الرسول من غير جنس قومه لما استطاع الناس تحمله ونفروا منه.

® في "الحكمة من كون الأنبياء والرسل من البشر" طالع: الشبهة التاسعة والتسعين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢).

ثانيًا. شبهات خاصَّة بأنبياء بعينهم

١. إبراهيم عليه السلام

الشبهة الثامنة والخمسون

دعوى أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًّا أو نصرانيًّا وكذلك أبناؤه (*)

مضمون الشبهة:

يدعي كل من النصارى واليهود أن إبراهيم عليه السلام كان منهم؛ فيقول اليهود: ما كان إبراهيم إلا يهوديًّا، وتقول النصارى: ما كان إلا نصرانيًّا، وكذلك ادَّعوا أن إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا على مِلَّتهم اليهودية أو النصرانية، قال عز وجل: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ﴾ (البقرة: ١٤٠).

وجوه إبطال الشبهة:

١) مقولة اليهود سببها قلة العقل وسوء الفهم، ولا دليل عليها.

٢) اليهود كتموا ما هو موجود في كتابهم من أن إبراهيم عليه السلام وهؤلاء الأنبياء كانوا مسلمين.

٣) التوراة والإنجيل أُنزلا بعد إبراهيم عليه السلام فكيف يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا؟!

٤) المحاجة بلا علم تؤدي إلى الخطأ.

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (البقرة/ ١٤٠).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ١٤٠، ١٤١، آل عمران/ ٦٥: ٦٨).

التفصيل:

أولا. سوء فهم اليهود والنصارى هو سبب دعواهم التي لا دليل عليها:

أنكر الله عز وجل على هؤلاء دعواهم أن إبراهيم عليه السلام ومن ذكروا من الأنبياء مثل: إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط كانوا على ملة اليهودية أو النصرانية، وإن كنتم تقولون هذا فإن الله يكذبكم فيه، وأنتم تعلمون أيضًا أن اسمَيْ اليهودية والنصرانية حَدَثًا بعد هؤلاء، بل حدث اسم اليهودية بعد موسى، واسم النصرانية بعد عيسى، كما حدث لليهود تقاليد كثيرة صار مجموعها مُمَيِّزًا لهم، وأما النصارى فجميع تقاليدهم الخاصة بهم المميزة للنصرانية حادثة، لم يأت بها عيسى عليه السلام.. وقال الله عز وجل في الردِّ على هؤلاء: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة: ١٤٠)، يعني: بل الله أعلم وقد أخبر عز وجل بأنهم لم يكونوا يهودًا ولا نصارى، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (آل عمران).

فإن اليهودية والنصرانية غير الحنيفية، لأنَّ موسى وعيسى - عليهما السلام - لم يخبرا بأنهما على الحنيفية، فأنتج أنَّ إبراهيم عليه السلام لم يكن على حال اليهودية أو النصرانية؛ إذ لم يؤْثَر ذلك عن موسى ولا عيسى - عليهما السلام - فهذا سنده خلوُّ كتبهم عن ادّعاء ذلك، وكيف تكون اليهودية أو النصرانية من الحنيفية مع خلوِّها عن فريضة الحج، وقد جاء الإسلام بذكر فرضه لمن تمكن منه، ومما يؤيد هذا ما ذكره ابن عطية في تفسير قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة) عن عكرمة قال: لما

نزلت الآية قال أهل الملل: قد أسلمنا قبلك، ونحن المسلمون، فقال الله له: فحُجهم يا محمد، وأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ (آل عمران: ٩٧)، فحجَّ المسلمون وقَعد الكفار.

ثمّ تمَّم الله ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾، فأبطلت دعاوى الفِرَق الثلاث، وقوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أفاد الاستدراكُ بعد نفي الضدّ حصرًا لحال إبراهيم عليه السلام فيما يوافق أصول الإسلام، ولذلك بُيِّن حنيفًا بقوله: ﴿مُّسْلِمًا﴾؛ لأنهم يعرفون معنى الحنيفية ولا يؤمنون بالإسلام، فأعلمهم أنّ الإسلام هو الحنيفية، وقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فنفى عن إبراهيم عليه السلام موافقة اليهودية، وموافقة النصرانية، وموافقة المشركين، وإنه كان مسلمًا، فثبتت موافقته الإسلام.

ومن الثابت أن إبراهيم عليه السلام سأل أن يكون مسلمًا، وأنّ الله أمره أن يكون مسلمًا، وأنه كان حنيفًا، وأنّ الإسلام الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ هو الذي كان جاء به إبراهيم: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ (البقرة)، وكلّ ذلك لا يُبقي شكًّا في أنّ الإسلام هو إسلام إبراهيم عليه السلام[1].

ولذا قال لهم في موضع آخر: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ (آل عمران).

ثانيًا. كتمان اليهود والنصارى للحق:

وهؤلاء اليهود والنصارى قد كتموا شهادةً عندهم من الله وهي كون إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب عليهم السلام، والأسباط مسلمين، وقد ذكر بعض أهل التأويل أنهم كانوا يقرءون ذلك في كتاب الله -الذي أتاهم- أن هؤلاء الأنبياء، والأسباط كانوا بُرآء من اليهودية والنصرانية، فشهدوا لله بذلك وأقرّوا على أنفسهم لله فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك، قال ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ (البقرة).

إن هؤلاء إلا مجادلون في الحق بعدما تبين، مباهتون للنبي مع العلم بأنه نبي، إذ ما كان لهم أن يشتبهوا في أمره بعد شهادة كتابهم له، فإذا كان ظلمهم أنفسهم قد انتهى بهم إلى آخر حدود الظلم، وهو كتمان شهادة الله تعالى تعصبا لجنسيتهم الدينية التي ارتبط بها الرؤساء بالمرءُوسين بروابط المنافع الدنيوية من مال وجاه، فكيفَ يُنتظر منهم أن يُصْغُوا إلى بيان أو يخضعوا لبرهان؟ والاستفهام هنا يتضمن التوبيخ والتقريع المؤكدين بالوعيد في قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ (البقرة).

وإنما الجزاء على الأعمال، ثم ختم المحاجة بتأكيد أمر العمل وعدم فائدة النسب فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ (البقرة)، وإنما تُسألون عن أعمالكم وتجاوزن عليها، فلا ينفعكم ولا يضركم سواها، وهذه قاعدة يثبتها كل دين قويم، وكل عقل سليم، ولكن قاعدة الوثنية القاضية باعتبار الناس في طلب سعادة الآخرة

---

1. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٣، ص٢٧٤، ٢٧٥ بتصرف.

وبعض مصالح الدنيا على كرامات الصالحين تغلب مع الجهل كل دين وكل عقل، ومنبع الجهل التقليد المانع من النظر في الأدلة العقلية والدينية جميعًا؛ اللهم إلا مكابرة الحس والعقل، وتأويل نصوص الشرع، تطبيقًا لها على ما يقول المقلَّدون المتبَعون، وقد أوَّلَ المؤوِّلون نصوص أديانهم تقريرًا لاتباع رؤسائهم والاعتماد على جاههم في الآخرة؛ لذلك جاء القرآن يبالغ في تقرير قاعدة ارتباط السعادة بالعمل والكسب وتبيينها، ونفى الانتفاع بالأنبياء والصالحين لمن لم يتأس بهم في العمل الصالح[1].

ثالثًا. نزول التوراة والإنجيل بعد إبراهيم عليه السلام بدهر طويل:

ومن ردود القرآن عليهم أيضًا في موضع آخر ما أنكره عليهم في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، فقال الله لهم: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (آل عمران). فكيف يدعي هؤلاء اليهود أنه كان يهوديًا، وقد كان زمنه قبل أن يُنزِّل الله التوراة على موسى؟ وكيف يدَّعي هؤلاء النصارى أنه كان نصرانيًا، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟ وهذه حجة عقلية بدهية، ولذا قال لهم: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أي: أفلا تعقلون دحوض حجتكم وبطلان قولكم؛ ولذا قال الزجاج: هذه الآية أبين حجة على اليهود والنصارى، إذ التوراة والإنجيل أُنزلا من بعده، وليس فيها اسمٌ لواحد من الأديان، واسم الإسلام في كل كتابة.

وقوله: ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ ﴾ يكون على حسب الرواية الأولى مَنْعًا لقولهم: فقد زدت فيه ما ليس مِنْه، المقصودِ منه إبطال أن يكون الإسلام هو دين إبراهيم عليه السلام، وتفصيلُ هذا المنع: إنكم لا قبل لكم بمعرفة دين إبراهيم عليه السلام، فمن أين لكم أنّ الإسلام زاد فيما جاء به على دين إبراهيم عليه السلام؟ فإنكم لا مستند لكم في علمكم بأمور الدين إلَّا التوراةُ والإنجيلُ، وهما قد نَزلا من بعد إبراهيم، فمن أين يعلم ما كانت شريعة إبراهيم حتى يعلمَ المزيد عليهَا، وذكر التوراة على هذا لأنها أصل الإنجيل. ويكون على حسب الرواية الثانية نفيًا لدعوى كلّ فريق منهما أنه على دين إبراهيم، بِأنّ دين اليهود هو التوراة، ودينَ النصارى هو الإنجيل، وكلاهما نزل بعد إبراهيم، فكيف يكون شريعةً له. قال الفخر: يعني ولم يُصرّح في أحد هذين الكتابين بأنه مطابقٌ لشريعة إبراهيم، فذكر التوراة لإبطال قول اليهود، وذكرَ الإنجيل لإبطالِ قول النصارى، وذكر التوراة والإنجيل هنا لقصد جمع الفريقين في التخطئة.

والأظهر في تأليف المحاجة ينتظم من مجموع قول الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ ﴾، وقوله عز وجل: ﴿ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ ﴾ (آل عمران:٦٦)، وقوله عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٦)، فيبطل بذلك دعواهم أنهم على دين إبراهيم، ودعواهم أنَّ الإسلام ليس على دين إبراهيم، ويَثْبُتُ عليهم أنّ الإسلام على دين إبراهيم، وذلك أنّ قوله عز وجل: ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ

1. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١، ص٤٩٠، ٤٩١ بتصرف.

﴿وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ يدل على أنّ علمهم في الدين منحصر فيهما، وهما نزلا بعد إبراهيم فلا يجوز أن يكونا عين صُحُف إبراهيم.

وقوله ﷻ: ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ يُبطل قولهم: إنّ الإسلام زاد على دين إبراهيم، ولا يدل على أنهم على دين إبراهيم؛ لأنّ التوراة والإنجيل لم يَرد فيهما التصريح بذلك، وهذا هو الفارق بين انتساب الإسلام إلى إبراهيم وانتساب اليهودية والنصرانية إليه، فلا يقولون: وكيف يُدّعَى أنّ الإسلام دين إبراهيم مع أنّ القرآن أنزل من بعد إبراهيم كما أنزلت التوراة والإنجيل من بعده؟

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ يدل على أنّ الله أنبأ في القرآن الكريم بأنه أرسل محمدًا ﷺ بالإسلام دين إبراهيم، وهو أعلم منكم بذلك، ولم يسبق أن امتنّ عليكم بمثل ذلك في التوراة والإنجيل فأنتم لا تعلمون ذلك، فلما جاء الإسلام وأنبأ بذلك أردتم أن تنتحلوا هذه المزية، واستيقظتم لذلك حَسدًا على هذه النعمة، فنهضتْ الحجة عليهم، ولم يبق لهم معذرة في أن يقولوا: إنّ مجيء التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم مشتَرَكُ الإلزام لنا ولكم؛ فإنّ القرآن أنزل بعد إبراهيم، ولولا انتظام الدليل على الوجه الذي ذكرنا لَكَانَ مشترك الإلزام[1].

رابعًا. الجدال بغير علم يؤدي إلى الخطأ:

أنكر الله عليهم محاجتهم فيما لا علم لهم به، وأمر برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها، فقال ﷻ: ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦)﴾ (آل عمران)، والاستفهام في قوله: ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ﴾ مقصود منه التنبيه على الغلط.

وقد أعرض في هذا الاحتجاج عليهم عن إبطال المنافاة بين الزيادة الواقعة في الدين الذي جاء به محمد ﷺ على الدين الذي جاء به إبراهيم ﷺ، وبين وصف الإسلام بأنّه ملّة إبراهيم ﷺ: لأنّهم لم يكن لهم من صحة النظر ما يفرقون به بين زيادة الفروع، واتحاد الأصول، وأنّ مساواة الدينين منظور فيها إلى اتحاد أصولها فاكتُفي في المحاجّة بإبطال مستندهم في قولهم: "فقد زدت فيه ما ليس فيه" على طريقة المنع، ثم بقوله ﷻ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾ (آل عمران) على طريقة الدعوى بناءً على أنّ انقطاع المعترِض كافٍ في اتجاه دعوى المستدل[2].

وقوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾ (البقرة) تكميل للحجة؛ أي: إنّ القرآن الذي هو من عند الله أثبت أنه ملة إبراهيم، وأنتم لم تهتدوا لذلك، لأنكم لا تعلمون[3]، ولذلك عقّب بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾ (آل عمران)، فالنبي محمد ﷺ والذين آمنوا معه أولى بإبراهيم لأنهم

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٣، ص٢٧٢.

٢. المرجع السابق، ص٢٧٣.

٣. المرجع السابق، ص٢٧٤.

تخلقوا بأصول شرعه، وعرفوا قدره، وكانوا له لسان صدق دائبًا بذكره فهؤلاء أحق به ممن انتسبوا إليه، لكنهم نقضوا أصول شرعه، ومن الذين انتسبوا إليه وأنسوا ذكر شرعه وهم اليهود والنصارى، والله ولي إبراهيم والذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا؛ لأن التذييل يشمل المذيَّل قطعا، ثم يشمل غيره تكميلًا كالعام على سبب خاص، وفي قوله ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ بعد قوله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا ﴾ تعريض بأن الذين لم يكن إبراهيم منهم ليسوا مؤمنين[1].

الخلاصة:

- اليهود - كعادتهم - كتموا ما هو موجود في كتابهم من أن إبراهيم عليه السلام وهؤلاء الأنبياء كانوا مسلمين.
- التوراة والإنجيل أُنزلا بعد إبراهيم عليه السلام فكيف يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا؟!
- الآيات المذكورة تنفي كون إبراهيم عليه السلام يهوديًّا أو نصرانيًّا، وتعرِّض في الوقت ذاته بأن الذين لم يكن إبراهيم عليه السلام منهم ليسوا مؤمنين.

١. المرجع السابق، ص٢٧٧، ٢٧٨.

٢. موسى عليه السلام

الشبهة التاسعة والخمسون

اتهام موسى وهارون - عليهما السلام - بالسحر(*)

مضمون الشبهة:

اتَّهم فرعون ومن معه موسى وهارون - عليهما السلام - بأنهما ساحران عالمان خبيران بصناعة السِّحر، وأن ما أتى به موسى عليه السلام من الآيات الظاهرة الواضحة ما هو إلا سحر مبين. قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾ (طه).

وجها إبطال الشبهة:

١) ما قاله فرعون ومن معه من اتهام موسى وهارون بالسحر هو مجرد زعم باطل، ومقولة ظالمة ناشئة عن البهتان والكذب والاستكبار.

٢) إيمان السحرة برب موسى وهارون - عليهما السلام - يُعد من أكبر الأدلة على براءة موسى وهارون - عليهما السلام - من تهمة السحر.

التفصيل:

أولا. اتهام موسى وهارون - عليهما السلام - بالسحر مجرد زعم باطل:

تلك مقولة مبنية على الكذب والبهتان والاستكبار والعناد والتعالي، يتهمون ما جاء به موسى عليه السلام

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (طه/ ٦٣، النمل/ ١٣، غافر/ ٢٤، القصص/ ٣٦، ٤٨، يونس/ ٧٦).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (يونس/ ٧٧، طه/ ٧٠، ٧٢، ٧٣).

وهارون - عليهما السلام - من المعجزات الباهرة والدلائل القاهرة والآيات الظاهرة على صدقهما، بأنه سحر ظاهر رغم أنهم شاهدوا ذلك وتحققوه وأيقنوا أنه من عند الله، يقول ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (يونس)؛ أي لما رأوا المعجزات التي هي حق ثابت، وعلموا أن موسى عليه السلام صادق تدرجوا من مجرّد الإباء المنبعث عن الاستكبار إلى البهتان المنبعث عن الشعور بالمغلوبية.

والحقُّ: يطلق اسمًا على ما قابل الباطل، وهو العدل الصالح، ويطلق وصفًا على الثابت الذي لا ريبة فيه، والذي أثبت له المجيء هنا هو الآيات التي أظهرها موسى عليه السلام إعجازًا لهم لقوله قبله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ (الأعراف: ١٠٣)، فكان جعل الحق جائيًا بتلك الآيات صالحًا لمعنيي الحقّ؛ لأنّ تلك الآيات لما كانت ثابتة لا ريبة فيها كانت في ذاتها حقًّا، فمجيئها حصولُها وظهورها المقصود منه إثبات صدق موسى عليه السلام في رسالته فكان الحق جائيًا معها، فمجيئه ثبوته كقوله ﷻ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ (الإسراء: ٨١).

وبهذا يتبيَّن أنّ الآية الكريمة دالة على أن آيات الصدق ظهرت وأنّ المحجوجين أيقنوا بصدق كليم الله موسى عليه السلام وأنه جاء بالحق، ولكنهم لجهلهم وعنادهم لم يميزوا بين السحر وما هو من قبيل المعجزة التي هي آية من عند الله ﷻ، ولذا قال أولئك الظالمون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ (يونس).

واعتذارهم عن ظهور الآيات بأنها سحر هو اعتذار المغلوب العديم الحجة الذي قهرته الحجة وبهره سلطان الحقّ، فلم يبق له منتشب من المعارضة المقبولة فهو يهرع إلى انتحال معارضات بمعاذير لا تدخل تحت التمحيص ولا تثبت في محكّ النقد:

ولا بدّ للمغلوب من بارد العذر

وإذ قد اشتهر بين الدّهماء من ذوي الأوهام أنّ السحر يظهر الشيء في صورة ضدّه، ادّعى هؤلاء أنّ ما ظهر من دلائل صدق موسى هو سحر ظهر به الباطل في صورة الحقّ بتخييل السحر.

ومعنى ادّعاء الحقّ سحرًا أنّ دلائله من قبيل التخيلات والتمويهات، فكذلك مدلوله هو مدلول السحر وهو إنشاء تخيل باطل في نفوس المسحورين[1].

ولقد ردّ عليهم نبي الله موسى عليه السلام متعجبًا من قولهم: أتقولون هذا الذي قلتم للحق الظاهر الذي هو أبعد الأشياء عن كيد السحر الباطل لما جاءكم وعرفتموه واستيقنته نفوسكم ورأيتموه بأعينكم، ورجفت عن عظمته قلوبكم، فهذا لا يمكن أن يكون سحرًا من جنس ما تصنعه أيديكم، كيف والحال المعروف عندكم أن السحرة لا يفوزون في أمور الجد العملية من دعوة دين وتأسيس ملك وقلب نظام، وهو ما تتهمونني به على ضعفي وقوتكم؛ لأن السحر أمور شعوذة وتخييل لا تلبث أن تفتضح وتزول، ولما نفى موسى عليه السلام عن آيات الله أن تكون سحرًا ارتقى، فأبان لهم فساد السحر وسوء عاقبة معالجيه تحقيرًا لهم؛ لأنهم كانوا ينوّهون بشأن السحر. فجملة: ﴿وَلَا

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١١، ص٢٤٨، ٢٤٩ بتصرف.

﴿يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (يونس) معطوفة على جملة: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ (يونس: ٧٧).

فالمعنى: هذا ليس بسحر وإنما اعلم أن الساحر لا يفلح، أي لو كان ساحرًا لما شنع حال الساحرين؛ إذ صاحب الصناعة لا يحقر صناعته؛ لأنه لو رآها محقرة لما التزمها[١].

ثانيًا. إيمان السحرة برب موسى وهارون - عليهما السلام - دليل على براءتهما من تهمة السحر:

ومن أدلِّ الأدلَّة على أن ما جاء به موسى عليه السلام ليس سحرًا - كما زعم فرعون وقومه - أن السحرة لما ظهرت لهم المعجزة واتضح لهم البرهان وبطل سحرهم أمام موسى عليه السلام وعاينوا ذلك وشاهدوه - وهم ذوو خبرة بفنون السحر وصناعته وطرقه ووجوهه - علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام ليس من قبيل السحر والحيل، بل حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا إله قادر حكيم يقول للشيء: كن فيكون، فعند ذلك وقعوا لله سُجَّدًا وقالوا: آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون - عليهما السلام - فكانوا أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء بررة، قال عز وجل: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ (طه).

الخلاصة:

- جاء موسى عليه السلام فرعون ومن معه بآيات باهرة ومعجزات بينة، وقد أيقن فرعون ومن معه بصدق موسى عليه السلام، وأن ما جاء به هو الحق، ولكنه استكبر هو ومن معه، فاتهم موسى وهارون بأنهما ساحران. عنادًا وتكذيبًا لهما.
- لما ألقى موسى عليه السلام عصاه ولقفت عصى وحبال السحرة أيقن السحرة أن ما جاء به موسى عليه السلام لا يمكن أن يكون من قبيل السحر، بل هو الحق من ربهم، فوقعوا سجدًا لله، وآمنوا برب موسى وهارون عليهما السلام.

٣. عيسى عليه السلام

الشبهة الستون

دعوى قتل المسيح عليه السلام(*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم اليهود أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، قال عز وجل: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١٥٧).

وجها إبطال الشبهة:

١) اليهود شاكون ومتوهمون قتل المسيح، فلم يقتلوه يقينًا، وإنما قتلوا الرجل الذي وقع عليه شبه عيسى عليه السلام، والحق أنه رُفع إلى السماء حيًّا، وسينزل في آخر الزمان، ونزوله علامة على قرب الساعة.

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (النساء/ ١٥٧).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (النساء/ ١٥٧: ١٥٩، الزخرف/ ٦١، آل عمران/ ٥٤، ٥٥).
® في "حسْم القرآن الكريم مسألة صلب المسيح" طالع: الشبهة الثانية والتسعين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢).

---

١. المرجع السابق، ص٢٥٠.

٢) الوفاة المذكورة في شأن عيسى عليه السلام في القرآن ليس المراد بها الموت، وإنما القبض والرفع إلى السماء من غير موت، فإن احتملت معنى الموت، فإنها ستكون في الوقت الذي سيحدده الله عز وجل ويقوي ذلك وجود حرف العطف "الواو" الذي يفيد التشريك مطلقًا دون استلزام الترتيب.

التفصيل:

أولا. اليهود لم يقتلوا المسيح، وإنما قتلوا الرجل الذي وقع عليه شبه عيسى عليه السلام:

يوضح لنا د. محمد سيد طنطاوي الحديث عن هذه الواقعة من خلال تفسيره للآيات قائلًا: "سجل الله على اليهود رذيلة سابعة وردًّ عليهم بما يخرس ألسنتهم، ويفضحهم على رءوس الأشهاد في كل زمان ومكان، فقال: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (النساء: ١٥٧)، والمسيح: لقب تشريف وتكريم لعيسى عليه السلام، وقيل: لقب بذلك لأنه ممسوح من كل خلق ذميم، وقيل: لأنه مسح بالبركة كما في قوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ (مريم: ٣١)، وقيل لأن الله مسح عنه الذنوب.

أي: وبسبب قولهم على سبيل التبجح والتفاخر إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، لعنهم الله وغضب عليهم، كما لعنهم وغضب عليهم - أيضًا - بسبب جرائمهم السابقة.

وهذا القول الذي صدر عنهم هو في ذاته جريمة؛ لأنهم قالوه على سبيل التبجح والتفاخر لقتلهم - في زعمهم - نبيا من أنبياء الله تعالى، ورسولا من أولي العزم من الرسل.

وقولهم هذا وإن كان يخالف الحقيقة والواقع، إلا أنه يدل على أنهم أرادوا قتله فعلا، وسلكوا كل السبل لبلوغ غايتهم الدنيئة، فدسوا عليه عند الرومان، ووصفوه بالدجل والشعوذة، وحاولوا أن يسلموه لأعدائه ليصلبوه، بل زعموا أنهم أسلموه فعلا لهم، ولكن الله عز وجل خيب سعيهم، وأبطل مكرهم، وحال بينهم وبين ما يشتهون، حيث نجى عيسى ابن مريم عليه السلام من شرورهم، ورفعه إليه دون أن يمسه سوء منهم.

ولا شك أن ما صدر عن اليهود في حق عيسى عليه السلام من محاولة قتله، واتخاذ كل وسيلة لتنفيذ غايتهم، ثم تفاخرهم بأنهم قتلوه وصلبوه، لا شك أن كل ذلك يعتبر من أكبر الجرائم؛ لأنه من المقرر في الشرائع والقوانين أن من شرع في ارتكاب جريمة من الجرائم واتخذ كل الوسائل لتنفيذها ولكنها لم تتم لأمر خارج عن إرادته، فإنه يعد من المجرمين الذين يستحقون العقاب الشديد.

واليهود قد اتخذوا كافة الطرق لقتل عيسى عليه السلام - كما بينا - ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون لأسباب خارجة عن طاقتهم. ومعنى هذا أنه لو بقيت لهم أية وسيلة لإتمام جريمتهم النكراء لما تقاعسوا عنها، ولأسرعوا في تنفيذها فهم يستحقون عقوبة المجرم في تفكيره، وفي نيته، وفي شروعه الأثيم، لارتكاب ما نهى الله عنه.

قال صاحب "الكشاف": فإن قلت: كانوا كافرين بعيسى عليه السلام أعداء له، عامدين لقتله، يسمونه الساحر

ابن الساحرة، والفاعل ابن الفاعلة، فكيف قالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾؟

قلت: قالوه على وجه الاستهزاء؛ كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ (الشعراء)، ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم، رفعا لعيسى عما كانوا يذكرونه به، وتعظيمًا لما أرادوا بمثله كقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ (الزخرف)

وقوله ﷻ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ رد على مزاعمهم الكاذبة، وأقاويلهم الباطلة التي تفاخروا بها بأنهم قتلوا عيسى ﷺ، أي: إن ما قاله اليهود متفاخرين به، وهو زعمهم أنهم قتلوا عيسى ﷺ، هو من باب أكاذيبهم المعروفة عنهم؛ فإنهم ما قتلوه، وما صلبوه، ولكن الحق أنهم قتلوا رجلًا آخر يشبه عيسى ﷺ في الخلقة، فظنوه إياه وقتلوه وصلبوه، ثم قالوا. إنا قتلنا المسيح ابن مريم رسول الله.

قال الفخر الرازي: قوله: ﴿شُبِّهَ﴾ مسند إلى ماذا؟ إن جعلته مسندًا إلى المسيح فهو مشبه به وليس بمشبه، وإن أسندته إلى المقتول لم يجر له ذكر؟ والجواب من وجهين هما:

١. **أنه مسند إلى الجار والمجرور**، وهو كقولك: خيل إليه، كأنه قيل: ولكن وقع لهم الشبه.

٢. **أن يسند إلى ضمير المقتول**، لأن قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ يدل على أنه وقع القتل على غيره فصار ذلك الغير مذكورا بهذا الطريق فحسن إسناد ﴿شُبِّهَ﴾ إليه.

وقال الشيخ حسنين محمد مخلوف قوله ﷻ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾: زعم أكثر اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه، فأكذبهم الله ﷻ في ذلك وقال: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، أي: شبه لهم المقتول بأن ألقى عليه شبه المسيح فلما دخلوا عليه ليقتلوه ـ أي ليقتلوا المسيح ـ وجدوا الشبيه فقتلوه وصلبوه، يظنونه المسيح وما هو في الواقع؛ إذ قد رفع الله عيسى إلى السماء، ونجاه من شر الأعداء. وقيل المعنى: ولكن التبس عليهم الأمر؛ حيث ظنوا المقتول عيسى كما أوهم بذلك أحبارهم.

وللمفسرين في بيان كيفية التشبيه لهم وجوه من أهمها اثنان هما:

١. أن الله ﷻ ألقى شبه عيسى ﷺ على أحد الذين خانوه ودبروا قتله، وهو يهوذا الإسخريوطي الذي كان عينا وجاسوسًا على المسيح، والذي أرشد الجند الذين أرادوا قتله إلى مكانه، وقال لهم: من أقبِّله أمامكم يكون هو المسيح، فاقبضوا عليه لتقتلوه، فدخل بيت عيسى؛ ليدلهم عليه ليقتلوه، فرفع الله عيسى، وألقى شبهه على المنافق، فدخلوا عليه فقتلوه، وهم يظنون أنه عيسى.

وهذا الوجه قد جاء مفصلًا في بعض الأناجيل، وأشار إليه الألوسي بقوله: كان رجل من الحواريين ينافس عيسى ﷺ، فلما أرادوا قتله قال: أنا أدلكم عليه، وأخذ على ذلك ثلاثين درهما، فدخل بيت عيسى ﷺ، فرفع الله عيسى، وألقى شبهه على المنافق، فدخلوا عليه فقتلوه، وهم يظنون أنه عيسى.

٢. أن الله ﷻ ألقى شبه المسيح على أحد تلاميذه المخلصين حين أجمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه

سيرفعه إليه، فقال لأصحابه أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة؟ فقال رجل منهم أنا. فألقى الله صورة عيسى عليه، فقتل ذلك الرجل وصلب.

وقد أطال الإمام ابن كثير في ذكر الروايات التي تؤيد هذا الوجه، ومنها قوله: عن ابن عباس قال: لما أراد الله ﷻ أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه - وهم في البيت اثنا عشر رجلًا - من عين في البيت ورأسه يَقْطُر ماء، فقال: أما إن منكم من سيَكْفُر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، ثم قال: أيكم يُلْقَى عليه شبهي فيُقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سنًّا فقال: أنا، فقال عيسى: اجلس. ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا، قال: نعم أنت ذاك، فألقى عليه شبه عيسى، ورفع عيسى عليه السلام من رَوْزَنَة[1] في البيت إلى السماء. قال: وجاء الطلب من اليهود وأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن"[2].

ومن بين الأناجيل التي كُتبت في فترة كتابة الأناجيل الكثيرة: إنجيل بِرْنابا، وهو يخالف الأناجيل الأربعة المعتمَدة في قصة القَتْل والصَّلْب، فيقول: "ولما دَنَت الجنود مع يهوذا، من المحل الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دُنُوّ جَمٍّ غفير. فلذلك انسحب إلى البيت خائفًا. وكان الأحد عشر نيامًا. فلما رأى الخطر على عبده، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سُفَراءه أن يأخذوا يسوع من العالم. فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المُشْرِفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح إلى الأبد.. ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أُصْعِد منها يسوع. وكان التلاميذ كلهم نيامًا. فأتى الله العجيب بأمر عجيب فتغيَّر يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبيهًا بيسوع. حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع. أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يُفتِّش لينظر أين كان المعلِّم. لذلك تعجبنا وأجبنا: أنت يا سيدي معلِّمنا. أَنَسِيتنا الآن؟.. إلخ".

وهكذا لا يستطيع الباحث أن يجد خبرًا يقينًا عن تلك الواقعة، ولا يجد المختلفون فيها سندًا يرجح رواية على رواية، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ (النساء: ١٥٧).

والذي يجب اعتقاده بنص القرآن أن عيسى عليه السلام لم يُقتل ولم يُصلب، وإنما رفعه الله إليه، ونجَّاه من مكر أعدائه، أما الذي قتل وصلب فهو شخص سواه.

ثم قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ (النساء: ١٥٧)، أي: وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى من أهل الكتاب لفي شك دائم من حقيقة أمره، أي: في حيرة وتردد، ليس عندهم علم ثابت قطعي في شأنه، أو في شأن قتله، ولكنهم لا يتبعون فيما يقولونه عنه إلا الظن الذي لا تثبت به حجة. ولا يقوم عليه برهان[3].

إذًا فاليهود هم الذين ادّعوا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام وصلبوه، وذلك أنهم حين همّوا بالفتك به وإرادته

١. الرَّوْزَنَة: الفتحة في سَقْف المنزل.

٢. إسناده صحيح: أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣/ ٣٦٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ٤٣١)، وصحح إسناده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٥٠).

٣. التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، مرجع سابق، ج٣، ص٤٩٨: ٥٠٢.

بالسوء والصلب وتمالئوا عليه، ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافرًا، وأخبروه أنَّ ها هنا رجلًا يُضل الناس، ويصدهم عن طاعة الملك، ويفند الرعايا، ويفرّق بين الأب وابنه إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم، ورموه به من الكذب، وأنه ولد زانية، حتى استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه وينكل به ويصلبه، فلما أحاطوا به وظنوا أنهم قد ظفروا به، نجّاه الله من بينهم، ورفعه من روزنة (طاقة أو كوة) ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل كان عنده في المنزل، فلما دخل اليهود اعتقدوا في ظلمة الليل أن هذا الرجل هو عيسى عليه السلام فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك، وكان هذا من مكر الله بهم، يعتقدون أنهم ظفروا بطلبتهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعنادًا للحق ملازمًا لهم، وأورثهم ذلّة لا تفارقهم إلى يوم القيامة، قال ﷻ في ذلك: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (آل عمران).

وقال ﷻ أيضًا في الردّ على هؤلاء: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ ﴾ (النساء).

فهؤلاء الذين اختلفوا في عيسى عليه السلام هم اليهود الذين أحاطوا به وادعوا أنهم قتلوه، وهم يقينًا ما قتلوه ولا صلبوه، بل هم شاكُّون متوهِّمون في ذلك، بل رفعه الله ﷻ إليه وطهّره من الذين كفروا، قال ﷻ: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (آل عمران: ٥٥).

ومن ردود القرآن الكريم عليهم أيضًا في دعواهم قتل المسيح عليه السلام قوله ﷻ: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ (النساء)، والضمير في قوله: ﴿مَوْتِهِ﴾ عائد على المسيح عيسى عليه السلام، والمعنى: إذا نزل عيسى عليه السلام فقتل الدجال لم يبق يهودي في الأرض إلا آمن به، وذلك حين لا ينفعهم الإيمان.

ومن الأدلة على أن المسيح عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، وأن الله رفعه إليه، وأنه ينزل في آخر الزمان، أن الله جعل نزول عيسى عليه السلام علامة من علامات اقتراب الساعة، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ (الزخرف: ٦١)، ويتأيد ذلك بالعديد من الأحاديث الصحيحة المتواترة في شأن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان وصفته وما يصاحب نزوله.

ثانيًا. الوفاة المذكورة في القرآن لسيدنا عيسى عليه السلام يقصد بها القبض والرفع إلى السماء من غير موت:

وأما قول من قال: إن عيسى عليه السلام مات ثم رفع؛ لأن الوفاة وردت قبل الرفع في قوله ﷻ: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ ﴾ (آل عمران: ٥٥)، فهذا لا يفيد أن عيسى مات ثم رفع، والله ﷻ يقول: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (النساء: ١٥٧). وأما هذا الإشكال في ورود الوفاة قبل الرفع فيرد عليه بما يلي:

- يرى بعض العلماء أن معنى الوفاة هنا: النوم، ولهذا نظائر في القرآن، كقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ (الأنعام: ٦٠)، وقوله أيضًا: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ

﴿ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الزمر: ٤٢)، فعلى ذلك فمعنى متوفيك: أي مُنيمك.

- وبعض أهل العلم يرى أن معنى متوفيك: قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت، وفي معاجم اللغة: توفيتُ مالي من فلان أي قبضته.

- ويرى بعضهم أن الواو لا تفيد الترتيب في كثير من الأحيان، بل تفيد مطلق العطف والتشريك، قال الله ﷻ: ﴿ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (آل عمران)، وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ (النور: ٢٧)، ومن المعلوم أن التسليم يكون قبل الاستئناس الذي هو داخل البيت، وقال الشاعر:

أَلَا يا نَخْلَةً من ذاتِ عِرْقٍ

عليكِ ورَحْمَةُ اللهِ السَّلامُ

أي: عليك السلام ورحمة الله.

وعلى ذلك يكون المعنى: إني رافعك إلى ومتوفيك إذا جاء الأجل الذي قدرته لوفاتك.

الخلاصة:

- إن قضية قتل عيسى ؑ وصلبه قضية يخبط فيها اليهود - كما يخبط فيها النصارى بالظنون - فاليهود يقولون: إنهم قتلوه ويسخرون من قوله: إنه رسول الله، فيقررون له هذه الصفة على سبيل السخرية! والنصارى يقولون: إنه صلب ودفن، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام. و"التاريخ" يسكت عن مولد المسيح ونهايته كأن لم تكن له في حساب! وما من أحد من هؤلاء أو هؤلاء يقول ما يقول عن يقين، فلقد تتابعت الأحداث سراعًا؛ وتضاربت الروايات في تلك الفترة بحيث يصعب الاهتداء فيها إلى يقين.. إلا ما يقصه رب العالمين.

- الأناجيل الأربعة التي تروي قصة القبض على المسيح وصلبه وموته ودفنه وقيامته.. كلها كتبت بعد فترة من عهد المسيح؛ كانت كلها اضطهادًا لديانته ولتلاميذه يتعذر معه تحقيق الأحداث في جو السرية والخوف والتشريد، وقد كتبت معها أناجيل كثيرة. ولكن هذه الأناجيل الأربعة اختيرت قرب نهاية القرن الثاني للميلاد؛ واعتبرت رسمية، واعترف بها؛ لأسباب ليست كلها فوق مستوى الشبهات!

- أما القرآن فيقرر قراره الفصل: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (النساء: ١٥٧)، ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ (النساء)، ولا يدلي القرآن بتفصيل في هذا الرفع أكان بالجسد والروح في حالة الحياة؟ أم كان بالروح بعد الوفاة؟ ومتى كانت هذه الوفاة وأين؟ وهم ما قتلوه وما صلبوه، وإنما وقع القتل والصلب على من شُبِّه لهم.

- لا يدلي القرآن بتفصيل آخر وراء تلك الحقيقة؛ إلا ما ورد في السورة الأخرى من قوله ﷻ: ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ (آل عمران: ٥٥)، وهذه كتلك لا تعطي تفصيلًا عن الوفاة ولا عن طبيعة هذا التَّوفِّي وموعده[1].

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٢، ص٨٠١، ٨٠٢.

الشبهة الحادية والستون

دعوى أن المسيح وأمّه إلهان مع الله ﷻ (*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي النصارى كذبًا وافتراء أن المسيح وأمه إلهان مع الله، فيجعلون الله بذلك ثالث ثلاثة، فيكون المسيح وأمه شريكين مع الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ (المائدة).

وجوه إبطال الشبهة:

١) زعم النصارى أن الله ثالث ثلاثة هو دعوى باطلة بلا دليل.

٢) المسيح ﷺ بشر رسول كسائر الرسل، ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا لأحد.

٣) إقرار المسيح ﷺ بالعبودية لله في مهده ويوم القيامة.

التفصيل:

أولا. زعم النصارى أن الله ثالث ثلاثة زعم باطل:

أخبر الله ﷻ عن فريق من النصارى قالوا كُفرًا بربِّهم وشِرْكًا: الله ثالث ثلاثة، وهذا قول كان عليه جماهير النصارى قبل افتراق اليعقوبية والملكانية والنسطورية، حيث كانوا يقولون: الإله القديم جوهر واحد يعم ثلاثة أقانيم: أبًا والدًا غير مولود، وابنًا مولودًا غير والد، وزوجًا متتبعة بينهما، وبذلك أرادوا أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة، ويؤكد ذلك قول الله ﷻ للمسيح ﷺ: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (المائدة: ١١٦).

فقولهم ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (المائدة: ٧٣) أي: أحد ثلاثة آلهة، أو واحد من ثلاثة آلهة، وعلى هذا التقدير ففي الآية إضمار، حيث حذف ذكر الآلهة؛ لأن ذلك معلوم من مذاهبهم. قال الواحدي: ولا يكفر من يقول: إن الله ثالث ثلاثة، إذا لم يرد به ثالث ثلاثة آلهة، فإنه ما من شيئين إلا والله ثالثهما بالعلم، لقوله ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ (المجادلة: ٧).

فهذا هو الطريق الأول لتفسير قول النصارى: ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾؛ أي: الله وعيسى ومريم، والطريق الثاني أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون: جوهر واحد، ثلاثة أقانيم: آب وابن وروح القدس، وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة، وعنوا بالآب الذات، وبالابن الكلمة، وبالروح الحياة، وأثبتوا الذات والكلمة والحياة، وقالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمر، واختلاط الماء باللبن، وزعموا أن الآب إله، والابن إله، والروح إله، والكل إله واحد.

وهذا في الحقيقة معلوم البطلان ببديهة العقل، فإن

(*) الآيتان اللتان وردت فيهما الشبهة: (المائدة/ ٧٣، النساء/ ١٧١).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (المائدة/ ٧٣، النساء/ ١٧١، ١٧٢، المائدة/ ١١٦: ١١٨).

الثلاثة لا تكون واحدًا، والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فسادًا وأظهر بطلانًا من مقالة النصارى هذه.

وقد ردّ الله على هؤلاء مُكذِّبًا لافتراءاتهم فيما ادّعوه من ذلك فقال: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (المائدة: ٧٣)، أي ما لكم معبود أيها الناس إلا معبود واحد وهو الذي ليس بوالد لشيء ولا مولود بل هو خالق كل شيء، وخالق كل والد ومولود، ثم قال الله عز وجل متوعدًا لهم ومتهددًا: ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (المائدة).

ثم يحتج الله لنبيه محمد ﷺ على فرق النصارى في قولهم في المسيح بأنه ليس القول كما قال هؤلاء الكفرة من النصارى في المسيح، فالمسيح ابن مريم ولدته ولادة الأمهات أبناءهن، وذلك من صفة البشر، لا من صفة خالق البشر، وإنما هو رسول لله كسائر رسله الذين كانوا قبله فمضوا وخلوا، أجرى على يده ما شاء أن يجريه من الآيات والعبر حجة له على صدقه وعلى أنه رسول من عند الله إلى من أرسله إليه من خلقه كما أجرى على أيدي من قبله من الرسل من الآيات، وأما أمّه فصدّيقة صدّقت بآيات ربها وبكل ما أخبر عنه ولدها، كما قال الله عز وجل في صفتها: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ (التحريم: ١٢)، أو المراد بكونها صدّيقة غاية بُعدها عن المعاصي وشدة جدها واجتهادها في إقامة مراسم العبودية، فإن الكامل في هذه الصفة يسمى صدّيقًا، قال عز وجل: ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ﴾ (النساء: ٦٩).

وهذا الوصف هو أعلى مقاماتها، قال الله عز وجل: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ (المائدة: ٧٥)، ثم يذكر الله عز وجل أن عيسى ومريم كانا يأكلان الطعام، فهما في حاجة إلى الغذاء من المطاعم والمشارب كسائر البشر من بني آدم، ومن احتاج إلى الغذاء احتاج إلى إخراجه، قال عز وجل: ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ (المائدة: ٧٥)، والمقصود من ذلك الاستدلال على فساد قول النصارى، وبيان ذلك من وجوه هي:

١. أن كل من كان له أُم فقد حدث بعد أن لم يكن، وكل من كان كذلك كان مخلوقًا لا إلهًا.

٢. أنهما كانا محتاجين؛ لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة؛ أي إلى ما يغذوهما، وتقوم به أبدانهما من المطاعم والمشارب، والإله هو الذي يكون غنيًّا عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون عيسى ومريم إلهين وهما محتاجان!

٣. قول بعضهم: إن قول الله: ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ كناية عن الحدث؛ لأن من أكل الطعام فإنه لا بد وأن يحدث.

٤. أن الإله هو القادر على الخلق والإيجاد، فلو كان إلهًا لقدر على دفع ألم الجوع عن نفسه بغير الطعام والشراب، فلما لم يقدر على دفع الضرر عن نفسه كيف يعقل أن يكون إلهًا للعالمين.

وبالجملة، ففساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل؛ لذا قال عز وجل بعد ذلك: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (المائدة) فإنهم بعد هذا البيان الواضح والبرهان الساطع

أين يذهبون وبأي قول يتمسّكون، فأنّى يصرفون عن الحق، فدلّ هذا على أنهم مصروفون عن تأمل الحق إلى الباطل والكذب والجهل؛ إذ العاقل لا يختار لنفسه ذلك.

ثانيًا. المسيح بشر رسول كسائر الرسل ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا لأحد:

ومن ردود القرآن عليهم أيضًا ما أنكره على هؤلاء النصارى الزاعمين أن المسيح ربهم، والمسيح لا يملك لهم ضرًّا يدفعه عنهم إن أحله الله بهم، ولا يملك لهم نفعًا يجلبه إليهم إن لم يقضه الله لهم، فكيف يكون ربًّا وإلهًا من كانت هذه صفته، بل الله هو المعبود الذي يملك ضركم ونفعكم، قال ﷻ: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ (المائدة: ٧٦).

وهذا دليل على فساد قول النصارى من عدة وجوه هي:

١. أن اليهود كانوا يعادون المسيح ويقصدونه بالسوء، فما قدر على الإضرار بهم، وكان أنصاره وصحابته يحبونه فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الإضرار والنفع كيف يعقل أن يكون إلهًا.

٢. أن مذهب النصارى أن اليهود صلبوه ومزّقوا أضلاعه، ولما عطش وطلب الماء منهم صبوا الخل في منخريه، ومن كان في الضعف هكذا كيف يعقل أن يكون إلهًا.

٣. إن إله العالم يجب أن يكون غنيًّا عن كل ما سواه، ويكون كل ما سواه محتاجًا إليه، فلو كان عيسى ﷺ كذلك لامتنع كونه مشغولًا بعبادة الله ﷻ لأن الإله لا يعبد شيئًا، إنما العبد هو الذي يعبد الإله، ولما عرف بالتواتر كونه كان مواظبًا على الطاعات والعبادات، عَلِمْنا أنه إنما كان يفعلها لكونه محتاجًا في تحصيل المنافع ودفع المضارّ إلى غيره.

ومن كان كذلك كيف يقدر على إيصال المنافع إلى العباد ودفع المضارّ عنهم، وإذا كان كذلك كان عبدًا كسائر العبيد، وهذا هو عين الدليل الذي حكاه الله ﷻ عن إبراهيم ﷺ حيث قال لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ (مريم).

ثالثًا. إقرار المسيح بالعبودية في مهده ويوم القيامة:

ومن ردود القرآن القاطعة أيضًا على هؤلاء النصارى ما يخاطب به الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم - عليهما السلام - يوم القيامة قائلًا له بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله، فيقول ﷻ له: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ١١٦)، وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع لهم على رءوس الأشهاد يوم القيامة، وفي هذا الموقف يقرّ عيسى ﷺ على رءوس الأشهاد بالعبودية لله، وأنه أمرهم بعبادته ﷻ، وينزّه الله ﷻ أن يكون معه إله، فيقول: ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ (المائدة).

ومن ردود القرآن أيضًا ما حكاه القرآن على لسان عيسى عليه السلام حين تكلم في المهد، فكان أول شيء تكلم به ونطق به لسانه أن نزَّه جناب ربه عز وجل، وبرَّأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه، قال عز وجل: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ (مريم) إلى أن قال: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (مريم). وهكذا نطق المسيح بأنه عبد الله، ولم يقل: إني أنا الله ولا ابن الله.

الخلاصة:

- تجاوز أهل الكتاب الحدّ وغالوا في شأن عيسى عليه السلام، أما اليهود فقد أنكروا رسالته واتهموا أمه مريم بما هي منه بريئة، وأما النصارى فقد رفعوا عيسى عليه السلام إلى مرتبة فوق مرتبة البشرية، واعتبره بعضهم إلها، واعتبره بعض آخر منهم ابنا لله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرا.
- فصَّل الله عز وجل في القرآن الكريم القول في شأن عيسى عليه السلام، فقال: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ (النساء: ١٧١)، فهو رسول أرسله عز وجل لهداية الناس إلى الحق، وقد خلقه الله بكلمة ﴿ كُن ﴾ (آل عمران: ٤٧) ألقاها إلى مريم من غير واسطة أب ولا نطفة، ونفخ جبريل عليه السلام في مريم، فكان عيسى عليه السلام بإذن الله بشرًا سويًّا.
- تعلق النصارى بكون عيسى عليه السلام كلمة الله دليل على ألوهيته تعلق باطل، فما كانت الكلمة من الله إلهًا يعبد، وإنما سمي بذلك لأنه نشأ بكلمة من الله وروح من الله مرسل بها جبريل عليه السلام.
- يقر عيسى عليه السلام بأنه عبد الله ورسوله آتاه الكتاب وجعله من الأنبياء وذلك في الدنيا، أما في الآخرة فسوف يُقرُّ كما حكى القرآن أنه عليه السلام ما قال لبني إسرائيل إلّا ما أوحى الله له، وهو عبادة الله وحده لا شريك، وهو ربي وربكم وما زلت أدعوهم إلى ذلك حتى توفيتني، وذلك على رءوس الأشهاد.

الشبهة الثانية والستون

اتهام مريم - عليها السلام - بالزّنا(*)

مضمون الشبهة:

يرمي اليهود - عليهم لعنة الله - مريم - عليها السلام - بالبهتان، وأنها حملت بولدها من الزنا، وزاد بعضهم وهي حائض، قال عز وجل: ﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ (مريم).

وجها إبطال الشبهة:

١) في كلام عيسى عليه السلام في المهد تبرئة لأمه مما رُمِيَت به.

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (النساء/ ١٥٦، مريم/ ٢٧، ٢٨).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (آل عمران/ ٤٢، مريم/ ٣٠، الأنبياء/ ٩١، التحريم/ ١٢)

٢) طهارة مريم وحفظها لفرجها، وتوضيح معنى نفخ جبريل في درعها وكيفية الحمل، فضلًا عن اصطفاء الله لها.

التفصيل:

أولا. البراءة القاطعة لمريم - عليها السلام - في كلام عيسى عليه السلام في المهد:

لقد رمى هؤلاء اليهود - لعنهم الله تعالى - مريم بالبهتان، وهو الزنا، واتهموها به، قال عز وجل: ﴿قَالُوا يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾﴾ (مريم). وهارون كان أخًا صالحًا في قومه، خاطبوها بالإضافة إليه زيادة في التوبيخ، أي ما كان لأخت مثله أن تفعل فعلتك. وقولهم: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾﴾ (مريم)، عنوا بهذا الكلام الكناية عن كونها أتت بأمر ليس من شأن أهلها، أي أتت بسوء ليس من شأن أبيها، وبغاء ليس من شأن أمّها فهم أرادوا ذمّها وأنها مبتكرة الفواحش في أهلها فأتوا بكلام صريح ثناء على أبويها مقتض أن شأنها أن تكون مثل أبويها[1].

فهم يقولون لها: إنك من أهل بيت يعرفون بالصلاح والطهر والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟! وهكذا رموها بالفاحشة بغير ثبت ولا برهان.

وقد ردّ عيسى عليه السلام عليهم فريتهم وبرّأ أمّه مما نُسب إليها من الفاحشة، فقال متكلّمًا في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾﴾ (مريم). وكانت هذه المعجزات عند ولادة عيسى كافية في الدلالة على براءتها من كل عيب.

ثانيًا. عفة مريم واصطفاء الله عز وجل لها يتنافى مع اتهام اليهود لها:

أكّد القرآن براءة مريم - عليها السلام - مما اتهمها به هؤلاء الملعونون، قال عز وجل: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ (التحريم)، وقال أيضًا: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ (الأنبياء)، ومعنى أحصنت فرجها؛ أي: حفظته وصانته، والإحصان: العفاف، وقد أرسل الله جبريل عليه السلام إليها في صورة بشر سويّ، وأمره الله عز وجل أن ينفخ بفيه في جيب درعها فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام وبهذا أكّد الله عز وجل أنّ إحصانها كان أكثر ما يكون لفرجها، فلم يأتها منه أحد، وصانته عن مقارفة الفواحش، فظلت عذراء لما حملت.

وينفرد القرآن بأن ذكر أن الحمل كان بالنفخ في الفرج وليس بالمجامعة والإيلاج؛ لأن الفرج هو الطريق إلى الرحم الذي يكون فيه الحمل، والنفخ هو مجرّد أن يتنفس جبريل عليه السلام بكلمة ﴿كُن﴾ فكان أن حملت، ويقال: إن جبريل تنفس في جيب قميصها فوصل ذلك إلى فرجها، والجيب يسمى فرجًا، كما في قوله عز وجل: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾﴾ (ق)، والفرج هو الشق، والجيب شق أو فرج في الثوب.

وبيّن الله عز وجل في آيات أخرى أنّه اصطفى مريم

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٨، ج١٨، ص٩٦.

ـ عليها السلام ـ واختارها على نساء العالمين بطاعتها إياه وفضَّلها عليهن، وطهَّرها من الأدناس، قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (آل عمران).

والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى، وذلك لما لابس مولد عيسى عليه السلام من شبهات لم يتورّع اليهود أن يلصقوها بمريم الطاهرة، معتمدين على أن هذا المولد لا مثال له في عالم الناس فزعموا أن وراءه سرًّا لا يشرِّف؟!

الخلاصة:

- اشتهرت السيدة مريم ـ عليها السلام ـ بالعفة والطهارة والإيمان بين قومها، وما كان من الحمل بعيسى، فبأمر من الله لجبريل عليه السلام أن ينفخ في درعها؛ فنزلت النفخة إلى فرجها، فكان الحمل في رحمها معجزة من الله عز وجل.
- أتم الله عز وجل معجزة الحمل بغير زوج للسيدة مريم، فأنطق الله وليدها ليبرئ أمه مما رماها به اليهود، فكان ذلك شاهدًا حقًّا على طهارتها وأن ما حدث لها معجزة.
- إذا كانت مريم ـ عليها السلام ـ كما يدعي هؤلاء فلمَ كان اصطفاء الله لها بأن تكون أمًّا لرسول من بني إسرائيل؟!

٤. محمدٌ ﷺ

الشبهة الثالثة والستون

إنكار رسالة محمد ﷺ وبعثته (*)

مضمون الشبهة:

أنكرت قريش على النبي ﷺ رسالته وبعثته بشيرًا ونذيرًا، ويحتجُّون بأنَّهم لم يسمعوا بهذا الذي يدعو إليه محمد من التوحيد في الملَّة الآخرة، يعنون النصرانية، ويقولون: لو كان هذا القرآن وما يقوله محمد حقًّا لأخبرتنا به النصارى، وعلى هذا يكون ما جاء به محمد اختلاقًا، قال عز وجل حاكيًا عن المشركين قولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ (ص).

وجها إبطال الشبهة:

١) إرسال الرسل واجب عقلي وواقع عملي.

٢) الدلائل على صدق رسالة محمد ﷺ، ولم يكن محمد ﷺ أول رسول بل سبقه رسل قبله.

التفصيل:

أولا. إرسال الرسل واجب عقلي، وواقع عملي:

إنّ إرسال الرسل واجب عقلي؛ لأنّ الفطر والعقول السليمة دلَّتنا على وجود الخالق عز وجل وأنه المستحق للعبادة، ولكن العبادة لا يمكن الاهتداء لمعرفة صفتها وتفصيلها إلا عن طريق واسطة عن الله عز وجل يخبرنا بصفتها التي يحبها الله عز وجل ويخبرنا بما يُحِلّ وما يُحرِّم، وما ينفعنا وما يضرنا، قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (ص/ ٧).
الآية التي ورد فيها الرد على الشبهة: (الأحقاف/ ٩).

رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الإسراء). وقال أيضًا: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥)، وقال أيضًا: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (طه)، وقال ﷻ أيضًا: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (القصص).

وإذا كان إرسال الرسل واجبًا عقليًّا فهو واقع عملي أيضًا، فلا يزال التاريخ يخبرنا عن الكثير من الرسل والأنبياء وحالهم مع قومهم، وكيف كانت لهم الغلبة والنصر دائمًا، قال ﷻ: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (فاطر)، وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل: ٣٦)، وقال ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (المؤمنون).

ونتيجة لذلك لما أنكرت قريش وكفار مكة على النبي ﷺ رسالته أمرهم الله ﷻ بالاستدلال بالتاريخ والواقع: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٩). فالعقل والواقع يدلان على أهمية إرسال الرسل فلم يجز إذًا إنكار بعثة محمد ﷺ.

ثالثًا. دلائل صدق رسالة محمد ﷺ، ولم يكن ﷺ أول رسول، بل سبقه رسل قبله:

دلت الدلائل على صدق رسالة محمد ﷺ؛ ومنها:

- بشارة الكتب السابقة به؛ كالتوراة والإنجيل، قال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، وقال ﷻ: ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ (الصف: ٦).
- وشهادةُ المنصفين؛ كعبد الله بن سلام رضي الله عنه والنجاشي وهرقل عظيم الروم وغيرهم.
- ومن هذه الدلائل أيضًا الآيات التي أجراها الله على يديه يخرق فيها العادة؛ كخطاب الأحجار والأشجار وانقيادها له، وانشقاق القمر له وغير ذلك.
- ومن الدلائل أيضًا كمال أخلاقه وملاءمته على ما عنده، قال ﷻ: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ (آل عمران)، وعصمة الله له وحمايته من كل ما يكاد به وله، وانتفاءُ الغرض الشخصي والمصلحة الخاصة لنفسه من هذه الدعوة، وإخباره بالنهايات في البدايات، وإخباره بالغيب، وغير ذلك من الآيات الدّالة على صدق نُبوّته وبعثته.

فالرسول ﷺ ليس بأوّل رسول طرق العالم، بل جاءت رسل كُثر قبله، ولذلك يقول لهم: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٩)، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم؛ فإنه قد أرسل الله ﷻ قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم.

ولذلك فإن قول المشركين: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾ (ص) يتضمن اتهامًا للنّبي بالكذب على الله، ولعلهم يقصدون بالملة الآخرة

دين النصارى، وعليه فالمشركون هنا يستدلون على بطلان توحيد الإله، وبعثة النبي بدين النصارى الذي لم يثبت فيه ذلك، وهذا كذب وافتراء، فالتوحيد دعوة جميع رسل الله، وبعثة النبي ﷺ قد بشّرت بها كتبهم وأنبياؤهم.

وإنكار هؤلاء المشركين لم يريدوا به إنكار تجويز أصل الرسالة عن الله، وإنما مرادهم استقصاء الاستبعاد، وهذا هو الأصل الثاني من أصول كفرهم، وهو أصل إنكار بعثة رسول منهم، أما أصلهم الأول فهو إنكار أصل الرسالة.

ولهذا كان قوله ﷺ كما حكى القرآن: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ردًا صالحًا على نصارى زماننا الذين طعنوا في نبوته بمطاعن لا منشأ لها إلا تضليل وتمويه على عامتهم.

الخلاصة:

- الفطرة والعقول السليمة تدل على وجود الخالق ﷻ وأنه المستحق للعبادة، ولكن كيف تكون هذه العبادة وما شروطها؟ لذا وجب إرسال الرسل عقلًا وواقعًا عمليًا للتعرف على هذه العبادة.
- هل كان محمد ﷺ بدعًا من الرسل؟ بمعنى هل هو وحده أول رسول ولم يسبقه رسل؟ وهل رسالته أول رسالة أم سبقتها رسالات متنوعة؟
- دلائل صدق النبي محمد ﷺ كثيرة أكثر من أن تحصى؛ منها: البشارة به في الكتب السابقة، ومعجزاته الحسية والمعنوية.. إلخ.

الشبهة الرابعة والستون

اتِّهام النبي ﷺ بأنه ساحر (*)

مضمون الشبهة:

اتَّهم المشركون الرسول ﷺ تارة بأنه ساحرٌ، قال ﷻ: ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾ (يونس) مبين ظاهر السحر، وتارة بأنه رجل مسحور: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ﴾ (الفرقان)، ويرمون الحججَ الظاهرة التي أتى بها - مثل انشقاق القمر - بأنها سحر مستمر، قال ﷻ: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾ (القمر).

وجوه إبطال الشبهة:

١) تخبُّط المشركين وضلالهم وتضارب آرائهم في شأن رسول الله ﷺ يسقط اتهامهم.

٢) هذه تهمة يلقيها كلّ المكذّبين لرسلهم كأنهم تواصوا بها.

٣) حقيقة السحر وبطلان كون محمد ﷺ ساحرًا، وانشقاق القمر معجزة ثابتة متواترة وليست سحرًا، لكن كفر بها المشركون عنادًا أو استكبارًا.

التفصيل:

أولا. تخبط المشركين وضلالهم يسقط اتهامهم:

هذه تهمة طالما قذف بها المكذِّبون المعاندون الرسول ﷺ، فتارة يقولون عنه: إنه ساحر، قال ﷻ:

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (يونس/ ٢، ص/ ٤، الإسراء/ ٤٧، القمر/ ٢، الفرقان/ ٨، الذاريات/ ٥٢).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (الإسراء/ ٤٨، الفرقان/ ٩، الذاريات/ ٥٣).

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ (يونس)، وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾ (ص)، وكذلك يرمون ما جاء به من آيات الله ﷻ بأنها سحر ظاهر، قال ﷻ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ (الصافات)، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ (الأحقاف).

وتارة يتهمون الرسول ﷺ نفسه بأنه مسحور، وذلك بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، قال ﷻ: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧﴾ (الإسراء)، وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾ (الفرقان)، ومنهم من قال: إنه شاعر، ومنهم من قال: إنه كاهن، قال ﷻ: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ (الأنبياء: ٥)؛ لذلك رد عليهم القرآن: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ (الحاقة)، ومنهم من قال: مجنون، ومنهم من قال: ساحر أو مسحور أو كذّاب، ومن هذا أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيُكذِّب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضًا، فقالوا: وأنت يا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيًا نقول به، قال: بل أنتم قولوا لأسمع، قالوا: نقول: كاهن؟ قال: ما هو بكاهن، قالوا: فنقول: مجنون؟ قال: ما هو بمجنون، قالوا: فنقول: شاعر؟: قال: ما هو بشاعر. قالوا: فنقول: ساحر؟ قال: ما هو بساحر. قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لقوله حلاوة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل، ثم إنه فكّر وتروّي وقدّر ماذا يقول في القرآن وأعاد النظر والتروِّي ثم قبض بين عَيْنَيْه وقطّب وصُرِف عن الحق واستكبر عن الانقياد إلى القرآن، ثم قال: أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر، فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤﴾ (المدثر)، وقال الله في شأن هؤلاء أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ (الحجر)، أي: سحر.

وقد ردّ القرآن على هذه التُّهم بأن ذلك تخبُّطٌ منهم وضلال وعدم اهتداء، ولو كانوا صادقين لاتّفقُوا فيه على قول واحد، أما وقد تعدّدت أقوالهم وتضاربت آراؤهم فهم إذًا متخبطون ضالُّون يضربون له الأمثال، ولا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصًا؛ لأن هذه الأقوال فيها من البطلان الواضح لكل من له أدنى فهم وعقل، قال ﷻ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨﴾ (الإسراء).

والمعنى: أنّ أقوالهم المتضاربة السابقة كلها باطلة، فكل أحد يعرف كذبهم وافتراءهم؛ لأنهم ضالون عن طريق الهدى فلا يجدون سبيلًا؛ لأن الحق واضح ومنهجه متّحد يصدّق بعضه بعضًا.

ثانيًا. اتهام الرسل بالسحر من كل الأمم المكذبة:

كما يُبيّن القرآن أن رمي الرسول بالسحر هي دعوى

كل الأمم المكذِّبة لرسلها فما من رسول أتى قومه بالهدى إلا قالوا له: ما أنت إلا ساحر أو مجنون، قال ﷻ: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ (الذاريات)؛ ولذا يتهكَّم القرآن على ذلك، فيقول ﷻ: ﴿ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الذاريات)؛ أي: هل أوصى بعضهم بعضًا، أو أوّلهم آخرَهم بهذه المقالة وبتكذيب الرسل فتواطئوا على هذا! والحق الذي لا مرية فيه أنه ما أوصى بعضهم بعضًا بل هم قوم طغاة جمعهم الطغيان، تشابهت قلوبهم فقال متأخِّرهم كما قال متقدِّمهم.

ويعلِّق صاحب "التفسير الوسيط" على هذه الآية بقوله: أي: الأمر - أيها الرسول الكريم - كما نُخبِرك، من أنه ما أتى الأقوام الذين قبل قومك من رسول يدعوهم إلى عبادتنا وطاعتنا إلا قالوا له كما قال قومك في شأنك: ساحر أو مجنون. والمقصود بالآية الكريمة تسلية الرسول ﷺ عما أصابه من مشركي قريش، حيث بين له ﷻ أن الرسل السابقين قد كذبتهم أممهم، فصبروا حتى أتاهم نصره ﷻ.

ثم أضاف ﷻ إلى هذه التسلية تسلية أخرى فقال: ﴿ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ ﴾؟ والضمير المجرور يعود إلى القول المذكور، والاستفهام للتعجيب من أحوالهم؛ أي: أوصى السابقون اللاحقين أن يقولوا لكل رسول يأتيهم من ربهم: أنت - أيها الرسول - ساحر أو مجنون؟

وقوله ﷻ: ﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الذاريات) إضراب عن تواصيهم إضراب إبطال؛ لأنهم لم يجمعهم زمان واحد حتى يوصي بعضهم بعضًا، وإنما الذي جمعهم تشابه القلوب، والالتقاء على الكفر والعصيان.

ثم تسلية ثالثة نراها في قوله ﷻ: ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ ﴾ (الذاريات: ٥٤) أي: فأعرض عنهم وعن جدالهم، وسر في طريقك الذي رسمه الحكيم الخبير لك.

﴿ فَمَآ أَنتَ ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿ بِمَلُومٖ ﴾ على الإعراض عنهم، وما أنت بمعاتب منا على ترك مجادلتهم. ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (الذاريات).. أعرض عن هؤلاء المشركين، وداوم على التذكير والتبشير والإنذار مهما تقوَّل المتقولون، فإن التذكير بما أوحيناه إليك من هدايات سامية، وآداب حكيمة... ينفع المؤمنين، ولا ينفع غيرهم من الجاحدين[1].

ثالثًا. اختلاف القرآن عن السحر، وشق القمر معجزة للنبي ﷺ:

وقد بيَّنَّا قبل ذلك عند الحديث عن شبهة اتهام القرآن بأنه سحر، بأن قول المشركين: القرآن سحر أتى به ساحر، يشير إلى إثبات رسالته ﷺ فإن هذه المقالة تتضمن اعترافهم بأنه فوق المعهود والمعلوم للبشر في عالم الأسباب المقدورة لهم، إذ السحر ما كان بأسباب خَفِيّة خاصّة ببعض الناس يتعلمها بعضهم من بعض، ولو كان القرآن سحرًا لأتوا بمثله أو ببعض سوره كما تحدّاهم الله ﷻ لكنهم عجزوا، فدلّ ذلك على أن محمدًا ﷺ نبي الله ورسوله، وليس بساحر، وأن ما جاء به وحي من عند الله ﷻ ليس بسحر.

وأما انشقاق القمر فهو معجزة ثابتة باهرة وقعت في زمان النبي ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة

١. تفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، مرجع سابق، ج١٤، ص٣٢، ٣٣.

المتواترة بالأسانيد الصحيحة، حين سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما، وقال ﷺ: "اشهدوا" فقالوا: سحرنا محمد. وهذا من عنادهم وتكذيبهم بعد رؤية الآيات الواضحات ومشاهدة المعجزات الحسيات البينات، قال ﷻ: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ (القمر). وهكذا لا تغني النذر والآيات عمن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه، قال ﷻ: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ (القمر)، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ (يونس).

الخلاصة:

- إن تضارب أقوال المكذبين للرسل واختلاف اتهامهم يبيِّن مدى الضلال والتيه الذي هم فيه يعمهون.
- اتهام الرسل بالسحر دعوى كل الأمم المكذبة، وتوافقهم على هذا الأمر رغم اختلاف الزمان والمكان هو ناتج عن تشابه قلوبهم والتقائهم على الكفر والفسوق والعصيان.
- السحر صناعة يمكن للبشر تعلمها فهل يستطيع أحد أن يأتي بمثل القرآن؟ مهما تعلم كل العلوم والمعارف اللغوية والاجتماعية والسياسية والعلوم المادية وغيرها.
- لو كان المكذبون يطلبون الخوارق من أجل الإيمان لآمنوا حين أجيبوا لطلبهم وشق القمر أمامهم نصفين حتى رأوا حراء بينهما، ولكنه الاستهزاء والجحود والكفر والعناد والطغيان الذي لا حد له.

الشبهة الخامسة والستون

اتهام النبي ﷺ بالجنون (*)

مضمون الشبهة:

يدّعي المشركونَ الكذّابون أنّ محمدًا ﷺ مجنون، وينسبون ما جاء به من الهدى والحق إلى الجنون فهو لا يدري ما يقول؛ حيث يتخبَّطه الشيطان من المسِّ، قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ (الحجر).

وجها إبطال الشبهة:

1) كراهة المشركين لما جاء به رسول الله ﷺ، وعنادهم وكبرهم في الاعتراف بنبوته.
2) تنزيه الله ﷻ نبيه ﷺ عن مثل ذلك.

التفصيل:

أولا. عناد المشركين وكبرهم:

هذه المقولة هي من عناد أولئك المشركين وكفرهم، يزعمون فيها أن رسول الله ﷺ قد افترى القرآن من عند نفسه، وأن به جنونًا، فهو لا يدري ما يقول، وهم يعلمون بطلان ما يقولون في القرآن، ومع ذلك يكثرون

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (الحجر/ ٦، المؤمنون/ ٧٠، سبأ/ ٨، الصافات/ ٣٦، القلم/ ٥١).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (المؤمنون/ ٧٠، القلم/ ٢: ٤، الطور/ ٢٩، التكوير/ ٢٢).

من هذه الفرية، وقد حكاها الله عز وجل عنهم هذه الادعاءات في كتابه في أكثر من موضع، قال عز وجل: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ (المؤمنون: ٧٠)، وقال أيضًا: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ (الحجر).

وقال عز وجل أيضا عنهم: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الصافات).

وقد ردَّ الله عليهم كذبهم وافتراءهم مبيِّنًا أن السبب في مقولتهم تلك أن قلوبهم لا تؤمن بالقرآن، وهم يعلمون بطلان ما يقولون عن القرآن، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافَع، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين، ولهذا قال عز وجل: ﴿ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (المؤمنون).

ثانيًا. تنزيه الله نبيه ﷺ عن الجنون:

وقد نزَّه الله عبده محمدًا ﷺ فقال عز وجل: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (التكوير)، ونفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور، فلست بحمد الله يا محمد مجنونًا يتخبطك الشيطان من المس كما يقول الجهلة من كفار قريش، قال عز وجل: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الطور)، وقال عز وجل أيضًا: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ (القلم).

وهذه المقالة الظالمة على رسول الله ﷺ أطلقها من المشركين عقبة بن أبي معيط إذ قال: هو مجنون، وقد اكتفى القرآن في إبطال كونه مجنونًا بمجرد النفي دون استدلال عليه؛ لأن مجرد التأمل في حال النبي ﷺ كافٍ في تحقق انتفاء ذلك الوصف عنه، فلا يحتاج في إبطال اتصافه به إلى أكثر من الإخبار بنفيه؛ لأن دليله المشاهدة، وهو دليل كالشمس في رابعة النهار.

وليس يصحُّ في الأذهان شيء

إذا احتاج النهار إلى دليلِ

الخلاصة:

- القرآن الكريم كتاب معجز في هديه، ونظمه وأسلوبه وأحكامه وتشريعاته، فكيف يكون ذلك من كلام مجنون كما يدعي هؤلاء.
- إذا سلَّمنا ـ جدلًا ـ بما يدعي هؤلاء، فلِمَ عجزوا عن الإتيان ببعض من هذا القرآن؟!.
- عاش النبي ﷺ بين أظهر المشركين أربعين عامًا وكانوا يلقبونه أمينا، صادقًا، راجح العقل، فكيف يُصاب فجأة بالجنون؟ وكيف يَهْزِي بهذا الكلام؟!

الشبهة السادسة والستون

دعوى أن محمداً ﷺ وأصحابه يستحلُّون القتال في الأشهر الحُرُم(*) ®

مضمون الشبهة:

عاب المشركون على رسول الله ﷺ والمسلمين القتال في الشهر الحرام، وقالوا مستنكرين: أحلّ محمد وأصحابه الشهر الحرام فسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه

(*) الآية التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ٢١٧).

® في "انتهاك الصحابة حرمة الأشهر الحُرُم!" طالع: الشبهة الثالثة عشرة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي ١).

المال وأسروا فيه الرجال.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الصدّ عن سبيل الله والمسجد الحرام إثْم أعظم وأكبر - عند الله - من القتال في الأشهر الحرم، والنبي ﷺ والمؤمنون معه أحفظ الناس لحرمة الأشهر الحرم.

٢) المسلمون لم يبدءوا العدوان، وإنما رَدُّوا عدوان المعتدين، وما حدث من قتال فهو خطأ في التأويل أو التقدير.

٣) ذهب جمهور العلماء إلى أن النهي عن القتال في الأشهر الحرم قد نُسخ، وعلى فرض أنه لم يُنسخ فإن القتال لرد العدوان واجب حتى ولو كان في الأشهر الحرم.

التفصيل:

أولا. الصدُّ عن سبيل الله والمسجد الحرام أعظم إثمًا من القتال في الأشهر الحرم:

تلك مقولة ظالمة يُطلقها المشركون كي يُعَمُّوا على الناس ما ارتكبوه من كبائر وموبقات، حين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام، وكفروا بالله ﷻ، وأخرجوا النبي ﷺ من البلد الحرام، وقد ردّ الله عليهم مقولتهم هذه مبيِّنًا عِظَمَ ما ارتكبوه، فقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ (البقرة:٢١٧).

والسائلون هنا هم المؤمنون، ويحتمل أن يكونوا من المشركين، وأيًا ما كان السائل فإن الجواب قد جاء حاسمًا، فأمر الله نبيّه أن يقول لهم: إن القتال في الشهر الحرام إثمه كبير وذنبه عظيم، ولكن يا معشر قريش الذين نَعَيْتُم علينا القتال في الأشهر الحُرُم، كيف تستعظمون علينا أننا قاتلنا في الشهر الحرام، وما فعلتموه أنتم من الصدّ عن سبيل الله لِمَن أراد الإسلام واضطهادِكم المسلمين وفتنتهم عن دينهم حيث تقتلون من يسلم، وتؤذونه في نفسه وأهله وماله وتمنعونه من الهجرة إلى النبي ﷺ وما فعلتموه من الكفر بالله ﷻ، وما فعلتموه من إخراج النبي ﷺ والمؤمنين من المهاجرين من البلد الحرام، والمسجد الحرام، كما قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ (الحج: ٤٠)، كل واحدة من هذه الجرائم التي ارتكبتموها هي أعظم إثمًا وأكبر جرمًا وأقبح ذنبًا عند الله تبارك وتعالى من القتال في الشهر الحرام، فكيف بها وقد اجتمعت؟!

جاء في "التحرير والتنوير": وقوله: ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ (البقرة: ٢١٧) إنحاء على المشركين وإظهار لظلمهم بعد أن بكّتهم بتقرير حرمة الأشهر الحرم الدال على أن ما وقع من أهل السَّرِيّة من قتل رجل فيه كان عن خطأ في الشهر، أو ظن سقوط الحرمة بالنسبة لقتال العدو، فإن المشركين استعظموا فعلًا واستنكروه وهم يأتون ما هو أفظع منه، ذلك أن تحريم القتال في الشهر الحرام ليس لذات الأشهر، لأن الزمان لا حرمة له في ذاته وإنما حرمته تحصل بجعل الله إياه ذا حرمة، فحرمته تبع لحوادث تحصل فيه، وحرمة الأشهر الحرم لمراعاة تأمين سبيل الحج والعمرة ومقدماتها ولواحقها فيها، فلا

جرم أن الذين استعظموا حصول القتل في الشهر الحرام واستباحوا حرمات ذاتيَّة بصد المسلمين، وكفروا بالله الذي جعل الكعبة حرامًا وحَرَّم لأجل حجها الأشهرَ الحرم، وأخرجوا أهل الحرم منه، وآذوهم - لأحْرِياء بالتحميق والمذمة؛ لأن هاته الأشياء المذكورة كلها محرَّمة لذاتها لا تبعًا لغيرها. وقد قال الحسن البصري لرجل من أهل العراق جاء يسأله عن دم البعوض إذا أصاب الثوب هل ينجسه، وكان ذلك عقب مقتل الحسين بن علي - رضي الله عنهما -: "عجبًا لكم يا أهل العراق! تستحلُّون دم الحسين وتسألون عن دم البعوض"؟! ويحق التمثل هنا بقول الفرزدق:

أَتَغْضَبُ إِنْ أُذُنَا قُتَيْبَةَ حُزَّتَا
جِهارًا ولَمْ تَغْضَبْ لِقَتْلِ ابنِ خازِمِ

والمعنى أن الصدَّ وما عطف عليه من أفعال المشركين أكبر إثمًا عند الله من إثم القتال في الشهر الحرام[1].

وسبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ كان قد بعث رَهطًا في سرية عليهم عبد الله بن جحش، وكتب له كتابًا، فلقوا ابن الحَضْرَمِي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الأشهر الحرم، فقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادى، وقُتل في أول ليلة من رجب، فأنزل الله الآية يعيّر أهل مكة، مُبيِّنًا أن القتال في الشهر الحرام لا يحلّ، وما صنعه هؤلاء المشركون أكبر من القتل في الشهر الحرام حين كفروا بالله ﷻ وصدُّوا محمدًا وأصحابه عن المسجد الحرام، وأخرجوا أهله منه، وفتنوا المؤمنين وعذَّبوهم، ولذا قال ﷻ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٩١)، وكان المشركون يفتنون المؤمنين عن دينهم بإلقاء الشبهات والإيذاء والتعذيب، كما فعلوا بعمار بن ياسر وأبيه وأمه، وكما فعلوا ببلال وصهيب وخبّاب بن الأرت وغيرهم، وهذا ما كان المشركون يعاملون به المؤمنين في حال ضعفهم، ولما هاجروا وكثروا صاروا يقصدونهم بالقتال في مهجرهم لأجل الدين؛ ولذا قال ﷻ في الآية السابقة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ (البقرة:٢١٧).

وهذا خطاب من الله للمؤمنين يُعلمهم فيه أن أولئك المشركين لا همّ لهم إلا منع الإسلام من الأرض، وإذًا فترك قتالهم هو الذي يُبيد الحق وأهله، وانتظار إيمانهم بمجرد الدعوة طمعٌ في غير مطمع، والقتال في الشهر الحرام أهون من الفتنة عن الإسلام لو لم يحتفَّ بها غيرها من الآثام والموبقات، فكيف وقد قارنها الصد عن سبيل الله والكفر به، والصد عن المسجد الحرام، وإخراج أهله منه، والاعتداء بالقتال والاستمرار عليه[2]؟!

إذًا فالشبهة السابقة التي أثارها المشركون مردودة عليهم؛ فإن المسلمين جميعًا - وعلى رأسهم إمامهم ورسولهم محمد ﷺ - هم أحفظ الناس لحرمة الأشهر الحرم وعدم القتال فيها، واعتبار القتال فيها حدثًا كبيرًا وإثمًا عظيمًا.

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٢، ج٢، ص٣٢٨، ٣٢٩.

٢. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٢، ص٣١٧، ٣١٨.

ثانيًا. المسلمون لم يبدءوا العدوان:

ماذا يفعل المسلمون إذا ما بادرهم المشركون بالقتال والعدوان على الأنفس والأموال والأعراض، والصد عن سبيل الله والمسجد الحرام وإخراجهم منه، وهم أهله وأولى به من غيرهم؟!

إنه لا بد من رد العدوان وحماية الأموال، والأعراض، والأنفس، ومنع المتجبِّرين من الفساد في الأرض والظلم، وحماية بيوت العبادة وإرساء القيم النبيلة، التي تحمي العدل والحق، وهذه الحقوق لا تقل حرمة عند الله من حرمة الأشهر الحرم التي أُبيحَ فيها القتال لمن ظُلِم من المسلمين ومن فُتنوا في دينهم وأُخرجوا من ديارهم ظلمًا وعدوانًا، وفي حديث جابر بسند صحيح "أن رسول الله ﷺ لم يكن يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغزى"[1].

وفي ذلك الموقف يقول عبد الله بن جحش ﷺ، وهو الذي عايشه وعاناه:

تَعُدُّونَ قَتْلًا في الحَرامِ عَظِيمَةً
وأَعْظَمُ منه لو يَرَى الرُّشْدَ راشِدُ
صُدُودُكم عمَّا يقولُ مُحَمَّدٌ
وكُفْرٌ به واللهُ راءٍ وشاهِدُ
وإخراجُكُم من مَسْجِدِ الله أَهْلَهُ
لِئَلَّا يُرَى لله في البَيْتِ ساجِدُ
فإنَّا وإنْ عَيَّرْتُمونا بقَتْلِهِ
وأَرْجَفَ بالإسلامِ باغٍ وحاسِدُ
سَقَيْنا من ابنِ الحضرمي رِماحَنا
بِنَخْلَةَ لمَّا أَوْقَدَ الحَرْبَ واقِدُ
دَمًا وابنُ عبدِ الله عُثمانُ بَيْنَنا
يُنازِعُه غُلٌّ من القَدِّ عَانِدُ

ويعلق صاحب "الظلال" على هذا الحادث قائلًا: إن المسلمين لم يبدءوا القتال، ولم يبدءوا العدوان، إنما هم المشركون، هم الذين وقع منهم الصدُّ عن سبيل الله، والكفر به وبالمسجد الحرام، لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله، ولقد كفروا بالله وجعلوا الناس يكفرون، ولقد كفروا بالمسجد الحرام، انتهكوا حرمته؛ فآذوا المسلمين فيه، وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عامًا قبل الهجرة. وأخرجوا أهله منه وهو الحرم الذي جعله الله آمنًا، فلم يأخذوا بحرمته ولم يحترموا قدسيته.

وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل، وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام، ووضح موقف المسلمين في دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات الذين يتخذون منها ستارًا حين يريدون، وينتهكون قداستها حين يريدون، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم، لأنهم عادون باغون أشرار، لا يرقبون حرمة، ولا يتحرجون أمام قداسة، وكان على المسلمين ألا يدعوهم يحتمون بستار زائف

---

1. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما (١٤٦٢٣)، والطحاوي في مشكل الآثار (١١/ ٣١) برقم (٤٢٦١)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

من الحرمات التي لا احترام لها في نفوسهم ولا قداسة.

لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل، وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرد ستار يحتمون خلفه، لتشويه موقف الجماعة المسلمة، وإظهارها بمظهر المعتدي، وهم المعتدون ابتداء، وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء.

إن الإسلام منهج واقعي للحياة، لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة في قوالب نظرية، إنه يواجه الحياة البشرية - كما هي - بعوائقها وجواذبها وملابساتها الواقعية، يواجهها ليقودها قيادة واقعية إلى السير وإلى الارتقاء في آن واحد. يواجهها بحلول عملية تكافئ واقعياتها، ولا ترفرف في خيال حالم، ورؤى مجنحة: لا تجدي على واقع الحياة شيئًا!

هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون لا يقيمون للمقدسات وزنًا، ولا يتحرجون أمام الحرمات، ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة. يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه، ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء، ويخرجونهم من البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام! ثم بعد ذلك كله يتستَّرون وراء الشهر الحرام ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات، ويرفعون أصواتهم: انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام!

فكيف يواجههم الإسلام؟ يواجههم بحلول مثالية نظرية طائرة؟ إنه إن يفعل يجرِّد المسلمين الأخيار من السلاح، بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح، ولا يتورعون عن سلاح! كلا إن الإسلام لا يصنع هذا؛ لأنه يريد مواجهة الواقع، لدفعه ورفعه. يريد أن يزيل البغي والشر، وأن يقلِّم أظافر الباطل والضلال، ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة، ويسلم القيادة للجماعة الطيبة، ومن ثم لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغاة الطغاة ليرموا الطيبين الصالحين البناة، وهم في مأمن من رد الهجمات ومن نبل الرماة!

إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات، ويشدِّد في هذا المبدأ ويصونه، ولكنه لا يسمح بأن تُتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات، ويؤذون الطيبين، ويقتلون الصالحين، ويفتنون المؤمنين، ويرتكبون كل منكر وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان!

وهو يمضي في هذا المبدأ على اطراد.. إنه يحرم الغيبة.. ولكن لا غيبة لفاسق.. فالفاسق الذي يشتهر بفسقه لا حرمة له يعفُّ عنها الذين يكتوون بفسقه، وهو يحرم الجهر بالسوء من القول، ولكنه يستثني ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ (النساء: ١٤٨) فله أن يجهر في حق ظالمه بالسوء من القول؛ لأنه حق؛ ولأن السكوت عن الجهر به يُطمع الظالم في الاحتماء بالمبدأ الكريم الذي لا يستحقه!

ومع هذا يبقى الإسلام في مستواه الرفيع لا يتدنى إلى مستوى الأشرار البغاة. ولا إلى أسلحتهم الخبيثة ووسائلهم الخسيسة، إنه فقط يدفع الجماعة المسلمة إلى الضرب على أيديهم، وإلى قتالهم وقتلهم، وإلى تطهير جو الحياة منهم.. هكذا جهرة وفي وضح النهار.

وحين تكون القيادة في الأيدي النظيفة الطيبة المؤمنة المستقيمة، وحين يتطهر وجه الأرض ممن ينتهكون

الحرمات ويدوسون المقدسات.. حينئذ تُصان للمقدسات حرمتها كاملة كما أرادها الله.

هذا هو الإسلام.. صريحًا واضحًا قويًّا دامغًا، لا يلف ولا يدور؛ ولا يدع الفرصة كذلك لمن يريد أن يلف من حوله وأن يدور. وهذا هو القرآن يقف بالمسلمين على أرض صلبة، لا تتأرجح فيها أقدامهم، وهم يمضون في سبيل الله، لتطهير الأرض من الشر والفساد، ولا يدع ضمائرهم قلقة متحرجة تأكلها الهواجس وتؤذيها الوساوس.. هذا شر وفساد وبغي وباطل.. فلا حرمة له إذن، ولا يجوز أن يتترس بالحرمات، ليضرب من ورائها الحرمات! وعلى المسلمين أن يمضوا في طريقهم في يقين وثقة؛ في سلام مع ضمائرهم، وفي سلام من الله"[1].

ثالثًا. حكم القتال في الأشهر الحرم:

هذا، وقد اختلف أهل العلم في مسألة نسخ النهي عن القتال في الأشهر الحُرُم، وجمهور أهل العلم على أن النهي منسوخ، ورأوا جواز القتال في الأشهر الحُرُم، وبعض أهل العلم قال: إنه مُحكَمٌ لم يُنسَخ، وقال هذا الفريق: إن القتال على قسمين: قتال ابتداء، وهذا لا يجوز في الأشهر الحُرُم، وقتال الدَّفع، وهذا جائز، وقد نقل غير واحد من العلماء الإجماع على جوازه في الأشهر الحُرُم وفي غيرها.

يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور: "والآية دليل على تحريم القتال في الأشهر الحُرم وتقرير لما لتلك الأشهر من الحرمة التي جعلها الله لها منذ زمن قديم، لعله من عهد إبراهيم عليه السلام فإن حرمة الزمان تقتضي ترك الإثم في مُدَّته.

وهذه الأشهر هي زمن للحج ومقدماته وخواتمه وللعمرة كذلك، فلو لم يحرم القتال في خلالها لتعطل الحج والعمرة؛ ولذلك أقرَّها الإسلام أيام كان في بلاد العرب مشركون لفائدة المسلمين وفائدة الحج، قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ (المائدة: ٩٧).

وتحريم القتال في الشهر الحرام قد خُصِّص بعد هذه الآية ثم نُسِخ، فأما تخصيصه فبقول الله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ (البقرة).

وأما نسخه فبقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٦، ٢٢٧.

﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾ (التوبة)، فإنها صرَّحت بإبطال العهد الذي عاهد المسلمون المشركين على الهدنة، وهو العهد الواقع في صلح الحديبية؛ لأنه لم يكن عهدًا مؤقتًا بزمن معين ولا بالأبد، ولأن المشركين نكثوا أيمانهم كما في الآية الأخرى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ (التوبة: ١٣).

ثم إن الله تعالى أَجَّلهم أجلًا وهو انقضاء الأشهر الحرم من ذلك العام وهو عام تسعة من الهجرة في حجة أبي بكر الصديق بالناس؛ لأن تلك الآية نزلت في شهر شوال وقد خرج المشركون للحج فقال لهم: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾، فآخرها آخر المحرم من عام عشرة من الهجرة، ثم قال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ أي: تلك الأشهر الأربعة ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾، فنسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم؛ لأن المشركين جمع معرف بلام الجنس وهو من صيغ العموم وعموم الأشخاص يستلزم عموم الأزمنة والأمكنة على التحقيق، ولذلك قاتل النبي ﷺ ثقيفًا في شهر ذي القعدة عقب فتح مكة.

وأغزى أبا عامر إلى أَوْطاسَ في الشهر الحرام، وقد أجمع المسلمون على مشروعية الغزو في جميع أشهر السنة يغزون أهل الكتاب وهم أولى بالحرمة في الأشهر الحرم من المشركين.

فإن قلت: إذا نُسخ تحريم القتال في الأشهر الحُرم، فما معنى قول النبي ﷺ في خُطبة الوداع: "إن دِماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحُرْمَة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا"[1]، فإن التشبيه يقتضي تقرير حُرمة الأشهر، قلت: إن تحريم القتال فيها تَبَع لتعظيمها وحرمتها وتنزيهها عن وقوع الجرائم والمظالم فيها فالجريمة فيها تعد أعظم منها لو كانت في غيرها، والقتال الظلمُ محرَّم في كل وقت، والقتال لأجل الحق عبادة فنُسخ تحريم القتال فيها لذلك، وبقيت حرمة الأشهر بالنسبة لبقية الجرائم.

وأحسن من هذا أن الآية قرَّرت حُرْمَة القتال في الأشهر الحرم؛ لحكمة تأمين سُبُل الحج والعمرة؛ إذ العمرة أكثرها في رجب، ولذلك قال: ﴿قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞ﴾ (البقرة: ٢١٧)، واستمر ذلك إلى أن أبطل النبي ﷺ الحجَّ على المشركين في عام حجة أبي بكر بالناس؛ إذ قد صارت مكة بيد المسلمين ودخل في الإسلام قريش ومعظم قبائل العرب والبقية مُنعوا من زيارة مكة، وأن ذلك كان يقتضي إبطال تحريم القتال في الأشهر الحرم؛ لأن تحريمه فيها لأجل تأمين سبيل الحج والعمرة، وقد تعطل ذلك بالنسبة للمشركين ولم يبق الحج إلّا للمسلمين وهم لا قتال بينهم، إذ قتال الظلم محرم في كل زمان، وقتال الحق يقع في كل وقت ما لم يشغل عنه شاغل مثل الحج، فتسميته نسخًا تسامح، وإنما هو انتهاء مورد الحكم، ومثل هذا التسامح في الأسماء

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى (١٦٢٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص (٣١٨٠)، واللفظ له.

معروف في كلام المتقدمين، ثم أسلم جميع المشركين قبل حجة الوداع، وذكر النبي ﷺ حرمة الأشهر الحرم في خطبته، وقد تعطل حينئذٍ العمل بحرمة القتال في الأشهر الحرم، إذ لم يبق مشرك يقصد الحج. فمعنى نسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم أن الحاجة إليه قد انقضت كما انتهى مصرف المؤلَّفة قلوبهم من مصارف الزكاة بالإجماع لانقراضهم[1].

الخلاصة:

- الصدّ عن سبيل الله والمسجد الحرام وإخراج المسلمين من ديارهم وفتنتهم عن دينهم بالأذى والقتل من قِبَل المشركين إثْم أعظم وأكبر عند الله من القتال في الأشهر الحرم.
- المسلمون لم يبدءوا العدوان، وإنما رَدُّوا عدوان المعتدين، والنبي ﷺ والمؤمنون معه أحفظ الناس لحرمة الأشهر الحرم، وما حدث من قتال فهو خطأ في التأويل على أن هذا ضمن سلسلة رد العدوان بين المسلمين والمشركين أو خطأ في التقدير على أن اليوم آخر أيام جمادى.
- جمهور أهل العلم على أن النهي عن القتال في الأشهر الحرم منسوخ، وبعضهم قال: إنه محكم ولم ينسخ، ولكن اتفق الجميع على وجوب القتال لرد العدوان في الأشهر الحرم أو في غيرها.

1. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٢، ج٢، ص٣٢٦: ٣٢٨.

الشبهة السابعة والستون

ادعاء أن النبي ﷺ أُذُنٌ يصدّق كل ما يقال له (*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي المنافقون أن النبي ﷺ أُذُنٌ، أي: كل مَن قال له شيئًا صدَّقه، وكل من حدّثه صدّقه، فإذا ما جاءوه وحلفوا له صدَّقهم دون تمييز بين الصدق والكذب، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ (التوبة: ٦١).

وجها إبطال الشبهة:

١) كان النبي ﷺ يعامل المنافقين بأحكام الشريعة وآدابها التي يعامل بها عامة المسلمين، كما أمره ربه بمعاملة الناس على ما يظهر منهم.

٢) الرسول ﷺ أذن خير؛ أي: يؤمن بما يوحي إليه ربه من أخبار المنافقين وغيرهم، ويصدِّق ما يقوله المؤمنون الصادقون، ولا يفضح أمر المنافقين الكاذبين.

التفصيل:

أولا. معاملة النبي ﷺ للمنافقين كانت على ظاهر أحوالهم:

هذا ضَرْبٌ من دلائل نفاق أولئك المنافقين وآثاره، وهو إيذاء رسول الله ﷺ بالطَّعن في أخلاقه العظيمة وشمائله الكريمة. وهم هنا يقولون عن رسول الله ﷺ: إنه أذن، أي: من حدّثه شيئًا صدَّقه، وقولهم "أُذُن" هو من تسمية الشخص باسم الجارحة للمبالغة في وصفها

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (التوبة/ ٦١).
الآية التي ورد فيها الرد على الشبهة: (التوبة/ ٦١).

بوظيفتها، وهو كثرة السمع لما يقال وتصديقه كأنه كله أذن سامعة؛ كقولهم للجاسوس: عين، ويطلق على لازمه وهو عدم الدقة في التمييز بين ما يسمع، وتصديق ما يُعقل وما لا يُعقل، فيراد به الذم، وهو من أكبر عيوب الملوك والأمراء والرؤساء؛ لما يترتب عليه من قبول الغش والكذب والنميمة، وتقريب المنافقين وإبعاد الناصحين.

قال أبو السعود: "إنما قالوه - أي قولهم هذا - لأنه ﷺ كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا، ويَصْفَح عنهم حلمًا وكرمًا، فحملوه على سلامة القلب، وقالوا ما قالوا، ولقد كان ﷺ يعامل المنافقين بأحكام الشريعة وآدابها التي يعامل بها عامة المسلمين، كما أمره الله ﷻ ببناء المعاملة على الظواهر، فظن أولئك أنه يصدق كل ما يقال له.

ولقد لقّن الله ﷻ نبيَّه الردَّ عليهم، فقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ (التوبة: ٦١)؛ أي: نعَمْ هو أُذُن، ولكنه نِعْمَ الأذن؛ لأنه أُذُن خير، لا كما تزعمون، فهو لا يقبل مما يسمعه إلا الحق وما وافق الشرع، وما فيه المصلحة، والخير للخلق، وليس بأذن في غير ذلك كسماع الباطل، والكذب والغيبة والنميمة والجدل والمراء، فهو لا يلقي سمعه لشيء من ذلك، وإذا سمعه من غير أن يستمع إليه لا يقبله، ولا يصدق ما لا يجوز تصديقه شرعًا أو عقلًا، كما هو شأن من يوصفون بهذا الوصف من الملوك والزعماء فيستعين المتملِّقون وأصحاب الأهواء به على السعاية والوشاية عنهم لإبعاد الناصحين المخلصين عنهم، وحملهم على من يبغون إيذاءه[1].

وفي قوله: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ دليل على أن خيرية الرسول ﷺ قد شملت الجميع، فلم يقل: أذن خير للمؤمنين، فقد تعدت هذه الخيرية المؤمنين إلى المنافقين وإلى الكفار، فكان رسول الله ﷺ لا يفضح منافقًا، إلا إذا فضح الله المنافق بقرآن نزل من السماء.

وعلى سبيل المثال: كان المنافقون يأتون إلى رسول الله ﷺ ويعتذرون عن الجهاد في سبيل الله، ويطلبون الإذن بالقعود، وكان رسول الله ﷺ يعطيهم الإذن، وحين كان المنافقون يأتون إلى الرسول الكريم ويحلفون له كذبًا، كان يصدقهم، أو على الأرجح لا يفضح كذبهم أمام الناس.

وهكذا فرّق الحق ﷻ بين ما يريدونه، وبين ما يقصده الله ﷻ، فهم قصدوا وصف الرسول ﷺ بأنه أذن سماعة لكل ما يقال، والله يقول: إنها أذن خير[2].

وردّ القرآن هنا من باب أسلوب الحكيم، فهو في أوله يوافقهم على قولهم هو أذن، ثم يُتْبِعه ما ينقضه عليهم حتى ينقض على رءوسهم، ولا شيء أبلغ من الرد عليهم بهذا الوجه؛ لأنه في الأول إطماع لهم بالموافقة، ثم كرَّ على طمعهم بالحسم وأعقبهم في تنقصه باليأس منه، ولا شيء أقطع من الإطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه[3].

---

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، مج١٠، ص٥١٦: ٥١٨ بتصرف يسير.

٢. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٩، ص٥٢٤٨، ٥٢٤٩ بتصرف.

٣. التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، مرجع سابق، ج٦، ص٢١٠.

ثانيًا. بيان معنى كونه ﷺ أذن خير:

لقد فسَّر الله ﷻ المراد من "أذن الخير" بأفضل الخير وأعلاه، فقال ﷻ: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ٦١)، فهو يصدق بالله ﷻ، وما يوحيه إليه من خبركم وخبر غيركم، ويؤمن للمؤمنين الصادقين، وهذا يتضمن أنه لا يؤمن لهؤلاء المنافقين إيمان تسليم وائتمان، ولا يصدقهم في أخبارهم وإن أكَّدوها بالأيمان الغليظة، كما ظن من قال منهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ (التوبة: ٦١) اغترارًا بلُطفِه ﷺ وأدبه؛ إذ كان لا يواجه أحدًا بما يكره، وبمعاملته إياهم كما يعامل أمثالهم من عامة أصحابه.

وأما كونه أذن خير لهم مع هذا، فهو معاملته لهم بالحلم وما يقتضيه حكم الشرع من العمل بالظواهر، ومنها قبول المعاذير، ولو كان يعاملهم بمقتضى ما يسمع عنهم - كما يقتضيه استعمال كلمة أذن - لما سلموا من عقابه؛ لأن أخبار السوء عنهم كثيرة بكثرة أعمالهم السوء فيهم، لو كان يقبل أخبار الشر لقبلها من المؤمنين الصادقين فيهم ولعاقبهم عليها.

ومعنى قول الله ﷻ بعده: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ (التوبة: ٦١)؛ أي: دون غيرهم ممن أظهر الإسلام وأبطن الكفر من المنافقين، وبيَّن الله ﷻ لهم أيضًا أن إيذاء رسول الله ﷺ بالقول أو الفعل يتنافى مع الإيمان؛ ولذا فإن جزاءه العذاب الأليم، قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)﴾ (التوبة)[1].

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١٠، ص٥١٨، ٥١٩ بتصرف يسير.

الخلاصة:

- لقد كان النبي ﷺ يعامل المنافقين بأحكام الشريعة وآدابها التي يعامل بها عامة المسلمين، كما أمره الله ﷻ ببناء المعاملة على ظاهر أحوالهم، فلم يكن أُذُنًا يصدق كل ما يُقال له دون تمييز بين حق وباطل.
- كان النبي ﷺ أذن خير، لا يقبل مما يسمعه إلا الحق وما وافق الشرع، وما فيه الخير والمصلحة للحق، فلم يلقِ سمعه لشيء من الغيبة والنميمة والجدل.

الشبهة الثامنة والستون

دعوى أن الله ﷻ هجر نَبِيَّه ﷺ وقلاه (*)

مضمون الشبهة:

لما أبطأ جبريل ﷺ عن رسول الله ﷺ بالوحي أيامًا، زعم المشركون أن ربّ محمد قلاه وأبغضه وتركه، وقالوا: لو كان أمره من الله لتابع عليه كما كان يفعل بمن كان قبله من الأنبياء!

وجوه إبطال الشبهة:

١) القسم على نفي هجر الله ﷻ نبيه ﷺ.

٢) دلائل محبة الله لنبيه ﷺ.

٣) موجبات شكر النعمة.

التفصيل:

أولا. القسم على نفي كون الله ﷻ قلى نبيه ﷺ:

يردُّ الله ﷻ على المشركين زعمهم أن ربّ محمد قلاه

(*) الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (الضحى/ ٣: ٥).

وهجره، بأن أقسم سبحانه بالضُّحَى وما جعل فيه من الضياء، وبالليل إذا سكن فأظلم، على أنه ﷺ ما ترك حبيبه ولا أبغضه، قال ﷻ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ (الضحى).

فهذا قسم بهذين الآنين الرائقين الموحيين. يربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس. ويوحي إلى القلب البشري بالحياة الشاعرة المتجاوبة مع هذا الوجود الجميل الحي، المتعاطف مع كل حي. فيعيش ذلك القلب في أنس من هذا الوجود، غير موحش ولا غريب فيه فريد.. وفي هذه السورة بالذات يكون لهذا الأنس وقعه. فظل الأنس هو المراد مده. وكأنما يوحي الله لرسوله ﷺ منذ مطلع السورة أن ربه أفاض من حوله الأنس في هذا الوجود، وأنه من ثَمَّ غير مجفوّ فيه ولا فريد!

وبعد هذا الإيحاء الكوني يجيء التوكيد المباشر: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ (الضحى)؛ أي: ما تركك ربك ولا جفاك كما زعم من يريدون إيذاء روحك وإيجاع قلبك وإقلاق خاطرك، وهو ربك وأنت عبده المنسوب إليه، المضاف إلى ربوبيته، وهو راعيك وكافلك[1].

وجاء القسم لتأكيد الخبر ردًّا على زعم المشركين أن الوحي انقطع عن النبي ﷺ حين رأوه لم يقم الليل بالقرآن بضع ليال. فالتأكيد منصبٌّ على التعريض المعرض به لإبطال دعوى المشركين. فالتأكيد تعريض بالمشركين، وأما رسول الله ﷺ فلا يتردد في وقوع ما يخبره الله بوقوعه.

1. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٩٢٦، ٣٩٢٧.

ومناسبة القسم بـ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ أن الضحى وقتُ انبثاق نور الشمس، فهو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي وحصول الاهتداء به، وأن الليل وقت قيام النبي ﷺ بالقرآن، وهو الوقت الذي كان يَسمع فيه المشركون قراءتَه من بيوتهم القريبة من بيته أو من المسجد الحرام.

ولذلك قُيِّد ﴿وَاللَّيْلِ﴾ بظَرْف ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾، فلعل ذلك وقت قيام النبي ﷺ، قال ﷻ: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾ (المزمل). والظاهر أن هذه السورة نزلت عقب فترة ثانية فتر فيها الوحي بعد الفترة التي نزلت إثرها سورة المدثر، فعن ابن عباس وابن جريج: "احتبس الوحي عن رسول الله ﷺ خمسة عشر يومًا أو نحوها، فقال المشركون: إن محمدًا ودَّعه ربه وقلاه، فنزلت الآية".

واحتباس الوحي عن النبي ﷺ وقع مرتين:

أولاهما: قبل نزول سورة المدثر أو المزمل، أي بعد نزول سورتين من القرآن أو ثلاث على الخلاف في الأسبق من سورتي المزمل والمدثر، وتلك الفترة هي التي خشي رسول الله ﷺ أن يكون قد انقطع عنه الوحي، وهي التي رأى عقبها جبريل على كرسي بين السماء والأرض، وقد قيل: إن مدة انقطاع الوحي في الفترة الأولى كانت أربعين يومًا، ولم يشعر بها المشركون لأنها كانت في مبدأ نزول الوحي قبل أن يشيع الحديث بينهم فيه، وقبل أن يقوم النبي ﷺ بالقرآن ليلًا.

وثانيتهما: فترة بعد نزول نحو من ثمانِ سور؛ أي: السور التي نزلت بعد الفترة الأولى، فتكون بعد تجمع عشر سور، وبذلك تكون هذه السورة حادية عشرة،

فيتوافق ذلك مع عددها في ترتيب نزول السور.

والاختلاف في سبب نزول هذه السورة يدل على عدم وضوحه للرواة، فالذي نظنه أن احتباس الوحي في هذه المرة كان لمدة نحو من اثني عشر يومًا، وأنه ما كان إلا للرفق بالنبي ﷺ كي تَسْتَجِمَّ نفسه، وتعتاد قوته تحمُّل أعباء الوحي؛ إذ كانت الفترة الأولى أربعين يومًا، ثم كانت الثانية اثني عشر يومًا أو نحوها، فيكون نزول سورة الضحى هو النزول الثالث، وفي المرة الثالثة يحصل الارتياض في الأمور الشاقة؛ ولذلك يكثر الأمر بتكرر بعض الأعمال ثلاثًا، وبهذا الوجه يجمع بين مختلف الأخبار في سبب نزول هذه السورة وسبب نزول سورة المدثر[1].

ثانيًا. محبَّة الله لنبيه:

ثم بيَّن الله لنبيه برهان ذلك الحب، وعلامته، وما اختصه به من الخصائص والكرامات التي هي دلائل ذلك الحب لا كما يدعي هؤلاء المبغضون، فقال ﷻ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ (الضحى)؛ أي: ما عندي في مرجعك إليَّ يا محمد خير لك مما عجَّلتُ لك من الكرامة في الدنيا، وسوف يعطيك ربك في الدنيا الفلاحَ، وفي الآخرة الثواب، والحوض والمقام المحمود.

وما غاض معين فضله وفيض عطائه. فإن لك عنده في الآخرة من الحسنى خيرًا مما يعطيك منها في الدنيا: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾ (الضحى).. فهو الخير أولًا وأخيرًا.. وإنه ليدخر لك ما يرضيك من التوفيق في دعوتك، وإزاحة العقبات من طريقك، وغلبة منهجك، وظهور حقك.. وهي الأمور التي كانت تشغل باله ﷺ وهو يواجه العناد والتكذيب والأذى والكيد.. والشماتة[2].

وقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾ (الضحى) عطف على جملة: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ (الضحى)، فهو كلام مبتدأ به، والجملة معطوفة على الجمل الابتدائية، وليست معطوفة على جملة جواب القسم، بل هي ابتدائية، فلما نُفي القِلى بشّر بأن آخرته خير من أولاه، وأن عاقبته أحسن من بدأته، وأن الله خاتم له بأفضل مما قد أعطاه في الدنيا وفي الآخرة.

وما في تعريف ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ و﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ من التعميم يجعل معنى هذه الجملة في معنى التذييل الشامل لاستمرار الوحي وغير ذلك من الخير. والآخرة: مؤنث الآخِر، والأولى: مؤنث الأوَّل، وغلب لفظ الآخرة في اصطلاح القرآن على الحياة الآخرة وعلى الدار الآخرة كما غلب لفظ الأولى على حياة الناس التي قبل انخرام هذا العالم، فيجوز أن يكون المراد هنا من كلا اللفظين كِلا معنييه، فيفيد أن الحياة الآخرة خير له من هذه الحياة العاجلة تبشيرًا له بالخيرات الأبدية، ويفيد أن حالاته تجري على الانتقال من حالة إلى أحسن منها، فيكون تأنيث الوصفين جاريًا على حالتي التغليب وحالتي التوصيف، ويكون التأنيث في هذا المعنى الثاني لمراعاة معنى الحالة.

ويُومِئ ذلك إلى أن عودة نزول الوحي عليه هذه المرة خير من العودة التي سبقت، أي تكفل الله بأن لا

1. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٥، ج٣٠، ص٣٩٤: ٣٩٦ بتصرف.

2. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٩٢٧.

ينقطع عنه نزول الوحي من بعد، فاللام في: ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ و ﴿الْأُولَىٰ﴾ لام الجنس، أي كُلّ آجل أمره هو خير من عاجله في هذه الدنيا وفي الأخرى.

واللام في قوله: ﴿لَكَ﴾ لام الاختصاص، أي خير مختص بك وهو شامل لكل ما له تعلق بنفس النبي ﷺ في ذاته وفي دِينه وفي أمته، فهذا وعد من الله بأن ينشر دين الإسلام وأن يُمكِّن أمته من الخيرات التي يأملها النبي ﷺ. فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: عُرِض عليَّ ما هو مفتوح لأمّتي بعدي فسرّني، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ (الضحى)[1].

وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ (الضحى) هو كذلك عطف على جملة القسم كلها وحرف الاستقبال؛ لإفادة أن هذا العطاء الموعود به مستمر لا ينقطع كما في قوله ﷻ: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ (يوسف: ٩٨)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (الليل).

وحذف المفعول الثاني لـ ﴿يُعْطِيكَ﴾ ليعمّ كل ما يرجوه ﷺ من خير لنفسه ولأمته، فكان مفاد هذه الجملة تعميم العطاء كما أفادت الجملة قبلها تعميم الأزمنة. وجيء بفاء التعقيب في ﴿فَتَرْضَىٰ﴾ لإفادة كون العطاءِ عاجلَ النفع، بحيث يحصل به رضى المعطَى عند العطاء، فلا يترقّب أن يحصل نفعه بعد تربص. وتعريف ﴿رَبُّكَ﴾ بالإضافة دون اسم الله العَلَم لما يؤذن به لفظ "رب" من الرأفة واللطف، وللتوسل إلى إضافته إلى ضمير المخاطب؛ لما في ذلك من الإشعار بعنايته برسوله وتشريفه بإضافة "رب" إلى ضميره.

وهو وعد واسع الشمول لما أعطيه النبي ﷺ من النصر والظَفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة، ودخول الناس في الدين أفواجًا وما فُتح على الخلفاء الراشدين ومَن بعدهم من أقطار الأرض شرقًا وغربًا[2].

ثم يذكر الله ﷻ فضله على حبيبه، كما قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ (النساء)، ويعدد ﷻ مِنَنَه على نبيه محمد ﷺ، فيقول له: ألم تكن يتيمًا لا أب لك فآويتك عند عمك أبي طالب فكفلك، وآويتك بأصحاب ينصرونك ويحوطونك ويحفظونك، وكل هذا من حفظ الله له وعنايته به، ثم ألم تكن ضالًّا أي غافلًا عما يُراد بك من أمر النبوة فهديتك وأرشدتك، ولم تكن تدري ما القرآن ولا الشرائع ولا الإيمان، ثم ألم تكن عائلًا فقيرًا ذا عيال فأغنيتك عمن سواي، وجمعت لك بين مقامي الفقير الصابر والغني الشاكر، صلوات الله وسلامه عليه، فهذا قول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ (الضحى).

فهل بعد هذه المنن العظيمة والنعم الجزيلة يُعقَل أن يبغض الله حبيبه، لقد كذب المشركون فيما زعموا؛ ولذا ختم الله حديثه إلى نبيه بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ (الضحى)، وقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ (الضحى) استئناف مَسُوق مَساق الدليل على تحقُّق الوعد؛

---

١. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢/ ٨٢) برقم (٥٨٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٩٠).

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٥، ج٣٠، ص٣٩٨، ٣٩٩.

أي: هو وعد جارٍ على سنن ما سبق من عناية الله بك من مبدأ نشأتك ولطفه في الشدائد باطراد، بحيث لا يحتمل أن يكون ذلك من قبيل الصُّدَف؛ لأن شأن الصدف ألَّا تتكرر، فقد علم أن اطراد ذلك مراد لله تعالى.

والمقصود من هذا إيقاع اليقين في قلوب المشركين بأن ما وعده الله به محقق الوقوع قياسًا على ما ذكره به من ملازمة لطفه به فيما مضى، وهم لا يجهلون ذلك، عسى أن يقلعوا عن العناد ويُسرعوا إلى الإيمان، وإلا فإن ذلك مساءة تبقى في نفوسهم وأشباح رعب تخالج خواطرهم. ويحصل مع هذا المقصود امتنان على النبي ﷺ وتقوية لاطمئنان نفسه بوعد الله تعالى إياه.

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ (الضحى) استفهام تقريري، والإيواء: كفاية الحاجة مجازًا أو استعارة، فالمعنى: أنشأك على كمال الإدراك والاستقامة وكنتَ على تربية كاملة، مع أن شأن الأيتام أن ينشئوا على نقائص؛ لأنهم لا يجدون من يُعنَى بتهذيبهم وتعهُّد أحوالهم الخُلقية، فكان تكوين نفسه الزكية على الكمال خيرًا من تربية الأبوين.

والضَّلال: عدم الاهتداء إلى الطريق الموصل إلى مكان مقصود سواء سلك السائر طريقًا آخر يبلغ إلى غير المقصود أم وقف حائرًا لا يعرف أي طريق يسلك، وهو المقصود هنا لأن المعنى: أنك كنت في حيرة من حال أهل الشرك من قومك فأراكه الله غير محمود وكرَّهه إليك ولا تدري ماذا تتبع من الحق، فإن الله لما أنشأ رسوله ﷺ على ما أراد من إعداده لتلقي الرسالة في الإبان، ألْهَمَه أن ما عليه قومه من الشرك خطأ، وألقى في نفسه طلب الوصول إلى الحق؛ ليتهيأ بذلك لقبول الرسالة عن الله تعالى.

وليس المراد بالضلال هنا اتباع الباطل؛ فإن الأنبياء معصومون من الإشراك قبل النبوءة باتفاق علمائنا، وإنما اختلفوا في عصمتهم من نوع الذنوب الفواحش التي لا تختلف الشرائع في كونها فواحش، وبقطع النظر عن التنافي بين اعتبار الفعل فاحشة وبَيْن الخلوّ عن وجود شريعة قبل النبوءة، فإن المحققين من أصحابنا نزهوهم عن ذلك، والمعتزلة منعوا ذلك بناء على اعتبار دليل العقل كافيًا في قبح الفواحش عَلَى إرسال كلامهم في ضابط دلالة العقل.

ولم يختلف أصحابنا أن نبينا ﷺ لم يصدر منه ما ينافي أصول الدين قبل رسالته ولم يزل علماؤنا يجعلون ما تواتر من حال استقامته ونزاهته عن الرذائل قبل نبوءته دليلًا من جملة الأدلة على رسالته، بل قد شافَهَ القرآن به المشركين بقوله: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (يونس) وقوله: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (المؤمنون)، ولأنه لم يؤثر أن المشركين أفحموا النبي ﷺ فيما أنكر عليهم من مساوي أعمالهم بأن يقولوا فقد كنت تفعل ذلك معنا[1].

ثالثًا. موجبات شكر النعمة:

وقد جُعل الشكر هنا مناسبًا للنعمة المشكور عليها وإنما اعتبر تقدير: إذا أردتَ الشكر؛ لأن شكر النعمة تنساق إليه النفوس بدافع المروءة في عرف الناس، وصُدِّر الكلام في سورة الضحى بـ "أما" التفصيلية؛

١. المرجع السابق، ص٣٩٩ وما بعدها.

لأنه تفصيل لمجمل الشكر على النعمة.

وقد قُوبِلت النعم الثلاث المتفرع عليها هذا التفصيل بثلاثة أعمال تقابلها، فيجوز أن يكون هذا التفصيل على طريقة اللف والنشر المرتب. وذلك ما درج عليه الطيبي، ويجري على تفسير سفيان بن عيينة ﴿السَّآئِلَ﴾ (الضحى: ١٠) بالسائل عن الدين والهدي، فقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ (الضحى) مقابل لقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ (الضحى) لا محالة؛ أي: فكما آواك ربك وحفظك من عوارض النقص المعتاد لليُتم، فكن أنت مُكرِمًا للأيتام رفيقًا بهم، فجمع ذلك في النهي عن قهره؛ لأن أهل الجاهلية كانوا يقهرون الأيتام؛ ولأنه إذا نهى عن قهر اليتيم مع كثرة الأسباب لقهره؛ لأن القهر قد يصدر من جراء القلق من مطالب حاجاته، فإن فلتات اللسان سريعة الحصول كما قال ﷻ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ (الإسراء: ٢٣)، وقال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝٢٨﴾ (الإسراء).

وليس المراد بنعمة ربك نعمة خاصة وإنما أريد الجنس فيفيد عمومًا في المقام الخطابي؛ أي: حدث ما أنعم الله به عليك من النعم، فحصل في ذلك الأمر شكر نِعمة الإغناء، وحصل الأمر بشكر جميع النعم لتكون الجملة تذييلًا جامعًا.

ويقول الشيخ سيد قطب: "ويمضي سياق السورة يذكر الرسول ﷺ ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق. ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به، ومودته له، وفيضه عليه، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهي. وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ (الضحى).

انظر في واقع حالك، وماضي حياتك.. هل ودعك ربك؟ وهل قلاك حتى قبل أن يعهد إليك بهذا الأمر؟ ألم تحط يتمك رعايته؟ ألم تدرك حيرتك هدايته؟ ألم يغمر فقرك عطاؤه؟

لقد ولدت يتيمًا فآواك إليه، وعطف عليك القلوب حتى قلب عمك أبي طالب وهو على غير دينك! ولقد كنت فقيرًا فأغنى الله نفسك بالقناعة، كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك خديجة - رضي الله عنها - عن أن تحس الفقر، أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء!

ثم لقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد، منحرفة السلوك والأوضاع، فلم تطمئن روحك إليها. ولكنك لم تكن تجد لك طريقًا واضحًا مطمئنًا. لا فيما عند الجاهلية ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا.. ثم هداك الله بالأمر الذي أوحى به إليك، وبالمنهج الذي يصلك به.

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هي المنة الكبرى، التي لا تعدلها منة؛ وهي الراحة والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق؛ ومن التعب الذي لا يعدله تعب، ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله ﷺ يعانيه في هذه الفترة من انقطاع الوحي وشماتة المشركين ووحشة الحبيب من الحبيب، فجاءت هذه تذكره وتطمئنه إلى أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه، وهو لم يتركه من قبل في الحيرة والتيه!

وبمناسبة ما ذكره ربه بإيوائه من اليتم، وهدايته من

الحيرة وإغنائه من العيلة.. يوجهه ويوجه المسلمين من ورائه إلى رعاية كل يتيم، وإلى كفاية كل سائل، وإلى التحدث بنعمة الله الكبرى عليه، وفي أولها: الهداية إلى هذا الدين: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾ (الضحى).

وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم والنهي عن قهره وكسر خاطره وإذلاله، وإلى إغناء السائل مع الرفق به والكرامة، كانت كما ذكرنا مرارًا من أهم إيحاءات الواقع في البيئة الجاحدة المتكالبة، التي لا ترعى حق ضعيف، غير قادر على حماية حقه بسيفه! حيث رفع الإسلام هذه البيئة بشرعة الله إلى الحق والعدل والتقوى، والوقوف عند حدود الله الذي يحرس حدوده ويغار عليها ويغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لا يملكون سيفا يذودون به عن هذه الحقوق.

وأما التحدث بنعمة الله وبخاصة نعمة الهدى والإيمان فهو صورة من صور الشكر للمنعم. يكملها البر بعباده، وهو المظهر العملي للشكر، والحديث الصامت النافع الكريم[1].

الخلاصة:

- زعم المشركون أن رب محمد ﷺ هجره وقلاه باطل، وجاءت سورة الضحى وفيها إبطال قول المشركين.
- جاءت سورة الضحى مبشرة للنبي ﷺ بأن الآخرة خير له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى. وأنه سيعطيه ربه ما فيه رضاه. وذلك يغيظ المشركين.
- ذكَّره الله بما حفَّه به من ألطافه وعنايته في صباه وفي فتوَّته وفي وقت اكتهاله، وأمره بالشكر على تلك النعم بما يناسبها من نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله.

الشبهة التاسعة والستون

دعوى أن النسخ يبين افتراء الرسول ﷺ(*)

مضمون الشبهة:

اتهم المشركون رسول الله ﷺ بالافتراء ويستدلون على ذلك بوقوع النسخ في الأحكام، ويقولون لرسول الله ﷺ: إنما أنت كذَّاب تفتري علينا، قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ (النحل: ١٠١).

وجوه إبطال الشبهة:

١) النسخ من عند الله ﷻ، ولا علاقة للرسول ﷺ بهذا الأمر غير التبليغ.

٢) النسخ فيه مصلحة للعباد، وله حِكَم كثيرة ومقاصد جلية.

٣) القرآن كله ـ ناسخه ومنسوخه ـ من عند الله نزل به جبريل ﷺ هدى وبشرى وتثبيتًا للمؤمنين.

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٩٢٧، ٣٩٢٨.

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (النحل/ ١٠١).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (النحل/ ١٠٢، البقرة/ ١٠٦، ١٠٧).

التفصيل:

أولا. النسخ من عند الله وما على الرسول إلا البلاغ:

هذه الشبهة من تقولات المشركين عن القرآن الكريم، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: "كان إذا نزلت آية فيها شدّة، ثم نزلت آية ألين منها، يقول كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمرٍ وغدًا ينهى عنه، وإنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه".

وحكاية طعنهم في النبي ﷺ بصيغة قصر الموصوف على الصّفة، فجعلوه لا صفة له إلا الافتراء، وهو قصر إضافي، أي لستَ بمرسل من الله. وهذا من مجازفتهم وسرعتهم في الحكم الجائر فلم يقتصروا على أن تبديله افتراء، بل جعلوا الرسول مقصورًا على كونه مفتريًا لإفادة أن القرآن الوارد مقصور على كونه افتراء.

وأصل الافتراء: الاختراع، وغَلَب على اختراع الخبر، أي اختلاقه، فساوَى الكذب في المعنى، ولذلك قد يطلق وحده كما هنا، وقد يطلق مقترنًا بالكذب كقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: ١٠٥) إرجاعًا به إلى أصل الاختراع[1].

وهذه الشبهة أثارها اليهود كما ورد في سورة البقرة، وردّ الله عليهم بقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾ (البقرة).

فأوضح الله ﷻ أنه يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، وهو المتصرّف في خلقه بما يشاء، ولا علاقة لرسول الله بهذا الأمر، وإنما هو مبلِّغ عن الله أحكامه وآياته، والله هو الذي شرع الأحكام وهو الذي يبدِّل بعضها ببعض، ولذا قال ﷻ هنا في الرد على المشركين: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ (النحل: ١٠١)، فهو ﷻ عالم بالناسخ والمنسوخ، ويعلم ما يصلح الناس في وقت وما يصلحهم في الوقت الآخر، ويعلم المناسب لهم والأَلْيَق بهم والمحقق لمصلحتهم في كل وقت، كالطبيب الذي يراعي أحوال مريضه، ولله المثل الأعلى.

ثانيًا. مقاصد النسخ ومراعاته مصالح العباد:

إن المشركين لا يدركون وظيفة هذا الكتاب، لا يدركون أنه جاء لإنشاء مجتمع عالمي إنساني، وبناء أمة تقود هذا المجتمع، وأنه الرسالة الأخيرة التي ليست بعدها من السماء رسالة، وأن الله الذي خلق البشر عليم بما يصلح لهم من المبادئ والشرائع؛ فإذا بدَّل آية انتهى أجلها واستنفدت أغراضها، ليأتي بآية أخرى أصلح للحالة الجديدة التي صارت إليها الأمة، وأصلح للبقاء بعد ذلك الدهر الطويل الذي لا يعلمه إلا هو، فالشأن له، ومثل آيات هذا الكتاب كمثل الدواء تعطي للمريض منه جرعات حتى يشفى، ثم ينصح بأطعمة أخرى تصلح للبنية في الظروف العادية. إن المشركين لا يدركون شيئًا من هذا كله، ومن ثم لم يدركوا حكمة تبديل آية مكان آية في حياة الرسول ﷺ فحسبوها افتراء منه، وهو الصادق الأمين الذي لم يعهدوا عليه كذبًا قط ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾ (النحل)[2].

ويوضح الشيخ الطاهر ابن عاشور مناسبة ورود

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٤، ص٢٨١: ٢٨٣ بتصرف.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص٢١٩٤.

هذه الآية في سورة النحل مُبيِّنًا معنى التبديل المراد في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (النحل). إذ يبين أن هذه الآية استمرَّ الكلام فيها على شأن القرآن وتنزيهه عما يوسوسه الشيطان في الصدّ عن متابعته.

ولما كان من أكبر الأغراض في هذه السورة بيان أن القرآن منزل من عند الله، وبيان فضله وهديه فابتدئ فيها بآية ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ (النحل: ٢)، ثم قفِّيت بما اختلقه المشركون من الطّعن فيه بعد تنقلات جاء فيها: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (النحل)، وأتبع ذلك بتنقلات بديعة فأُعيد الكلام على القرآن الكريم وفضائله من قوله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ ﴾ (النحل: ٦٤)، ثم قوله ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (النحل:٨٩).

وجاء في عقب ذلك بشاهد يجمع ما جاء به القرآن الكريم، وذلك آية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ (النحل: ٩٠)، فلما استقرّ ما يقتضي تقرّر فضل القرآن في النفوس نبّه على نفاسته ويمنه بقوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (النحل)، لا جرم تهيَّأ المقام لإبطال اختلاق آخر من اختلاقهم على القرآن اختلاقًا مموّهًا بالشبهات، كاختلاقهم السابق الذي أشير إليه بقوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (النحل).

ذلك الاختلاق هو تعمّدهم التّمويه فيما يأتي من آيات القرآن مخالفًا لآيات أخرى لاختلاف المقتضى والمقام. والمغايرة باللين والشدّة، أو بالتعميم والتخصيص، ونحو ذلك مما يتبع اختلافه اختلاف المقامات واختلاف الأغراض واختلاف الأحوال التي يتعلّق بها، فيتّخذون من ظاهر ذلك ـ دون وضعه مواضعه وحمله محاملهُ ـ مغامز يتشدّقون بها في نواديهم، يجعلون ذلك اضطرابًا من القول ويزعمونه شاهدًا باقتداء قائله في إحدى المقالتين أو كلتيهما.

وبعض ذلك ناشئ عن قصور مداركهم عن إدراك مرامي القرآن وسموّ معانيه، وبعضه ناشئ عن تعمّد للتجاهل تعلّقًا بظواهر الكلام يلبّسون بذلك على ضعفاء الإدراك من أتباعهم؛ ولذلك قال ﷻ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (النحل)، أي ومنهم من يعلمون ولكنهم يكابرون.

فالمراد من التبديل في قوله ﷻ: ﴿بَدَّلْنَآ ﴾ مطلقُ التغاير بين الأغراض والمقامات، أو التغاير في المعاني واختلافها باختلاف المقاصد والمقامات مع وضوح الجمع بين محاملها. والمراد بالآية الكلام التام من القرآن الكريم، وليس المراد علامة صدق الرسول ﷺ؛ أعني المعجزة بقرينة قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾.

فيشمل التبديلُ نسخ الأحكام؛ مثل نسخ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (الإسراء)، بقوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (الحجر)، وهذا قليل في القرآن الذي يقرأ على المشركين لأن نسخ الأحكام إنما كثر بعد الهجرة حين تكوّنت الجامعة الإسلامية، وأما نسخُ

التلاوة فلم يرد من الآثار ما يقتضي وقوعه في مكة فمن فسّر به الآية كما نقل عن مجاهد فهو مشكل.

ويشمل التعارض بالعموم والخصوص ونحو ذلك من التعارض الذي يحمل بعضه على بعض، فيفسّر بعضه بعضًا، كقوله ﷻ: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الشورى: ٥) مع قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (غافر: ٧)، فيأخذون بعموم ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، فيجعلونه مكذّبًا لخصوص ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، فيزعمونه إعراضًا عن أحد الأمرين إلى الأخير منهما.

وكذلك قوله ﷻ: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ (المزمل)، يأخذون من ظاهره أنه أمر بمتاركتهم، فإذا جاءت آيات بعد ذلك لدعوتهم وتهديدهم زعموا أنه انتقض كلامه وبدا له ما لم يكن يبدو له من قبل. وكذلك قوله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ (الأحقاف: ٩)، مع آيات وصف عذاب المشركين وثواب المؤمنين.

وكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (الإسراء: ١٥) مع قوله ﷻ: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (النحل: ٢٥)، ومن هذا ما يبدو من تخالف بادئ الأمر، كقوله بعد ذكر خلق الأرض: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (فصلت: ١١) مع قوله ﷻ: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ (النازعات)، فيحسبونه تناقضًا مع الغفلة عن محمل ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ من جعل "بعد" بمعنى "مع" وهو استعمال كثير، فهم يتوهّمون التناقض مع جهلهم أو تجاهلهم بالوَحَدات الثماني المقرَّرة في المنطق.

فالتبديل في قوله ﷻ: ﴿ بَدَّلْنَآ ﴾ هو التعويض ببدل، والتعويض لا يقتضي إبطال المعوَّض، بل يقتضي أن يجعل شيء عِوضًا عن شيء. وقد يبدو للسامع أن مثل لفظ المعوّض بفتح الواو جعل عِوضًا عن مثل لفظ العوض بالكسر في آيات مختلفة باختلاف الأغراض من تبشير وإنذار، أو ترغيب وترهيب، أو إجمال وبيان، فيجعله الطاعنون اضطرابًا؛ لأن مثله قد كان بُدّل ولا يتأملون في اختلاف الأغراض.

وجملة ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ معترضة بين شرط "إذا" وجوابها، والمقصود منها تعليم المسلمين، لا الردّ على المشركين؛ لأنهم لو علموا أن الله هو المنزل للقرآن لارتفع البهتان. والمعنى: أنه أعلم بما ينزل من آية بدل آية، فهو أعلم بمكان الأولى ومكان الثانية ومحملِ كلتيهما، وكل عنده بمقدار وعلى اعتبار.

وقوله: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (النحل)، أي: أكثر القائلين ذلك لا يفهمون وضع الكلام مواضعه وحَمْله محامله، وفهم من الحكم على أكثرهم بعدم العلم أن قليلًا منهم يعلمون أن ذلك ليس افتراء، ولكنهم يقولون ذلك تلبيسًا وبهتانًا ولا يعلمون أن التّنزيل من عند الله لا ينافي إبطال بعض الأحكام إذا اختلفت المصالح أو روعي الرِّفق[1].

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٤، ص٢٨٠: ٢٨٤ بتصرف.

ثالثًا. القرآن ناسخه ومنسوخه من عند الله ﷻ:

بيّن القرآن الكريم أن جبريل ﷺ نزل بالقرآن كله ناسخه ومنسوخه من الله ﷻ بالحق والصدق والعدل؛ ليُثبّتَ الذين آمنوا بما فيه من الحجج والآيات، فيصدقوا بما أنزل أولًا وثانيًا، وتخبت له قلوبهم ويكون ذلك لهم هدى وبشارة ورحمة. ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ (النحل: ١٠٢)، فما يمكن أن يكون افتراء، وقد نزله ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ جبريل ﷺ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لا من عندك ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لا يتلبس به الباطل ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الموصولة قلوبهم بالله، فهي تدرك أنه من عند الله، فتثبت على الحق وتطمئن إلى الصدق ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢﴾ (النحل) بما يهديهم إلى الطريق المستقيم، وبما يبشرهم بالنصر[1].

جاء في تفسير "التحرير والتنوير": وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢﴾ (النحل).

جواب عن قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ (النحل: ١٠١) فلذلك فصّل فعل ﴿قُلْ﴾ لوقوعه في المحاورة؛ أي: قل لهم: لستَ بمُفْترٍ ولا القرآن بافتراء، بل نزّله روح القدس من الله. وفي أمره بأن يقول لهم ذلك شدٌّ لعزمه؛ لكيلا يكون تجاوزهم الحدّ في البهتان صارفًا إيّاه عن محاورتهم. فبعد أن أبطل الله دعواهم عليه أنه مفتر بطريقة النّقض أمر رسوله ﷺ أن يبيّن لهم ماهية القرآن.

وهذه نكتة الالتفات في قوله ﷻ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الجاري على خلاف مقتضى ظاهر حكاية المقول المأمور بأن يقوله؛ لأن مقتضى الظاهر أن يقول: من ربي، فوقع الالتفات إلى الخطاب تأنيسًا للنبي ﷺ بزيادة توغّل الكلام معه في طريقة الخطاب.

واختير اسم الربّ لما فيه من معنى العناية والتدبير.

و ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾: جبريل، و ﴿ٱلْقُدُسِ﴾: الطُهر، وهو هنا مراد به معنياه الحقيقي والمجازي الذي هو الفضل وجلالة القدر. وإضافة الروح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصِّفة؛ كقولهم: حاتم الجود، وزيد الخَير. والمراد: حاتم الجواد، وزيد الخيِّر. فالمعنى: الملك المقدس.

وذكرت علّة من عِلل إنزال القرآن على الوصف المذكور، أي تبديل آية مكان آيةٍ، بأن في ذلك تثبيتًا للذين آمنُوا إذ يفهمون محمل كل آية ويهتدون بذلك وتكون آيات البشرى بشارة لهم وآيات الإنذار محمولة على أهل الكفر.

ففي قوله ﷻ: ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ إبطال لقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ وفي قوله تعالى؛ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إيقاظ للناس بأن ينظروا في حكمة اختلاف أغراضه وأنها حقّ. وفي التعليل بحكمة التثبيت والهدى والبُشرى بيانٌ لرسوخ إيمان المؤمنين وسداد آرائهم في فهم الكلام السامي، وأنه تثبيت لقلوبهم بصحة اليقين وهدًى وبشرى لهم.

وفي تعلّق الموصولِ وصلته بفعل التثبيت إيماء إلى أن حصول ذلك لهم بسبب إيمانهم، فيفيد تعريضًا بأن غير المؤمنين تقصر مداركهم عن إدراك ذلك الحق فيختلط عليهم الفهم ويزدادون كفرًا ويضلّون ويكونُ نذارة لهم. والمراد بالمسلمين الذين آمنوا، فكان مقتضى

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص٢١٩٤.

الظاهر أن يقال: وهدى وبشرى لهم، فعدل إلى الإظهار لزيادة مدحهم بوصف آخر شريف[1].

الخلاصة:

- النسخ من عند الله تعالى، يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، والنبي ﷺ ما عليه إلا البلاغ المبين.
- للنسخ حِكَمٌ عديدة، ولكن المشركين لا يعلمون، ويجادلون بالباطل عنادًا وكفرًا.
- القرآن الكريم جميعه - ناسخه ومنسوخه - من عند الله ﷻ، نزل به أمين الوحي جبريل ﵇ هدى وبشرى وتثبيتًا وشفاءً للمؤمنين.

الشبهة السبعون

إنكار إنزال الكتب من السماء، وإنكار الوحي والرسالة(*) ®

مضمون الشبهة:

أنكر مشركو قريش إنزال كتاب من السماء على الرسول ﷺ، وزعموا أن الله لم ينزِّل على بشر شيئًا، وانتهوا من ذلك إلى تكذيب رسل الله وإنكار الوحي والرسالة، قال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٩١).

وجها إبطال الشبهة:

١) هؤلاء المشركون لم يقدروا الله حق قدره؛ لأنهم لما أنكروا إنزاله كتبًا من السماء، أنكروا شأنًا عظيمًا من شئونه، وهو هداية الناس بواسطة الرسل.

٢) إذا كان مشركو قريش واليهود يعترفون بإنزال التوارة من السماء على موسى ﵇ فلمَ ينكرون نزول القرآن على محمد ﷺ؟

التفصيل:

أولا. هؤلاء المشركون لم يقدروا الله حق قدره بإنكارهم إنزاله كتبًا من السماء على أحد من البشر:

قائلو هذه المقولة هم مشركو مكة، ذلك أن المشركين لمّا استشعروا نهوض الحجّة عليهم في نزول القرآن بأنّه ليس بِدعًا ممّا نزل على الرّسل، توغّلوا في المكابرة والجحود فقالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٩١)، وتجاهلوا ما كانوا يقولونه عن إبراهيم، وما يعلمونه من رسالة موسى ﵇ وكتابه[2].

وقيل: نزلت هذه الآية السابقة في طائفة من اليهود، وقيل: في رجل منهم هو "فِنْحاص" من كبراء اليهود وأحبارهم، ورجَّح بعض المفسرين أن قائل ذلك هم المشركون؛ لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش والعرب كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ، كما قال ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ (يونس: ٢)، وكقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤)﴾ (الإسراء)، وها هنا يقولون:

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٤، ص٢٨٤، ٢٨٥.

(*) الآية التي وردت فيها الشبهة: (الأنعام/ ٩١).

الآية التي ورد فيها الرد على الشبهة: (الأنعام/ ٩١).

® في "الدلائل على صحة الوحي الإلهي في الإسلام" طالع: الشبهة العشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٤، ج٧، ص٣٦١ بتصرف.

﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٩١)، وهم بذلك قد جاءوا إفكًا وأنكروا ما هو معلوم بالتواتر.

وقد ردّ الله عليهم أولًا بأنَّ مُنْكري الوحي، وإنزال الكتب على الرسل، ما عرفوا الله حق معرفته، ولا وصفوه بما يجب وصفه به، ولا عرفوا فضله على البشر، ولا آمنوا بهذا النوع من قدرته، وهو إفاضة ما شاء من علمه بما يصلح به أمر الناس من الهدى والشرع على من شاء من البشر بواسطة الملائكة، أو بتكليمه إياهم بدون واسطة، إذْ قالوا: إنه ما أنزل شيئًا ما على أحد منهم، قال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ (الأنعام: ٩١).

وهذا دليل على أن إرسال الرسل وإنزال الكتب من شئونه سبحانه ومتعلق صفاته في النوع البشري، فإنها من مقتضى الحكمة والرحمة، فمن عرفه ﷻ بصفات الكمال، ونظر في الآيات البيِّنات في أنفس البشر والآفاق فعلم منها أنه أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء صنعه، وخلق الإنسان في أحسن تقويم، مستعدًّا للعروج إلى أعلى عليين، والهبوط إلى أسفل سافلين، من عرف الله بما ذكرنا من الصفات، وعرف البشر بما أجملنا من الأحوال والمميزات، عَلِم عِلْمَ اليقين أن إرسالَ الرسل وإنزال الكتب من آثار تلك الصفات التي هي مصادر النظام ومظاهر الكمال[1].

ثانيًا. اعتراف مشركي مكة واليهود بإنزال التوارة على موسى عليه السلام من السماء:

وقد لقّن الله ﷻ نبيه ﷺ الرد على منكري الوحي والرسالة بقوله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ (الأنعام: ٩١)، أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله ﷻ في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾، وهو التوراة التي قد علمتم أن الله قد أنزلها على موسى نورًا وهدى للناس، أي لِيُستضاءَ بها في كشف المشكلات ويُهتَدى بها من ظُلَم الشبهات، والخطاب هنا إن كان مُوجَّهًا إلى اليهود كما يقول جمهور المفسرين ـ فلا إشكال، وإن كان موجهًا إلى مشركي قريش فمعلوم ما كان بين قريش ويهود المدينة من التعارف، وتسليم قريش أنهم أهل كتاب، وأنهم أعلم منهم لأجله، مما يوجب اعترافهم بحقيقة التوارة، وأنها منزلة من لدنه تعالى[2].

وقوله ﷻ: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ الخطاب هنا لليهود، والمعنى: أي تجعلون جملتها قراطيس أي: قطعًا تكتبونها من الكتاب الأصل الذي بأيديكم وتحرفون منها ما تحرفون وتبدلون وتتأولون وتقولون هذا من عند الله، وكان الحبر من أحبارهم، إذا استُفْتِي في مسألةٍ له هوًى في إظهار حكم الله فيها كتب ذلك الحكم في قرطاس، فأظهره للمستفتي ولخصومه، ويخفون كثيرًا من أحكام الكتاب وأخباره، إذا كان لهم هوى في إخفائها، وذلك أن الكتاب كان بأيديهم ولم يكن في أيدي العامة من نسخه شيء[3].

وبعد أن أمر الله رسوله أن يسألهم ذلك السؤال،

1. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٧، ص٦١٢، ٦١٣ بتصرف.
2. محاسن التأويل، القاسمي، مرجع سابق، ج٤، ص٤٣٤.
3. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج ٧، ص٦١٧.

لَقَّنه الجواب الذي كان يجب أن يجيبوا به: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (الأنعام)؛ أي: قـل يأيها الرسول: الله أنزله - أي كتاب موسى - ثم دعهم بعد بيان الحق مؤيدًا بالحجج والدلائل في باطلهم يخوضون ويلعبون، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

الخلاصة:

- المشركون الذين ينكرون الوحي لم يعرفوا الله حق معرفته؛ لأنهم ينكرون شأنًا من شئونه ﷻ، وهو إرسال الرسل، وإنزال الكتب لهداية الناس.
- لقد كان مشركو مكة نتيجة تعاملهم مع يهود يثرب يعلمون أن التوارة منزلة من عند الله تعالى على موسى ؑ وعلى الرغم من هذا فإن استكبارهم وعنادهم وتكذيبهم للنبي ﷺ دفعهم إلى إنكار إنزال أي كتاب من السماء على أحد من البشر، ولقد أثبت القرآن الكريم تناقض أقوالهم وبطلان زعمهم.

الشبهة الحادية والسبعون

زعم اليهود أن سبب عدم إيمانهم بالنبي ﷺ هو كون قلوبهم غُلْفًا(*)

مضمون الشبهة:

زعم بعض اليهود أن سبب عدم إيمانهم بالنبي ﷺ وما جاء به هو أن قلوبهم غُلْف، أي: مغطاة بأغطية تمنع أن يصل إليها شيء مما يدعوهم إليه من الإسلام، يقول ﷻ: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (البقرة).

وجها إبطال الشبهة:

١) ما يدعيه اليهود هو مجرد عذر واهٍ، يريد به اليهود التملُّص من الإيمان بدعوة محمد ﷺ بعد أن تبيّن لهم دلائل صدقه.

٢) لقد خلق الله اليهود كسائر العقلاء الذين يستطيعون الاهتداء للحق بالتأمل والتبصُّر، ولكن إصرارهم على الكفر هو السبب الحقيقي في إعراضهم عن دعوة محمد ﷺ.

التفصيل:

أولا. ما يدعيه اليهود هو مجرد عذر واهٍ لا دليل عليه:

هذا تعلّل واهٍ من تعللات اليهود المتكررة، وأحد الدعاوى التي كان يدّعيها اليهود في العصر النبوي، وهو قولهم للنبي ﷺ: ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾، والغلف: جمع أغلف، وهو الذي جُعل له غلاف، ومنه قيل للقلب الذي لا يعي ولا يفهم: قلب أغلف، كأنه حُجب عن الفهم بالغلاف. ومعنى قولهم: يا محمد، إننا لا نعقل قولك ولا نفهمه؛ لأن قلوبنا مغطاة بأغطية حسية مانعة من نفوذ ما جئت به فيها، ومقصدهم من ذلك التهكم منه ﷺ وقطع طمعه في إسلامهم حتى لا يعيد عليهم الدعوة بعد[1]، وهذا من عنادهم وجحودهم وما عُرف

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (البقرة/ ٨٨، النساء/ ١٥٥، فصلت/ ٥).
الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (البقرة/ ٨٨، النساء/ ١٥٥، فصلت/ ٦).

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٥٩٩. التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، مرجع سابق، ج١، ص٢٥٤.

من شنشنتهم وسوء اعتذارهم عن الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ والاهتداء بكتابه بعد تقرير الدعوة، وإقامة الحجة وبيان المحجة، وهو كقول المشركين: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ (فصلت: ٥).

ثانيًا. خَلَق الله اليهود كسائر العقلاء:

لقد ردّ الله ﷻ عليهم بما يُشعِر بكذبهم وعنادهم، فقال: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ (البقرة)، وفي آية أخرى يقول ﷻ: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥٥﴾ (النساء).

وقوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ (البقرة: ٨٨) تسجيل عليهم وفضح لهم بأنهم صمموا على الكفر، والتمسك بدينهم من غير التفات لحجة النبي ﷺ، فلما صمّموا على ذلك عاقبهم الله باللعن والإبعاد عن الرحمة والخير، فحرمهم التوفيق والتبصُّر في دلائل صدق الرسول، فاللعنة حصلت لهم عقابًا على التصميم على الكفر وعلى الإعراض عن الحق، وفي ذلك ردٌّ لما أوهموه من أن قلوبهم خُلقت بعيدة عن الفهم؛ لأن الله خلقهم كسائر العقلاء مستطيعين لإدراك الحق لو توجهوا إليه بالنظر وترك المكابرة[1].

إن ما وصفوا به قلوبهم من أنها غلف لا تفهم الحق بطبعها، ليس هو الحق الواقع، بل كان كفرهم الشديد وما له من الأثر القبيح في أخلاقهم وأعمالهم - سببًا في الطبع على قلوبهم، فأبعدهم الله ﷻ من رحمته بسبب جمودهم على ذلك الكفر التقليدي ولوازمه، وعدم نظرهم في شيء آخر نظر استدلال واعتبار، ولا يتأملون تأمل الإخلاص والاستبصار، والنظر والتأمل إنما هو من الأمور الممكنة التي ينالها كسبهم، ويصل إليها اختيارهم، ولكنهم لا يختارون إلا ما ألفوا وتعودوا.

هذا هو معنى اللعن، وقد ذكرت معه علته ليُعلم أنه جرى على سنة الله ﷻ في الأسباب والمسببات، وأن الله لم يظلمهم بهذا، وإنما ظلموا أنفسهم بالكفر الذي يستتبع الكفر، والعصيان الذي يجرُّ إلى التمادي في العصيان، كما هي السنة في أخلاق الإنسان؛ لهذا لم يؤمنوا إلا قليلًا، وإنما العلة في الإيمان باعتبار ما يؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة، والنسبة إلى اليقين في الإيمان، وتحكيمه في الفكر والوجدان.

ولقد كان اليهود يؤمنون بالشريعة في الجملة، وكما تعطيه ظواهر الألفاظ، ولكنهم لم يلبسوها مفصلة تفصيلًا، ولم يفقهوا حكمها وأسرارها، فلم يكن لها سلطان على قلوبهم، ولم تكن هي المحركة لإرادتهم في أعمالهم، وإنما كان يحركها الهوى، فالإيمان إنما كان عندهم قولًا باللسان، وربما يلوح في الخيال تكذبه الأعمال، وهذا هو الإيمان الذي لا قيمة له عند الله ﷻ، وقد يكون المقصود بقلة الإيمان هنا هو أنه لا يؤمن بالنبي ﷺ وما جاء به إلا قليل منهم؛ كابن سلام، وفي هذا من دقة القرآن ما لا يُعهد في كلام الناس[2].

الخلاصة:

- إن ما يدعيه اليهود من أن على قلوبهم أغطية

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٦٠٠.

٢. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١، ص٣٧٩، ٣٨٠ بتصرف.

تمنعهم من الإيمان بدعوة محمد ﷺ إنما هو مجرد زعم لا أساس له، يريدون بذلك قطع طمع النبي ﷺ في إسلامهم حتى لا يعيد عليهم الدعوة بعد.

- لقد بيّن الله كذب اليهود وعنادهم، وبيّن أن السبب الحقيقي في إعراضهم عن دعوة محمد ﷺ لم يكن وجود أغطية على قلوبهم تمنع من وصول الحق إليها ـ كما يدّعون ـ وإنما هو إصرارهم على الكفر وإعراضهم عن الحق؛ لهذا عاقبهم الله باللعن والطرد من رحمته.

الشبهة الثانية والسبعون

استنكار اختصاص الرسول ﷺ بإنزال الذِّكر عليه من بين النَّاس(*)

مضمون الشبهة:

يستبعد المشركون تخصيص النبي ﷺ بإنزال القرآن عليه من بينهم، ويقولون: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم، وهكذا قال هذه المقولة أقوام الرسل لرسلهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (الزخرف)، وقال: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (النساء: ٥٤).

وجها إبطال الشبهة:

١) استبعاد اختصاص الرسول ﷺ بإنزال الذكر عليه منشؤه الحسد والاستكبار والجهل وقصور الفهم.

٢) الله ﷻ هو الذي يصطفي الرسل ويقسم الأمور بين عباده كما قسم حظوظهم في الدنيا.

التفصيل:

أولا. استبعاد اختصاص الرسول ﷺ بالرسالة، منشؤه الحسد والاستكبار من المشركين:

هذه مقالة طالما قالها أهل التكذيب والضلال من الأقوام السالفة الذين أُرسل إليهم الرسل، فقوم ثمود قالوا عن نبيهم صالح ؑ: ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (القمر)، ومشركو مكة قالوا عن رسول الله: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ (ص: ٨)، وقالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (الزخرف). وأيضًا فقد حسد اليهود النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنعهم من تصديقهم إياه أنه من العرب وليس من بني إسرائيل.

وهذه المقالة التي قالها هؤلاء مليئة بالحسد من عند أنفسهم، وهي تدل على عنادهم واستكبارهم، وهي مُخرِجَةٌ عن أصل القضية والحق الذي جاء به محمد، فمقولتهم هذه هي حيلة العاجز المفلس، وقد ردّ الله عليهم في مواطن عديدة هذه الشبهة الواهية.

فمن ذلك بيان أن قصدهم ليس المراد به الطعن في اختصاص الرسول بالرسالة، ولكن شكُّهم في أصل الرسالة عن الله وإنكارهم لها، فقال ﷻ عقب قولهم الباطل: ﴿ بَل هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ﴾ (ص: ٨)، فقصدهم الشك في أن الله يوحي إلى أحد بالرسالة، وهو كمعنى قوله ﷻ: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ

(*) الآيات التي وردت فيها الشبهة: (النساء/ ٥٤، الزخرف/ ٣١، ص/ ٨، القمر/ ٢٥).

الآيات التي ورد فيها الرد على الشبهة: (النساء/ ٥٣: ٥٥، الحج/ ٧٦، ٧٥، الزخرف/ ٣٢، الأنعام/ ١٢٤، ص/ ٨).

﴿اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنعام).

ومن ردّ الله عليهم أيضًا أن يوضح أن مقالتهم هذه تُنبئ عن مدارك عقول الجهلة الذين يقيسون الأمور بمقاييس قصور أفهامهم ويحسبون أن أسباب الأثرة في العادات هي أسبابها في الحقائق؛ لأنهم يريدون أن يقولوا: إن فيهم من هو أحق من الرسول بالرسالة، وأنَّ هناك مَن يتميَّز عنه بالعظمة كما حكى الله عنهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾، فجعلوا عماد التأهل لسيادة الأقوام أمرين هما:

١. عظمة المُسَوَّد.

٢. عظمة قريته، يعنون بذلك مكة والطائف، فنظروا إلى سعة المال التي هي من مقومات وصف السُّؤْدُد، تمامًا كما قال الله عن بني إسرائيل الذين اعترضوا على جعل طالوت ملكًا عليهم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ (البقرة: ٢٤٧).

فوضَّح الله لهم أنه ليس من العقل أن تُنَصِّبوا أنفسكم منصب مَن يتخيَّر أصناف الناس للرسالة عن الله، فإن هذا الأمر لله وليس لكم، قال ﷻ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ (الزخرف: ٣٢)، فأبطل الله قولهم وخطَّأهم في تحكمهم في هذه القسمة؛ لأن الرسالة اصطفاء من الله ورحمة لمن يصطفي لها، ورحمة أيضًا للناس المرسل إليهم، والله أعلم بمن يتأهل لإبلاغها، قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٥)، وقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

ثانيًا. الله ﷻ يصطفي الرسل ويقسم الأمور بين عباده:

ردَّ القرآن الكريم على بني إسرائيل في شأن طالوت فقال: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة:٢٤٧)، فالله هو الذي يختار رسله وأنبياءه ويختص من شاء بالرسالة والنبوة، وليس لأهل العقول مهما بلغت بهم من الفطنة والاختيار أن يطَّلعوا على خفايا الأمور فيصطفوا للمقامات العالية من قد تخفى عنهم نقائصهم؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ (الحج). فهذا كناية عن عموم علمه بالأشياء ﷻ.

ثم ضرب الله مثلًا من حياتهم الدنيا وقياسًا شاهدًا يقيسون هذا الأمر عليه، وهو أن الله قسم بين الناس معيشتهم فكانوا على نحو ما هيَّأ الله لهم من نظام الحياة، فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء وفقراء، فسخر بعضهم لبعض في أشغالهم على حساب دواعي حاجة الحياة، ورفع بذلك بعضهم فوق بعض، وجعل بعضهم محتاجًا إلى بعض ومسخَّرًا له، فإذا كانوا بهذه المثابة في تدبير معيشة الدنيا، فكذلك الحال في إقامة بعضهم دون بعض للتبليغ، فإن ذلك أعظم شئون البشر، فهذا وجه الاستدلال لو كانوا يعقلون ويفهمون الأمور، قال ﷻ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (الزخرف: ٣٢)، وذيَّل الله ردَّه عليهم بقوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الزخرف)، وهذا

ردٌّ ثانٍ، فإن المال الذي جعلوه عماد الاصطفاء للرسالة هو أقلُّ من رحمة الله، فهي خير مما يجمعون من المال والعظمة والسيادة، ذلك الذي جعلوه سبب التفضيل، فإن المال شيء جمعه صاحبه لنفسه، فلا يكون مثل اصطفاء الله العبد ليرسله إلى الناس، فالمال والغنى لا حظ لهما عند الله ﷻ، فإن الله أعطى كل شيء خلقه، وجعل للأشياء مقاديرها، فكثيرًا ما يكون المال للكافرين ومن لا خلاق لهم من الخير، فتعيَّن أن المال قسمة من الله على الناس، جعل له أسبابًا نظمها في سلك النظم الاجتماعية، وشَتَّان بينها وبين مواهب النفس الزكية والسرائر الطيبة، إذ مواهب النفوس الطيبة مصادرها لنفع أصحابها ونفع الأمة، أما المال فمصدره في الغالب لإرضاء الشهوات والتطاول.

ويُبَيِّنُ الله لهم في موطن آخر أن اعتراضهم على نبوة محمد ﷺ ناشئ عن الحسد والعناد والكبر، وهم لا نصيب لهم من الملك، ولو كان لهم منه شيء لم يعطوا أحدًا منه لبخلهم وحسدهم، فهل هم أولى بالنبوة ممن أرسله الله؟ أم لهم نصيب من الملك فيمنعوا الحقوق؟ أم أنهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فيسخطوا بذلك على قضاء الله ولا يرضوا بقسمته؟

وهذا من سوء أدبهم؛ كما قال القائل:

ألَا قُلْ لِمَنْ ظَلَّ لي حَاسِدًا

أَتَدْرِي على مَنْ أَسَأْتَ الأَدَبْ

أَسَأْتَ على الله في حُكْمِهِ

إذا أنتَ لَمْ تَرْضَ لي ما وَهَبْ

ولذا قال ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ (النساء).

الخلاصة:

- حكى القرآن لونًا من ألوان حسد المشركين وعنادهم حين قال: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ (الزخرف)، فقد قال هؤلاء المشركون ذلك على سبيل العناد والحسد، فهم لجهلهم وانطماس بصائرهم استكثروا أن ينزل هذا القرآن على محمد ﷺ الذي - وإن كان في القمة من الشرف والسمو بين قومه - لم يكن أكثرهم مالًا وسلطانًا، وهم يريدون أن تكون النبوة في زعيم من زعمائهم، أو رئيس من رؤسائهم، وهذا منهم لجهلهم بأن رتبة الرسالة إنما تستدعي عظيم النفس، بالتخلي عن الرذائل الدنية، والتحلي بالكمالات والفضائل القدسية دون التزخرف بالزخارف الدنيوية.
- الله يختار لرحمته ورسالته من يشاء ويصطفيهم لذلك، هذا الاصطفاء لا علاقة بينه وبين عرض الحياة الدنيا، ولا صلة له بقيم هذه الحياة، فهذه القيم عند الله ليست هي مقياس المفاضلة، ومن ثم يشترك فيها الأبرار والفجار، وينالها الصالحون والطالحون، بينما يختصُّ الله ﷻ برحمته المختارين.

المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم، موسى إبراهيم الإبراهيمي، دار عمار، الأردن، ط٢، ١٩٩٦م.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د. ت.
- التحرير الإسلامي للمرأة، د. محمد عمارة، دار الشروق، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت.
- التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، د. ت.
- التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، مطبعة الرسالة، القاهرة، ط٣، ١٩٨٧م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني معدِّي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري، د. عبد المحسن المطيري، رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة.
- عقيدة أهل السنة والجماعة، د. أحمد فريد، مكتبة فياض، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- في الشريعة الإسلامية وفقهها ومصادرها، عبد الله ناصح علوان، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- القضاء والقدر، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- القيامة الكبرى، د. عمر سليمان الأشقر، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، بيروت، د. ت.
- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

- محاسن التأويل، القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- مدخل لمعرفة الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٣م.
- المرأة المسلمة، وهبي سليمان غاوجي، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- المرأة والولاية، د. طه الدسوقي حبيشي، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- [illegible]، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- لمحات معاصرة عن التاريخ الإسلامي، محمد ياسين مظهر صديقي، ترجمة د. سمير عبد الحميد إبراهيم، رابطة الجامعات الإسلامية، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- وظيفة الدين في الحياة، د. محمد الزحيلي، جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط٢، ١٩٩٩م
- وهي تبني صرح الروح، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد ٦، السنة الثانية، يناير - مارس ٢٠٠٧م